سلسلة القرآن في الدراسات الغربية
١٦

موريس بوكاي والقرآن الكريم

نحو قراءة توفيقية بين النص والمعطى العلمي

دراسة تحليلية نقدية

د. محمود كيشانه

العتبة العباسية المقدسة
المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية

العتبة العباسية المقدسة
المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية

سلسلة القرآن في الدراسات الغربية ١٦

موريس بوكاي والقرآن الكريم

نحو قراءة توفيقية بين النص والمعطى العلمي

دراسة تحليلية نقدية

د. محمود كيشانه

كيشانة، محمود ، مؤلف.
موريس بوكاي والقرآن الكريم : نحو قراءة توفيقية بين النص والمعطى العلمي : دراسة تحليلية نقدية / د. محمود كيشانه :- الطبعة الأولى.-النجف، العراق.-العتبة العباسية المقدسة، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، ١٤٤٤ هـ. = ٢٠٢٣.
٤٤٠ صفحة ؛ ٢٤ سم.-(سلسلة القران في الدراسات الغربية : ١٦)
يتضمن إرجاعات ببليوجرافية : صفحة ٤٢١-٤٤٠
ردمك : ٩٧٨٩٩٢٢٦٨٠١٤٩
١. بوكاي، موريس، 1920-1998. القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة. ٢. بوكاي، موريس، 1920-1998-- آراء حول القرآن. ٣. الديانات المقارنة. ٤. الكتب السماوية. ٥. الاستشراق والمستشرقون. أ. العنوان.

LCC : BL80.3.B83 K57 2023
مركز الفهرسة ونظم المعلومات التابع لمكتبة ودار مخطوطات العتبة العباسية المقدسة
فهرسة اثناء النشر

سلسلة القرآن في الدراسات الغربية

موريس بوكاي والقرآن الكريم

نحو قراءة توفيقية بين النص والمعطى العلمي

دراسة تحليلية نقدية

د. محمود كيشانه

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة المركز.. ٧
مقدّمة المؤلف.. ٩
تمهيد..١٣

الباب الأول: قراءة بوكاي للنصّ القرآنيّ.. من المفهوم إلى المنهج

❋ الفصل الأوّل:

مفهوم قراءة بوكاي التوفيقيّة ومكانتها وروافدها ٣١

❋ الفصل الثاني:

منهجيّة موريس بوكاي في دراسة القرآن الكريم ٤٥

الباب الثاني: قراءة النصّ القرآنيّ والنقد العلميّ

❋ الفصل الأول:

مرتكزات القراءة عند بوكاي..................................٨٣

❋ الفصل الثاني:

علميّة القرآن الكريم..١٢٥

الباب الثالث: قراءة النصّ القرآنيّ والنقد التاريخيّ

❋ الفصل الأول:

الطوفان والنقد التاريخيّ ٢٤٧

❋ الفصل الثاني:

خروج موسى والدلائل التاريخيّة ٢٦٣

الباب الرابع قراءة بوكاي.. وأصل الإنسان

⁂ الفصل الأول:

بين التطوّر الطبيعيّ الداروينيّ والتطوّر الخلّاق البوكابيّ ٢٩٥

⁂ الفصل الثاني:

من أصل الحياة إلى أصل الإنسان ٣١١

⁂ الفصل الثالث:

نقد مباني نظريّة التطوّر الداروينيّة ٣٤٩

الباب الخامس القراءة العلميّة للقرآن الإيجابيّات والسلبيّات

⁂ الفصل الأول:

قراءة بوكاي من القرآن إلى الحديث ٣٦٧

⁂ الفصل الثاني:

القراءة العلميّة للقرآن الإيجابيّات والسلبيّات ٣٩١

مقدّمة المركز

الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وعلى آله الطيبين الطاهرين، وبعد...

تتنوّع مشارب المستشرقين وخلفيّاتهم في دراسة التّراث العربيّ بشكل عام، والتّراث الإسلاميّ بشكل خاص، وما يتعلّق بالقرآن الكريم بشكل أخص، بين من يستند إلى خلفيّات أيديولوجيّة وفلسفيّة في البحث ومحاكمة فكر الآخر ومعتقداته وفق ما يحمله من فكرٍ وثقافة، وهذا غاية التطرّف واللّاعلميّة في دنيا البحث العلمي. وبين من يُقارب فكر الآخر الدينيّ والعام بموضوعيّةٍ خالصةٍ بغضّ النّظر عن قدسيّة فكر الآخر أو عدم قدسيّته. في حين تتعامل شريحةٌ ثالثةٌ مع فكر الآخر -لا سيما الديني منه- مراعيةً مكانة هذا الفكر ومنزلته عند أهله وأصحابه، وبعض هذه الفئة الأخيرة من المستشرقين اعتنق الدين الإسلاميّ نتيجة منهجيّته وطريقته الموضوعيّة والشفافة في البحث العلمي البعيد عن الخلفيّات والأحكام المسبقة...

ويظهر أنّ المستشرق الفرنسيّ موريس بوكاي (Maurice Bucaille) من هذه الفئة الثالثة، وإن كنّا لا نتوافق معه في الكثير مما توصّل إليه. ولهذا تمّت مناقشة العديد من أفكاره في هذا الكتاب...، إذ يصرّح بوكاي في حديثه عن منهجيّة عمله في دراسة القرآن الكريم: "لقد قمت أولاً بدراسة القرآن الكريم، وذلك دون أي فكر مسبق وبموضوعيّة تامّة، باحثًا عن درجة اتّفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث. وكنت أعرف -قبل هذه الدراسة،

وعن طريق الترجمات- أنّ القرآن يذكر أنواعًا كثيرةً من الظواهر الطبيعيّة، ولكن معرفتي كانت وجيزة. وبفضل الدّراسة الواعية للنصّ العربيّ استطعتُ أن أحقّق قائمة، أدركت بعد الانتهاء منها أنّ القرآن لا يحتوي على أيَّة مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث"[1].

وفي سياق حديثه عن نفي إشكاليّة المستشرقين الكبرى المتعلّقة بإنسانيّة مصدر القرآن، يقول موريس بوكاي أيضًا: "إنَّ أوّل ما يُثير الدهشة في روح من يواجه نصوص القرآن لأوّل مرة، هو ثراء الموضوعات العلميّة المعالجة...، لا نكتشف في القرآن أيَّ خطأ، ولو كان قائل القرآن إنسانًا، فكيف يستطيع في القرن السابع أن يكتب حقائق لا تنتمي إلى عصره؟!"[2].

وتكمن أهمّيّة هذا الكتاب الذي يُعالج جانبًا من أطروحة موريس بوكاي حول العديد من القضايا الخاصّة بالقرآن الكريم، في كونه يُعالج إحدى القراءات الاستشراقيّة الجادّة، التي تتعامل مع القرآن الكريم بمنهجيّة مغايرة لعدد كبير من المستشرقين في موقفهم من القرآن، تلك المنهجيّة التي انبنت على موضوع القرآن ومدى توافقه مع العلم الحديث، وقد قدّم بوكاي العديد من الشواهد حول هذا الموضوع.

الحمد لله ربّ العالمين

المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجيّة

---

[1]- موريس بوكاي: القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، ص١٥٠.

[2]- موريس بوكاي: دراسة الكتب المقدسة على ضوء المعارف الحديثة، ص١٤٥.

لا شكّ في أنّ المستشرق الفرنسيّ موريس بوكاي واحد من أولئك المستشرقين الذين اتّبعوا منهجيّة علميّة صارمة قادت إلى الانتهاء إلى مجموعة من الاستنتاجات والحقائق المتعلّقة بالقرآن الكريم في علاقتها بالعلم الحديث مقارنةً بالتوراة والإنجيل، تلك الاستناجات والحقائق التي وقف الدارسون والباحثون أمامها طويلًا. ويهمّنا هنا في هذا الكتاب الوقوف على القراءة العلميّة التي قدّمها المستشرق والطبيب موريس بوكاي حول القرآن الكريم، وما الذي يمكن أن تضيفه هذه القراءة للدراسات القرآنيّة والاستشراقيّة.

أهمّيّة الموضوع

لا يخفى على المتأمّل فيما كتبه المستشرق موريس بوكاي في كتاب التوراة والإنجيل والقرآن والعلم الحديث ما يشعّ به منهجه من نقد منهجيّ تاريخيٍّ للقضايا التي يعالجها بالدراسة، وهو من المناهج المهمّة تزيد من أهمّيّة هذه الدراسة.

كما أنّ طبيعة القضايا التي تعالجها هذه القراءة العلميّة للقرآن عند موريس بوكاي تؤكّد على أهمّيّة هذا الموضوع، فقد تناول قضيّة أصالة القرآن من حيث نزوله وتدوينه وشروط كتابة الوحي وجمع القرآن. كما تناول قضيّة نشأة الكون، وقضيّة الفلك والقرآن، وقضيّة الأرض وما يحيط بها من ظواهر، وقضيّة عالم النبات والحيوان، وأصل الإنسان.

وتبدو قضيّة الإعجاز العلميّ والتاريخيّ التي كشف عنها موريس بوكاي من القضايا التي تدعو إلى هذا الموضوع، وتعدّ في الوقت نفسه هدفًا من أهداف

هذه الدراسة. فقد طرح للنقاش العلميّ العديد من مظاهر الكون في الآيات القرآنيّة، التي تكشف عن إعجاز قرآنيّ سبق به بوكاي العديد من الدارسين في هذا المجال.

الدراسات السابقة

الدراسات حول موريس بوكاي معدودة، في حين أنّ فكر الرجل يحتاج إلى العديد من الدراسات، خاصّة في جهوده المقارنة بين الروايات التوراتيّة والروايات القرآنيّة وجهوده العلميّة والتاريخيّة، ومن ثمّ فإنّنا نقف هنا عند ثلاث دراسات علميّة حول موريس بوكاي، وهي:

- كتاب موريس بوكاي للأستاذ الدكتور محمّد عبد الله الشرقاوي، طبعة المركز الثقافيّ للكتاب، الطبعة الأولى، ٢٠٢١م. تناول فيه بعضًا من حياته وإنجازاته، ونقده لعداوات الغرب مع الشرق، والتجهيل المتعمّد للإسلام، والمنجز العلميّ لبوكاي وكتابه الظاهرة، وتفسيره للخصومة بين العلم والدين في الغرب، كما تناول الأسس المنهجيّة في دراسته للقرآن ونماذج من تأمّلاته، إضافة إلى مناقشة محاضرة بوكاي في أكاديميّة الطب الفرنسيّة، فضلًا عن قضايا: بوكاي والفراعنة، ونقده لنظريّة التطوّر، وبوكاي بين دارسيه ومنتقديه، عارضًا لنصوص من أقواله.

- بحث المنهج البوكايي في إثبات ربّانيّة القرآن في ضوء العلم.. دراسة في الفكر العلميّ لموريس بوكاي للدكتور إلياس دكّار، والبحث كان منصبًّا على الوقوف على منهج بوكاي في دراسة القرآن الكريم، وهو المنهج التاريخيّ المقارن الذي انتهى من خلاله إلى الحقائق التاريخيّة في القرآن الكريم.

- وبحث عادل عباس النصراوي، محتوى النصّ القرآنيّ في فهم المستشرقين، مجلّة دراسات استشراقيّة، السنة الثالثة، شتاء ٢٠١٦م. والذي تطرّق فيه إلى العديد من أفكار بوكاي العلميّة حول القرآن في طور مقارنتها بالروايات التوراتيّة.

وتناولت هذه الدراسات الثلاث فكر الرجل، فمنها ما تناوله بصورة كلّيّة كالدراسة الأولى التي اهتمّت بدراسة فكر الرجل في كلّيّته، ومما اهتمّت به بالطبع قضيّة موقفه

من القرآن ومنهجه في دراسته، لكن دون التوسّع فيها، لكن الدراسة تعطينا إشارات مضيئة في فهم الرجل وموقفه من القرآن ومنهجيّته وتأثيره، وهي دراسة تتميّز بالجديّة والعمق والصرامة العلميّة، ولا تميل إلى التفصيلات، فضلًا عن أنّها تعدّ إضافة ضروريّة للمكتبة العربيّة بعامّة والمكتبة الاستشراقيّة خاصّة. في حين كانت الدراسة الثانية منصبّة على جانب من الموضوع الذي نحن بصدده، لكنّها كانت دراسة غير موسّعة؛ فقد كانت بحثًا تناول قضيّة المنهج عند بوكاي في موقفه من القرآن الكريم، بيد أنّها دراسة لا تخلو من الجدّيّة والعمق. أمّا الدراسة الثالثة فقد وقفت عند قضيّة الطوفان، مستشهدة بآراء بوكاي في القضيّة وأثره في بيان تأكيده على المصدريّة الإلهيّة للمحتوى القرآنيّ.

وباستثناء هذه الدراسات فإنّنا لا نجد دراسة موسّعة انصبّت على القراءة العلميّة للقرآن الكريم عند موريس بوكاي بكلّ تفصيلاتها، وهذا ما تحاول دراستنا هنا أن تقوم به؛ إذ إنّها تحاول تناول القضايا بكلّ أبعادها ومن جوانبها كافّة، محاولين الوقوف على موقف الرجل ومنهجه، وكيف كانت آراؤه علميّة تستند إلى العلم وتتمسّك بأهدابه في بيان المصدريّة الإلهيّة لمحتواه عند مقارنته التاريخيّة بين الروايات القرآنيّة والروايات التوراتيّة، وهنا تكمن أهمّيّة الموضوع.

إشكاليّة الدراسة

للدراسة عدّة إشكاليّات تحاول الإجابة عنها في سبيل بيان منهج موريس بوكاي في قراءة نصّ القرآن الكريم، ويمكن بيان هذه الإشكاليّات على النحو التالي:

أوّلًا: مَن موريس بوكاي؟ وماذا تقدّم لنا نشأته وحياته؟ وما جهوده العلميّة؟ وهل تقدّم لنا ما يستحق دراسته في هذا الكتاب؟

ثانيًا: ما طبيعة القراءة التي قدّمها حول النصّ القرآنيّ وما مقصودها؟ وهل هناك قراءات غير علميّة في دراسة الاستشراق للقرآن الكريم؟ وما روافد هذه القراءة؟ وماذا قدّم لنا موريس بوكاي من خلالها؟

ثالثًا: ما المنهجيّة العلميّة التي اتبعها هذا المستشرق في دراسته للقرآن الكريم

والكشف عن مضمونه ومحتواه وتأكيد مصدريته الإلهيّة؟ هل كان للمنهج التاريخيّ والمنهج المقارن بروز واضح في هذه الدراسة؟

رابعًا: ما جهود موريس بوكاي في تأكيد أصالة القرآن من حيث نزوله وتدوينه وشروط كتابة الوحي وجمع القرآن. وكيف أثبت علميًا قضايا: نشأة الكون، الفلك والقرآن، الأرض وما يحيط بها من ظواهر، علم النبات والحيوان التي وردت في القرآن الكريم؟

خامسًا: هل تعدّ دراسة موريس بوكاي، خاصّة في كتابه التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، من باب الإعجاز العلميّ؟ وهل سبق بها دراسي هذا الباب وباحثيه؟

سادسًا: ما موقع قضيّة أصل الإنسان في مشروع بوكاي حول قراءته للقرآن؟ وهل يسير موقف بوكاي فيها في الاتجاه العام نفسه الذي تقوم عليها هذه القراءة؟

سابعًا: ما الحقائق العلميّة والتاريخيّة التي انتهت إليها القراءة العلميّة للقرآن عند بوكاي؟ وما تأثيراتها الإيجابيّة؟

منهج الدراسة

نحاول في هذه الدراسة الجمع بين عدّة مناهج، بغية الوصول إلى موقف بوكاي وقراءته للقرآن، كالمنهج التحليليّ الذي يقوم على تحليل هذه القراءة والوقوف عند تفصيلاتها واستخلاص النتائج منها، والمنهج المقارن الذي يكشف عن الاختلاف في قراءة بوكاي للقرآن عن غيره من المستشرقين، والمنهج النقديّ وفق أساس دينيّ وعقليّ.

المؤلِّف

موريس بوكاي..
نشأته وحياته وجهوده العلميّة

موريس بوكاي (Maurice Bucaille) (١٩ يوليو ١٩٢٠ - ١٧ فبراير ١٩٩٨م) مستشرق فرنسيّ وطبيب، وُلد في مدينة بون ليفيك شمال غرب فرنسا، وقد نشأ نشأة كاثوليكيّة؛ حيث تلقّى تعليمه في مدرسة كاثوليكيّة حتى المرحلة الثانويّة. عمل موريس بوكاي بوظيفة الطبيب الشخصيّ للملك فيصل بن عبد العزيز، وربما كان لذلك أثر كبير في اقترابه من الإسلام وأهله؛ ما مكّنه من تكوين صورة صحيحة عنه مخالفةً لتلك الصورة التي كوّنتها الأقلام الاستشراقيّة من قبل.

انتقل موريس بوكاي قبيل الحرب العالميّة الثانية إلى العاصمة الفرنسيّة باريس؛ كي يلتحق بمدرسة الطّب بجامعة العاصمة، وما لبث بعد انتهاء دراسته عام ١٩٤٥م أن عمل طبيبًا جرّاحًا بعيادة الجامعة في الأمراض الباطنيّة، وكان تخصّصه الدقيق في طبّ الأمعاء. وتقديرًا لتفوّقه في دراسته الأكاديميّة اختير على نحو متقطّع للعمل بالتدريس في الكلّيّة مدرسة الطبّ.

وقد قادته روحه العلميّة إلى الالتحاق بالجمعيّة الفرنسيّة للمصريّات في خمسينات القرن الماضي، وفيها درس اللغة الهيروغليفيّة، لغة قدماء المصريّين والحضارة المصريّة القديمة، وقد كان لذلك أثره الكبير في حياة بوكاي العلميّة؛ إذ كانت بداية اهتماماته بهذه الحضارة العريقة، وقد كانت له آراؤه واكتشافاته التي نالت شهرة وصيتًا كبيرًا شرقًا وغربًا.

ظلّ موريس بوكاي يمارس الطبّ في الستينات، وفي أواخرها عمد إلى دراسة اللغة العربيّة، فعاد إلى معهد اللغات الشرقيّة بجامعة السربون دارسًا، وظلّ يدرسها لمدّة أربع سنوات حتى أتقنها، وقد كان تعلّمه للّغة العربيّة المفتاح السحريّ الذي فتح له أبواب الشهرة العلميّة العالميّة التي نالها؛ إذ اهتمّ بدراسة القرآن الكريم، وتوصّل إلى نتائج مبهرة شكّلت، بمقاييس تلك الفترة، سبقًا علميًّا أثبت فيه المصدريّة الإلهيّة للقرآن الكريم.

وفي عام ١٩٧٤م اتّجه بوكاي إلى مصر لدراسة مؤمياء فرعون؛ إذ كان لديه مشروع علميّ للبحث عن حقيقة فرعون موسى في سفر الخروج، ذلك الفرعون الذي اضطهد موسى وآل فرعون، وأراد الفتك بهم لولا غرقه في اليم بقدرة الله تعالى، حفظًا لنبيه وإكمالًا لرسالة التوحيد. ثمّ انصبّت جهوده على مومياء رمسيس الثاني وابنه مرنبتاح، ويُقال إنّ لعلاقته بالرئيس السادات وحرمه الدور الأكبر الذي سهل له البدء في هذا المشروع حتى الانتهاء منه.

في عام ١٩٧٦م ظهر كتاب بوكاي سالف الذكر إلى النور محدثًا دويًّا عالميًّا؛ نتيجة الأفكار والنتائج الجديدة، وكذلك المنهجيّة التي اتّخذها في هذا الكتاب، وهي تخالف منهجيّات استشراقيّة عديدة سابقة عليه، وهي المنهجيّة التي صارت مجالًا للدراسة حتى الآن بين مؤيّد لها ومعارض، ففي الوقت الذي وصف فيه بعض الباحثين هذه المنهجيّة بالموضوعيّة والعلميّة والتوافق مع معطيات العلم الحديث، انتقدها آخرون بدعوى غياب الموضوعيّة والعلميّة ومناقضتها للعلم في بعض المواضع. فقد «تلقّاه القرّاء باهتمام شديد؛ إذ تُرجم إلى أكثر من سبع عشرة لغة، وصدرت منه عشرات الطبعات».

ومع بداية الثمانينات -وتحديدًا في عام ١٩٨٢م- أغلق بوكاي عيادته الباطنيّة، وتفرّغ للبحث العلميّ ودراساته المقارنة بين الأديان، وهذا ما صنع منه المفكّرَ الذي نعرفه الآن، حتّى صار علامة على مدرسة البوكايية -نسبة إلى اسمه- وهي المدرسة التي تربط العلم الحديث بالدين وخاصّةً الدين الإسلاميّ.

١- جهوده العلميّة

يمكن القول إنّ جهود المستشرق موريس بوكاي كانت تنصب على جانبين مهمّين، وهما:

الأوّل: اهتماماته البحثيّة بالحضارة المصريّة القديمة، خاصّة فيما يتعلّق بفرعون وهامان وغيرهما، مما مكّنه من الوصول إلى نتائج تاريخيّة له قصب السبق فيها، ولقد ظهرت اهتماماته بالحضارة المصريّة القديمة منذ انضمامه إلى الجمعيّة الفرنسيّة للمصريّات التي تأسّست عام ١٩٢٣م، حيث تعلّم اللغة الهيروغليفيّة، فكانت تمثّل له الكنز الذي اغترف منه مكتشفات الحياة الفرعونيّة القديمة. «وشغف الفرنسيّين عمومًا بتاريخ المصريّين معروف، وقد ارتبط ذلك بإنجاز فرنسيّ عبقريّ هو قدرة شامبليون على فكّ رموز اللغة الهيروغليفيّة، أي لغة المصريّين القدماء، بعد أن قضى الإغريق والرومان عليها ومحوها من الوجود، واستبدلوا بها اللغتين الإغريقيّة ثمّ اللاتينيّة إبان احتلالهم لمصر والهيمنة عليها مدّة تجاوزت الألفيّة من السنين، كما كان للفرنسيّين ولع كبير بالكشف عن كنوز الحضارة المصريّة القديمة وآثارها المبهرة المذهلة، ونقل كلّ ما يقع تحت أيديهم إلى باريس، والاحتفاظ به في متحف اللوفر الشهير»[1].

هذا يعني أنّ جهود بوكاي في هذا الحقل كانت امتدادًا لتلك الجهود الفرنسيّة في الاهتمام بالمصريّات، وهي تلك الجهود التي افتتحها شامبليون بفكّه لرموز حجر رشيد.

الثاني، اهتماماته البحثيّة بقضيّة عرض معطيات التوراة والإنجيل والقرآن على العلم الحديث لبيان حظّها من العلميّة أو عدمها؛ وصولًا إلى نتيجة أعظم، وهي الكشف عن مصدريّة الكتب السماويّة، وخاصّة القرآن الكريم. وهذا الجانب يقدّم أفكارًا ونتائج تختلف بالكلّيّة عن الأفكار والنتائج الاستشراقيّة السابقة عليه في تناولها للقرآن الكريم ونصوصه التي تقدّم حقائق تاريخيّة وعلميّة في آن.

---

[١]- د. محمّد الشرقاوي، موريس بوكاي، الدار البيضاء/ المغرب، لبنان/ بيروت، المركز الثقافيّ للكتاب، الطبعة الأولى، ٢٠٢١م، ص١٤.

ويبدو أن بوكاي كان شغوفًا بهذا الجانب منذ الصغر؛ إذ يقول إنّه كان دائم التردّد على مكتبة مدرسته الكاثوليكيّة للقراءة في الكتاب المقدّس الذي لم يجد له نسخة كاملة في تلك المكتبة باستثناء بعض المختارات منه، بما يعني أنّه لم يكن مسموحًا بذلك، لست أدري لماذا؟ ولم يكن لبوكاي أن يدرك سبب ذلك، هذا الأمر أثار حفيظته بلا شكّ، وعندما سنحت له الفرصة الوقوف على نسخة كاملة فيما بعد استطاع أن يكوّن رأيًا في الكتاب المقدّس، واستطاع في الوقت ذاته أن يصل إلى النتائج التي وصل إليها.

لقد تطرّق بوكاي في هذا الجانب إلى موضوعات مهمّة، كالعهد القديم وأسفاره، واضعًا نصوصه على محك النقد العلميّ، خاصّة في حديثه عن تصوّر التوراة لقضيّة الطوفان ونشأة الكون، كذلك تطرّق إلى الحديث عن الأناجيل الأربعة ومصادرها وتاريخها، واضعًا نصوصها في ميزان العلم الحديث، مبيّنًا التعارض في روايات الكتاب المقدّس واستحالتها من الناحية العلميّة[1].

ومن أهمّ ما تطرّق له بوكاي في هذا الجانب قضيّة القرآن والعلم الحديث، بما تضمّنته من قضايا فرعيّة، مثل: أصالة القرآن، خلق السماوات والأرض مقارنةً مع معطيات العلم الحديث عن تشكّل الكون، علم الفلك في القرآن، الأرض، علم النبات والحيوان، مقارنًا بين الروايات القرآنيّة والروايات التوراتيّة، فضلًا عن قضيّة فرعون في القرآن، وقضيّة أصل الإنسان.

وهذه القضايا كلّها تعدّ بابًا رئيسًا فتح المجال للحديث عن إعجاز علميّ في القرآن، فكلّ القضايا التي ربط فيها بوكاي بين القرآن والعلم كانت تؤدّي مهمّتين أساسيّتين: تأكيد المصدريّة الإلهيّة للقرآن الكريم، بيان ما ينطوي على النصوص القرآنيّة من إعجاز علميّ، مع الاعتراف بأنّ بوكاي -في ظنّيّ- لم يكن يهدف إلى بيان إعجاز، ولكن هذا هو ما آلت إليه كتاباته وإنتاجه حول القرآن.

ولا نغفل الجانب اللغويّ في حياة المستشرق موريس بوكاي العلميّة، فقد كانت

[١]- موريس بوكاي: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، انظر على سبيل المثال: ص٤٣، ١٠٥.

من ضمن جهوده العلميّة، وساهمت في الوقت ذاته في بناء شخصيّته العلميّة، فقد تعلّم الرجل الإنجليزيّة والعربيّة، فضلًا عن لغته الأصليّة، وهذه اللغات كانت معينًا خصبًا له مكّنه من ولوج القضايا بكلّ ثقة وثبات، فقد قرأ القرآن في لغته العربيّة، ودرس الأدب، وقارن بين اللغة الفصحى في القرآن واللغة في الأدب الحديث، خاصّة في كتاب الأيّام باعترافه هو نفسه. يقول بوكاي: «اتّخذت القرار بدراسة اللغة العربيّة في باريس، كنت آنذاك في تمام الخمسين من عمري، كان الطلاب قادرين على قراءة المقاطع القرآنيّة التي تسهّل قراءتها نسبيًّا، مثل معظم آيات سورة البقرة، وكنّا في الوقت نفسه نقرأ في الأدب العربيّ الحديث، مثل كتاب الأيّام لطه حسين لكي نقارن بين اللغة العربيّة الفصحى والعربيّة الحديثة، كان هذا تمرينًا رائعًا اكتشفنا بعده أنّ لغة القرآن تعلو على أيّ مقارنة، عندما أنهيت دراستي أصبحت قادرًا -بفضل الله- على أن أقرأ القرآن بلغته... فعلت ذلك دون أيّ أفكار مسبقة»[1]. فهو كان يدرك أنّ اللغة العربيّة مهمّة للولوج إلى المصادر الأساسيّة مباشرة، دون مرجع كتابيّ وسيط أو مترجم وسيط قد يتدخّل بفكره وأيديولوجيّته في توجيه نصوص هذه المصادر، وهذا بالفعل ما لام عليه بوكاي عدداً من المستشرقين الذي وقفوا من القرآن موقفًا عدائيًا أثبته بوكاي بالدليل.

فإذا علمنا كلّ هذه الجهود أدركنا قيمتها في تشكيل هذه الشخصيّة الاستشراقيّة من الناحية العلميّة، وأدركنا في الوقت ذاته روح بوكاي العلميّة وصبرها ومثابرتها على العلم، واتّضحت لنا الأرضيّة الرصينة التي كان ينطلق منها.

٢- سعة الاطّلاع

لا شكّ في أنّ المستشرق موريس بوكاي كان يتّسم بسعة الاطّلاع، فقد كان منتميًا إلى صنف من العلماء الذين يوصفون بأنّهم متعدّدو الاهتمامات البحثيّة في جوانب علميّة متداخلة[2]. وهذا يظهر جليًّا للوهلة الأولى عند مطالعة أفكاره

[١]- انظر: الفيلم التسجيلي على الرابط التالي: https://www.youtube.com/watch?v=xQlqj٣bt٢Vc

[٢]- انظر: محمّد الشرقاوي، مرجع سابق، ص١٣.

وكتاباته، فقد كان طبيبًا ملمًّا بقسمٍ علميٍّ من أقسام الطبّ وهو قسم الأمراض الباطنيّة، وهذا حتمًا استدعاه للقراءة العميقة في هذا الباب وما يستدعيه ذلك من القراءة في أبواب طبّية أخرى، ظهر أثرها واضحًا في كتاباته الدينيّة، كما كان على اطلاع واسع بالكتب الدينيّة الثلاثة: التوراة والإنجيل والقرآن الكريم، وقد اتّضح هذا الاطلاع أكثر فأكثر من ملاحظة تعمّقه في قراءة نصوص هذه الكتب المقدّسة، وتحكيمها من ناحية معطيات العلم الحديث. ومن ثمّ فقد «كان لدراسته العلوم الطبيعية والتحاقه بكلّيّة الطب في باريس أثر كبير في السعي لإشباع شغفه القديم، في دراسته لأسفار العهدين القديم والجديد في ضوء معطيات العلم الحديث دراسة موضوعيّة مقارنة»[1].

فقد قرأ الرجل في بحوث العلم المختلفة -وهذا سيتّضح لنا جليًّا في تناوله لقضيّة القرآن والعلم الحديث في ما يرتبط بقضايا نشأة الكون وأطوار الجنين والنبات والحيوان وغيرها من الموضوعات القرآنيّة التي عالجها بالدراسة علميًّا- كعلم الفلك، وعلم الأجنّة، وعلم النبات، وعلم الحيوان، لكن من الواضح أنّ المستشرق موريس بوكاي اتخذ من سعة الاطلاع منطلقًا ينطلق منه لخدمة أهداف مشروعه العلميّ في تحكيم النصوص الدينيّة علميًّا للكشف عن مصدريّتها الحقيقيّة، هل هي علميّة أم إنسانيّة؟ وقد توصّل في هذا الشأن إلى نتائج أحدثت ضجّة كبرى في العالم أجمع.

ومن ثمّ فقراءة الرجل في مجالات العلم المتعدّدة مكّنته من صياغة مشروعه العلميّ الذي كان مدخله الرئيس سعة الاطلاع، فالرجل قرأ وتعمّق في قضايا علميّة وفق تخصّصه، وفي قضايا الدراسات الدينيّة، خاصّة في شقّها المقارن، وفهم النصوص الدينيّة جيّدًا، وبيّن الأخطاء العلميّة المتضمَّنة في الأسفار المقدّسة بدقّة وصرامة علميّة، كما أوضح التوافق الثابت بين القرآن والعلم الحديث.

فضلًا عن اطّلاعه على العلوم المصريّة واهتماماته الكبيرة في هذا الشأن؛ حيث

---

[١]- انظر: محمّد الشرقاوي، مرجع سابق، ص٣١.

كان شغوفًا بالتاريخ المصريّ القديم، خاصّة في بحثه الدائم عن فرعون الذي حكم أيام سيّدنا موسى عليه السلام في مصر، وما كان له أن يتعمّق في هذا التاريخ ما لم يكن ملمًّا باللغة الهيروغليفيّة.

فسعة الاطلاع نتجت عن شخصيّة ذات جوانب ثلاثة، أو لعلّه العكس لا ندري، «وهكذا تشكّلت الشخصيّة العلميّة ثلاثيّة الأبعاد لموريس بوكاي، فهو طبيب جرّاح نابه في جامعة السربون، وهو باحث مهتمّ بأسفار الكتاب المقدّس بعهديه: القديم والجديد التوراة والإنجيل، وهو دارس شغوف لتاريخ المصريّين القدماء وحضارتهم، وهو في كلّ ذلك يتكئ على حسّ عقليّ نقديّ أصيل، يأبى التقليد الساذج، ويدور مع البرهان حيثما دار به»[1].

٣- قضيّة الحلول الوسط

يظهر جليًّا رفض بوكاي للحلول الوسط، ليس لمجرّد كونه حلًّا وسطًا، فكثير من الحلول الوسط تكون مقبولة، لكنّه كان لا يريد أن يأتي الحلّ الوسط بديلًا عن الحلّ الحقيقيّ الواقعيّ رغبة في إرضاء أيٍّ من طرفي الخصومة العلميّة، أو خوفًا من التصريح به أمام رافضيه، ومن ثمّ فهو لا يؤمن بهذه الحلول العرجاء؛ ولعلّ حواره مع معلِّمه في المدرسة الكاثوليكيّة يعدّ أبلغ دليل على ذلك. فعندما أكّدت الاكتشافات العلميّة تاريخ بدء الحياة البشريّة، وهو التاريخ الذي يخالف ما ورد في الأسفار المقدّسة رفض ردّ أستاذه بأنّ الدين شيء والعلم شيء مختلف، وأنّه عندما يخالف العلم نصوص الأسفار القديمة، فإنّ النصوص على صواب والعلم على خطأ!! وهو ما رفضه بوكاي باعتباره حلًّا وسطًا لا يمكن الاقتناع به، ومن هنا بدأ رحلة بحثه عن الحقيقة[2].

ولو أراد بوكاي حلًّا وسطًا لذهب إلى توافق الأديان السماويّة الثلاث مع العلم، حتّى يرضي بذلك كلّ الأطراف، ولكنّه أبى إلّا أن ينصاع لأمانة البحث العلميّ التي

---

[١]- محمّد الشرقاوي، مرجع سابق، ص١٥.

[٢]- انظر: محمّد الشرقاوي، مرجع سابق، ص٣١.

أملت عليه التصريح بأنّ القرآن هو الكتاب السماويّ الذي يتوافق مع معطيات العلم الحديث، ومن ثم أثبت له المصدريّة الإلهيّة دون غيره من الكتب السماويّة التي بين أيدينا الآن[1].

إلّا أنّ بوكاي وقع في المحظور عندما تناول قضيّة أصل الإنسان بالدراسة، وهي القضيّة التي تناولها داروين في كتاب أصل الأنواع، مدّعيًا أنّ الإنسان ينحدر من سلالة القرود، وكان من المنطقيّ أن يميل بوكاي إلى الرأي المنطقيّ الذي يقدّمه القرآن الكريم لا إلى الفرضيّات التي لا دليل عليها، محاولًا إلصاقها بالقرآن في صورة فجّة من ليّ النصّ؛ إذ إنّه ادّعى تطوّرًا ما للإنسان، ثمّ قال إنّ هذا الادّعاء الأكبر مستفاد من القرآن، فكان موقفه هذا ميلًا منه إلى حلّ وسط لا يقدّم تفسيرًا أو إجابة لتلك القضيّة[2].

٤- الشكّ المنهجيّ في الآراء المتوارثة

وهي من أكثر السمات العلميّة ظهورًا في فكر المستشرق موريس بوكاي، حيث لم يكن ممّن يؤمنون بالأفكار الدينيّة أو التاريخيّة المتوارثة لمجرّد قدمها، أو باعتبار أنّ الأسفار القديمة قد أتت بكلّ شيء ولم تترك لنا شيئًا، وإنّما كان منهجه أنّ هذه الأسفار قد تركت لنا كلّ شيء، وقد جعلته نظرته هذه يقلب جميع القضايا التي تعرّض لها، حتى تلك التي قد يظنّ معها أنّها أصبحت من الحقائق الراسخة، مما يعني أنّه كان لديه شكّ منهجيّ يبحث عن معرفة الصدق في القضايا دون الركون إلى رأي القدماء.

مثلما يظهر شكّه المنهجيّ في كتاباته الدينيّة -وهذا ما سوف نتناوله بالتفصيل في هذا الكتاب-، فقد كان يظهر أيضًا في دراساته التاريخيّة، فقد رفض أن يكون رمسيس الثاني هو فرعون موسى، وذلك بناءً على شكّ منهجيٍّ، معارضًا بذلك العديد من الباحثين والدارسين للحضارة المصريّة القديمة، وإنّما كان يرى بناءً على شكّه هذا

[١]- موريس بوكاي: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص٤٩.

[٢]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، المكتبة العلميّة، بدون تاريخ، ص١٣٠.

أن فرعون موسى هو مرنبتاح بن رمسيس الثاني، وقد ظهر ذلك أيضًا فيما كتبه عن هامان رئيس طائفة البنّائين بالأحجار في العصر الفرعونيّ القديم[1].

كذلك نجده قد مارس هذا الشكّ المنهجيّ في قضيّة الخروج، أي خروج موسى من مصر في التوراة وفي القرآن، عارضًا للمتّفق والمختَلَف عليه بين الروايتين بصورة منهجيّة راقية سوف نتناولها في موضعها من الكتاب في الصفحات القادمة[2]، كذلك نجدها في قضيّة الطوفان أيّام سيّدنا نوح؛ حيث عرضها في إطار الشكّ المنهجيّ؛ بحيث انتهى من خلاله إلى صدق الرواية القرآنيّة في القضيّتين واتفاقهما مع معطيات العلم والتاريخ، بخلاف الرواية عنهما في الأسفار المقدّسة[3].

نحن إذن أمام عمليّة من الشكّ المنهجيّ التي لا تسلّم بكلّ ما تقدّمه النصوص إلّا من خلال دراستها الدراسة العلميّة التاريخيّة المقارنة التي نستطيع من خلالها الحكم على صدقها من عدمه. وهذا يعني أنّ كلّ النصوص المقدّسة كانت أمام بوكاي على حدٍّ سواء، وخضعت للشكّ المنهجيّ الدقيق، فلم تمنعه خلفيّته المسيحيّة من الشكّ المنهجيّ في نصوص أسفار الأناجيل والنظر إليها على أنّها نصّ يجب التأكّد من صدقه أو خطئه، وموافقة للعلم الحديث من عدمه. وهذا ما أظنّ أنّ المستشرق موريس بوكاي قد نجح فيه إلى حدّ بعيد يمكن من خلاله الحكم على تجربته في إخضاع النصّ الديني لميزان العقل بأنّها تجربة رائدة، والحكم على مشروعه بأنّه مشروع هادف قاد إلى الكثير من الحقائق التي أبرزت الوجه الحقيقيّ للإسلام في الغرب بعد حملات التشويه من قبل العديد من المستشرقين والدارسين.

٥- الإيمان بالحقيقة العلميّة

كان لدى موريس بوكاي إيمان حقيقيّ بالعلم ومعطياته، وتعدُّ حياته تعبيرًا

[١]- موريس بوكاي: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص٢٦٣-٢٦٤ وما بعدها.

[٢]- م.ن، ص٤٣، ١٠٥.

[٣]- م.ن، ص٤٩.

حقيقيًّا عنه، فهو يحكي في فيلم تسجيليّ على شبكة الإنترنت في حوار مع عددٍ من العلماء والأطبّاء في شيكاغو بأمريكا عن بعضٍ من حياته وجهوده العلميّة، وذلك في جلسة غير رسميّة عام ١٩٨٧م، إذ عندما كان طالبًا في المدرسة الكاثوليكيّة، وتحديدًا في الخامسة عشرة من عمره بدأت رحلته مع الشكّ، حيث يقول:

«في عام ١٩٣٥م كنت في الخامسة عشر من عمري، طالبًا في مدرسة مسيحيّة، وفي تلك الفترة ظهرت اكتشافات بالغة الأهمّيّة لرسوم بشريّة في كهوف جنوب أسبانيا، وأرجع خبيرٌ تاريخها إلى حوالي ١٥٠٠٠ عام، بينما جاء في الكتاب المقدّس الذي كنّا ندرسه أنّ تاريخ ظهور الإنسان الأوّل على الأرض يرجع إلى حوالي ٤٠ قرنًا قبل المسيح. سألت الأب معلّمي: أي التاريخَيْن أصدق؟

أجاب الأب بقوله: لا لا.. من فضلك لا تخلط بين شيئين مختلفين، هناك العلم في جانب، وهناك الدين في جانب آخر، فإذا وقع تعارض بينهما، فإنّ ما يقوله الدين هو الحقيقة.

قلت له: هذا مستحيل! فأمامنا حقيقة علميّة مبرهَنٌ عليها، وبالتالي لا يمكن إرجاع تاريخ الإنسان الأوّل إلى ما يقوله الكتاب المقدّس، هذا مستحيل.

لقد تمّ تلقيننا في المدرسة -والكلام لا زال لبوكاي- أنّ الدين يقول شيئًا، بينما يقول العلم شيئًا آخر.

قلت لنفسي: هناك خطأ ما!»[1]

وهذا يقودونا إلى شيء من الأهمّيّة بمكان، وهو أنّ موريس بوكاي يؤمن بالحقيقة العلميّة المبنيّة على دليل علميّ، ورفض كلّ ما عداها، وهذا يتّضح من رفضه للمعلومات التي تقدّمها الكنيسة في الكتاب المقدّس، على الرغم من خلفيّته المسيحيّة وحياته التدريسيّة الدينيّة في مدرسة كاثوليكيّة.

كما أنّه يقودنا إلى أنّ الدليل هو الأساس في هذه الحقيقة، فالمعلّم في المدرسة

[١]- انظر: الفيلم التسجيلّي على الرابط التالي: https://www.youtube.com/watch?v=xQlqj3bt2Vc

الكاثوليكيّة لم يقدّم لبوكاي دليلًا، فكلامه كان يفتقر إلى وجود الدليل، وإنّما كان يبني أحكامه على غير دليل، وهذا ما رفضه بوكاي بحسّه النقديّ والعقليّ، خاصّة أنّ الكتاب المقدّس ذاته قد أكد أنّ تاريخ البشريّة بدأ قبل المسيح بـ٧٦ جيلًا، الأمر الذي يعني عنده ٢٠٠٠ عام. وهذا ما يتناقض مع الاكتشاف العلميّ، كما يتناقض مع ما تقدّمه الكنيسة ذاتها من أنّ تاريخ البشريّة قبل الميلاد يساوي ٤٠٠٠ عام.

لكن الحقيقة العلميّة عند بوكاي لا تعني رفض الدين أو التقليل منه أو تغليب العلم عليه، فكل هذا غير صحيح، ولكنّها تعني أنّ وجود الدليل هو الأساس، فإذا كان الدليل مع الدين فإنّه بذلك يمتلك الحقيقة، أمّا إذا لم يكن يمتلك الحقيقة، فإنّ بوكاي كان يرفضه، وهذا ما حدث في موقفه من الكتاب المقدّس..

ولعلّ المتأمّل في إنتاج موريس بوكاي يجد أنّ الذي كان يقوده هو روحه العلميّة لا الدينيّة، بمعنى أنّه لم يدرس القرآن من منظور دينيّ، ولكنّه درسه من منظور علميّ، وهذه الناحية المنهجيّة يعبّر عنها في دراسته للقرآن بقوله: «لا يظنّن أحد على الإطلاق أنّ الإيمان بالإسلام كان هو الأساس الذي انطلقت منه دراساتي القرآنيّة، ليس ذلك على الإطلاق، بل الدراسة العلميّة الخالصة وحدها هي التي أكّدت لي استحالة أن يكون القرآن من تأليف إنسان، يداخلك شعور فظيع وأنت في الخمسين من عمرك حين تقول لنفسك: ربما كنت مخطئًا تمامًا في استنتاجاتي الخاصّة بالكتب المقدّسة، هذا شعور فظيع! ولهذا فإنّ كلّ ما أردته هو أن أستزيد من معرفتي بالقرآن، دون أن أحدّد مسبقًا أيّ هدف على الأطلاق»[1]. ومن ثمّ نفهم أنّ المستشرق موريس بوكاي طرح كلّ فكرة سابقة جانبًا، ولم يعر المعارف السابقة لديه أيّ اهتمام، وتبرّأ من كلّ معرفة سابقة له، وقرأ القرآن مجرّدًا من الأهواء أو التوجّهات أو الأيديولوجيّات. ومنهجه هنا ليس فيه شيء من المنهج الشكّيّ الذي كان يشكّ في القرآن بناء على تصوّرات سابقة في ذهنيّةِ الكثير من المستشرقين، فقد كانوا يقرأون القرآن بناءً على تصوّراتهم السابقة ومعارفهم التي

[١]- انظر: الفيلم التسجيلي على الرابط التالي: https://www.youtube.com/watch?v=xQlqj3bt2Vc

كوّنوها من مستشرقين سابقين عليهم يعتري آراءهم الكثير من العوار. وموقف بوكاي هنا هو الموقف العلميّ السليم؛ إذ إنّ من أدبيّات البحث العلميّ النزيه طرح كلّ فكرة مسبقة حول موضوع الدراسة، بحيث لا تؤثّر على توجّه الباحث في بحثه، ولا تقود إلى نتائج بعينها.

يقول: «في البداية لم أعتقد مطلقًا في حقيقة أنّ القرآن قد يكون كلمة الله ووحيه، لاحظت وجود كمٍّ كبير من الآيات المحمّلة بالإشارات العلميّة، وفي النهاية جمعت ما بين ١٥٠ إلى ٢٠٠ آية، وقمت بتبويبها وفقًا لعلوم متعدّدة، وتملّكتني دهشة عظيمة، وقلت لنفسي حينها: إنّه بالنظر إلى تاريخ العلوم يبدو لي أنّه من المستحيل أن يكون إنسان قد كتب هذا منذ حوالي ١٤ قرنًا»[1].

وهذا يفسّر لنا لماذا انتقد المسيحيّة، وهي ديانته التي تربّى عليها وترعرع في كنفها وتشبّع بتعاليمها، فرفض ما ذهب إليه دارسو الأناجيل من أنّه تمّ الإيحاء بالتعاليم الدينيّة لمؤلّفي الأناجيل، مؤكّدًا على أنّ الحقيقة التي لا جدال فيها وهي الحقيقة العلميّة الثابتة، أنّهم كتبوها وفق الأفكار والخرافات والأساطير الشائعة في عصرهم[2].

٦- جهوده في دراسة الكتاب المقدّس

انصبّت جهود المستشرق موريس بوكاي بالأساس على دراسة الكتب السماويّة الثلاثة، وقد وقف كثيرًا عند الكتاب المقدّس بعهديه: القديم والجديد، وقدّم جهودًا كبيرًا في هذا المجال، وبيّن العديد من الحقائق. وقد كانت دراسة بوكاي تهتمّ في المقام الأوّل ببيان مدى توافق نصوص الكتاب المقدّس مع العلم الحديث، فكان دائمًا يبحث متسائلًا: هل هناك توافق بينها وبينه؟! أم هناك تنافر يمكن أن تُبنى عليه الكثير من النتائج والحقائق؟!

وقد انتهى بوكاي من تلك المقارنة إلى حقيقة مصدريّةِ نصوص الكتاب المقدّس،

[١]- انظر: الفيلم التسجيلّي على الرابط التالي: https://www.youtube.com/watch?v=xQlqj3bt2Vc

[٢]- انظر: الفيلم التسجيلّي على الرابط التالي: https://www.youtube.com/watch?v=xQlqj3bt2Vc

حيث انتهى دون مواربة منه إلى بشريّة هذا المصدر؛ نتيجة المخالفات العلميّة التي تتصمنها، والتي تحكم في النهاية بأن الكتاب ذا المصدريّة الإلهيّة ليس مخالفًا بحال للمعطيات العلميّة الحديثة، وأنّ الكتاب الإلهيّ يقدّم على الدوام إشارات تتوافق مع الاكتشافات العلميّة الحديثة في الماضي والحاضر والمستقبل.

وقد كانت جهود بوكاي فيما يتعلّق بالكتاب المقدّس منصبّة على الموضوعات الآتية:

- أسفار العهد القديم.
- تأمّلات العهد القديم في ضوء العلم الحديث.
- الطوفان.
- الأناجيل الأربعة.. مصادرها وتاريخها.
- الأناجيل والعلم الحديث.
- تضادّات روايات الكتاب المقدّس واستحالتها.

وقد عوّل بوكاي وهو بصدد مشروعه الفكريّ الذي سُمّي فيما بعد بالبوكايبة على أسفار العهدين باعتبارها تقدّم له مادّة دسمة في مشروعه الخاصّ عن القرآن الكريم، من باب «وبضدها تتميز الأشياء». وقد وقف كثيرًا عند قضيّة الطوفان؛ كونها تلبي له هذا المطلب، على أساس أنّ المعلومات التي يقدمها النصّ التوراتيّ القديم عنها يختلف مع المعارف الحديثة، والتي وثّقها بوكاي بالدليل، وقد احتلّت هذه القضيّة مساحة كبيرة في جهد بوكاي وفكره، حتى أنّها تعدّ محورًا رئيسًا من محاور مشروعه، والتي بنى عليها الكثير. وما فعله بوكاي مع نصوص العهد القديم، فعله كذلك مع نصوص العهد الجديد، خاصّة في مقارنته بين الأناجيل والعلم الحديث.

ولقد كانت النتائج التي انتهى إليها بوكاي فيما يتعلّق بالكتاب المقدّس مخالفةً

لتلك النتائج التي قدّمها وهو بصدد مشروعه حول القرآن والعلم الحديث، وهي النتائج التي أظهرت للغرب الوجه الحقيقيّ للإسلام عامّة والقرآن خاصّة، في بيئة كانت تكيل الاتّهامات الباطلة لكليهما.

٧- جهوده في دراسة القرآن

لا شكّ في أنّ لبوكاي جهوده في دراسة القرآن الكريم، فالرجل درس القرآن على عدّة أصعدة: فتناول أصالته وتدوينه، مؤكّدًا على مصدره الإلهيّ، ونفى أيّ تدخّل بشريّ فيه، مستدلًّا على ذلك بتلك الحقائق العلميّة المتضمَّنة فيه التي كشف عنها العلم الحديث. وقد تناول بوكاي العديد من القضايا القرآنيّة ذات الإشارات العلميّة، وهذا ما ألزم به نفسه، فالمعوَّل عليه عنده هو تلك الآيات القرآنيّة ذات الإشارات العلميّة، ومن هذه القضايا: قضيّة خلق العالم، قضيّة خلق الإنسان، عالم النبات والحيوان وغيرها من القضايا التي جعلها محورًا لمشروعه حول القرآن.

لكنّ جهوده في القرآن لم تكن لتبرز دون مقارنة رواياته بالروايات التوراتيّة في العديد من القضايا المشتركة والتي أثبت من خلالها بوكاي أنّ روايات القرآن تتوافق مع المعطى العلميّ والمعارف الحديثة، في حين لا تتوافق الروايات التوراتيّة لا مع المعطى العلميّ ولا مع المعارف الحديثة، وهو الأمر الذي قاده دون شكّ إلى الإقرار بالمصدريّة الإلهيّة للقرآن، وبالتدخّلات البشريّة في الروايات التوراتيّة، ولا شكّ أنّ هذا ساهم في درء التشويه المتعمَّد وغير المتعمَّد تجاه الإسلام والقرآن خاصّة في الغرب.

٨- تحكيم النصوص الدينيّة علميًّا

لقد وجدنا في مشروع بوكاي أسلوبًا جديدًا غير مألوف في تلك الفترة من النصف الثاني في القرن العشرين، وهو الأسلوب الذي يجعل العلم حكمًا على النصّ، فإن كان متوافقًا مع العلم، فهو مقدّس ذو مصدريّة إلهيّة، وإن كان غير ذلك فهو تعبير عن تدخّل اليد البشريّة فيه. وعلى الرغم من أنّ هذا العلم لا يصحّ أن يكون حكمًا على كتاب الله تعالى، كون بعض النظريّات العلميّة نسبيّة،

وكون القرآن يحتوي على إشارات علميّة لم يصل فيها العلم لشيء إلى الآن، فكيف يُتخذ من العلم حكمًا عليه؟! ثمّ إنّ كلام الله تعالى مصدَّق على الدوام ولا يخضع للحكم عليه من أيّ شيء، إلّا أنّه قاد في مشروع بوكاي إلى نتائج تخدم القرآن خاصّة والإسلام عامّة.

ولكن كيف كان بوكاي يحكِّم النصوص علميًّا؟! كان لبوكاي منهج محدّد في تحكيمه لهذه النصوص، فقد كان يقدّم النصّ المقدّس للقارئ -سواء أكان في الكتاب المقدّس أو في القرآن الكريم- ثمّ يحلّله، مستخلصًا منه النتائج، ثمّ يضعها في ميزان العلم ليبيّن هل يقول العلم بما قاله النصّ أم لا، فإن قال النصّ ما قاله العلم فهذا يعني أنّ ثمّة توافقًا، وإلّا فالتوافق غير حاصل.

وهذا ما نجده بارزًا في كلّ مؤلَّفاته، خاصّة مؤلَّفاته التالية:

- التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، وهو كتاب منشور عام ١٩٧٦م.

- أصل الإنسان بين العلم والكتب السماويّة، وهو واحد من الكتب المهمّة التي تدعم قضيّة التوافق بين العلم والدين.

- المعطيات الفيزيولوجيّة والجينيّة في القرآن الكريم، وهو محاضرة ألقاها بوكاي في جلسة في التاسع من تشرين الثاني عام ١٩٧٦م، أمام أكاديميّة الطبّ في باريس.

وفي ضوء هذا المنهج أخضع بوكاي كلّ القضايا ذات الإشارات العلميّة والمعرفيّة في القرآن وفي الكتاب المقدّس، مثل: قضيّة الطوفان، خلق العالم، خلق الإنسان، عالم النبات والحيوان، وبعض القضايا التاريخيّة التي تحدّث عنها كلٌّ من القرآن والكتاب المقدّس. ومن ثمّ انتهى إلى القول: «في هذا الوقت نقيم الدليل ودائمًا، استنادًا إلى النصوص بأنّ في القرآن الكريم تأمّلات حول نقاط معيّنة، تتطابق مع معارفنا الحديثة، بينما ينقلها الكتاب المقدّس بطريقة غير صحيحة من وجهة النظر هذه»[1].

[١]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، المكتبة العلميّة، بدون تاريخ، ص١٧٠.

الباب الأوّل

قراءة بوكاي للنصّ القرآنيّ

من المفهوم إلى المنهج

الفَصْلُ الأَوَّلُ

مفهوم قراءة بوكاي التوفيقيّة
ومكانتها وروافدها

الفصل الأوّل

مفهوم قراءة بوكاي التوفيقيّة ومكانتها وروافدها

أوّلًا: المفهوم

ويقصد بالقراءة التوفيقيّة تلك القراءة التي تبحث عن قنوات اتصال بين الإسلام والأديان السابقة، وردّ ما يمكن أن يكون معيقًا لهذا الاتصال من شبه وأباطيل وسوء فهم وغيره من ألوان المعيقات، بيد أنّه يمكن القول إنّ هذه القراءة قراءة علميّة ثقافيّة خالصة؛ كونها لا تختلط بأهداف عقديّة أو سياسيّة من قبل المستشرق القائم على هذه القراءة، باستثناء الهدف الثقافيّ. ومن ثمّ تعمد هذه القراءة إلى تثقيف القارئ أيًّا كانت جنسيّته بحقيقة الدين -ونعني به الإسلام- وأهدافه السامية، ويعدّ زعيم هذه القراءة المستشرق المعاصر موريس بوكاي.

كما أنّ هذه القراءة تربط بين العلم والدين، فالبحث عن روابط ما بين الدين والعلم واحد من الأمور المعبِّرة عن هذه القراءة العلميّة، فهذا هو شغلها الشاغل؛ ولذا سُمّي الاتجاه الذي كان بوكاي رائدًا له بالاتجاه البوكابي، وسُمّي التيّار الذي حاكاه بالتيّار البوكابي الذي يربط بين العلم والدين بحثًا عن نقاط اتّفاق.

ويعد موريس بوكاي رائد هذه القراءة التوفيقيّة بين النصّ القرآنيّ والمعطى العلميّ، والبعيدة تمامًا عن أيّ أهداف غير علميّة أو منهجيّة، وهذا ما أثبته في مؤلَّفه عن التوراة والإنجيل والقرآن والعلم الحديث، والذي عالج فيه من ضمن ما عالج بعض القصص القرآنيّ، وقد كان منهج بوكاي يعرف للعلم أمانَته، ويحفظ للدين هيبَته؛ ولذا فقد استند في قراءته إلى معطيات الأدلّة العلميّة والمعارف التاريخيّة التي كان لا يتخلّى عنها، وهو بصدد تشكيل رأي أو تكوين فكرة.

وقراءة بوكاي هنا قراءة علميّة؛ كونها تقدّم مادّة معرفيّة بعيدة عن معطيات أيديولوجيّة أو مقدّمات يكتنفها التعصّب للدين أو المذهب، فهي قراءة متحرِّرة من قيود المعارف السابقة، وضّح فيها الآراء مبيّنًا ما فيها من حقيقة أو زيف،

وهذه القراءة هي التي قادته إلى إدراك اتساق النصّ القرآنيّ مع العلم والحقائق التاريخيّة، وهي التي قادته أيضًا إلى إدراك عدم اتساق النصّ التوراتيّ والإنجيليّ مع العلم والحقائق التاريخيّة.

فهي قراءة تحمل مضمونًا ثقافيًّا تزامل العلم ولا تعاديه، تنطلق من الضمير وليست بعيدةً عنه، غايتها العلم والمعرفة -ومن هنا هي قراءة ثقافيّة- لا التشويه من أجل التشويه، أو إشاعة الأباطيل من أجل تحقيق مكاسب سياسيّة أو عقديّة كما تفعل غيرها من القراءات.

ولعلّ المتأمّل في كتاب موريس بوكاي الأشهر: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم الحديث، ليجد أنّ قراءته للقرآن قراءة فاحصة، قراءة علميّة بكلّ ما تحمله كلمة العلميّة من معنى، يكفي أن نلقي نظرة على النصّ التالي لندرك بعضًا من هذه القراءة: «ومثل هذا الكتاب يمارس دورًا حواريًّا بنّاءً مع كلّ قارئ حصيف، واسع المدارك يطلب الحقّ وينشد المعرفة الصحيحة، بعيدًا عن التشنجات، ومجرّدًا من العواطف والأحاسيس المسبقة التي تحمل الحبّ أو الكره والقبول والرفض؛ لأنّه يعالج موضوعات مهمّة تتّصل بالتوراة والإنجيل والقرآن، وأنّها ستفتح له أبوابًا جديدة بلا ريب، وتدخله في أجواء من المقابلة والمقارنة والدرس والتمحيص، وتبتعث لديه أفكارًا تتصل بالعلاقات الأصيلة بين هذه الكتب، فتعود به إلى الجذور، وتكشف له أمورًا لا يمكنه الوصول إليها، بعيدًا عن مثل هذه القراءة، وتعرّفه إلى معالم نورانيّة تريه الحقيقة ناصعة، فيقدّرها حقّ قدرها، ويبدأ بأن يفكّر من أين ينبغي له أن يبدأ، فضلًا عن أنّه سيرى الطريق الصحيح الذي يتحتّم عليه سلوكه إن كان ينشد الرشاد والفوز والقناعة والرضى والطمأنينة»[1].

ثانيًا- مكانتها بين القراءات الاستشراقيّة

إذا كانت قراءة بوكاي قراءة علميّة ثقافيّة خالصة، فإنّ ثمّة قراءة أخرى تقترب منها بعض الشيء، وهذه القراءة العلميّة يمكن أن ينضوي تحت لوائها الباحث

[١]- حسن خالد، مقدّمة ترجمة كتاب موريس بوكاي: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص٦-٧.

أ.هـ جونز في دراسته المعنونة بالسرد والنصّ والتلميح في العرض القرآنيّ للنصوص، في العدد الأوّل لسنة ١٩٩٩م من مجلّة الدراسات القرآنيّة بلندن، فهو يستند في دراسته على شخصيّة سيدنا أيوب ومكانته بين الأنبياء، مبيّنًا الآيات التي جاء ذكره فيها، فهو يرى أنّ أيّوب علامة على الصبر في الأدبيّات الإسلاميّة، على الرغم من كونه منشغلًا بعدد قليل من الآيات في القرآن؛ إذ يرى أنّه على الرغم من تلك المساحة القليلة المخصّصة له في القرآن التي قد يظنّ أنّ مكانته أقلّ، فإنّ أهمّيّته في القرآن لا لبس فيها[1].

بيد أنّه توجد قراءات ثقافيّة غير خالصة تبدو علميّة؛ لكن بعد الدراسة والفحص تظهر أبعادها الحقيقيّة، من ذلك ما قام به بعض المستشرقين المعاصرين بدراسة القصص القرآنيّ في سياق عمليّة التبادل الثقافيّ والحضاريّ بين المسلمين واليهود في فترة العصور الوسطى، كما يظهر عند المستشرقة الإسرائيليّة حافا لازاروس يافيه[2]، حيث عمدت إلى إبراز تأثير تفسير بعض القصص القرآنيّ أو تفسير أسماء بعض الشخصيّات التي ورد ذكرها في القرآن -ومن أبرزها عزير- على اتجاهات ومدارس نقد العهد القديم اليهوديّة في فترة العصر الوسيط، وما ينسحب على ذلك من وجود حالة تبادل ثقافيّ وحضاريّ ودينيّ بين اليهود والمسلمين خلال هذه الحقبة التاريخيّة[3]. وفي هذا السياق حاولت أن تبيّن الاختلافات في قصّة عزير بين القرآن من جانب والتوراة من جانب آخر، وأثر القراءة العربيّة في التبادل الثقافيّ، ولو كان من وجهة نظر المستشرقة -حسب فهمنا لقراءتها- في إطار الأعمال النقديّة المتبادلة، خاصّة بعد تدخّل القراءات الإسلاميّة للنصّ القرآنيّ وتدخّل أعلام اليهود في قراءة النصّ التوراتيّ، ممّا ولّد تبادلًا معرفيًّا من نوع آخر حسب فهمها[4].

---

[1]- Narrative, Intertext and Allusion in the Qur'anic Presentation of Job, A. H. Johns, journal of quranic studies, vol 1, 1999, p. 1.

[٢]- مستشرقة أسرائيليّة ألمانيّة، ولدت في ١٩٣٠، عملت كأستاذ للدراسات الإسلاميّة بالجامعة العبريّة بالقدس المحتلّة، لها كتاب بعنوان الإسلام ونقد العهد القديم في العصر الوسيط.

[٣]- أحمد البهنسي، الاستشراق الإسرائيلّي... الإشكاليّة والسمات والأهداف، مقال منشور على الرابط التالي:
https://vb.tafsir.net/tafsir35662/#.Xj3GYtSF7wc

[٤]- انظر: حافا لازاروس يافيه، كتاب الإسلام ونقد العهد القديم في العصر الوسيط، ترجمة: محمّد طه عبد الحميد، جامعة

فكتاب حافا لازاروس يعدّ عرضًا لتلك الجهود العلميّة التي قام بها المسلمون في دراسة التوراة، ومن ثمّ فقد عمدت إلى الوقوف على آراء العلماء المسلمين في الكتاب المقدّس، وبيان مناهجهم التي انتهجوها في دراسته، وكذلك مصادر المعرفة الإسلاميّة به، وكيف تعاملوا مع هذه المصادر، مع التركيز على العطاء الإسلاميّ في هذا المجال ومدى تأثيره في تطوّر علم نقد الكتاب المقدّس في الغرب في العصر الحديث[1]. كلّ ذلك في إطار من البحث عن التبادل الثقافيّ بين الشعوب؛ حيث كانت تعتقد أنّه يجب النظر إلى هذه الموضوعات بنظر جديدة، فقد تكون العوالم مختلفة، لكنّها يمكن أن تكون متداخلة ومتشابكة[2].

وفي السياق ذاته تأتي كتابات المستشرق الإسرائيليّ مائير بار آشير[3]. الأستاذ المتخصّص في اللغة العربيّة وآدابها بالجامعة العبريّة بالقدس المحتلّة، الذي عمد بدوره إلى إبراز تأثير قصص الأنبياء في العهد القديم والقرآن في التبادل الثقافيّ بين المسلمين واليهود في فترة العصر الوسيط أيضًا، حيث كتب دراسة حملت عنوان: أسس التفاسير الإسماعيليّة والفاطميّة القديمة للقرآن، وذلك ضمن أبحاث تُعنى بتفاسير القرآن والعهد القديم خلال العصر الوسيط صدرت في كتاب بالقدس عام ٢٠٠٧ [4].

إلّا أنّ هذه الدراسات في نظري وراءها أهداف بعيدة، فهي ترمي من طرف خفي من وجهة نظرنا المتواضعة إلى البحث عن سند تاريخيّ للتطبيع مع الكيان الإسرائيليّ، ومن ثمّ كانت هذه القراءة الثقافيّة غير خالصة كونها تبتني على

القاهرة، سلسلة الدراسات الدينيّة والتاريخيّة – مركز الدراسات الشرقيّة، ٢٠٠٨م، ص٧٥.

[١]- انظر: محمّد خليفة حسن، مقدمة ترجمة كتاب الإسلام ونقد العهد القديم في العصر الوسيط، ترجمة: محمّد طه عبد الحميد، جامعة القاهرة، سلسلة الدراسات الدينيّة والتاريخيّة – مركز الدراسات الشرقيّة، ٢٠٠٨م، ص٥.

[٢]- انظر: حافا لازاروس يافيه، كتاب الإسلام ونقد العهد القديم في العصر الوسيط، ترجمة: محمّد طه عبد الحميد، جامعة القاهرة، سلسلة الدراسات الدينيّة والتاريخيّة – مركز الدراسات الشرقيّة، ٢٠٠٨م، ص٥.

[٣]- مستشرق إسرائيلّي مولود في ١٩٥٥م، أستاذ في قسم اللغة العربيّة في الجامعة العبريّة بالقدس المحتلّة. له اهتماماته بالقرآن والعقائد.

[٤]- أحمد البهنسي، الاستشراق الإسرائيلّي... الإشكالية والسمات والأهداف، مقال منشور على الرابط التالي:
https://vb.tafsir.net/tafsir35662/#.Xj3GYtSF7wc

بعد سياسيّ لا يمكن إنكاره؛ إذ ما زال الكيان الإسرائيليّ يحاول التطبيع مع الدول المحيطة التي تأبى ذلك، ومن ثمّ يعمد إلى محاولة البحث عن مثل هذه الوسائل علّها تحقق أهدافه البعيدة.

ثالثًا- روافد القراءة التوفيقيّة

لا شكّ في أنّ لهذه القراءة روافد ومنابع نهلت منها، ولولا هذه الروافد أو المنابع لما انتهت القراءة العلميّة إلى ما انتهت إليه، ولما ظهرت إلى النور من الأساس؛ إذ لم تكن هذه القراءة نتيجة عدم، بل كانت نتيجة عوامل أدّت إليها، وهي ما نسمّيها الروافد أو المنابع.

فما هي هذه الروافد أو المنابع؟

يمكننا عرض هذه الروافد فيما هو آتٍ:

١- النصوص القرآنيّة

تعدّ النصوص القرآنيّة هي الروافد والمنابع الرئيسة لهذه القراءة، فهي المادة الأساسيّة التي نهل منها بوكاي، ولولاها لما كان ثمّة قراءة، فالنص القرآنيّ ثريّ يقدّم مادة تحمل الكثير من الإشارات العلميّة التي تحتاج إلى عقل مفكّر وتجارب علميّة لاستخلاص ما في هذه النصوص من إشارات تؤيّدها المعطيات العلميّة الحديثة. إنّ المتأمّل في كتاب الله تعالى يجد الكثير من الآيات القرآنيّة التي تتحدّث عن قضايا علميّة، هذه الآيات تعدّ المنهل الذي استطاع بوكاي أن ينهل منه، ويستقي منه قراءته العلميّة.

ويمكن القول إنّ بوكاي وضع لنفسه منهجيّة في دراسة هذه النصوص باعتبارها الرافد والمنهل الذي نهل منه، يقول عنها: «وكان هدفي الأوّل هو دراسة القرآن ودراسة نصّه، مستعينًا بمختلف كتب التفاسير الضروريّة للدراسة النقديّة، وعكفت على دراسة القرآن مع التركيز بشكل خاصّ على الوصف الذي يعطيه لذلك الحشد العظيم من الظواهر الطبيعيّة التي اشتغل عليها، ولقد أذهلتني دقّة بعض

التفاصيل الخاصّة بهذه الظواهر، وهي تفاصيل لا يمكن أن تدرك إلّا في النصّ الأصليّ، أذهلتني مطابقتها للمفاهيم التي نملكها اليوم في نفس هذه الظاهرات، والتي لم يكن لأيّ إنسان في عصر محمّد أن يكوّن عنها أدنى فكرة»[1].

يحتوي القرآن الكريم على العديد من القضايا والموضوعات التي انطلق منها بوكاي، سواء أكان في مجال العلم أو التاريخ أو غيرهما، وقد اعترف بوكاي غير مرّة بأنّه استند في قراءته إلى مجموعة الآيات القرآنيّة التي تحمل إشارات ومضامين أثبتها العلم الحديث والمعارف الحديثة، ما يعني أنّها كانت المنطلق الذي انطلق منها بوكاي في قراءته هذه. إنّنا ونحن بصدد هذه الأمر نجد قضايا من نحو: العالم والإنسان والحيوان والطبيعة والتاريخ وغيرها ممّا أكّد العلم الحديث على صحّة ما تعلّق بهذه القضايا من إشارات علميّة.

لكنّ القرآن كرافد لهذه القراءة لم يكن كتابًا علميًّا أو تاريخيًّا، وإنّما كان يعطي بعض الإشارات أو الإضاءات العلميّة التي أكّدتها الاكتشافات العلميّة الحديثة. ولهذه الاكتشافات جانبان: الأوّل جانب يتعلّق بقضايا علميّة، والثاني جانب يتعلّق بقضايا تاريخيّة.

ففي الجانب الأوّل يوجد عدد من الآيات، مثل:

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ سورة يونس، الآية ٣.

وقوله جلّ شأنه: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ سورة هود، الآية ٧.

وقول الله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾.

[١]- موريس بوكاي الكتاب المقدّس والقرآن والعلم الحديث، ترجمة: عادل يوسف، طبعة المكتبة الأهليّة، بدون، ص١٦٦-١٦٧.

وقول الله تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ سورة النازعات، الآيات ٢٧-٣١.

وغيرها من الآيات التي تحمل إشارات علميّة في مجالات علميّة مختلفة، والتي تتناولها الدراسة في الفصول القادمة بالتحليل والدراسة.

٢- القراءة المتأنّية للقرآن

تعدّ القراءة المتأنّية التي قام بها المستشرق موريس بوكاي منبعًا ورافدًا لقراءته العلميّة حول القرآن الكريم، وقد خدم بوكاي نفسه بهذا التأنّي في قراءته. وهذه القراءة تعدّ رافدًا ومكوّنًا رئيسًا من مكوّنات القراءة العلميّة للقرآن الكريم، فالأخيرة قوامها تأنٍّ وعدالة في الطرح وبعدٌ عن التعصّب، والرغبة في الوصول إلى الحقيقة، والتمسّك بأهداب المعطيات العلميّة الحديثة، وصولًا إلى النتائج الحقيقيّة والصحيحة.

ولقد لمسنا تلك القراءة المتأنّية في تعامل بوكاي مع النصوص القرآنيّة التي تحمل دلالات أو إشارات علميّة؛ إذ كان مهتمًّا باستخلاص المعنى المراد للآية، ثمّ يخضعه لما يمتلكه من معارف علميّة وتاريخيّة، ثمّ يدلي فيه بالرأي الأمين، وهو الرأي الذي يكون دائمًا في صالح كتاب الله تعالى الذي لا ينطق عن الهوى.

ومن ثمّ فقد كانت قراءة متأنّية؛ كونها قراءة لا تميل إلى الاستعجال في إصدار الأحكام، أو التسرّع في إصدار نتائج إرضاءً لطرف هنا أو هناك، فقد كانت قراءة هادئة لا تصدر أحكامًا ما أو تفصح عن نتائج ما إلّا بعد أن تكون قد استوفت حقّها من الدراسة العلميّة الرصينة.

وتوجد مجموعة من المظاهر للقراءة المتأنّية، منها:

كثرة النصوص التي يسوقها بوكاي كأدلّة في الموضوع الواحد.

مناقشة الفكرة الغربيّة المسبقة بهدوء وعلوّ همّة عن القرآن والإسلام عامّة.

طرح القضيّة من كافّة أبعادها بتؤدة وصدر متّسع.

عدم الانتهاء إلى النتائج إلّا بعد استيفاء جوانب القضيّة من ناحية النصوص ومن ناحية معطيات العلم الحديث.

٣- الإلمام بقضايا علميّة متعدّدة

يعدّ الإلمام بقضايا علميّة متعدّدة رافدًا من روافد قراءة بوكاي للقرآن الكريم، فهو من الركائز الرئيسة في هذه القراءة، وجزء رئيس ممّا انتهت إليه من نتائج، ومن معالجة وتحليل ونقد. فالقرآن الكريم -كما قلنا مرارًا- يحتوي على إشارات علميّة في مجالات متعدّدة، ولا يستطيع أن يلمّ بهذه الإشارات إلّا من يمتلك الاطّلاع والإلمام بالقضايا العلميّة في هذه المجالات، ليس اطّلاع المبتدئ، وإنّما اطّلاع الخبير المحنّك. وهذا يفسر لنا لماذا ظهرت قوى بوكاي التحليليّة والمعلوماتيّة والنقديّة بهذه الصورة الكبيرة، لا شكّ في أنّها وليدة هذا الاطّلاع.

والحقيقة أنّ تعدّد الموضوعات التي عالجها بوكاي بالدراسة تشي بهذا الأمر، وهو تعدّد ناتج عن تعامله مع تعدّد الموضوعات ذات الدلالة العلميّة في القرآن، فالقرآن تناول قضايا من نحو:

- خلق السماوات والأرض.
- عالم الإنسان.
- عالم الحيوان.
- عالم النبات.
- أحداث تاريخيّة.

ومن ثمّ فقد كان على بوكاي أن يكون محصّنًا بالعلم في كلّ هذه المجالات

العلميّة، ولقد كان على قدر المسؤوليّة بالفعل؛ كونه استطاع أن يبيّن ما في القرآن من إشارات ودلالات علميّة في هذه المجالات، وهو ملمّ بها كلّها، حتى أنّ حديثه فيها كان حديثَ الخبير. فعلى الرغم من أنّ تخصّص بوكاي كان تخصّصًا طبّيًّا وتحديدًا في علم الأمراض الباطنيّة، إلّا أنّ اطّلاعه الواسع على المجالات الأخرى مكّنه من التعامل مع كلّ ما في القرآن من آيات علميّة، وبيان ما تنطوي عليه، وتحليل محتواها وفق معطيات العلم الحديث في كلّ مجال منها، حتى انتهى في النهاية إلى ما انتهى إليه من وجود توافق بين النصّ القرآنيّ ومعطيات العلم الحديث.

٤- الدراسات السابقة في مجال الإعجاز

لا شكّ في أنّ ثمّة دراسات سابقة في مجال الإعجاز العلميّ على دراسة المستشرق موريس بوكاي لأشخاص كانوا أعلامًا في الفكر أو الدين أو العلم، من أمثال: محمّد عبده، ووحيد الله خان، والمودودي، ومحمّد أحمد الغمريّ، وإذا كان للثلاثة الأوائل شذرة أو شذرات علميّة حول القرآن هنا أو هناك، فإنّ الأخير كانت له مجموعة من الكتب الرائدة في هذا المجال، ككتاب في سنن الله الكونيّة، وكتاب الإسلام في عصر العلم وغيرهما.

إنّ الإمام محمّد عبده -وهو من هو من أكبر علماء الدين في هذا القرن- قد فسّر بعض الإشارات العلميّة القرآنيّة تفسيرًا علميًّا يعتمد على الحقائق العلميّة الثابتة المكتشفة حديثًا. فقد فسّر الشيخ محمّد عبده قول الله عز وجل في سورة الشمس، الآية ٥ ﴿**وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا**﴾، بناء على القوانين العلميّة في الجاذبيّة التي اكتشفها نيوتن[1].

أمّا المفكّر الإسلاميّ وحيد الدين خان صاحب كتاب الإسلام يتحدّى، فضلًا عن عدد من الكتب والدراسات في مجال الدين وإظهار وجهه الحقيقيّ والدفاع عنه،

[١]- أحمد شوقي إبراهيم، المنهج العلميّ في دراسة الإعجاز العلميّ في القرآن والسنة، على الموقع التالي:
https://islamonline.net/archive/

«فقد قدّم دراسة علميّة لبعض الإشارات العلميّة القرآنيّة اعتمادًا على الحقائق العلميّة التي اكتُشفت حديثًا، وذلك في كتابه «الإسلام يتحدّى». وكما يتّضح من عنوان الكتاب: كان الهدف من التفسير العلميّ وبيان الإعجاز العلميّ لبعض الآيات القرآنيّة هو تحدّي أعداء الإسلام، ولم يدخل أحد منهم معه في جدال»[1].

وثمّة مَن يدرج في القائمة الشيخ أبو الأعلى المودودي -وهو علم من أعلام الفكر الإسلاميّ في العصر الحالي- حيث دخل ميدان التفسير العلميّ لبعض آيات القرآن الكريم، وأبلى في ذلك بلاء حسنًا[2].

والدكتور محمّد الغمراوي -وهو من روّاد بيان الإعجاز العلميّ للقرآن الكريم- صال في هذا المجال وجال في كتابه: الإسلام في عصر العلم[3]، وفي مقالاته العديدة التي -للأسف- لم تنشر في كتاب، وإنْ كانت قد نشرت في مجلّة الأزهر في الأربعينات والخمسينات من هذا القرن[4].

هذا يعني أنّه توجد بعض الدراسات لعدد من المفكّرين الذي همّهم الجمع بين الآيات القرآنيّة والمنجز العلميّ على سبيل إثبات التوافق بينهما؛ للتدليل على المصدريّة الإلهيّة للقرآن الكريم، وأنّه من لدن الله تعالى. ولا أظنّ أنّ بوكاي كان يجهل هذه الدراسات، بل إنّه أشار بصورة عامّة إلى بعض الاتجاهات السابقة عليه دون أن يذكرها أو يذكر ماهيّتها وأصحابها.

٥- السعي للعلم من أجل العلم لا التعصّب والهوى والأفكار المسبقة

كان بوكاي ينطلق منطلقًا علميًّا إلى أبعد حدّ ممكن، فبوكاي كان يهمّه العلم

---

[١]- أحمد شوقي إبراهيم، المنهج العلميّ في دراسة الإعجاز العلميّ في القرآن والسنة، على الموقع التالي:
https://islamonline.net/archive/

[٢]- أحمد شوقي إبراهيم، المنهج العلميّ في دراسة الإعجاز العلميّ في القرآن والسنة، على الموقع التالي:
https://islamonline.net/archive/

[٣]- انظر: محمّد أحمد الغمري، الإسلام في عصر العلم، دار الإنسان للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٧٣م.

[٤]- أحمد شوقي إبراهيم، المنهج العلميّ في دراسة الإعجاز العلميّ في القرآن والسنة، على الموقع التالي:
https://islamonline.net/archive/

في المقام الأوّل، ولهذا انتهى إلى مجموعة من النتائج العلميّة التي تعدّ بمقاييس عصرها نتائج مبتكرة، بعيدًا عن أيّ نوع من أنواع التعصّب، وبعيدًا عن أيّ أفكار مسبقة، ومن ثمّ عُدّ ذلك رافدًا من روافد القراءة العلميّة خاصّة ومشروع بوكاي في دراسة الأديان عامّة.

فالسعي من أجل العلم ولا شيء غيره ظهر جليًّا في موقف بوكاي؛ كونه نشأ على المسيحيّة وتربّى عليها وعاش في كنفها زمنًا، ورغم ذلك دافع عن النصّ القرآنيّ بقوّة، حيث وجده يقدّم مضامين علميّة لقضايا أثبت العلم الحديث صحّتها. ومن ثمّ فهو لم يكابر ولم يعاند، وإنّما اعترف بالحقيقة وضمّنها كتابه الأشهر، ونشره في الغرب، حتى ذاع صيته في العالم كلّه.

لقد نأى بوكاي بنفسه عن مسايرة عدد من المستشرقين الذين انطلقوا في كتاباتهم من منطلق تعصّبيّ صرف، أو من واقع التأثّر بالأفكار المسبقة عن القرآن والإسلام عامّة؛ تحقيقًا لأهداف كانوا يريدون تحقيقها، لكن بوكاي رفض أن يسير في هذا الركب، وارتضى أن يكون منهجه وموقفه بعيدًا عن هذا؛ طلبًا للنزاهة العلميّة. «إنّ الأحكام المسبقة عن الأديان بشكل عامّ بوسعها أن تجرّ إلى الاعتبار بصورة أوّليّة بأنّ كلّ شخص يصرّح أنّه يعتنق أحد الأديان لا يسعه التعبير إلّا بفضل اعتقاد ساذج غير القادر بالطبع على إقامة الدليل العلميّ لشرعيّته؛ ونتيجة لذلك فإنّ الذين اعتادوا على أحكام مسبقة كهذه لن يسعهم إلّا أن يعتبروا أنّه لن يكون هناك بصدد الدين أيّ شيء يتحمّل مراقبة حكم إنسانيّ مشرّبٍ بالمنطق»[1].

وقد عانى بوكاي ذاته تجاه مشروعه من ناقديه الذي لم ينتقدوه لشيء إلّا لكونهم يتمسّكون بأفكار وآراء مسبقة، وقد أقرّ بذلك قائلًا: «ولأنّني كتبت كتاب: الكتاب المقدّس والقرآن الكريم والعلم وجدت نفسي عرضةً لأن أسمعهم يقولون بأنّه كان من المستحيل أن أشرح أيّ مقطع من كتاب سماويّ له علاقة بما سيكتشفه الناس، بعد عدّة قرون، عن غير طريق الصدفة، حتّى ولو أنّ تعدّديّة النصوص من

[١]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص٢٢٨.

هذا القبيل عن مواضع متنوّعة كانت تستبعد بالطبع أيّ تفسير كهذا. ولن ننكر الواقع هنا، لكنّنا نضع حدًّا لكّل دراسة بالعمق، مشيرين إلى مصادفات سعيدة، كتلك التي بيّناها من أجل تفسير ظهور الحياة، والحقيقة فإنّ اللغز الحقيقيّ الذي يشكّله هذا الظهور قد أربك كثيرًا من النفوس»[1].

ومن هنا فإنّه -تحقيقًا لهذا المنهج- انتقد بشدّة تلك المواقف الغربيّة التي وقفت موقف العداء من القرآن والإسلام، وبيّن ما في مواقفهم من عوار كبير وظلم واضح لهما، حتى أنّ مشروعه في دراسة القرآن خاصّة والأديان عامةً قد كان يسير في طريق إزاحة هذا الظلم وبيان خطأ تلك النظرة إليهما؛ حيث خصّص جزءًا كبيرًا من مشروعه لهذا الغرض النبيل.

[١]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص٢٢٨.

الفَصْلُ الثَّانِي

منهجيّة موريس بوكاي
في دراسة القرآن الكريم

الفصل الثاني

منهجيّة موريس بوكاي في دراسة القرآن الكريم

لا شكّ في أنّ موريس بوكاي كان يسير وفق منهجيّة واضحة رسمها لنفسه جيّدًا، نقصد بهذه المنهجيّة أمرين:

الأوّل: المنهج أو مجموعة المناهج التي استند إليها في دراسته للقرآن الكريم، كالمنهج النقديّ والمنهج المقارن وغيرهما.

الثاني: القواعد المنهجيّة التي ألزم بها موريس بوكاي نفسه -أو التي يلزمه بها البحث العلميّ- في سبيل دراساته للقرآن الكريم.

أوّلًا- منهج بوكاي في قراءته للنصّ القرآنيّ

لقد كان المستشرق موريس بوكاي يسير وفق منهج محدّد قوامه الآتي:

١- العقل

لا شكّ في أنّ العقل السليم والصريح يقطع بضرورة الاستدلال على المطالب العلميّة قبل التصديق بصحّتها أو خطئها، كما يقطع أيضًا بضرورة البحث عن حجّيّة هذه الأدلّة التي يستدلّ بها على غيرها، وإلّا لصار الاستدلال بها ضربًا من الوهم والخيال، ولصار الصرح العلميّ والفكريّ المبنيّ عليها قصرًا من رمال[1]. وهذا فيه تأكيد على قيمة العقل والمنتج العقليّ الحقيقيّ، فالعقل هو الذي يقود ولا يُقاد.

ويظلّ العقل هو القائد الرئيس الذي كان يقود المستشرق موريس بوكاي في دراساته عامّة ودراساته حول القرآن خاصّة، فقد كان الأداة الأولى التي يستعين بها في فهم القضايا والإشكاليّات التي تعرض له في دراساته والنقود التي يقدّمها. وليس كتاب التوراة والإنجيل والقرآن والعلم الحديث، وكذلك كتاباته التاريخيّة حول

---

[١]- انظر: أيمن المصري، أصول المعرفة والمنهج العقلّي، القاهرة، بدون تاريخ، ص٦-٧.

بعض شخصيّات الحضارة المصريّة القديمة إلّا دليلًا على ذلك.

ولعلّ من لوازم العقل العقلانيّة -في التحليل الأخير- استخدام العقل بصورته الإيجابيّة في قدرتها على التحليل والتركيب والنقد؛ إذ العقل يقتضي أن يستخدم استخدامًا صحيحًا، فلا تغليب لهوى أو مصلحة أو أيديولوجيا أو غيرها، وإذا كان هناك من يقع في هذا الأمر، فيجب أن يُوجّه التوجيه اللازم من أجل الاستخدام الصحيح للعقل، باعتباره أداة التفكير. وقد حاول بوكاي أن يستخدم عقله وعقلانيّته وهو متحرّر من كلّ هوى أو آراء سابقة تؤثّر على نتائجه حول القرآن الكريم، وهي القاعدة الأولى التي ألزم بها نفسه كما سبق أن بيّنا في سطور سابقة، في حين كان كثير من المستشرقين لا يعيرون لهذه القاعدة اهتمامًا، بل ربما لم تكن في قاموس بحثهم العلميّ، ومن ثمّ فقد كانت جهود بوكاي حول القرآن تعديلًا لمواقف المستشرقين السابقين عليه، وصيحة في وجه منهجهم الذي لم يكن يراعي أمانة علميّة؛ إذ كان همّهم الأكبر الانتصار على الإسلام الذي يرونه عدوًّا أو على الأقل اتجاهًا مناوئًا لهم ولسيطرتهم على العالم.

وقد حاول بوكاي أن يربط ما كتبه بالعقل ولا ينفكّ عنه، مستدلًّا على طرحه بأدلّة عقليّة -إلّا فيما ندر ممّا أخذناه عليه- وقد تعدّدت الخصائص العقليّة عنده، ونعني بذلك «عدم ركونه إلى التقليد، وعدم قبوله بالتناقض، وتحكيمه الدليل والبرهان، في كلّ ما يعرض له من أفكار وآراء وأحكام، تلك إذن من أبرز الخصائص العقليّة للرجل»[1].

ويمكن القول عند دراسة مواقف المستشرقين عامّة من القرآن الكريم، فإنّنا نجد أنفسنا بإزاء فريقين لا ثالث لهما يمتلكون منهجيّتين مختلفتين، وهما:

الأوّل: وهو الفريق الأكثر عددًا في ظنّنا، والذي يتّخذ موقف الهجوم على القرآن، وهذا الموقف قادر أصحاب هذا الفريق إلى اتخاذ موقفهم استنادًا إلى المنهجيّة التي يتّبعونها، وهي المنهجيّة التي نسمّيها منهجيّة العقلانيّة المتطرّفة أو المؤدلجة،

---

[1]- محمّد الشرقاوي، مرجع سابق، ص١٣.

قل ما شئت فيها، ومن ثمّ فإنّنا نؤيّد القول الذي يحلّل هذه العقليّة قائلًا: «وفي ظنّي يكمن المنشأ الفلسفيّ للتعصب والتطرّف في طبيعة منهج التفكير، فالعقل المتعصّب المتطرّف عقل مغلق على نفسه، ومن ثمّ فهو مظلم، مثل الحجرة المغلقة التي لا نوافذ لها.. إنّها لا ترى النور، ولا يمكن لمن بداخلها أن يرى شيئًا سواء أكان في الداخل أم الخارج.. إنّه لا يستطيع أن يتجاوز ذاته. ومن هنا فإنّ صاحب العقل المغلق من المستحيل أن يرى أيّ شيء خارج عقله، ولا يستطيع أن يتجاوز أفكاره المظلمة ولا يمكنه أن يرى غير أفكاره هو، ويعتبرها يقينيّة قطعيّة لا تقبل المناقشة، ومؤكّدة بشكل نهائيّ! ويرجع هذا بدوره إلى حالة الانغلاق العقليّ التي يعيشها، ومن ثمّ الطابع التعصبيّ التطرّفيّ الذي يميّز منهجيّة التفكير التي يستخدمها. فأيّ متطرّف في الدين أو الفكر أو السياسة هو متعصّب أو دوجماطيقيّ بلغة الفلسفة»[1]؛

ولذا أطلقنا على أتباع هذا الفريق بأنّه ذو عقليّة أو عقلانيّة متطرّفة؛ لأنّه لم ير في القرآن إلّا ما يريد أن يراه، بمعنى أنّه دخل لدراسة القرآن وهو محمّل بكمّ جمٍّ من التصوّرات المسبقة حوله؛ لذا كان موقفه متقوقعًا حول ذاته، ولم يخرج من الإطار الضيّق الذي رسمه لنفسه ليصل إلى النتيجة التي يبغيها، فهو هنا متعصّب تعصّبًا فكريًّا.

الثاني: وهو الفريق الأقلّ عددًا -بل لك أن تقول النادر عددًا- وهو الفريق الذي تعامل مع القرآن بموضوعيّة، وهذا هو الذي قادته إليه منهجيّته أيضًا، وهي المنهجيّة التي نسمّيها العقلانيّة المعتدلة أو العقلانيّة المنصفة، ليس لأنّها أظهرت الجوانب الإيجابيّة في القرآن، ولكن لالتزامها بأمانة البحث العلميّ، فلولا هذه الأمانة لما توصّلت إلى هذه الجوانب.

ومن أهمّ أعلام هذه الفريق المستشرق الفرنسيّ موريس بوكاي، فقد حاول أن يتمسّك بالمنهجيّة العقلانيّة المنصفة في دراسة القرآن الكريم. فلم يكن الرجل في

---

[١]- محمّد عثمان الخشت، العقلانيّة والتعصّب، ص المقدمة.

دراساته القرآنيّة متقوقعًا على ذاته، وقد طرح آراءه للنقاش؛ لأنّه كان يؤمن أنّ آراءه ليست فوق مستوى النقد، شريطة أن يأتي الناقد بالدليل.

ومن ثمّ نفهم أنّ العقل البوكابيّ عقل منصف ذو منهجيّة واضحة، وأنّ العقلانيّة التي يمثّلها عقلانيّة منصفة ليست متعالية على النقد، ولكنّها ترفض النقد من دون قرينة أو النقد من أجل الاعتراض والمخالفة ليس إلّا. وهذا من احترام قيمة العقل، وما أرى تعامل بوكاي هنا مع العقل إلّا اقتفاءً وتأثّرًا بموقف القرآن ذاته من العقل، وإدراكًا للمكانة التي خصّه بها القرآن كأداة للتعقّل والتأمّل والتفكّر والتدبر في الكون؛ حيث «إنّ القرآن لا يذكر العقل إلّا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به، ولا تأتي الإشارة إليه غامضة ولا عارضة ولا مقتضبة في سياق الآية، بل هي تأتي في كلّ موضع من مواضعه مؤكّدة جازمة باللفظ والدلالة، وتتكرّر في كلّ موضع من معارض الأمر والنهي التي يحثّ فيها المؤمن على تحكيم عقله، أو يلام فيها المنكر على إهمال عقله وقبوله الحجر عليه»[1].

وقد ظلّ المستشرق موريس بوكاي مؤمنًا بقيمة العقل، وقدرته على الكشف عن الجانب العلميّ في القرآن الكريم من خلال ربطه بين النصوص القرآنيّة والعلم الحديث، وبيان مدى موافقة هذه الآيات له، ومن ثمّ فقد حمل بوكاي مشروعه الفكريّ على أسس عقليّة معه، أراد قراءة علميّة للقرآن على أسس عقليّة، أراد اتجاهًا يدافع به عن موقفه ومشروعه حول القرآن على أسس عقليّة. والحقّ إنّ بروز العنصر العقليّ لديه، والموقف العقلانيّ في كلّ ما يصدر عن فكره أمر واضح، ويبرز جليًّا في هذا المشروع.

ويعدّ الدليل العقليّ عند بوكاي رافدًا رئيسًا من روافد مشروعه العلميّ، فقد كان يلجأ إليه عندما يعوزه الدليل العلميّ بسبب طبيعة الموضوع البعيد عن الجانب العلميّ، كموضوع تناوله لقضيّة سيدنا عيسى بالمقارنة بين الإنجيل والقرآن، فالمقارنة حينها تتزيى بزيّ المقارنة العقليّة -بعيدًا عن أيّ بحث تجريبيّ

[١]- عماد الراعوش، العقل في القرآن وأثره في التفسير، كلية أصول الدين – جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة، بدون تاريخ، ص٣٢.

من ذلك النوع الذي كان يفعله بوكاي مع قضايا مثل خلق العالم والأرض وغيرهما من القضايا التي أثبت بالدليل العلميّ صحة النصّ القرآنيّ حولها-؛ لأنّ طبيعة الموضوع تتطلّب مثل هذا النوع من المنهج.

ونحن نعلم أنّ هناك العديد من الآيات القرآنيّة التي تناولت الحديث عن سيّدنا عيسى بدءًا من مسألة النشأة وحتى مسألة الرفع. يقول الله تعالى:

﴿مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ سورة البقرة، الآية ٨٧.

﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ سورة البقرة، الآية ٢٥٣.

﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ سورة آل عمران، الآية ٤٥.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ سورة آل عمران، الآية ٥٢.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ سورة آل عمران، الآية ٥٩.

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ﴾ سورة النساء، الآية ١٥٧.

﴿إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا﴾ سورة النساء، الآية ١٧١.

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَايِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ سورة المائدة، الآية ١١٤.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ سورة مريم، الآية ٣٤.

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي﴾ سورة الزخرف، الآية ٦٣.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ﴾ سورة الصف، الآية ٦.

﴿كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ سورة الصف، الآية ١٤.

﴿إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا﴾ سورة البقرة، الآية ١٣٦.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ﴾ سورة آل عمران، الآية ٥٥.

﴿عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ﴾ سورة آل عمران، الآية ٨٤.

﴿بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا﴾ سورة النساء، الآية ١٦٣.

﴿الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ﴾ سورة المائدة، الآية ٧٨.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى﴾ سورة المائدة، الآية ١١٠.

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن﴾ سورة المائدة، الآية ١١٢.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي﴾ سورة المائدة، الآية ١١٦.

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ سورة الأنعام، الآية ٨٥.

﴿مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ سورة الأحزاب، الآية ٧.

﴿إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا﴾ سورة الشورى، الآية ١٣.

والملاحظ أنّ هذه الآيات تتناول نشأة سيّدنا عيسى وولادته وبشريّته ورسالته وأمّه وغيرها من الموضوعات المتعلّقة به كنبيّ من أنبياء الله تعالى الصالحين، ومن ثمّ يعلّق بوكاي على موضوع نسب سيّدنا عيسى الوارد في سورة آل عمران وسورة مريم تعليقًا عقليًا قائلًا: «فعيسى مدعوّ دومًا في القرآن ابن مريم، ونسبه أساسًا لوالدته كما هو منطقيّ؛ لأنّه لا أب له في الحياة، وبهذا يفترق القرآن عن إنجيلَي متى ولوقا، اللذين... جعلا نسب عيسى متّصلًا بأجداده من ناحية الذكور»[1].

كان بوكاي يرى أنّ القرآن الكريم وضع عيسى من خلال نسبه من جهة الأم على خطّ نوح وإبراهيم ووالد مريم عمران، مستندًا في ذلك إلى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سورة آل عمران، الآيتان ٣٣-٣٤. وعليه فإنّ عيسى عليه السلام من نسل نوح وإبراهيم من طريق والدته مريم ووالدها عمران. في حين يتوافق القرآن هنا مع العقل؛ لأنّ العقل يقول إنّ عيسى بدون أب، فكيف يكون له أجداد من ناحية الأب كما يشير إنجيل لوقا، ومن ثمّ أمكن القول من الناحية العقليّة إنّه «لا توجد في القرآن أخطاء الأناجيل الاسميّة المتعلّقة بنسب عيسى، واستحالات النظام النسبيّ الذي لدى العهد القديم فيما يتعلّق بنسب إبراهيم»[2]. ومن ثمّ فإنّه يمكن القول إنّ كلّ ما كان يستند عليه بوكاي في هذه القضيّة هو العقل، كما أنّ الدليل الذي كان يستدلّ به هو الدليل العقليّ. ولقد استكمل بوكاي أدلّته القائمة على العقل منطلقًا من هذه القضيّة إلى التأكيد على قضيّة أصالة القرآن

[1]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٥٢.

[2]- م.ن، ص٢٥٢.

التي شغلت حيّزًا من مشروعه الفكريّ بين الدين والعلم. حيث إنّ العقل قاده إلى توجيه النقد إلى أولئك الذين يدّعون دون سند أنّ محمّدًا هو كاتب القرآن، وأنّه من عنديّاته، وأنّه نقل ما جاء فيه عن التوراة، ومن ثمّ يتساءل بوكاي من الناحية العقليّة قائلًا: «إنّنا نتساءل هنا عن الحجّة وعمّن صرفه عن أن ينسخها، على الأقلّ فيما يخصّ نسب عيسى ليدرج في القرآن بدلًا منه التصحيح الذي جعل نصّه بعيدًا عن كلّ انتقاد يُثار من المعارف الحديثة، بينما نصوص الأناجيل بالمقابل ونصوص العهد القديم هي من هذه الزاوية غير مقبولة أبدًا»[1].

٢- النقد

لا شكّ في أنّ المنهج النقديّ يحيط بالموضوع ككلّ، ويستخدم فيه الكثير من المفاهيم والأفكار والأدوات، حتّى وإن اختلفت طرق معالجة النصّ فإنّه يبقى الاشتغال بالنصّ وللنصّ هدفًا واحدًا ووحيدًا[2]. وإذا كنّا بصدد النصّ الدينيّ فإنّ عمليّة النقد تكون حذرة؛ لأنّها تتعلق بنص مقدس، ومن ثمّ استلزم وجود مجموعة من الأدوات التي تقود إلى أدلّة تتخذ سبيلًا إلى إظهار عمليّة النقد، وهذا ما فعله بوكاي خاصّة تجاه الأسفار القديمة والجديدة.

ويعد المنهج النقديّ أحد المناهج التي أفرزتها لنا القراءة العلميّة للقرآن عند موريس بوكاي، وهذا ما ظهر جليًّا في دراسته لروايات التوراة وفي دراسته للأناجيل من حيث نشأتها ومصادرها ومضمونها؛ حيث تناولها بمنهج نقديّ كان لا يُعنى بغير الغاية المعرفيّة والحقيقة المعرفيّة سبيلًا، علمًا بأنّه نشأ في كنف المسيحيّة وترعرع فيها، بما يعني أنّه ينتقد ديانته التي كان عليها، ومن ثمّ فلم يكن مخالفًا للعقيدة المسيحيّة، فيظنّ ظانٌّ أنّ أفكاره وموقفه بدافع الحقد والتعصّب، وهذا دليل على صدق الموقف العلميّ الذي كان يتبنّاه.

---

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٥٢.

[٢]- صامد حامدي، أسس بناء المنهج النقديّ عند أنور الجندي، كتاب: أخطاء المنهج الغربيّ الوافد أنموذجًا، جامعة قاصدي مرباح، كلّيّة الآداب واللغات، ٢٠١٥-٢٠١٦م، ص٦.

كان موريس بوكاي يربط نقده بقرينة أو بدليل، رافضًا أن يكون نقده مبنيًّا على مؤثّرات خارجيّة من أيّ نوع، يقول الدكتور محمّد الشرقاوي: «لقد وُهب موريس بوكاي حسًّا نقديًّا نافذًا، جعله يدور مع الدليل أو البرهان العقليّ حيثما دار، ولا يستعبده التيّار السائد ولا العرف الغالب، فيستسلم لهما دونما نقد أو مراجعة أو تمحيص»[1].

علمًا بأنّ نقد بوكاي كان نقدًا موضوعيًّا إلى أقصى حدّ، وكان يقلب الموضوع محلّ النقد على أوجهه كافّة، وهذا ما نجده واضحًا في قضايا: العهد القديم والعهد الجديد، والروايات التي يتضمّنها كلٌّ منها، وفي تناوله لموقف الغرب عامّة من نصوص القرآن والتشويه المتعمّد له وللإسلام.

ويبدأ بوكاي منهجه النقديّ من بداية قراءته العلميّة؛ إذ كان عليه أولًا قبل الولوج في دراسة الآيات ذات الإشارات العلميّة في القرآن أن يطرح النصوص الدينيّة المقدّسة على طاولة النقد، فقد طرح سؤالًا أساسيًّا مؤدّاه: ما هي أصالة النصوص الدينيّة المقدّسة التي نملكها اليوم؟![2] وهذا السؤال استوجب منه اختبار الظروف التي تحكّمت في عمليّة كتابتها وعمليّة نقلها إلينا.

لقد كان يدرك جيّدًا أنّ دراسة الكتب المقدّسة وفق المنهج النقديّ لم يكن شيئًا مألوفًا في الغرب، فقد كان موقف الناس منها موقف التسليم والقبول، وهذا ما عبّر عنه بوكاي بقوله: «وقد خلت قرون بالنسبة إلى التوراة في عهديها القديم والجديد، والناس عبرها يكتفون بالقبول على حالها. وقراءتها لم تكن تسمح إلّا بتمجيدها بتأمّلات مبرّرة؛ لأنّ أيّ اتجاه إلى انتقادها كان يعتبر إثمًا، ورجال الدين كانوا وحدهم المختصّين الذين يمكنهم بيسر الحصول على المعرفة الشاملة فيها، أمّا أكثر العلمانيّين، فما كانوا يتلقّون إلّا بعض المقطوعات المختارة في الاحتفالات الدينيّة أو خلال المواعظ»[3].

---

[١]- محمّد عبد الله الشرقاوي، مرجع سابق، ص١٢.

[٢]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٧.

[٣]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٧.

وهذا الأمر يكشف عن مقدار التسليم الذي كان يبديه الناس عامّة والعلماء خاصّة لتلك النصوص، بما يعني أنّ مجرّد نقدها سيجرّ على صاحبها الكثير من الأضرار والإشكاليّات، وهذا ما يظهر في تاريخ تعاملات الكنيسة مع العلماء الذي تبنّوا أفكارًا علميّة تخالفها. هذا يعني أنّ الجانب النقديّ للنصوص المقدّسة كان معدومًا، وكان في حاجة إلى صيحة علميّة جديدة تعمل على قراءتها قراءة علميّة ناقدة بعيدًا عن الممالأة والمداهنة والنفاق. وإذا كانت هناك بعض المحاولات النقديّة التي تعمل على تأطير العمليّة النقديّة باتخاذها موقفًا أيديولوجيًّا وثقافيًّا معيّنًا وحصر نشاطاته في دائرة محدّدة[1]. فإنّ بوكاي كان بمنأى عن ذلك كلّه؛ فلم يكن نقده نتيجة اتجاه أيديولوجيّ يقوده إلى حيث يتوافق معه، ولكن كان نقده نتيجة ما تؤدّيه إلى النصوص في مواجهتها بالمعطيات العلميّة الحديثة.

لقد صار التعامل مع النصّ يتّخذ مناهج جديدة من أهمّها المنهج النقديّ، ذلك المنهج الذي كشف عن مسائل مهمّة لم تكن مطروحة من قبل، ولكم كان بوكاي مدركًا لأهمّيّة هذا المنهج العلميّ؛ حيث اتّخذه أداة لقراءة النصوص المقدّسة: التوراة والإنجيل والقرآن.

لكنّه كان يأسف ويشعر بخيبة أمل من تلك المؤلّفات التي تدّعي اعتماد المنهج النقديّ في دراستها للنصوص التوراتيّة، وهي في الحقيقة أبعد ما تكون عن ذلك. ومن ثمّ ينتقدهم بوكاي قائلًا: «وفي هذه الأحوال، وبالنسبة إلى الذين يحتفظون بكامل مقدرتهم الفكريّة وإدراكهم لمعنى الموضوعيّة تبقى المستحيلات والتناقضات ثابتة، ولا يمكن إلّا التأسّف -تجاه وضدّ كلّ منطق- على الموقف الهادف إلى تبرير الاحتفاظ في نصوص الكتب التوراتيّة ببعض الفقرات الملطّخة بالعيوب. إنّ هذا الموقف قد يضحى ضارًّا كلّ الضرر بعقيدة بعض المثقّفين في الإيمان بالله. غير أنّ التجربة تثبت أنّه إذا كان بعض الناس قادرين على كشف بعض نقائص من هذا النوع، فإنّ الأكثريّة الغالبة من المسيحيّين غافلة عنه، وتجهل هذه التناقضات مع

[١]- انظر: حسين خمري، سرديات النقد في تحليل آليات الخطاب النقديّ المعاصر، الرباط، دار الأمان، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م، ص٣٧.

المعارف الدنيويّة التي غالبًا ما تكون أوّليّة»[1].

هذا يعني أنّ بوكاي يأخذ على الدينيّين من أصحاب الفكر والعلماء في الغرب وقوفهم السلبيّ تجاه نصوص العهدين القديم والجديد رغم كونها مناقضة للعلم وللفكر السديد؛ إذ كان يرتضي لهم هنا أن يتّخذوا موقفًا نقديًّا تستلزمه الضرورة العلميّة والمنطق والعقل، وكأنّ لسان حاله يقول: تدّعون أنّ القرآن كتاب محمّديّ، وتكيلون له الاتهامات ودعاوى الاقتباس من العهدين القديم والجديد، مع أنّ الاتهامات حقيق بها نصوصكم، وإذا كنتم تعمدون إلى المنهج النقديّ في تعاملكم مع القرآن، فإنّ الأولى بهذا المنهج هو كتابكم.

لقد حاول بوكاي أن يؤسّس هنا لمنهج نقديّ واضح ومحدّد يطبَّق على كلّ النصوص دون استثناء، يأتي بنتائج واضحة ومحدّدة إذا طُبق على النصوص المقدّسة أيًّا كان الدين الذي تنتمي إليه، ثمّ يربط هذا المنهج بمعيار أساسيّ، وهذا المعيار هو العلم الحديث، فارتباط النصّ بالعلم الحديث قاده إلى نتائج مؤسَّسة على منهج نقديّ رصين[2].

لقد كان للمنهج النقديّ عند بوكاي مجموعة من السمات التي تميّزه، يمكن أن نقف على سمتين منها، وهما سمتان إيجابيّتان لا شكّ في أنّهما تُزيدان من قيمة المنهج الذي يستخدمه، وهما:

النقد الذي يقدّمه بوكاي ليس مبنيًّا على وجهة نظر خاصّة، وإنّما نتيجة ما أسميناه القراءة المتأنّية، وما تؤول إليه القضيّة موضوع البحث منطقيًّا، وهذا النقد لم يكن نقدًا مأخوذًا من سابقين؛ إذ لم يكن هناك من لديه الجرأة في الغرب لينصف القرآن ويخرجه من براثن التشويه الغربيّ. وتعدّ جدة النتائج التي انتهى إليها في كثير من القضايا صورة منطقيّة للأدوات النقديّة التي استند إليها وطبّقها في مشروعه. فالتوافق الذي أثبته بوكاي بين النصوص القرآنيّة والمعطيات العلميّة

---

[١]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٧.

[٢]- م.س، موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص المقدمة.

الحديثة في عدد من القضايا كان نتيجة متوقّعة لقراءته المتأنّية.

إنّ القضايا الرئيسة التي عالجها بوكاي بالدراسة خضعت لمنهج نقديّ صارم قوامه قراءة متأنّية لما تؤول إلى طبيعة النصوص، بمعنى أنّه لم ينقد في وقت ليس يستحقّ النقد، أو بمعنى آخر أنّه لم ينقد ما لا يستحقّ النقد، فطبيعة القضيّة ونصوصها هي التي تقود إليه، وليس شيئًا غيرها. ولنا أن نتساءل توضيحًا: لماذا انتقد أسفار العهدين؟ إنّه ما انتقدهما إلّا بناءً على النصوص التي تقدّمها هذه الأسفار، الأمر الذي قاده إلى التأكيد على بشريّة هذه الأسفار، في حين كان الأمر مختلفًا، وهو بصدد النصوص القرآنيّة التي وجد أنّها أثبتت مصدريّتها الإلهيّة[1].

النقد البوكابي هنا كان يمثّل مرحلة وسطى بين التحليل من جانب والمقارنة من جانب، وأحيانًا يكون مرحلة متأخّرة بعد مرحلتي التحليل والمقارنة، وفي كلتا الحالتين فإنّ النقد لا يكون سابقًا، بل كان على الدوام إمّا مبنيًّا على تحليل أو تحليل ومقارنة. وهذا هو المنهج السليم الذي ينبغي أن يكون، فلا نقد دون تحليل أو تحليل ومقارنة.

وقد طبّق بوكاي منهجه هذا في كلّ ما يتعلّق بالقضايا العلميّة المتضمَّنة في القرآن الكريم -وإن خالفه فيما يظهر لي في تناوله للقضايا العلميّة المتضمَّنة في الحديث الشريف- ويمكن أن نستدلّ على ذلك بتناوله لقضيّة واحدة فقط على سبيل المثال، وهي قضيّة خلق الكون بدءًا من مرحلتي الرتق والفتق[2]، حيث حلّل النصوص القرآنيّة التي تتناول هذه القضيّة مقارنًا بين الإشارات العلميّة التي تقدّمها، وبين المعطيات العلميّة الحديثة، ومن ثمّ تأتي مرحلة النقد أو الحكم التي ينتهي فيها إلى توافق القرآن مع العلم الحديث في هذه القضيّة، وهكذا صنع في بقية القضايا على اختلاف يسيرٍ فيما بينا.

ومن ثمّ فإنّ النزعة النقديّة عند المستشرق موريس بوكاي تمثّل إحدى السمات

[١]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٦٠ وما بعدها.

[٢]- م.ن، ص١٦٣، ١٧٥ وما بعدهما.

المنهجيّة التي تكشف عنها كتاباته، وقد ظهرت هذه النزعة بوضوح شديد في معالجته لأسفار العهدين القديم والجديد، وهي تلك المعالجة التي انبنت على قراءة نقديّة فاحصة في ميزان العلم الحديث، لكن هذه النزعة كانت محكومة بموضوعيّة لا إجحاف فيها أو انحراف.

وحسنًا فعل بوكاي؛ لأنّ التوافق الذي كان يبغيه بين القرآن والعلم سبيله النقد الموضوعيّ؛ لأنّ للموضوعيّة دورًا مهمّا في المعرفة العلميّة؛ ذلك أنّ من أمارات الموضوعيّة كما يقول أحد الباحثين «أنّ المرء عندما يدرس النتائج في العلوم الطبيعيّة مثلًا، يتجلّى قدر كبير من التوافق بين مختلف الثقافات والأديان»[1].

٣- الموضوعيّة

يجب التأكيد على أن الموضوعيّة هي من أولويّات البحث العلميّ إن لم تكن أهمّها على الإطلاق، وقد كان بوكاي مدركًا لهذه القضيّة، ومن ثمّ فقد حرص عليها، وعدّها مرتكزه في موقفه من الكتب السماويّة من حيث مدى قربها أو بعدها من العلم الحديث في العديد من القضايا التي تضمّنتها، مستبعدًا كلّ مشاعره ومواقفه، وكما يقول أحد الباحثين: «فأن تكون موضوعيًّا معناه ألّا تتأثر بدوافعك وعرفك وقيمك وموقفك الاجتماعيّ»[2].

والموضوعيّة التي التمسناها عند بوكاي تعني التجرّد من كلّ فكرة سابقة أو توجّه معيّن أو رأي أيديولوجيّ، كما تعني التعامل مع الموضوع المدروس بإنصاف، فالمعوَّل عليه النصوص، فالنصوص كانت قائده الذي يقوده إلى النتيجة لا العكس. فقد توجه بهذه الموضوعيّة إلى الوحي القرآنيّ باحثًا عن درجة التوافق بين النصّ القرآنيّ ومعطيات العلم الحديث، علمًا بأنّه -باعترافه- كان يعرف من بعض الترجمات أنّ القرآن الكريم يسوق كلّ أنواع الظواهر الطبيعيّة. يقول: «ولم أكن أملك منها إلّا معرفة جزئيّة، ولكن بعد تدقيق النصّ العربيّ... قمت بجردة شاملة

---

[١]- ستيفن غاوكروغر، الموضوعيّة، ترجمة: أمين الأيوبي، أبو ظبي، دائرة السياحة والثقافة - مشروع كلمة، ٢٠١٩م، ص٢٠.

[٢]- صلاح قنصوة، الموضوعيّة في العلوم الإنسانية، عرض نقديّ لمناهج البحث، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ٢٠٠٧م، ص٦٦.

استبان لي منها أنّه ليس في القرآن تأكيد يمكن أن يُنتقد من الوجهة العلميّة في هذا العصر الحديث»[1]. وقد تعامل بوكاي بالموضوعيّة نفسها مع نصوص العهدين، ومن ثمّ فلم يكن ثمّة ما يدعوه للخروج عن سفر التكوين للوقوف على ما وصفه بتناقضات لمعطيات العلم المعترَف بها في هذا العصر. ومن ثمّ رفض تغاضي الشراح أو الدارسين عنها أو محاولة تبريرها، وهنا تكمن الإشكاليّة.

وقد ارتبطت الموضوعيّة بالنقد عند بوكاي، فقد كانت الموضوعيّة صنو النقد عنده، فلا نقد دون موضوعيّة، ولا موضوعيّة دون نقد. وهذا ما يتماشى مع الاتجاهات النقديّة الحديثة، «فالحكم الموضوعيّ إذن يفصل العمل عن كلّ ما عداه من قيم خارجيّة؛ لينظر إليه هو من داخله، وليكتشف ما بداخله من معنى لا يمكن الكشف عنه إلّا من خلال تحليل البناء»[2]. وهذا يفسرّ لماذا كان بوكاي يؤخّر نقده حتى دراسة الفكرة وتحليلها برمّتها، وقد يلجأ إلى تأخير النقد حتى انتهاء الموضوع برمّته، وقد فعل ذلك مرارًا في الكثير من أجزاء كتابه، سواء أكان فيما يتعلّق بالنصوص التوراتيّة أو النصوص القرآنيّة.

وقد ظهرت هذه السمة في كلّ القضايا التي عالجها بوكاي بالدراسة تقريبًا، مثل: قضيّة العهد القديم ورواياته، وقضيّة الأنجيل وأسفاره، وقضيّة الطوفان، وقضيّة القرآن والعلم الحديث، سواء ما تعلق منها بمسألة خلق العالم، أو مسألة خلق الإنسان والحيوان والنبات، وغيرها من القضايا المحوريّة التي تضمّنها مشروعه الفكريّ حول الأديان أو الكتب السماويّة.

هذه الموضوعيّة أدّت بالدكتور محمد الشرقاوي إلى أن يقول بكلّ تأكيد: «ولا ريب أن تشبّث الرجل بالموضوعيّة والنزاهة العقليّة ومجافاته التقليد جعله يغرّد خارج السرب ويتعالى عن غريزة القطيع في العديد من البحوث والمسائل، وهذا قد جرّ عليه كثيراً من المصاعب والمتاعب والنقود الظالمة لأعماله وأفكاره وأطروحاته»[3].

[١]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص٢٠.

[٢]- سمير سرحان، النقد الموضوعي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م، ص١٦.

[٣]- محمّد عبد الله الشرقاوي، مرجع سابق، ص١٢.

ولعلّه كان يمكن لبوكاي أن يساير الركب في الغرب ويحمل حملة شعواء على القرآن الكريم كما فعل أسلافه -وهم كثر- من المستشرقين ورجال الدين في أوروبا، وعندها كان سينال تقديرًا واحتفاءً من الغرب ذاته، إلّا أنّ الرجل آثر الموضوعيّة، حتى ولو أدّت به هذه الموضوعيّة إلى الهجوم الذي تعرّض له من قبل بعض الناقدين -وهم كثر أيضًا- بهدف النيل منه، لا لشيءٍ إلّا لأنّه حاول أن يظهر الوجه الحقيقيّ للإسلام في الغرب.

ولعلّ كتابه الأشهر يدلّ على ذلك «إنّه كتاب علم وبحث، يعتمد على الوثائق، ويرتكز إلى الفكر المجرّد، ويحاول بهديها الوصول إلى الحقّ، وإنّه ليبرز قضايا كثيرة على جانب كبير من الدقّة والعمق والأهمّيّة، ويكفي أن يكون في مقدّمتها الإنصاف والتجرّد، والتخلّي عن مشاعر الحقد، وكذلك الاجتهاد في كشف الحقائق بالأدلّة التي لا سبيل إلى ردّها والطعن بها»[1].

ولا شكّ أنّ المنهج الموضوعيّ عند بوكاي يعمد إلى الاتجاه المباشر إلى عرض وبيان النماذج الصريحة لقضيّة الاتفاق بين القرآن ومعطيات العلم الحديث، وهي النماذج التي تكشف بوضوح عن الاتجاه الأصيل والسمات الرئيسة والفرعيّة لمشروعه في الأديان أو الكتب السماويّة، فقد كانت الفكرة المركّزة التي تهتمّ بالمضمون دون التفاصيل المعين الرئيس له في منهجه الموضوعيّ.

إنّنا نجد المنهج الموضوعيّ ماثلًا في الحياديّة التي أبداها بوكاي في تعامله مع القضايا محلّ الدراسة، دون أن يظهر ميله إلى أيٍّ منها، فلم يكن متحيّزًا، بل كانت تقوده روحه العلميّة، وقد ظهر هذا السمت الموضوعيّ جليًّا في قضايا من نحو: الطوفان في الرواية التوراتيّة والرواية القرآنيّة، مصادر الأسفار في العهد الجديد، تدوين القرآن، وغيرها من القضايا التي كانت تقود بوكاي فيها الروح العلميّة المبنيّة على الموضوعيّة والأمانة العلميّة ليس إلّا.

ولعلّ من سمات الموضوعيّة عند بوكاي -والتي نجدها عند كلّ مفكّر منصف،

[١]- حسن خالد، مقدمة ترجمة كتاب موريس بوكاي: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص٧.

ولا نملّ أن نعترف بها لغير واحد- أنّها كانت تتميّز بالحياديّة التي قوامها أمران: أمر موضوعيّ يتمثّل في تقديم النصوص الدينيّة بأمانة تامّة، وأمر ذاتيّ يتمثّل في الموقف الأيديولوجيّ النقديّ الذي يتّخذه بوكاي مما يتناوله بالدراسة. ومن ثمّ فلم يكن من أولئك النفر الذين يعلنون الحياد في دراساتهم، ولكنّهم يبطنون داخلهم الانحياز البغيض والتعصّب للفكرة والمذهب، وإن كان على نحو غير مباشر، وإنّما كان بوكاي حياديًّا، غير أنّ حياده ينتهي بانتهاء شرح وتحليل الأفكار على نحو يجعلها واضحة أمام القارئ، وإن كان هذا لا يمنعه من انحيازه لموقف أيديولوجيّ معيّن تظهر فيه مواقفه النقديّة من هذه الأفكار، وقد ظهر هذا واضحًا جليًّا في مشروع بوكاي بأكمله دون استثناء[1].

لم تكن الموضوعيّة عند بوكاي تنبني على قراءة مواقف جزئيّة، بقدر ما كانت تنبني -فضلًا عن هذا- على رؤية عامّة لموضوع دراسته في الأديان، فقد كان يضع هذه المواقف الجزئيّة في إطار الموقف العامّ، حتى تكون الصورة أكثر وضوحًا، والحكم أكثر اتّساقًا. لكن هذا لا يعني أنّ هذه المواقف الجزئيّة لا أهمّيّة لها، بل على العكس من ذلك يمكن القول إنّ بوكاي لم يكن يقفز إلى النتائج التي تمثّل الموقف العامّ، إنّما كان يسترشد بها للوصول إلى الموقف العامّ، وهنا تكمن الموضوعيّة في إحدى صورها.

ومن ثمّ نفهم أنّ الموضوعيّة في فكر بوكاي وفي مشروعه لا غنى عنها مطلقًا، والحقيقة أنّه كلّما كانت الموضوعيّة تحوط العمل الفكريّ،كانت النتائج المستخلَصة صادقة ومعبّرة عن الحقيقة إلى حدّ بعيد، ومتعالية عن أن تطولها يد النقد. فما بالنا إذا كان هذا العمل الفكريّ يتعلّق بدراسة الأديان أو الكتب السماويّة المقدّسة التي يؤمن بها المليارات من سكّان العالم؟!

٤- المقارنة

المنهج المقارن اصطلاح عامّ يشير إلى إجراءات تهدف إلى توضيح وتصنيف عوامل

---

[١]- محمّد عبد الله الشرقاوي، مرجع سابق، ص١٢.

السببيّة في ظهور عوامل معيّنة وتطوّرها، وكذلك أنماط العلاقة المتبادلة في داخل هذه الظواهر بينها وبين بعضها، وذلك بواسطة توضيح التشابهات والاختلافات التي تبيّنها الظواهر التي تعدّ قابلة للمقارنة من نواح مختلفة[1].

وقد اعتمد المستشرق موريس بوكاي اعتمادًا رئيسًا على المقارنة في كتاباته حول القرآن الكريم، فمنهجه قائم على رافدين: الأوّل النقد والثاني المقارنة، وتظهر هذه المقارنة في جانبين: الجانب الأوّل المقارنة بين ما جاءت به الآيات القرآنيّة والرواية التوراتيّة في العديد من القضايا، والجانب الثاني المقارنة بين هذه الروايات والعلم الحديث، وهذان الجانبان هما ما دار عليه إنتاج المستشرق موريس بوكاي المتعلّق بدراساته حول القرآن.

يقول بوكاي معبّرًا عن منهجه في المقارنة: «ومهما يكن فإنّه يبدو من الحقّ أنّه عندما نريد درس وجه من وجوه الوحي لدى أحد أديان التوحيد الثلاثة أن ندخل عليه بالمقابلة مع ما يكون للدينين الآخرين من نظرة في النقطة نفسها؛ لأنّ الدراسة الشاملة في مسألة ما تكون أكثر فائدة من دراسة منفصلة، ومقابلة بعض الموضوعات المعالجة في الكتب المقدّسة مع معطيات العلم في القرن العشرين، تهمّ بالتالي الأديان الثلاثة دونما استثناء، ثمّ ألا تشكّل هذه، بل ينبغي لها أن تشكّل كتلة أكثر تماسكًا في تقاربها فيما هي جميعها مهدّدة في أيّامنا بالاكتساح المادّيّ؟!»[2].

ومن ثمّ نفهم أنّ المقارنة في قراءة بوكاي للقرآن الكريم مقارنة شاملة تحاول أن تلتمس الإحاطة بجوانب الموضوع، ومن ثمّ كانت تفصيليّة لا منفصلة، متعدّدة الجوانب وليست مرتكزة على جانب واحد دون غيره. وهذا ما أتاح له أن يكوّن صورة عامّة عن طبيعة توافق كلّ دين بالعلم الحديث من عدمه، وقد اتخذ مثالًا على هذه المقارنة موضوع الخلق والطوفان، وانتهى إلى أنّ الرواية التوراتيّة فيهما غير مطابقة للعلم، في حين انتهى أيضًا إلى أنّ الروايات القرآنيّة تبرز اتّفاقًا تامًّا مع

---

[١]- إبراهيم مدكور، معجم العلوم الاجتماعيّة - القاهرة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ١٩٧٥م، ٥٧٦.

[٢]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٣٩.

معطيات العلم الحديث. وقد حدّد من خلال هذه المقارنة الدقيقة التي استدعته لقبول رواية القرآن وعدم قبول الرواية التوراتيّة.

ويمكن القول إنّ للمقارنة عند بوكاي مجموعة من السمات:

أنّ مشروع بوكاي المقارن حول الأديان -وخاصّة في مقارنته بين القرآن والعلم- لم يكن يهدف إلى البحث عن نقاط التأثير والتأثّر، فهو لم يرد البحث عن تأثير دين في دين أو اقتباس دين من آخر، وإنّما كان هدف مقارنته هو الوقوف على التوافق بين الكتب السماويّة والعلم عامّة، وبين القرآن والعلم خاصّة. ولو كان بوكاي بحث عن التأثير والتأثّر، لما اختلف عن غيره من المستشرقين الذين سبقوه، وهم كثر، وإنّما كان محدّدًا طريقه بدقّة، وسار عليه دون أن تزلّ قدمه تجاه البحث عن عمليّة التأثير والتأثّر.

المقارنة عند بوكاي كانت دقيقة ومركّزة، لا تشعّب فيها، وإنّما كان موضوع المقارنة محدّدًا بدقّة متناهية، فقد كان يضع موضوع المقارنة، ثمّ يُعمل فيه ما شاء من أدوات المقارنة. ومقارنته دائمًا ما تكون بين قضايا في القرآن والإنجيل والتوراة وبين العلم، وبين كلّ كتاب سماويّ على حدة وبين العلم. وقد ظهر ذلك في كلّ قضايا المقارنة التي طرحها من نحو: الرواية التوراتيّة في خلق الكون والعلم، رواية العهد الجديد والعلم، ورواية القرآن الكريم والعلم، كما تظهر في المقارنة بين قضيّة عالم الحيوان والقرآن، أو قضيّة عالم النبات والحيوان، وغيرها من القضايا[1].

المقارنة هنا ليست بين بين دين ودين، أو بين كتاب سماويّ وآخر بصورة مباشرة، وإنّما كان بين كلّ دين أو كتاب وبين العلم، فالمقارنة المباشرة هنا كانت بين الكتاب السماويّ سواء أكان القرآن أو الإنجيل أو التوراة والعلم، لكن هذا لا يعني أنّ المقارنة بين الأديان وبعضها لم تكن في حسبان بوكاي، فقد نستنتج مقارنة بينها ولكن بصورة غير مباشرة، وفق ما يقضي به العلم في القضيّة مجال البحث.

---

[١]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص٢٢٣.

هي مقارنة تقوم على أساس من النقد الداخليّ لا الخارجيّ، ونعني به أنّها مقارنة كانت تهتمّ بالمضمون أو المتن، دون أن تلقي بالًا للنقد الخارجيّ الذي يعنى بالظروف الخارجيّة المحيطة بالنصّ، باستثناء بعض القضايا القليلة التي اقتضت طبيعتها تلك المقارنة التاريخيّة الخارجيّة، كموضوع مصادر الأسفار، وموضوع تدوين القرآن الكريم. لكنّ التوجّه الرئيس في المقارنة البوكابيّة كان معنيًّا بالنصوص أكثر من أيّ شيء آخر[1].

المقارنة عند بوكاي كانت مقارنة تتميّز -رغم كونها محدّدة ومركّزة- بالتفاصيل والجزئيّات، فقد كانت تتبع كلّ جزئيذة من موضوع الدراسة مستدلّةً فيه بكلّ آية وما تنطوي عليه من إشارات علميّة، وهذه المقارنة كان لها أهدافها التي أهمّها: الإحاطة بالجوانب المختلفة للموضوع، بيان مدى التقارب أو التباعد بين النصّ الدينيّ توراةً أو إنجيلًا أو قرآنًا وبين العلم، إظهار الدين أو الكتاب السماويّ المتوافق مع معطيات العلم الحديث[2].

المقارنة هنا تتزاوج مع الدراسة التحليليّة، فبوكاي لم يكن ليقتصر على الدراسة المقارنة، وإنّما أردفها بالدراسة التحليليّة لهذه النصوص للكشف عما بها من إشارات علميّة، فهو يقوم بتحليل النصوص تحليلًا دقيقًا، للكشف عن أوجه التلاقي أو التوافق مع معطيات العلم الحديث، وقد كان لهذه الطريقة عند بوكاي دورها الموثّر؛ لأنّ الغرب كثيرًا ما كان يقدح في الآيات ويشوّه في مضمونها، بحيث قد ينطبع في ذهن الغربيّين للوهلة الأولى عدم وجود توافق ما بين النصّ القرآنيّ والعلم، وهنا تأتي أهمّيّة تحليل النصّ كلمة كلمة وجملة جملة، حتى يتمّ الكشف عن وجود هذا التوافق، وقد ظهر هذا المنهج بوضوح عند بوكاي في مشروعه حول القرآن وقراءته العلميّة له.

المقارنة البوكابيّة هنا مقارنة استدلاليّة برهانيّة تقف على النصوص الدينيّة

[١]- وهذا ما ظهر في كلّ القضايا التي تناولها انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٦٠، ١٩٨، وغيرهما.

[٢]- وهذا ما ظهر جليًّا في قضايا خلق السماء، الإنسان في القرآن، علم الفلك، الحيوان في القرآن وغيرها، انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٨٧، ٢٠١، ٢٢٣.

التي تثبت عمليّة التوافق، وهذا الأمر ظهر أكثر وضوحًا في تناول بوكاي لموضوعات القراءة العلميّة للقرآن الكريم، فالرجل كان دائم البحث عما يستدلّ به على وجهة النظر العلميّة من خلال آيات القرآن الكريم الكثيرة، والمتتبّع لما يسوقه بوكاي من أدلّة يجد عمليّة الاستدلال والبرهان تستحوذ على الكثير من سماته العامّة ومنهجه المقارن خاصّةً.

المقارنة عند بوكاي كانت تشير إلى أوجه الاختلاف بين طرفي المقارنة، وقد حدث ذلك كثيرًا أثناء حديثه عن رواية في القرآن لها نظير في التوراة أو الإنجيل مع بعض الاختلافات، إذ كان يؤكد على اختلاف الرواية القرآنيّة عن الرواية التوراتيّة، مع بيان التأكيد على توافق الأولى مع العلم، وتنافر الثانية منه، في إبراز مصدريّة كلّ كتاب من الكتب السماويّة المتداولة الآن وحظّه من المنبع الإلهيّ الأوّل[1].

٥- التحليل

المنهج التحليليّ واحد من أهم وأكثر مناهج البحث العلميّ استخدامًا، وهو يعتمد على عمليّات تحليل البيانات المتوفّرة عن المشكلة للوصول إلى أفضل الحلول الممكنة أو المحتملة[2].

ومن ثمّ فإنّه لا يمكن فهم قراءة بوكاي للنصّ القرآنيّ وتوافقه من العلم دون أن نقف على المنهج التحليليّ عنده، ويعدّ التحليل في نظرنا هو المرحلة الأولى عند بوكاي -وهو ما ينبغي أن يكون عند غيره أيضًا- في القراءة العلميّة للقرآن الكريم. فلئن كان مشروع بوكاي لا يستند على منهج واحد، وإنّما على عدّة مناهج، فإنّ المنهج التحليليّ كان يحتلّ مكان الصدارة في اهتمام بوكاي؛ لأنّه المنهج الذي يحلّل الدراسة بدقّة ويكشف عن مضامينها ويبرز أفكارها الرئيسة والفرعيّة، حتى يسهل أمام الباحث أو الكاتب أن يدخل إلى عمليّة النقد أو المقارنة، وهو يستند إلى أرضيّة صلبة ينطلق منها إلى أيٍّ منهما.

[١]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص٢٤٩.

[2]- https://www.alno5ba.com/blog.php?id=187&title

لقد كان بوكاي يعمد دائمًا إلى سبر أغوار النصوص التي بين يديه في قراءته للقرآن، وفي قراءته للعهدين القديم والجديد، ولا يكتفي بمجرّد دراسة شكليّة خارجيّة لا تُعنى بالتعمّق في الموضوع، فالمنهج التحليليّ عنده لا يعنى بالظاهر، بل يتعدّاه إلى الباطن والكشف عنه. ويظهر المنهج التحليليّ جليًّا في تناوله لقضايا الأسفار والرواية القرآنيّة والرواية التوراتيّة، وقد قاده هذا المنهج إلى الكشف عن الإشارات العلميّة في القرآن والتي تتوافق مع العلم الحديث، وإلى الكشف عن المخالفات العلميّة في روايات التوراة وروايات العهد الجديد، خاصّة عندما اتجه إلى المزاوجة بين المنهج التحليليّ والمنهج المقارن.

وللمنهج التحليليّ عند بوكاي مجموعة من السمات:

إنّ المنهج التحليليّ عند بوكاي كان يحاول إعادة نظر الغربيّين للقرآن بعد تلك المواقف الغربيّة السابقة تجاهه؛ لبيان ما تنطوي عليه من عوار وتشويه؛ وصولًا إلى الحقيقة العلميّة التي لا يعدلها شيء، ومن ثمّ فقد عمد إلى ترميم كلّ الآراء والمواقف الغربيّة من خلال تحليله وإبرازه لنصوص القرآن التي تحمل عددًا من الإشارات العلميّة. وهذا الترميم وجدناه في أكثر من قضيّة تناولها بوكاي بالدراسة، من ذلك قضيّة تدوين القرآن التي شوّهها الغرب[1]، والتي عمد بوكاي من خلال التحليل إلى ردّ التشويه الغربيّ لها، والإلزام بنقائها وصفائها، والتأكيد على مصدريّة القرآن الإلهيّة. ومن ذلك أيضًا قضيّة أسفار الإنجيل والعلم[2]، وقضيّة الرتق والفتق أو الانفجار الكونيّ[3]، إلى غير ذلك من القضايا التي انتهج فيها بوكاي هذا النهج التحليليّ.

التحليل عند بوكاي -كما يظهر عند كلّ الباحثين الخلَّص الجادّين- يقوم على منهجيّة الجمع بين تحليل النصوص ومقارنتها، فقد اقتضت الظروف المنهجيّة في كثير من مؤلَّفاته اعتماد منهج تحليل النصوص المقارن، غير أنّ هذا التحليل المقارَن

[1]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص155.

[2]- م.ن، ص١٠٥.

[3]- م.ن، ص١٦٣.

لا يعني أنّ بوكاي وقع في قراءة تتعقّب التفاصيل وتهمل البنية العامّة والمقصد الكلّيّ، بل يعني عنده قراءة النصوص قراءة تحليليّة تهدف إلى البناء، فسأتس التحليل أوّلًا، ثمّ يأتي البناء عليه، فهو منهج يسعى إلى كشف النقاب عن المضامين العلميّة للنصوص القرآنيّة في ضوء ما تقدّمه معطيات العلم الحديث، ومن ثمّ فهو منهج لا يقنع بحال بالسياق الجزئيّ، وإنّما يتطلّع إلى ما هو مسكوت عنه أو ما يعجز عنه نطاق القول تحت ضغط الظروف التاريخيّة والعوامل الأيديولوجيّة[1].

المنهج التحليليّ عند بوكاي يجمع بين التحليل والتركيب، بمعنى أنّه كان يحلّل القضايا تحليلًا دقيقًا حتّى في جزئيّاتها وتفاصيلها، ثمّ يردف هذه العمليّة بعمليّة تركيب لهذه الجزئيّات والتفاصيل للوصول إلى الحكم عليها. وهكذا كلّ عمليّة تحليليّة يجب أن يعقبها تركيب، حيث إنّ التحليل قاصر عن تشكيل الوحدة الكلّيّة للقضيّة محلّ الدراسة، ومن ثمّ يستلزم الاستعانة بالتركيب الذي يقوم بهذه المهمّة على الوجه الأكمل[2]. وهذا ما كان يصطنعه في الكشف عن العلاقة بين النصّ القرآنيّ والمعطى العلميّ الحديث، حيث كان يحلّل النصوص القرآنيّة، ثمّ يعيد قراءتها في ضوء العلم الحديث؛ بحيث ينطلق من التحليل إلى نسق تركيبيّ يعيد فيه تأويل الموقف بما يؤكّد التوافق بين القرآن والعلم.

كان بوكاي -وهو ما يتّفق فيه معه كلّ باحث رصين- ينطلق في تحليله من منطلق فهم استقرائيّ ينطلق من النصوص إلى النتائج، غير أنّ الارتكاز على النصّ لا يعني عنده الوقوف بالضرورة عند حدود الشرح القديم له؛ لأنّه كان يؤمن أنّ الشرح النصّيّ لا يمثّل سوى خطوة واحدة تبدو مقدّمة موضوعيّة نحو الصعود إلى التأويل العلميّ الذي ينظر للموقف في ضوء المعطيات العلميّة الحديثة. وهذا يعني أنّ بوكاي لم يكن يفهم الآيات القرآنيّة ذات المغزى العلميّ إلّا بوضعها في نسق العلم الحديث ومعطيات والتطوّر العلميّ الحديث.

---

[١]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٥٠.

[٢]- وهذا ما يظهر جليًّا في عديد القضايا منها: القرآن وعلوم الأرض، وعلم الفلك، وتعدد العوالم، انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٨٤، ٢٠٥، ٢٣١.

يتجاوز المنهج التحليليّ عند بوكاي حدود قراءة العبارات والجمل في النصوص أو الآيات القرآنيّة، إلى قراءة تبحث فيما بين السطور أو ما وراء العبارات، أكثر ممّا تقف عند العبارات نفسها، يتأمّل فيها المستشرق بوكاي المعنى العلميّ الجوّانيّ للنصوص أكثر من اهتمامه بالبحث عن المعاني الظاهرة البرّانيّة، فهي قراءة تحليليّة لا تقنع بما هو منطوق به وحده، قراءة تتطلّع إلى استنطاق ما هو مسكوت عنه من قبل المفسّرين القدماء أو ما عجزوا عن الإحاطة به في عصر العلم[1].

ثانيًا- القواعد المنهجيّة في القراءة العلميّة للقرآن

والقواعد المنهجيّة هي جملة الخطوات التي التزم بها بوكاي سواء بدافع من ذاته أو بدافع من مقتضيات البحث العلميّ، وهي الخطوات أو القواعد التي تكشف عنها قراءته العلميّة للقرآن، وهي تكشف عن بعد منهجيّ وموضوعيّ في آنٍ واحد.

أوّل قاعدة من هذه القواعد المنهجيّة تأكيده على أنّ دراسته للقرآن لا تخضع للبعد الدينيّ والعقديّ بنظره، وإنّما تخضع لبعد علميّ واضح في تناوله للقراءة العلميّة للقرآن الكريم، بمعنى أنّه لم يكن في هذه الدراسة يتّجه إليها من منظور دينيّ، وإنّما من منظور علميّ واضح، فلم يكن تقوده في مرحلة البدء روح تعصّبيّة للدين الإسلاميّ ولا حتى روح مناصرة له، وإنّما كانت تقوده الحقيقة العلميّة التي دافع عنها طيلة حياته. وهذا ما أكّده موريس بوكاي في المحاضرة التي ألقاها بمدينة شيكاغو مع مجموعة من العلماء والأطباء عام ١٩٨٧م.

وهذه القاعدة تكشف بوضوح كيف تختلف طريقة ومنهجيّة موريس بوكاي في دراسة القرآن الكريم عن غيره من المستشرقين السابقين عليه، والذين انطلق كثير منهم وفق بعد عقديّ حاول فيه أن يهدم القرآن انتصارًا لعقيدته، في ضرب واضح لأسس البحث العلميّ السديد، حتى ولو حاولت كتاباتهم أن تظهر كذبًا بعض المسوح العلميّة.

[١]- وهذا ما نجده في قضيّة أصل الإنسان واستمراريّته، وقضيّة عمليّة الإخصاب، انظر: بوكاي، أصل الإنسان، ص١٨٤، ١٩٢.

التحرّر من كلّ حكم مسبق قاعدة من القواعد المنهجيّة التي اتخذها المستشرق بوكاي لنفسه، هذا يعني أنّ بوكاي قد طرح جانبًا كلّ فكرة مسبقة، خاصّة إذا كانت عقديّة، فلم تشغله قضيّة سابقة ولا رأي سابق، مما قد يؤثّر على توجّهه ومن ثمّ النتائج، فقد فرّغ عقله من كلّ المعارف والتوجّهات والآراء، فولج قضيّة القرآن والعلم، وهو آمَنَ أن نتائجه ستؤدّي إليها النصوص ولا شيء غيرها.

وقد أكّد بوكاي على قضيّة التحرّر هذه في أكثر من موضع، سواء أكان في كتابه أو في حواراته ولقاءاته، وهي تعدّ المحور الرئيس الذي قاده إلى ما انتهى إليه، فقد بدأ اختباره للنصوص وهو يضع في ذهنه هذه القاعدة المنهجيّة وسار عليها، وقد كان هناك مجموعة من المعارف والتأثيرات السابقة التي كان من الممكن أن تمارس تأثيرها فيه، كتأثير التعليم الذي تلقّاه في طفولته وشبابه الذي يُلقي عليه فيه معلومات خاطئة تحت مسمّى المحمّديّين لا المسلمين؛ إمعانًا في توجيه الأنظار إلى أنّه دين بشريّ من صنع إنسان؛ كي ينزعون عنه سمته الإلهيّة. لكن بوكاي لم يكن يحتفظ بهذه الأفكار، ودخل في دراسة القرآن مجرّدًا من هذه الأفكار المسبقة، حتى أنّه اندهش بعد القراءة العلميّة العميقة للقرآن من كم الأخطاء الشائعة عن الإسلام عامّة والقرآن خاصّة، وأقرّ بأنّه كان شديد الجهالة قبل أن يكوّن صورة صحيحة عن الإسلام مختلفة عن تلك الصورة المعطاة في الغرب[1].

قبل القراءة العلميّة للقرآن الكريم ألزم المستشرق موريس بوكاي نفسه بردّ الشبه والأباطيل المثارة عن الإسلام في الغرب، وتقديم صورة صحيحة عنه. فقد استنكر تلك الصورة التي أوصلها بعض الغربيّين إلى أذهان الناس في الغرب، وقد هاله أن تصدر هذه الصورة عن أناس يفترض فيه صفة العلم. يقول بوكاي: «إنّ الأحكام الضالة كلّ الضلال التي صدرت في الغرب بحقّ الإسلام كانت وليدة الجهل أحيانًا، أو نتيجة التهجّم التلقائيّ، وأفظع هذه الضلالات انتشارًا هي المتعلّقة بالوقائع، فإذا كان بالإمكان إيجاد عذر للأخطاء الناتجة عن سوء

[1]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٤٨.

التقدير، فلا سبيل إلى ذلك مع ما يتناقض مع الحقيقة»[1].

ولذلك فإنّ هذه القاعدة من القواعد المنهجيّة التي نرى أنّها ظاهرة بجلاء في قراءة بوكاي للقرآن، وهو هنا أشبه بمن يمهّد الأرض قبل أن يبذر البذور؛ إذ كان عليه أوّلًا أن يشير إلى اللاعلميّة في مواقف بعض الغربيّين، ثمّ يردّ عليها بالأسانيد العلميّة والمنطقيّة ومن خلال أقوال بعض رجال الدين المسيحيّ كذلك.

ومن القواعد المنهجيّة استعانة بوكاي بعدد من الآيات ما بين ١٥٠ و٢٠٠ آية من آيات القرآن التي تحمل بعض الإشارات العلميّة، ثمّ قام بتبويبها وفقًا لمجالات وعلوم متعدّدة، وبالنظر والتدقيق انتهى إلى تأكيد المصدريّة الإلهيّة للقرآن؛ إذ بنظره إلى تاريخ العلوم انتهى إلى أنّه من المستحيل أن يكون القرآن عملًا بشريًّا منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا. يقول بوكاي: «لقد حدّدت بعض الآيات التي لم يعيروها -يقصد الكتاب المسلمين- حتّى الآن الأهمّيّة التي تستحقّها كما يبدو لي من وجهة النظر العلميّة، فآمل ألّا يقسوا عليّ إذا كنت قد ارتكبت أخطاءً لعدم أخذي بالاعتبار في هذه الدراسة آيات كانوا هم قد انتقوها، وقد عثرت أحيانًا أيضًا في بعض الكتب على تفسيرات علميّة لا يبدو لي أنّها صحيحة، وقمت بانتقائها وتفسيرها تفسيرًا شخصيًّا باستقلال فكريّ وإخلاص تامّين»[2].

وموقف المستشرق بوكاي هنا في اتخاذه لهذه القاعدة المنهجيّة أشبه بمن يضع أساس البناء، فكما أنّ المبنى -أيّ مبنى- لا بدّ له من أن يُقام على أساس؛ لكي يصحّ البناء، فكذلك قضيّة القرآن والعلم الحديث كان لا بدّ من أن تقوم على إحصاء واستقراء واضح لعدد الآيات التي تمتلئ بالإشارات العلميّة؛ لكي يكون ثمّة أساس يُنطلق منه فيها، وهذا ما قام به بوكاي.

وفي سبيل ذلك استعان بوكاي بعدد من المعارف الجديدة في تفسير بعض الآيات القرآنيّة، فالقرآن يحمل إشارات علميّة كانت مجهولة في زمن نزوله وبعده،

---

[١]- م.ن، ص١٣٩.

[٢]- م.س، موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٥٠.

ولم يكشف عنها إلّا العلم الحديث. «إنّ التقدّم المنجز في أيّامنا بفضل المعارف العلميّة في تفسير بعض صورة القرآن غير المفهومة والتي أسيء تفسيرها حتّى هذا الوقت يشكّل ذروة المجابهة بين الكتابات المقدّسة والعلم»[1].

تحديد الموضوع الذي سيتناوله بدقّة، لا سيّما في مجال المقارنة بين الأديان السماويّة الثلاثة: اليهوديّة التوراة، المسيحيّة الإنجيل، الإسلام القرآن، تحديده للموضوع منع في الدخول في قضايا لا طائلة منها ولا تمتّ له بصلة، ومن ثمّ كانت هذه الموضوعات محدّدة، منها: تاريخ تدوين العهد القديم والأناجيل وتاريخ تدوين القرآن الكريم، ومنها الطوفان ونشأة الكون، وغيرهما من الموضوعات التي حدّدها بوكاي بدقّة. كلّ ذلك في الإطار العامّ لدراسته، الذي يقول عنه: «وهدفي هنا ألّا أتناول سوى وجه من الموضوع، وهو اختبار الكتب المقدّسة في ضوء المعارف العلميّة الحديثة»[2].

حدّد المستشرق بوكاي من بداية حديثه عن مشروعه العلميّ المعطى العلميّ الذي سيجعله معياره في الحكم على النصوص الدينيّة في كتب الأديان الثلاثة، فالمعطى العلميّ عنده هو الذي تمّ اعتماده بصورة نهائيّة، بما يعني أنّه يعتمد على ما انتهى إليه العلم الحديث بصورة يقينيّة؛ وذلك لإيمانه العميق بأنّ اعتبارات السمة العلميّة لمقولة من الكتب المقدّسة قبولًا ورفضًا تتطلّب الدقّة بالضرورة، وهذا معيار وقاعدة منهجيّة ألزم نفسه بها. يقول بوكاي: «إنّ هذه المواجهة بين الكتابات المقدّسة والعلم تُظهر بالنسبة للتوراة كما بالنسبة إلى القرآن مفاهيم لها صلة بالحقيقة العلميّة، وينبغي لكي تكون المواجهة مقبولة وصحيحة أن يكون السند العلميّ الذي نرتكز عليه كاملَ الثبوت، ولا يحتمل أيّ شكّ»[3].

نعم، كان موريس يدرك أنّه يوجد من يرفض قبول مداخلة العلم في تقويم الكتابات، بداعي أنّه لن يكون قادرًا على تحديد شكل صحيح لهذه المقارنة،

---

[1]- م.ن، ص١٩.

[2]- م.س، موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٦.

[3]- م.ن، ص١٥١.

مستندين في ذلك إلى أنّ العلم متبدّل مع الزمن، وقد يكون الحدث مقبولًا منه في زمن ما مرفوضًا في زمن آخر. إلّا أنّه وإن كان يعترف بوجاهة التعليل، أي تبدل العلم مع الزمن، إلّا أنّ هذا التعليل قاده إلى بيان الفرق بين الملاحظة الدقيقة والنظريّة العلميّة، وما يمكن أن يُستند إليه في هذه المقارنة[1].

موقف الرافضين هذا استدعاه إلى الاستعانة بالملاحظة الدقيقة على حساب النظريّة العلميّة؛ لأنّه نظر إلى أنّ غاية النظريّة إنّما هي توضيح حدث أو مجموعة أحداث صعبة الفهم، وبناءً عليه استنتج أنّها متغيّرة وغير ثابتة في العديد من الأحوال، كما أنّها قابلة للتحوّل، وعُرضة لأن تُستبدل بغيرها، عندما يتسنّى للعلم الوصول إلى تحليل أفضل للوقائع أو بتصوّر تفسير أكثر صحّةً. في حين على العكس من ذلك تمامًا «فإنّ فعل الملاحظة المحقّق تجريبيًّا لا يكون قابلًا للتحوّل، فقط يمكن تحديد خصائصه بصورة أفضل، ولكنّه يبقى كما كان، وما كنّا أثبتناه من أنّ الأرض تدور حول الشمس، وأنّ القمر يدور حول الأرض لن يكون موضوع إعادة نظر، وإن كنّا نستطيع في المستقبل وبصورة أحسن تحديد مدارات الكواكب الفضائيّة»[2].

ونظرة بوكاي هنا للسمة المتبدِّلة للنظريّات هي التي حدت به إلى استبعاد بعض الآيات القرآنيّة، من ذلك ما ذهب إليه أحد العلماء الذي استشفّ من آية قرآنيّة بأنّها تعلن مفهوم اللامادّة، وقد رفضها بوكاي باعتبارها نظريّة داور حولها جدل كبير، وعلى العكس من ذلك فقد لفتت انتباهه آية من القرآن تذكر أصل الحياة المائيّ وقد استحسنها على الرغم من أنّه لا يمكن إثباتها مطلقًا، باعتبار أنّه تلتقي عليها آراء كثيرة. ومن ذلك أيضًا ما استند إليه من مراحل تطوّر الجنين، فقد أكّد على أنّ المراحل التي ذكرها القرآن تتوافق تمامًا مع المعطيات الحديثة في مجال علم الأجنّة[3].

[١]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٥١.

[٢]- م.ن، ص١٥١.

[٣]- م.ن، ص١٥١.

ومن ثمّ -وبناءً على ذلك- فقد حذف من حسبانه كلّ النظريّات التوضيحيّة التي تكون صالحة في عصر ما دون غيره، لبيان ظاهرة يمكن إبطالها أو نسخها أو استبدالها بالتالي بأخرى أكثر ملاءمة للتطوّر العلميّ، ويزيد بوكاي الأمر وضوحًا، فيقول: «وما نواجهه هنا هو الوقائع التي لا يمكن العودة عنها فيما بعد، حتى ولو لم يحمل العلم إلّا المعطيات غير الكاملة، ولكنّها من الثبوت بحيث يمكن ممارستها من دون خطر الوقوع في الخطأ»[1]. فالشرط هنا هو شرط ثبوت النظريّة في ميزان العلم، فإن لم تكن ثابتة -وإن اعتمد في بعض القضايا التاريخيّة على نظريّات تقريبيّة- فلا حاجة له فيها، وهذا شرط مهمّ للغاية، حماية وصونًا للدين واحترامًا وتقديرًا لقيمة العلم والعقل الذي توصّل إليه. ولنا أن نتخيّل عندما يربط مفكّر ما بين الدين وموقف علميّ ما لم يثبت رسوخه، فما موقف المتلقّين من الدين، خاصّة أعداؤه؟! لا شكّ أنّهم سوف يكيلون الاتّهام للدين، فيضرّ الأمر بالدين من حيث أراد أن ينفعه. وهذا في التحليل الأخير يبيّن ضرورة التفكير جيّدًا قبل القدوم إلى هذا المعترك أو الاضطلاع بهذا الأمر؛ وذلك للخطورة المترتّبة عليه، كما أنّه يجب على الشخص ذاته أن يكون مدركًا للنصّ الدينيّ إدراكًا جيّدًا، في الوقت ذاته الذي يكون فيه حصيفًا في المجال العلميّ الذي يراد الربط بينه وبين الدين.

لكنّ بوكاي يعتمد في بعض الأحيان على بعض القضايا التاريخيّة أو العلميّة التقريبيّة، ليبني عليه حكمه في صحّة أو خطأ أحد النصوص المقدّسة، مثلًا نحن نجهل التاريخ الحقيقيّ لنشأة الإنسان على الأرض، لكن استند إلى ما تمّ اكتشافه حول وجود آثار أعمال إنسانيّة ترجع إلى عشرة آلاف سنة قبل الميلاد للحكم على عدم جواز اعتبار النصّ التوراتيّ لسفر التكوين صحيحًا؛ لأنّ هذ السفر يُرجع بداية نشأة الكون على الأرض أو خلق سيّدنا آدم إلى ٣٧ قرنًا قبل المسيح، ومن ثمّ يعلّق بوكاي على ذلك بحزم قائلًا: «وبإمكان العلم أن يقوم في المستقبل بتدقيقات في التأقيت أعظم من تقديراتنا الحاليّة، لكنّنا نستطيع أن نكون واثقين بأنّنا لن نثبت أبدًا أنّ الإنسان ظهر على الأرض منذ ٥٧٣٦ سنة كما شاء التقويم العبريّ سنة

[١]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٩.

١٩٧٥، إنّ معطيات التوراة المتعلّقة بالإنسان القديم هي إذًا خاطئة، هذه المقابلة مع العلم تبعد كلّ مسألة دينيّة بالمعنى الصحيح»[1].

وهذا يعني أنّ بوكاي وإن اعتمد نظريّة تقريبيّة أو موقفًا تقريبيًّا، فإنّه لا بدّ أن تقدّم أو يقدّم القليل المتاح منها أو منه دليلًا لا يقبل الشكّ؛ لكي يستند إليه في التأكيد على بيان صحّة النصّ الدينيّ أو خطئه، وهذا ما استند إليه في قضيّة نشأة الكون خلق آدم، فآخر ما توصل إليه العلم في هذه القضيّة ينسف ما ورد في التوراة؛ حيث أثبتت العلوم وجود آثار للإنسان على الأرض منذ عشرة آلاف سنة قبل الميلاد، هذا هو المثبت، لكنّ هذا التاريخ قابل للزيادة؛ إلّا أنّه لم يثبت بعد، فما أثبته العلم وأكّده ينافي ما ورد في التوراة.

وهذا يعني أنّه على الرغم من أنّ بوكاي قد اعتمد في أحيان نادرة على ما هو تقريبيّ من العلم، فإنّ ذلك باعتبار أنّه كان يدرك جيّدًا أنّ هذا التقريبيّ يغطّي القضيّة محلّ البحث بما لا يخلّ بالنتائج التي يتمّ التوصّل إليها، كما أنّه لم يستند إلّا على الجزء المثبت علميًّا منها، وكأنّه يقول إنّه إذا كانت هناك نظريّة تقريبيّة في مجملها، ولكنّها تتضمّن جزءًا مثبتًا بالدليل، فلا مانع من الاستناد إلى هذا الجزء لا النظريّة كلّها.

وهذه القاعدة المنهجيّة لا تقلّ في أهمّيّتها عن القواعد السابقة، فبوكاي لم يكن ينظر إلى القرآن من خلال تجميله للقارئ بقيم يصطنعها هو كمؤلّف ثم يخلعها عليه؛ لإيمانه بعدم جواز ذلك، وإنّما دفعته القراءة الموضوعيّة إلى معرفة النصوص ومعرفة تاريخها، وهذه هي القاعدة؛ إذ لم يكن يصدر حكمًا ما إلّا بناء عن معرفته بتاريخ النصّ الموحى، فضلًا عن الإلمام بمضمونه وجوهره، وهي قاعدة تقدّم له خدمة جليلة، حيث تمكّنه من تكوين فكرة واضحة عن الظروف التي أحاطت بالنصّ، وهذا ما دعاه إلى دراسة أصالة القرآن نزولًا وتدوينًا وجمعًا. وهذه القاعدة لم تكن حكرًا على دراسته للقرآن فحسب، بل كانت معه حيثما حلّ في دراساته عن نصوص التوراة والأناجيل.

---

[١]- م.ن، ص٢٠.

ألزم بوكاي نفسه بتصحيح الترجمات التي أساءت إلى القرآن عمدًا، أو تلك التي أسيء فهمها من قبل الغربيّين أنفسهم، وكذلك ألزم نفسه بتصحيح الشروح التي أسيء شرحها من قبل الشرّاح المسلمين؛ لإيمانه العميق بأنّ ذلك هو الوسيلة المثلى للكشف عن الوجه الناصع البياض للوحي القرآنيّ. هذا التصحيح كان وسيلته للكشف عن التوافق العجيب بين النصّ القرآنيّ ومعطيات العلم الحديث؛ لأنّ الترجمات لم تقف على هذا التوافق، وكذلك لم يكن بمقدور الشرّاح التوصّل إليه؛ كون هذه المعطيات لم تتكشّف إلّا في عصرنا الحالي. «إنّ توضيح ذلك هو بفعل المترجمين الذين يعتمدون غالبًا دون وعي الفكر الناقد ترجمات الشرّاح القدامى الذين كان لهم في أزمانهم أعذار عندما أعطوا للكلمة العربيّة ذات المعاني المتعدّدة معنى غير مقبول، لعجزهم عن فهم المعنى الحقيقيّ للكلمة أو للعبارة التي اتّضحت لنا في هذه الأيام فقط بفضل معرفتنا العلميّة»[1].

ومن ثمّ فقد ألزم نفسه بذكر هذه الإساءات سواء أكان في الترجمة أو في الشروح الخاطئة، التي لم تكن ترجمتها أو شروحها الصحيحة معروفة، وبالتالي لم تكن تدهش أحدًا من الناحية العلميّة، بخلاف الأمر في العقود الماضية التي بدأت تتكشّف فيها الحقائق والإشارات العلميّة المتضمّنة في القرآن، والتي صارت تدهش الجميع؛ الأمر الذي يدفع دفعًا إلى الالتزام بتصحيح كلٍّ من الترجمات والشروح التي لم تستطع أن تعي هذه الحقائق، ولم تصل إليها لعجزها عنها وعدم إدراكها لها؛ ولهذا يقول بوكاي جازمًا: «فقد أصبح مفروضًا أن نطرح موضوع المراجعة للترجمات أو الشروح التي لم يكن أصحابها أهلًا للقيام بها في زمن ما، بينما أصبحنا في أيّامنا هذه نملك وسائل يمكنها أن تكشف لنا المعنى الصحيح»[2].

من القواعد المنهجيّة التي ألزم بها بوكاي نفسه دراسة النصّ القرآنيّ في لغته الأصليّة، ومن ثمّ فقد اتّجه إلى تعلّم اللغة العربيّة؛ إيمانًا بأنّ دراسة النصّ القرآنيّ باللغة العربيّة الأصليّة تعدّ وحدها التي تؤدّي إلى تجنّب الوقوع في أخطاء كتلك

[١]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٤٧.

[٢]- م.ن، ص١٤٧.

الأخطاء التي وقع فيها المترجمون القدامى، خاصّة إذا قام بها من يمتلك ثقافة علميّة، وقد أكّد على هذا المعنى قائلًا: «كان عليَّ أن أتعلّم اللغة العربيّة وأقرأ القرآن الكريم؛ لأدرك المعنى الدقيق لكلّ آية، وكان ذلك بالنسبة لي فرصة لأخرج باستنتاجات مذهلة، مع المعلومات الأساسيّة عن القرآن الكريم -الخاطئة في البداية كالتي تملكها الغالبيّة العظمى من الغربيّين- لم أكن أتوقّع بأيّ حال أن أجد في القرآن الكريم ما كشفت عنه؛ إذ إنّني كنت بعد كلّ اكتشاف -وأنا المعتاد على الشكّ بمعنى الخشية من أن أكون قد أخطأت بالترجمة- بأن أقوم بتفسيرات أكثر منها ترجمة فعليّة، وما هو إلّا بعد حصولي على آراء عدّة من علماء اللغة والاختصاصيّين بتفسير القرآن مسلمين وغيرهم، حتى كنت قد غدوت مقتنعًا بأنّ معلومات جديدة كان يمكن أن تنبثق من هذه الدراسة»[1].

لقد تمكّن من خلال الإلمام باللغة العربيّة من الوصول إلى معلومات متعلّقة بالقرآن، ونخصّ من هذه المعلومات معلومتين، هما:

الأولى، المطابقة التامّة بين النصوص القرآنيّة والمعطيات العلميّة الحديثة، وهو ما يتعلّق بأمور ما كان في وسع إنسان في عهد النبوّة أن يمتلك المعرفة بتلك المعطيات.

الثانية، بعد النصّ القرآنيّ عن الأسطرة، فليس فيه أساطير أو معتقدات باطلة، في الوقت الذي وجد بوكاي في الكتاب المقدّس خلاف ذلك[2].

لقد ألزم بوكاي نفسه بخطوة نعدها منهجيّة في سبيل القراءة العلميّة للقرآن، وهي أنّ جهوده انصبّت على اختبار نصّ القرآن عبارة عبارة، وساعده في ذلك إلمامه باللغة العربيّة ودروبها؛ حيث تعلّمها وأتقن التحدّث والقراءة بها، لكنّ هذه الخطوة المنهجيّة ما كان لها أن تكتمل من دون طلب المساعدة من التفسيرات المختلفة والتي لم يكن بإمكانه الاستغناء عنها في دراسته النقديّة هذه، وإن كانت

---

[١]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص١٧٣.

[٢]- م.ن، ص١٧٣.

هذه التفسيرات مجرّد فواتح لمغاليق المعنى، إلّا أن المرتكز الحقيقّي هنا كان المؤلَّفات التي أصدرها بعض العلماء والمفكّرين المسلمين والتي كانت مخصّصة لبعض الظواهر العلميّة في القرآن الكريم، مما كان له أكبر الأثر في تزويده بكمٍّ من المعلومات العلميّة في القرآن والتي أفادته في قراءته له، فكانت النتيجة المذهلة، والتي يقول عنها: «لقد أدهشتني دقّة بعض تفاصيل الكتاب المندرجة في النصّ الأصلي بسبب توافقها مع أحدث مفاهيمنا اليوم، ولكن التي لا يمكن لإنسان في عصر محمّد أن تكون له عنها أيّ فكرة»[1].

لكن اللغة العربيّة وحدها عند بوكاي لم تكن كافية للكشف عن التفسيرات العلميّة للآيات، ومن ثمّ فقد ألزم نفسه -في قاعدة منهجيّة جديدة- بمحاولة امتلاك معارف علميّة متنوّعة. نعم، لقد تبحّر في المعارف اللغويّة وتعلّم اللغة، لكنَّ ثمّة شيئًا آخر لا بدّ من امتلاكه للوصول إلى فهم الإشارات العلميّة للقرآن، ولم يتأتَ له ذلك إلّا من خلال التبحّر في بحر العلوم المتعدّدة في ظلّ الاكتشافات العلميّة الحديثة. وهذا ما أكّده بقوله: «ودراسة مثل هذه -يقصد القراءة العلميّة للقرآن- هي جامعة للدساتير والمعارف، وستتأكّد مع اطراد طرح الأسئلة المتولّدة من تنوّع المعارف العلميّة التي هي ضروريّة لالتقاط معنى بعض آيات القرآن»[2].

وهذا لا يعني أنّه كان ينظر إلى القرآن على أنّه كتاب يعرض للأنظمة التي تحكم الكون، بل كان يدرك جيّدًا أنّه كتاب دين يحوي العديد من الإشارات العلميّة التي تناسب أوصاف القدرة الإلهيّة المطلقة التي تستنهض الناس للتفكير في أعمال الخلق، مقترنة بإشارات إلى وقائع خاضعة للملاحظة الإنسانيّة، أو إلى قوانين حدّدها الله تحكم نظام الكون في مجال العلوم الطبيعيّة، أو فيما يخصّ الإنسان، ولا شكّ في أنّ بعض هذه الأمور سهل الفهم، وبعضها لا يمكن الوصول إلى معناه المراد إلّا إذا امتلكنا المعارف العلميّة الضروريّة لذلك[3].

---

[١]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٤٨-١٤٩.

[٢]- م.ن، ص١٥٠.

[٣]- م.ن، ص١٥٠.

من أقوى النقاط المنهجيّة عند بوكاي أنّه لم يكن ينظر إلى القرآن على أنّه كتاب مماثل للكتاب المقدّس، كما أنّ مصدريهما لم يكونا في نظره متماثلين أيضًا، ولعلّه استند هنا إلى الموضوعات والروايات التي يزخر بها الكتابان، فهو بالنظر إلى الكتاب المقدّس يضعه في دائرة الكتب التي تتّخذ معلومات تتعلّق ببعض معتقدات العصر، والتي تعود إلى الأساطير والأباطيل المختلفة، حتى صار النصّ مليئًا بأقوال مأخوذة من روايات مختلفة ذات منشأ غامض في غالبيّة الأحيان، فصار النصّ الأصلي متضمّنًا روايات عديدة ومتوالية غير صحيحة[1]. في حين لم يحدث ذلك، ولم يوجد من الأساس في القرآن الكريم على الإطلاق، باعتراف بوكاي ذاته. وتلك القاعدة المنهجيّة لا يكتمل فهمها عند بوكاي إلّا بقاعدة مرتبطة بها، وهي أنّ بوكاي لم يبحث في القرآن الكريم -وهو كتاب يعترف له بوكاي بالكمال- عن قوانين علميّة، فهو لم يبحث عن بعض الجمل أو التعبيرات كي ينطلق منها إلى القول إنّ القرآن الكريم كتاب قوانين علميّة، وإنّما كان يبحث فيه عن أفكار وإشارات عن بعض الظواهر الطبيعيّة التي كان هدفها إظهار القدرة الإلهيّة المطلقة. «هذه الأفكار التي تثبت تلك القدرة أمام أنظار الناس جميعًا في كلّ الأزمان، وقد اتخذ وجودها في القرآن معنى خاصًّا في عصرنا، حيث إنّ معناها يظهر واضحًا جدًّا عند مقابلتها مع معطيات المعرفة، هذه الميزة الفريدة مختصّة بالقرآن الكريم»[2].

توجد قاعدة منهجيّة أخرى ألزم بها بوكاي نفسه، وهي الارتكاز على الوقائع التي تقدّمها الاستنتاجات المنطقيّة، وهي تلك الوقائع التي من الواجب استخراجها، وهي قاعدة تصبّ في مجال الأمانة العلميّة، فقد كان يدرك أنّه لو لم يقم بهذه الدراسة، فإن دارسين سواه سوف يقومون بها عاجلًا أم آجلًا. لقد ولج بوكاي شيئًا جديدًا في دراسة القرآن الكريم، وتحرّى فيه أعلى مستويات الدقّة، على الرغم من أنّ الذهنيّة الغربيّة كانت تضع حدودًا فاصلة بين الإيمان والعلم، وتفصل الاعتبارات العلميّة عن أن تدخل في دراسة الأديان. «لكنّنا كما سبق مع الكتاب المقدّس رأينا

[1]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص١٧٦-١٧٧.

[2]- م.ن، ص١٧٧.

بأنّ اعتبارات كهذه لم تكن مستبعدة من دراسة نصوصه؛ إذ إنّ القارئ سيدرك سعيدًا بأنّ درس نصّ قرآنيّ يستلزم أن نلجأ أكثر إلى معطيات العلم، بسبب تعدّد المقارنات الواجب اللجوء إليها، طالما أنّ غنى النصّ كبير من وجهة النظر هذه، حتى عن الموضوع المحصور نسبيًّا المتعلّق بالإنسان، بالنسبة إلى تشعّب المواضيع الأخرى المبحوثة في القرآن الكريم»[1].

من المعلوم أنّ بوكاي كان باحثًا جيّدًا عن المفهوم الشامل للانسجام بين الدين والعلم، وعلى هذا الأساس اتخذ منهجيّة واقعيّة ومحدّدة، وهي الاعتماد على الوقائع والأخذ بالمعطيات العلميّة التي أتى بها العلم والدفاع عنها، والحكم عليها وفق مقاييس واضحة، وهذا يفسّر لنا سبب انتقاده الدائم للكثير من العلماء والفلاسفة الذين يقدّمون تصوّراتهم الميتافيزيقيّة قبل الوقائع المادّيّة، فضلًا عن أنّهم يقدّمون تصوّراتهم وأحكامهم المسبقة حول الدين، ومن ثمّ يصعب بل يستحيل معها تصحيح هذه التصوّرات والأحكام. وقد انتقد بوكاي منهج هؤلاء تأكيدًا على منهجيّته وإبرازًا لأهمّيّتها قائلًا: «والحاصل هو أنّ بعض العقول النبيهة تفقد كلّ معنى لما هو واقع ملموس؛ إذ إنّ كتاباتهم تدلّ على ميلهم المطلق نحو الغموض، وقليلون من بين الفلاسفة هم الذين رصّعوا دليل فرضيّاتهم باعتبارات مختلفة عن تلك المألوفة في جدليّاتهم. بالطبع فنحن نتصوّر الصعوبة القصوى بالنسبة لكثيرين للتحكّم بمعطياتهم البعيدة جدًّا عن تلك التي أَلِفوا أن يستعملوها. ولكن عندما نفكّر بالتعرض لمواضيع -حيث إنّ وقائعها الملموسة على جانب كبير من الأهمّيّة- علينا أن نرضخ أمام متطلّبات البحث في المجال المادّيّ، وإلّا كان حكمنا عليها واهيًا»[2].

ولعلّ المتأمّل في مشروع بوكاي حول القراءة العلميّة التوفيقيّة للقرآن الكريم، والتي ضمّنها كتابيه: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم الحديث، وأصل الإنسان بين العلم والأديان السماويّة، سيدرك إلى أيّ مدى كان بوكاي ملتزمًا بهذا المنهج الذي

---

[١]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص١٧٩.

[٢]- م.ن، ص٢٢٨.

وضعه لنفسه، فقد كان يضع أمامه في كلّ قضيّة الوقائع العلميّة جنبًا إلى جانب التعليمات الدينيّة، لا لينتصر لأحدهما على الآخر، ولكن ليبيّن التوافق التامّ بينهما.

وهذا ما نلمسه بقوّة في كلّ ما عرض له بوكاي من قضايا سواء أكانت تتعلّق بالكون أو عالم السماوات والأرض، والنبات والحيوان، وكذلك أصل الإنسان، على الرغم من أنّنا قد وقفنا على بعض من الانتقادات التي يمكن أن تُوجه إليه في بعضٍ من تفصيلات العديد من القضايا التي بيّناها في موضعها، إلّا أنّ هذا لا يقلّل في الغالب من المنهجيّة التي اعتمد عليها بوكاي في هذه القضايا وفي غيرها.

الباب الثاني

قراءة النصّ القرآنيّ والنقد العلميّ

الفصل الأول

مرتكزات القراءة عند بوكاي

الفصل الأوّل

مرتكزات القراءة عند بوكاي

أوّلًا: أصالة القرآن ومصدريّته

شغلت قضيّة أصالة القرآن الكريم المستشرقين في مجال الدراسات الاستشراقيّة، فقد بحث الكثير منهم عن مصدريّة القرآن الكريم، والغالبيّة العظمى منهم كانت النتيجة عندهم مسبقة، وهي بشريّة المصدر القرآنيّ، فهؤلاء القوم كانت دراستهم للقرآن تهدف للوصول إلى نتائج بعينها، فلم يكن يقودهم البحث العلميّ، وإنّما كان يقودهم تعصّبهم، والنادر منهم من توصّل إلى هذه النتائج عن غير عمد.

وقد اتّخذ المستشرقون لنفي المصدريّة الإلهيّة للقرآن العديد من الوسائل التي كانت معدّة بدقّة، وتكشف عن قصديّة وعمد واضحين، فمنهم من اتّخذ من التشكيك في القصص القرآنيّ وسيلة لنفي هذه المصدريّة، وادّعاء بشريّة القرآن[1]، ومنهم من اتّخذ من الزعم بوجود أخطاء لغويّة وسيلة لذلك[2]، ومنهم -وهم كثر- من أشاع الشبه والأباطيل حول القرآن الكريم[3]، إلى غير ذلك من الوسائل التي لا تصمد أمام

---

[١]- كأوري روبين المستشرق اليهودي، انظر:

Rubin, Between Bible and Qur'an: The Children of Israel and the Islamic Self-Image, The Darwin press. ING, PRINCETON, NEW GERSEY, 1999, P. 61.

وكالمستشرق اليهودي أيضًا إبراهام جايجر، انظر:

محمّد عبد الرحيم الزيني، الاستشراق اليهوديّ، رؤية موضوعية، مصر، دار يقين للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م، ص٣٦.

[2]- Bellamy, Some proposed emendations to the text of the Koran, Journal of American Oriental Society, Vol: 113, No: 4, Oct – Dec, 1993, 563.

[٣]- انظر: على سبيل المثال مونتجمري، محمّد في مكّة، نقله إلى العربيّة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، القاهرة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ١٩٩٤م، ص١٧٠.

النقد العلميّ والسليم، بل إنّها تحمل في ثناياها عوامل تهافتها وضعفها.

ولعلّ المتأمّل في بعض إنتاج المستشرقين يجد ذلك واضحًا، انظر مثلًا إلى كتاب تاريخ القرآن لنولدكه، وكم الافتراءات على القرآن الكريم[1]، علماً بأنّ هذا الكتاب تعرّض إلى نقد علميّ رصين من أقلام مفكّرين مسلمين. وانظر أيضًا إلى كتاب المصادر الأصليّة للقرآن لسان كلير تيسدال[2]، ليتبيّنّ لك مقدار ما يتضمّنه من افتراءات وأكاذيب حول مصدريّة القرآن من خلال الزعم باقتباس القرآن من الديانات السابقة عليه حينًا، ومن خلال الزعم بالاقتباس من الشعر الجاهليّ وغيرها من الوسائل الزائفة التي استخدمها للإيهام ببشريّة القرآن، وغير هذين الكتابين كثير مما يتحامل على القرآن في قضيّة المصدريّة الإلهيّة.

وربما هال المستشرق موريس بوكاي هذا الكمّ من الافتراء وغيره على هذه المصدريّة، ومن ثمّ فقد أفرد مساحة من فكره وجهده لبحث هذه القضيّة؛ للكشف عما يحيط بها من تشويه وافتراء. وقد خطّ بوكاي لنفسه طريقًا مميّزًا لمعالج هذه القضيّة؛ إذ رَبَطَها بالحديث عن مصدريّة التوراة والإنجيل أيضًا وحظّهما من المصدريّة البشريّة أو الإلهيّة[3]، وكأنّه يؤكّد على المقولة الشهيرة: وبضدّها تتميّز الأشياء.

لقد أراد أن يجعلها مقارنة علميّة تكشف بوضوح ما الكتاب الذي يمتلك المصدريّة الإلهيّة؟ وما الكتاب -أو الكتابان- الذي لا ينفكّ عن المصدريّة البشريّة؟ وقد حقّقت له هذه المنهجيّة الكثير من النتائج التي لا يملك أمامها الباحث العلميّ الرزين إلّا أن يسلّم بها، لقوّتها وحجّيّتها والأدلّة العلميّة التي تستند إليها. ولعلّ هذا سبب التأكيد الراسخ على أنّ لأصالة نصّ القرآن مكانة منفردة بين كتب الوحي لا ينازعه فيها العهد القديم ولا العهد الجديد، معتمدًا على أنّ ثمّة تعديلات طرأت

---

[١]- انظر: نولدكه، تاريخ القرآن، نقله إلى العربيّة جورج تامر، بيروت، مؤسّسة كونراد أدناور، ٢٠٠٤م، ج٣.

[٢]- انظر: سان كلير تيسدال، المصادر الأصليّة للقرآن، ترجمة: عادل جاسم، بغداد بيروت، منشورات الجمل، الطبعة الأولى، ٢٠١٩م.

[٣]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص٢٢، ٢٨، ٩٤.

على هذين العهدين، أمّا القرآن فنظرته إليه تنحصر في كونه كتابًا لم يطرأ عليه أيّ تعديل أو تدخّل بشريّ؛ لأنّه دُوّن في عهد النبيّ الكريم[1].

إنّ بوكاي كان يدرك جيّدًا أنّ الفروق الزمانيّة -بين نزول القرآن وتدوينه وبين نزول التوراة والمسيحيّة على سيّدنا موسى وسيّدنا عيسى على الترتيب وتاريخ تدوينهما- ليست إلّا دليلًا خارجيًّا على صحّة ما ذهب إليه، لكنّه كان يعير اهتمامه أيضًا للظروف التي حكمت تدوين نصوص الوحي اليهوديّ-المسيحيّ، ونصوص الوحي القرآنيّ، والظروف التي تحكّمت كذلك في نزول القرآن الكريم على الرسول. ومن ثمّ فقد كان بوكاي مؤمنًا بأنّ النصّ القرآنيّ الذي يعود إلى القرن السابع الميلاديّ كان له حظُّ الوصول إلينا دون أن تمّسه يد التغيير، مثلما أصاب النصّين اليهوديّ والمسيحيّ ممّا يعود إلى خمسة عشر قرنًا، لكنّه لم يكن ليقف عند هذه القضيّة للتدليل على ذلك فقط؛ لأنّه كان يرى أنّ ذلك لا يحقّق توضيحًا كافيًا. وهذا ما استدعاه إلى إبراز قضيّة تدوين القرآن للتأكيد على المصدريّة الإلهيّة له، فضلًا عما اتّجه إليه فيما بعد من فحص مضمون القرآن ذاته في معطياته العلميّة للتأكيد على الغاية ذاتها.

لقد كان بوكاي منشغلًا بالإجابة على تساؤل مؤدّاه: هل كان في القرآن تضادّ أو خطأ؟ لكنّه وهو في سبيل إظهار تلك الإجابة ناصعة للقارئ كان عليه أن يعرج أوّلًا إلى الإجابة على سؤال تقود الإجابة عليه إلى الإجابة على السؤال الأوّل، وهو: هل في العهد القديم والعهد الجديد تضادّ أو خطأ؟ وذلك لكي يبيّن البون الشاسع بين نصّ حافظَ على سلامته من بداية تدوينه وحتى الآن، وبين نصّين آخرين أصابهما التدخّل البشريّ للوهلة الأولى من تدوينه[2]. ومن ثمّ فقد حكم على نصّ العهد القديم بالتضادّ والخطأ؛ بسبب تعدّد الكتّاب للرواية الواحدة، والمراجعات المنجزة لبعض الأسفار على فترات من العهد السابق على الميلاد، وهو الحكم ذاته الذي أصدره على الأناجيل؛ مستندًا إلى أنّه لا يستطيع أحد أن يؤكّد أنّها تحوي دومًا

---

[١]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٥٧.

[٢]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، م.س، ص٢٢، ٢٨، ٩٤.

الرواية الأمينة لكلمة المسيح، أو خبرًا عن أفعاله مطابقًا للحقيقة، ومستندًا كذلك إلى أنّ الكتابات المتتابعة لنصوصها تثبت نقصان الأصالة الأكيدة فيها، إضافة إلى أنّ كتّابها ليسوا شهود عيان[1].

لكن موريس بوكاي كان ينظر إلى القرآن الكريم نظرة مختلفة، نظرة فيها الكثير من الإستعلاء والتباهي؛ لأنّ أصالة القرآن كانت ثابتة وغير قابلة للانتقاص منها، يقول: «أمّا وضع القرآن، فهو يختلف عن ذلك كثيرًا؛ لأنّ الرسول والمؤمنين كانوا يحفظونه مع تتابع الوحي، ثمّ يكتبه في الوقت نفسه الكتبة الذين كانوا حوله، وهكذا فقد توفّر للقرآن من البداية عنصرَا الأصالة اللذان لم يكونا أبدًا متوفّرين للأناجيل، وقد ظلّ الأمر كذلك حتى وفاة الرسول»[2].

ويعدّ الترتيل أداةً من أدوات الحفاظ على أصالة القرآن الكريم عند المستشرق موريس بوكاي، في عصر كان الناس فيه لا يميلون إلى الكتابة بقدر ما يميلون إلى الحفظ غيبيًّا، ولقد كانت هذه ميزة عظيمة؛ كونها تمثّل تنوعًا في الرقابة والإحكام؛ ولأنّها تثبت النصّ نهائيًّا، ما يعني أنّ قضيّة الحفظ كانت تقتضيها عمليّة تثبيت النصّ القرآنيّ في العقول والقلوب كمرحلة أولى لكتابته.

وإذا كان للترتيل دور رئيس في أصالة القرآن، فإنّ الكتابة في نظر هذا المستشرق كانت تحتلّ الدور نفسه وزيادة، مستدلًّا على ذلك بالآيات الأولى نزولًا ١: ٥ من سورة العلق والتي يقول فيها ربّنا سبحانه وتعالى: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾. ويميل بوكاي إلى أن البدء بكلمة اقرأ هنا يعبّر عن الاهتمام بالاحتفاظ بالقرآن مكتوبًا[3]، وهي في ظنّي لفتة مهمّة من بوكاي الذي أخذها من حميد الله في ترجمته لمعاني القرآن، وأعتقد أنّها لفتة مهمّة؛ لأنّ القراءة لا تكون إلّا من شيء مكتوب؛ وكأنّ الأمر ليس مجرّد ترتيل الرسول الكريم وراء سيّدنا جبريل، وإنّما الأمر

[١]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٥٧-١٥٨.

[٢]- م.ن، ص١٥٨.

[٣]- م.ن، ص١٥٩.

أمر قراءة من مكتوب أيضًا؛ وكأنّها دعوة إلى تسجيل القرآن مكتوبًا؛ حتى يسهل قراءته والاهتمام به، وكأنّ التدوين هنا كان دعوة إلهيّة، لكن ثمّة لمحة أخرى تكشفها لنا كلمة اقرأ، وهي الدعوة إلى العلم، فالقراءة تعني المعرفة والعلم ونبذ الجهل، وهي كلّها معانٍ تصبّ في دائرة الفهم والتطوّر.

ولم تكن أدلّة المستشرق بوكاي على تدوين القرآن كدليل على أصالة القرآن تقف عند هذا الحدّ، بل تعدّته إلى ما هو أبعد من ذلك، خاصّة وقد وقف على النصوص التي تثبت أنّ الوحي الذي كان ينزل على الرسول الكريم قبل أن يهاجر كان يُثبت كتابةً، وقد حفظه سيّدنا محمّد صلى الله عليه وآله وبعض أصحابه عن ظهر قلب. بل لقد أثبت بوكاي مصدريّة القرآن الإلهيّة وأصالته بدليل منطقيّ عقليّ: إذ كيف يُتصوّر أن يشير القرآن إلى وقائع لا تمت إلى الحقيقة بصلة في الوقت الذي كانت فيه مراقبة من صحابة الرسول صلى الله عليه وآله المتّصلين بالكتبة[1].

ويمكن أن نشير إلى النصوص القرآنيّة التي أشار بوكاي إلى أنّها تشير إلى كتابة القرآن وتدوينه من قبل هجرة الرسول من مكّة إلى المدينة، وهي على النحو التالي:

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ سورة الفرقان، الآية ٥.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ سورة الواقعة، الآيات ٧٧-٨٠.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ سورة عبس، الآيات ١١-١٦.

وقوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ سورة البروج، الآيتان ٢١-٢٢.

وقوله جل شأنه: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ سورة البينة، الآيتان ٢-٣.

---

[١]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٥٩.

وبالنظر إلى الآية الأولى على سبيل المثال نجد أنّ الكفار وهم في معرض رفضهم لدعوة النبيّ الكريم أشاروا إلى قضيّة تدوين الكتاب وكتابته. ومن ثمّ يقول بوكاي معلّقًا: «تشير هذه الآية إلى اتّهام أعداء الرسول المحمولة عليه، الذين كانوا يصفونه بالخداع، ويزعمون أنّ أحدًا كان يملي عليه أساطير الأقدمين التي كان يكتبها أو يكتتبها.... ومهما يكن فإنّ الآية تشير إلى المسجَّل كتابةً، وهو ما كان يعترف به حتّى خصوم محمّد صلى الله عليه وآله»[1].

والحقيقة أنّ هذه الآيات تثبت شيئًا مهمًّا، وهو أنّ كتابة القرآن وتدوينه بدأت مع بداية نزول القرآن، للحفاظ عليه من الضياع أو الفقدان، وهو الأمر الذي يثبت المصدريّة الإلهيّة له، خاصّة إذا علمنا أنّ الرسول صلى الله عليه وآله كان يخصّص كتبةً للوحي، وكان أشهرهم زيد بن ثابت. وقد أبى الرسول تدوين شيء بخلاف القرآن، حيث «أُثِر عن النبيّ النهي عن تدوين غير القرآن عنه، كما توافرت الأخبار بأنّه يأمر أحد كتابه بتدوين ما كان ينزل عليه من الوحي القرآنيّ فورًا»[2].

يكفي أن نعلم أنّه عندما كان القرآن ينزل على نبيّنا الكريم صلى الله عليه وسلم كان يستدعي أحد كتبة الوحي فيملي عليه ما نزل، ثمّ يحدّد الموضع الذي يضعه فيه من الآيات السابقة، وبعد ذلك يعيد تلاوة ما أملاه عليه الرسول ليصحّح أوّلًا بأوّل. ومن المعروف أنّ القرآن كان يُكتَب على الجلد والحجارة وأوراق البردي وعظام كتف الجمل[3]، وهي الأدوات التي كان متاحًا الكتابة عليها في ذلك الوقت. يقول بوكاي: «في بداية الأمر، وعلى عهد النبيّ فإنّ كتابة النصوص كانت تتمّ على الألواح والرقاق، وعلى أشياء أخرى كانت متوفّرة في ذلك العصر، ويشير القرآن الكريم بذاته إلى هذه التدوينات الكتابيّة في عدّة سور حتّى ما قبل الهجرة... إلى ما بعدها»[4].

---

[١]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٥٩.

[٢]- محمّد عزّة دروزة، تدوين القرآن المجيد، القاهرة، دار الشعاع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م، ص١٧.

[٣]- انظر: محمّد عمر حوية، نزول القرآن الكريم وتاريخه وما يتعلق به، السعوديّة، مجمّع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، بدون، ص١١.

[٤]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص١٧٦.

لكنّ هذه الطريقة كانت إحدى وسيلتين للحفاظ على كتاب الله تعالى، أمّا الوسيلة الثانية فكانت الحفظ عن طريق الذاكرة، فهناك من حفظه كلّه، وهناك من حفظ بعضه[1]، كما أنّ من الحفّاظ من كان يحفّظ الناس ويعلّمهم القرآن. فإلى جانب تدوينه كان يحفظ، وقد كان من السهل حفظه، ويرجع بوكاي ذلك إلى أن النصّ القرآنيّ أقصر من نصّ العهد القديم وأطول شيئًا قليلًا من نصّ العهد الجديد، كما يرجعه إلى امتداد نزوله على طول فترة تقارب العشرين عامًّا، ومن ثم ّكان من السهل حفظه غيبًا ومجزّءًا، ويؤكّد بوكاي على أهمّيّة الحفظ في الحفاظ على النصّ القرآنيّ، حيث يدلّ على تعدّد المراقبات التي أُجريت عند اعتماد النصّ النهائيّ وكتابته، مؤكِّدًا أيضًا على أنّ هذا الوضع امتدّ أيام الخلفاء[2]. «وهكذا ظهرت فيما بعد قيمة هذه الطريقة المزدوجة في حفظ النصّ بالكتابة من جهة وحفظه في الذاكرة من جهة ثانية»[3].

بل لقد كان المستشرق موريس بوكاي مدركًا لدور الخلفاء في الحفاظ على أصالة القرآن ومصدريّته الإلهيّة، مستدلًّا على ذلك بطلب أبي بكر من زيد بن ثابت بجمع القرآن الكريم ففعل، وقد رجع زيد -بتوجيه من عمر بن الخطاب- إلى جميع الوثائق التي كان بإمكانه الرجوع إليها في المدينة لإتمام مهمّته، فقابل ما عند الحفاظ على ما كان مكتوبًا منه على مختلف الموادّ التي كانت ملكًا لبعض الصحابة، وذلك لتفادي أيّ خطأ في النقل، وللأمانة في جمع القرآن[4].

وبالاستناد إلى المصادر جعل منها فيما بعد مصحفًا احتفظ به عنده، ثمّ سلّمه إلى السيّدة حفصة التي توفّي عنها الرسول، وقد سلّمته إلى الخليفة عثمان بن عثمان بناءً على طلبه، بعد أن ظلّت محتفظة به[5].

---

[١]- انظر: محمّد عمر حوية، نزول القرآن الكريم وتاريخه وما يتعلّق به، ص١١-١٢.

[٢]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص١٧٦.

[٣]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٦٠.

[٤]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٦٠.
وانظر: في هذه القضيّة محمّد عمر حوية، نزول القرآن الكريم وتاريخه وما يتعلق به، ص١١-١٢

[٥]- انظر: أحمد أتابك، لمحة تاريخيّة عن جمع القرآن وتدوينه عند المفسرّين والمستشرقين، ص١٠٥،

في حين عمد الخليفة عثمان بن عفان إلى مراجعة دقيقة للقرآن، فاختار لذلك عددًا من الحفظة المدقّقين، «فدقّقت المجموعة في أصالة الوثيقة التي جمعت في عهد أبي بكر، والتي بقيت محفوظة عند حفصة، ورجعت إلى الذين كانوا يعرفون النصّ عن ظهر قلب، وتمّت عمليّة التدقيق بحزم، وقد كان ضروريًّا توافق الشهادات لاعتماد أيّ آية قد تكون موضوعًا للجدل[1]. لكن جمع القرآن على أيّام الخليفة عثمان لم يفهمه المستشرق موريس بوكاي جيّدًا؛ لأنّ عمله كان منصبًّا على توجيه الناس على قراءة واحدة يجتمع عليها الناس خوفًا من الفتنة، بدلًا من أوجه القراءات السبعة، فالغاية هنا جمع كلمة المسلمين على قراءة واحدة، في حين كان العمل الذي قام به أبو بكر هو جمع القرآن من الصدور، ومما كُتب على الرقاع والعسب وورق البردي والحجارة والعظام، وهذا يعني أنّنا بصدد مهمّتين وإن كانتا متغايرتين إلّا إنّهما متكاملتان.

لكن بوكاي يذهب إلى أنّه في عهد عثمان كانت بعض آيات القرآن تصحّح في هذه المرحلة، لكن ينبغي فهم قضيّة التصحيح هنا بمعنيين:

الأوّل: معنى الناسخ والمنسوخ، فتوجد عدد من الآيات التي نُسخت كتابةً، أو حكمًا أو حكمًا وكتابةً، ومن ثمّ نفهم أنّ التصحيح هنا بمعنى النسخ والمنسوخ.

الثاني: جمع الناس على نسخة واحدة كتابة وإملاءً.

ولكن ما الهدف الرئيس من جمع القرآن في مراحله السابقة؟

لا شكّ في أنّ الهدف كان الحفاظ على القرآن من الضياع، وصونًا له ولأصالته، فجمعُه كما يقول بعض القدامى يعني حفظه في الصدور[2]، وقد ظهر ذلك جليًّا لموريس بوكاي، الذي استطاع أن يجيب على هذا السؤال؛ حيث يقول: «لقد كان انتشار الإسلام في السنوات العشر الأولى عقب وفاة الرسول بسرعة عجيبة، وبين

[١]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٦١.

[٢]- انظر: مناهل العرفان، ١/ ١٩٣. مباحث في علوم القرآن، ص٦٥. اتقان البرهان، ١/ ٢٦١.

شعوب تتكلّم أكثر من لغة غير اللغة العربيّة، فكان لا بدّ من الاحتياط الضروريّ في تناقل النصّ، للمحافظة على صفائه وأصالته»[1].

ومن جانبنا نؤكّد على أنّ عمليّة جمع القرآن كانت دقيقة؛ كونها انبنت على عدّة مراحل، كلّ مرحلة منها مرتبطة بالفترة الزمنيّة التي عايشتها، ويُمكن أن نُقسّم هذه المراحل على النحو الآتي:

مرحلة كتابة الوحي في عهد النبيّ، وهي مرحلة التدوين الأولى، حيث كان يوجد مجموعة من الكتبة والنسّاخ الذين كانوا يكتبون الوحي وهم يتلقّونه من النبيّ الكريم شفاهًا، وقد اختار الرسول عددًا من الكتبة من أهل الثقة والكفاءة تختلف الروايات في عددهم[2]. وقد كان الرسول يُملي عليهم الوحي فيكتبونه، فإذا فرغ الكاتب من الكتابة راجعه على النبيّ، فإذا كان فيه سقط أقامه، ثمَّ خرج به إلى الناس. وهذا يعني أنّ هناك مرحلة إملاء تتلوها مرحلة الكتابة، تتلوها مرحلة المراجعة، ثمَّ مرحلة النشر والإذاعة بين الناس.

ولا شكّ في أنّ سيّدنا عليّ بن أبي طالب عليه السلام كان من كتبة الوحي، بل لقد كان له دور في جمع القرآن الكريم، حيث ورد في بعض المصادر أنّه أوّل من جمع القرآن الكريم على ترتيب نزوله بعد وفاة النبيّ ص. وقد ورد في كتاب الإتقان أنّ أبا داوود أخرج في المصاحف عن طريق ابن سيرين قال: قال عليّ: لمّا مات رسول الله صلى الله عليه وآله آليت ألّا آخذ عليَّ ردائي إلّا لصلاة جمعة حتى أجمع القرآن، فجمعه[3].

وهذا يعني أنّ عمليّة جمع القرآن بدأت مع وفاة النبيّ صونًا لهذا الكتاب العظيم، وسواء أكان المقصود بالجمع هنا حفظه مجموعًا في الصدور، والعكوف على جمعه فيها أيّامًا، أو جمع رقاعه ولخافه وعسبه، فإنّه ولا شكّ يؤكّد على أنّ جهود رجال مدرسة النبوّة في جمعه كانت كبيرة، ويعدّ جهد سيّدنا عليّ عليه السلام

---

[1]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٦١-١٦٢.

[2]- انظر: أحمد أتابك، لمحة تاريخيّة عن جمع القرآن وتدوينه عند المفسّرين والمستشرقين، ص١٠٥.

[3]- انظر: الإتقان في علوم القرآن، ج١، ص٢٠٩.

وغيره من كتبة الوحي كعبد الله بن مسعود وأُبي بن كعب - من بواكير هذه الجهود، باعتباره كاتبًا للوحي أوّلًا وحاملًا لمادّته على العسب والرقاع وغيرهما مما كان يكتب عليه في ذلك الوقت ثانيًا.

مرحلة جمع القرآن بعد وفاة النبيّ في عهد أبي بكر، وتظهر دقّتها في أنّ جمع القرآن كان بعد وفاة النبيّ الكريم بستّة أشهر فقط، خاصّة بعد وفاة عدد كبير من حفظة القرآن من الصحابة في حروب الردّة، فكتبت الآيات على الرقاع واللوح والكتف والعسب جريد النخل العريض واللخاف الحجارة الرقيقة فقد كان يكتب عليها[1]. ومن ثمَّ كانت عمليّة الجمع هذه دقيقة، خاصّة إذا علمنا أنّه أثناء جمع القرآن في مصحف خاصّ كان يستلزم ممّن يأتي بآية أن يكون معه شاهدان عليها، إضافة إلى ما كان لديهم من آيات مكتوبة على الكتف أو الرقاع أو العسب. وهناك مرحلة أخيرة وهي جمع الآيات وترتيبها كما سمعها من النبيّ الكريم، كلّ ذلك في رقاع متساوية؛ حتى يمكن وضعها بين لوحين، ومن ثمَّ كان هذا هو المصحف على عهد أبي بكر.

فهل يتصوّر بعد هذه العمليّة الدقيقة من جمع القرآن وكتابته في رقاع متساوية أيّ خطأ من أيّ نوع؟! وهل يُعقل أن يكون هناك مجال لنسيان أو ضعف بصر أو خطأ كما يحاول أن يزعم بيلامي وغيره؟! بالطبع لا؛ لأنّ الكتابة على عهد الرسول مرّت بمراحل من الدقّة، وهي الدقّة التي وجدناها في جمع المصحف، فكلّ ذلك يقودنا إلى اليقين من أنّ نسخة المصحف كانت مطابقة لما قرأه النبيّ الكريم على الصحابة ولما أمر بكتابته.

جُمع القرآن على عهد عثمان، وقيل إنّه نُسخ منه ستّ نسخ: نسخة البصرة، ونسخة الكوفة، ونسخة الشام، ونسخة مكّة، ونسخة المدينة العامّة، ونسخة المدينة الخاصّة التي احتفظ بها الخليفة عثمان. وقد أُرسلت كلّ نسخة منها إلى مكانها؛ ليكون في كلّ أنحاء العالم الإسلاميّ نسخ من القرآن يرجعون إليها في حفظهم وتلاوتهم وعباداتهم.

---

[١]- انظر: أبو بكر بن أبي داود، المصاحف، تحقيق: محمّد بن عبده، القاهرة، الناشر الفاروق الحديثة، الطبعة الأول ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢، ص٤٨، ٥٣.

ولا نشكّ في أنّ شروط جمع المصحف في تلك الفترة لم يختلف عن شروط جمعه في فترة الخليفة عثمان، بل لقد وصل الأمر إلى إرسال إمام عدل ضابط مع كلّ نسخة مُرسلة إلى الأمصار؛ بحيث تكون مهمّته قراءة المصحف للناس القراءة الموافقة لما كانت عليها قراءة النبيّ الكريم، فكان زيد بن ثابت مع نسخة المدينة، وعبد الله بن السائب مع النسخة المكّيّة، والمغيرة بن شهاب مع الشاميّة، وأبو عبد الرحمن السلميّ مع الكوفيّة، وعامر بن عبد قيس مع البصريّة. وهذا من الأمور الدالّة على الدقّة في الكتابة والقراءة والتهجئة.

وهذا المصحف الجامع الذي أخذ الصكّ الرسميّ لجمعه يتميّز عن المصاحف الفرديّة كمصحف عبد الله بن مسعود وأُبي بن كعب وغيرهما؛ كون المصاحف الفرديّة كانت مقتصرة على ما كان يحفظه الصحابيّ فقط، فضلًا عمّا كان يتضمّنه من تفسيرات للقرآن وأدعية. ويؤكّد بوكاي على هذه الفكرة قائلًا: «بعد وفاة النبيّ انتشر الإسلام بسرعة هائلة وبعيدًا جدًّا عن موطنه الأصليّ، وبين شعوبٍ لم يكن يعرف معظمهم اللغة العربيّة، واتخذت الاحتياطات الاستثنائيّة كي لا يتعرّض النصّ القرآنيّ إلى أيّ شائبة في هذا الانتشار، فقد أرسل الخليفة عثمان نماذج من النصّ الأصليّ بعد تنقيحه ومراجعته إلى المراكز الرئيسة في الإمبراطوريّة الإسلاميّة الشاسعة»[1]. ثمّ يزيد بوكاي الأمر تأكيدًا عندما يقول: «وكانت لما تزل نسخ عنه محفوظة اليوم شبه كاملة مثلًا في طشقند الاتحاد السوفياتيّ وفي اسطنبول، ووجدت كذلك أجزاء يعود تاريخها إلى القرون الأولى الهجريّة مماثلة ومطابقة مع أقدم المخطوطات، وجميع النسخ الحديثة هي نسخ أمينة للأصليّة، ولم تجرِ أيّ إعادة للقرآن بشكل يُحدِث أيّ تحريف للنصّ الأصليّ عبر القرون»[2].

وهذا يعني أنّ الشكّ لا يمكن أن يتطرّق إلى كلمة واحدة وردت في القرآن؛ لأنّها خضعت لعمليّة منظّمة من الإملاء والتدقيق والمراجعة التي يستحيل معها وجود أيّ نوع من الخطأ أو السهو أو النسيان؛ لأنّ هذه العمليّة كانت كفيلة بالقضاء

[١]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص١٧٦.

[٢]- م.ن، ص١٧٦.

على ما يزعمه المستشرقون ومن سار على نهجهم وتمسّك بآرائهم. ومن ثّم فقد أصدر بوكاي حكمه بناءً على المعطيات السابقة قائلًا: «كلّ هذه المواد التي رُتبت في حياته بشكل سور، وجُمعت بعد وفاته حوالي عام ٦٢٣ ميلاديّة في كتاب واحد سُمّي بالقرآن. هذا الكتاب الذي يحتوي على كلام الله دون أن يكون للإنسان دخل فيه، وأنّ المخطوطات في العصر الأوّل الإسلاميّ تثبت شرعيّة النصّ الحاليّ وصحته، والعنصر الثاني الذي يؤكّد هذه الصحّة هو حفظه عن ظهر قلب، والذي لمّا يزل معمولًا به منذ عهد النبيّ»[1].

ثانيًا: محاولة تصحيح نظرة الغرب للإسلام

لا شكّ أنّ الكثير من الكتابات الغربيّة كانت تتحامل على القرآن بصورة كبيرة؛ انتصارًا للمعتقد أو جهلًا بالإسلام أو خوفًا مما يدعونه عدوًّا، كتعبير عن مراحل الصراع التي مرّ بها الشرق والغرب. وبالنظر إلى الأخير فقد كان الغرب ينظر إلى الإسلام على أنّه محور للشر، «ولم يكن سبيل الكتابات الغربيّة التي تجعل من الإسلام وأمّته وحضارته وعالمه عدوَّ الغرب الحاليّ والمستقبليّ الذي يمثّل إمبراطوريّة الشرّ بعد زوال المعسكر الشيوعّي إلّا تجسيدًا لأحد أبعاد ذلك الصراع الضاري»[2].

ارتكز بوكاي في قراءته العلميّة على قضيّة تصحيح نظرة الغرب للإسلام، لما لاقاه من فهمهم الخاطئ للإسلام، وقد تبيّن له ذلك بعد اتصاله المباشر بالقرآن والثقافة العربيّة التي مكّنته من وضعه أمام الصورة الصحيحة للإسلام والقرآن. وتعدّ قضيّة تصحيح تلك النظرة سيرًا في اتجاه مدّ الجسور بين الشرق والغرب، «ولعلّ هذا الارتباط الوثيق في عقله ووجدانه بين الشرق والغرب كان الباعث له على أن يكون مشروعه الشخصيّ هو بناء أو ترميم الجسور التي تصدّعت بين الغرب عمومًا وفرنسا خصوصًا، وبين الشرق العربيّ الإسلاميّ»[3].

---

[١]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص١٧٥.

[٢]- عبد الراضي عبد المحسن، الغارة التنصيريّة على القرآن، السعوديّة، الناشر مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ص٢.

[٣]- محمّد الشرقاوي، مرجع سابق، ص١٦.

لكن بوكاي ما كان له أن يصل إلى التصوّر الحقيقيّ لهما دون أمرين:

الأوّل: علاقته المباشرة بواقع المسلمين ومعايشته لهم، فقد أُعطيت له باعترافه عناصر التقدير في المملكة العربيّة السعوديّة التي كشفت له عن خطأ الصورة المنقولة في الذهنيّة الغربيّة عنه بما تحمله من أحكام عامّة مزيّفة[1].

الثاني: تعلّمه اللغة العربيّة، فلقد أدرك أنّ الذي يستطيع من خلاله أن يوضح له صورة الإسلام والقرآن حقيقة إنّما هو اللغة العربيّة، ومن ثمّ فلقد أحسّ بالحاجة الملحّة لتعلّم اللغة العربيّة التي لم يكن له بها سابق معرفة، وهذه الخطوة كانت ضروريّة؛ حيث إنّه كان يريد التعامل مع دين مجهول بالنسبة له، والذي سوف يزيل هذا الجهل عنده هو تعلّم اللغة العربيّة.

ولعلّ ما وجده بوكاي من إشارات علميّة في القرآن الكريم السبب الذي جعله يندهش؛ إذ قارن بين ما تقدّمه نصوص القرآن، وما يذيعه الغرب من افتراءات، ومن ثمّ كانت دراسته جديدة من نوعها، فيها مواجهة صريحة مع الذات. «إنّ من لا يدرك بلياقة ما هو القرآن بالنسبة للكتاب المقدّس، ومن لا يعرف الظروف التي سادت إبّان إبلاغه إلى الناس، لا يسعه إلّا أن يُدهش أمام المكانة التي سيجدها معطاة للنص القرآنيّ في هذه الدراسة. وذلك يفسّر من واقع أنّ معظم الغربيّين قد غُذوا بأفكار خاطئة عن الإسلام وعن القرآن الكريم، كما كان الحال بالنسبة لي شخصيًّا خلال فترة طويلة من حياتي، وثمّة حوادث محدّدة بوسعها أن تعطي فكرة عن المعلومات الخاطئة التي كانت منتشرة»[2].

وقد سعى المستشرق موريس بوكاي إلى تصحيح نظرة الغرب للإسلام من خلال ثلاثة محاور نجح فيها إلى حدّ بعيد، وهي:

[١]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٤٨.

[٢]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، المكتبة العلميّة، بدون تاريخ، ص١٧٠.

المحور الأوّل: ردّ الشبه المثارة على القرآن والإسلام في الغرب.

المحور الثاني: التركيز على وثيقة الفاتيكان ودعوات الحوار فيها.

المحور الثالث: التركيز على المضامين الدالة على مصدريّة القرآن الإلهيّة.

١- ردّ الشبه المثارة على القرآن والإسلام عامّة في الغرب

يمكن القول إنّ من ضمن المرتكزات التي ارتكز إليها بوكاي في قراءته العلميّة للقرآن تصحيح نظرة الغرب للإسلام، فقد كانت نظرة الغرب للإسلام نظرة فيها الكثير من الاتهام[1]، ولا نشكّ في أنّ السبب الرئيس في ترسيخ هذه النظرة أقلام بعض الغربيّين الذين ولّوا وجوههم وهم بصدد دراساتهم للقرآن خاصّة والإسلام عامّة شطر التعصّب البغيض للعقيدة التي كانوا يدينون بها، بدلًا من توليته شطر العلم ولا شيء غيره، فكان ما خطّته أقلامهم تشويهًا للإسلام في عقول الغربيّين، الذين لا يزال السواد الأعظم منهم يحملون أفكارًا سلبيّة عنه. لكن هذه الأفكار السلبيّة هي ما رُبّي النشؤ والشبان عليها، وهذا ما أكّده بوكاي بقوله: «فقد علّموني إبّان شبابي دائمًا بأنّ محمّدًا كان مؤلِّف القرآن الكريم، وأذكر الترجمات الفرنسيّة للكتاب المعروضة مع هذه الإشارة، وعلّموني أيضًا بأنّ مؤلِّف القرآن الكريم لم يكن عليه سوى الكتابة بطريقة مختلفة نسبيًّا للروايات المستخرجة من الكتاب المقدّس مع عمليات إضافة وحذف، مع إعلان مبادئ ونظام دين جديد كان قد أسّسه بنفسه»[2]. هذا يعني أنّهم حمّلوا القرآن أحكامًا مسبقة، لا تمتّ إلى الواقع بصلة، على الرغم من أنّهم ربما لم يقرأوا القرآن في تلك الفترة، وبثّوها في عقول الأجيال المتعاقبة، حتى شبّت هذه العقول على ما شبّت عليه من النظرة المتدنيّة للقرآن خاصّة والإسلام عامّة.

ويكفي تدليلًا على تلك النظرة الغربيّة التعصّبيّة التي أشار إليها بوكاي أن نعلم أنّ الكثير من الترجمات الغربيّة للقرآن خاصّة في بواكيرها الأولى انبنت على

---

[١]- للمزيد حول هذا الأمر انظر: عبد الراضي عبد المحسن، الغارة التنصيريّة على القرآن، ص٢-٥ وما بعدها.

[٢]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، المكتبة العلميّة، بدون تاريخ، ص١٧٠.

هذه النظرة؛ «ولهذا لا نتعجّب أنّ أوّل محاولة لترجمة القرآن الكريم تمّت في أسبانيا، وعلى يد رجال الدين أنفسهم، فقام الراهب بطرس المبجّل Peter the Venerable بالمحاولة الأولى لإزاحة الجهل الغربيّ عن القرآن الكريم، وذلك في القرن الثاني عشر، بهدف إعلام المسيحيّين الغربيّين بالإسلام، كمحاولة في مساعدة الإرساليّات التي ذهبت لإعادة تنصير الأهالي في الأراضي التي أعيدت للمسيحيّة، وهذا عند زيارته لبعض الأديرة الأسبانيّة في عامي ١١٤١ و١١٤٢»[1].

بل إنّه «قام بإعداد خطّة لدراسة القرآن الكريم، وترجمة الكتاب المقدّس للمسلمين، وبرغم ادعائه أنّه لم يغير شيئًا من المعنى إلّا لكي يوضح النصّ، إلّا أنّه قام بحذف أجزاء بأكملها، وأخطأ في الترجمة، وأعاد ترتيب السور، وأضاف من عنده ليشرح السور المنفصلة ويصلها ببعضها، واستخلص نتائج لا وجود لها ولا صلة بينها وبين القرآن الكريم البتّة»[2].

لقد كان بوكاي يدرك أنّ أيّ عرض غير أمين عن أصل النصّ القرآنيّ يؤدّي مباشرة إلى فرضيّة غير صحيحة بوجود أخطاء في القرآن بالقياس إلى ما وجدوه من أخطاء في الكتاب المقدّس، فقاسوا هذا على ذاك. «إنّ طريقة كهذه للتصوّر بما كان وسيكون عليه النصّ القرآنيّ يمكن أن يبدو كأنّه معقول مسبقًا، غير أنّنا إذا كنّا مدركين ومنصفين نتصوّر بأنّ هذا ينافي الحقيقة بشكل مطلق»[3]. وهذا ما دلّل عليه بوكاي بالفعل من خلال كتابيه: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، وأصل الإنسان بين العلم والكتب السماويّة. حيث إنّهما يزخران بالأدلّة التي تثبت صحّة وجهة نظره، وخطأ ما كان يذهب إليه قومه في الغرب.

ويؤكّد بوكاي على أنّ الإسلام واحد من الأديان التوحيديّة الثلاثة؛ إذ إنّ كلّ هذه

---

[١]- علي عفيفي علي غازي، موقف الغرب من القرآن الكريم، مجلة فكر الثقافيّة، مقال منشور بتاريخ ١٥/ ٢/ ٢٠١٦م على الرابط التالي:

https://www.fikrmag.com/article_details.php?article_id=282

[٢]- علي عفيفي علي غازي، المرجع السابق.

[٣]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ص١٧٢.

الأديان تملك مجموعة خاصّة من النصوص والكتب المقدّسة، والتي تعدّ الركيزة لكلّ مؤمن بها، سواء أكان يهوديًّا أو مسيحيًّا أو مسلمًا، وينظر المستشرق الفرنسي موريس بوكاي إلى هذه الكتب على أنها تمثّل صورة ماديّة لوحيٍ إلهيٍّ مباشر، أو وحيٍ إلهيٍّ غير مباشر، والصورة الأولى تمثّلها صحف إبراهيم وتوراة موسى اللّذين تلقّيا الأوامر والأحكام عن الله[1]، أمّا الصورة الثانية فيمثّلها سيدنا عيسى عليه السلام وحي الله وكلمته، وسيّدنا صلى الله عليه وآله عن طريق أمين الوحي جبريل[2].

ورغم ذلك يظلّ موقف الغرب من الإسلام هو موقف الرفض، **فقد كان الموقف الغربيّ تجاه العرب والإسلام أكثر عداءً، فقد بدأ الغرب يردّد الكثير من اتّهاماته السابقة للإسلام ولأتباعه بشكل أكثر ضراوة من ذي قبل[3].**

وقد فنّد بوكاي هذا الموقف من عدة جوانب: عقليّة وعلميّة، ومن جانب تاريخ الأديان، ويعدّ كتابه معبّرًا كلّ التعبير عن هذه الجوانب. فالعقل والعلم -الذي أثبت الإشارات العلميّة في القرآن- وتاريخ الأديان يضع التوراة والإنجيل -الصحيحين الخالين من أيّ تدخّل بشريّ- والقرآن في سلسلة الكتب المكتوبة الموحى بها، لكن بوكاي استوقفه الموقف الغربيّ من القرآن؛ لذا يقول: «بيد أنّ هذا الأمر وإن كان مقبولًا لدى المسلمين مبدئيًّا، فهو لدى مؤمني بلادنا الغربيّة المتأثّرين باليهوديّة-المسيحيّة المسيطرة غير مقبول، بل يرفضون إعطاء القرآن سمة الكتاب الموحى به»[4].

لكن ما تفسير بوكاي لهذا الموقف؟

لعلّنا نلتمس الإجابة على هذا السؤال في عبارة واحدة وهي: أنّ أتباع الدين السابق يرفضون الدين اللاحق، وهذا ما يمكن أن نلتمسه في علاقة الأديان ببعضها، فاليهوديّة ترفض الاعتراف بالمسيحيّة الأحدث زمنًا منها، والمسيحيّة ترفض الإسلام

[١]- مناقشة بوكاي في هذه الفكرة عن طبيعة الوحي المتّصل بإبراهيم وموسى.

[٢]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٢.

[٣]- علي عفيفي علي غازي، مرجع سابق.

[٤]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٣.

الأحدث زمنًا منها. ولعلّ هذا هو ما انتهى إليه بوكاي، فهو يضع القرآن في حيّز هذه العلاقة من تاريخ الأديان؛ استنادًا إلى أنّ المواقف المتّخذة من أتباع دين ما تجاه الآخرين فيما يخصّ الكتب المقدّسة توضح ذلك، مستدلًّا على ذلك بأمرين لا ثالث لهما:

الأوّل: أنّ اليهوديّة لا تعترف بأيّ وحي جاء بعد وحيها.

الثاني: عدم اعتراف المسيحيّة بأيّ وحي جاء بعد عيسى وكاتبي الأناجيل، وبالتالي لا تعترف بالقرآن، فإذا كانت المسيحيّة قد تبنّت التوراة العبريّة وزادت بعض الإضافات عليها، إلّا أنّها لم تقبل كلّ الكتابات المنشورة لتعريف الناس برسالة سيّدنا عيسى، ولم تحتفظ من العهد الجديد إلّا بعدد محدود من الكتابات، أهمّها الأناجيل الأربعة القانونيّة كما يقول بوكاي، ولم تعترف بشيء بعدها، أعني القرآن[1].

لقد كان بوكاي مؤمنًا أنّ ذلك الرفض مبنيٌّ في أحد جوانبه على الصورة الخاطئة عن الإسلام في أذهان الغرب، ولولا هذه الصورة في نظره لتغيّر الكثير، بل إنّه عدّد بعض مظاهر احترام الإسلام للأديان الأخرى، منها:

- أنّ الوحي الذي نزل بعد ستّة قرون من المسيح عليه السلام احتفظ بالعديد من تعاليم التوراة والإنجيل باعتبار المصدريّة، وأكثَرَ من ذكرهما كونها كتبًا سماويّة من لدن ربّ العالمين.
- أنّ الإسلام فرض على كلّ مسلم الإيمان بالكتب السابقة.
- إبراز المكانة اللائقة لرسل الله تعالى كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى، التي شغلوها في تاريخ الوحي.
- وضع سيّدنا عيسى في مقام مرموق، بدءًا من إظهار ولادته كحدثٍ معجز كما في الإنجيل، ومرورًا بتكريم ولادته تكريمًا خاصًّا، وانتهاءً بإطلاق اسم والدته على سورة من سور القرآن وهي سورة مريم.

---

[١]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٣.

وهذه المظاهر قليل من كثير؛ إذ المتأمّل في القرآن الكريم خاصّة يجد احترامًا لا مثيل له للكتب السماويّة السابقة: الصحف والزبور والتوراة والإنجيل، وتبجيلًا لا مثيل له في الأديان الأخرى لرسل الله تعالى، وهذا إنّما يدلّ على مقدار ما يحمله هذا الدين من وسائل التواصل مع الآخر أيًّا كان معتقده، وعلى ما مقدار ما يحتويه من اعتراف به.

وهذا ما كان يستدعي اندهاش بوكاي، ومن ثمّ لم يكن أمامه إلّا الاعتراف بأنّ هذه التعاليم الإسلاميّة السامية مجهولة على العموم في بلاده الغربيّة، لكن يلقي باللوم في ذلك على عمليّة تلقين أجيال كاملة والتجهيل المتعمّد ضدّ الإسلام من قبل الغرب، يقول بوكاي: «لكن سرعان ما يزول ذلك إذا ذكرنا الطريقة التي لقّن بها العديد من الأجيال قضايا الإنسانيّة الدينيّة، والجهالة التي تركوا فيها تجاه كلّ ما يخص الإسلام»[1].

هذا يعني أنّه توجد عمليّة مقصودة من أجل تشويه صورة الإسلام في الغرب، وقد التمس بوكاي أوّل مظاهر هذا التشويه في إطلاق تسميات الدين المحمّديّ أو المحمّديّين على الإسلام حتى أيّامنا هذه[2]، بهدف غرس الاعتقاد الخاطئ في الأذهان بأنّه عقائد منتشرة بفعل الإنسان، وليست لها علاقة بالله. كما التمس ثاني هذه المظاهر في بعض أفعال المثقّفين المعاصرين ممن يهتمّون بمقولات الإسلام الفلسفيّة والاجتماعيّة والسياسيّة، ولا يتساءلون عن الوحي الإسلاميّ، «إنّهم يطرحون -كقاعدة ثابتة- استناد محمّد على ما سبقه ليبعدوا بهذه الطريقة عن الذهن كلّ اتصال له بمسألة الوحي بالذات»[3]. وهذا ما أكّده بعض المهتمّين قائلاً: **«في الوقت الذي كان فيه منهج القياس أحد الأمور المسيطرة على عقول المفكّرين المسيحيّين ممّن حاولوا فهم الإسلام، فبما أنّ المسيح كان أساس العقيدة المسيحيّة، فقد افترض خطأ أنّ لمحمّد في الإسلام ما للمسيح في المسيحيّة، ومن هنا كانت**

---

[١]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٤.

[٢]- انظر: في نقد ادعاءات الغرب حول هذه القضيّة وغيرها شوقي أبو خليل، الإسلام في قفص الاتهام، طبعة دار الفكر، ٢٠٠٦م.

[٣]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٤.

التسمية الخاطئة للإسلام بلفظ المحمّديّة، لقد كان لهذا الاعتقاد الخاطئ أكبر الأثر في تكوين حلقة لم يكن لأيّ عناصر خارجيّة مهما بلغ تصوّرها أن تخترقها، حيث كان المفهوم المسيحيّ عن الإسلام مكتمل الأركان، ولا يعدّ أيّ تصوّرات مغايرة، ولم تسع أوروبا لتصوير الإسلام على حقيقته، بل صوّرته كما بدا لمسيحيّي العصور الوسطى»[1].

ولم يكن الوضع يقف عن مجرد التشويه، بل تجاوزه إلى نوع من الازدراء، ومن ثمّ وجدناه يتساءل: أيّ ازدراء لم يجابه به المسلمون في بعض الأوساط المسيحيّة؟! لقد لمس ذلك باعترافه عندما حاول عُقد حوار للمقابلة بين نصوص توراتيّة ونصوص قرآنيّة في موضوع واحد، لكنّه لاحظ باعترافه أيضًا الرفض المبدئيّ لمّجرد اعتبار ما يتضمّنه القرآن في الموضوع المطروح، كما لو كان الاستشهاد بالقرآن بمثابة انتماء إلى الشيطان[2].

٢- التركيز على وثيقة الفاتيكان ودعوات الحوار فيها

لكن بوكاي لم يكن ليقف عند حدود نقد المواقف الغربيّة، بل إنّه عندما كان يرى بعض المواقف الإيجابيّة التي قد تظهر بين الفينة والفينة، فإنّه يشير إليها ويعضدها ويبرزها في مكانها. ومن هنا فقد وقف عند بعض الجوانب الإيجابيّة التي خرجت من بعض المؤسّسات الكنسيّة الرسميّة، فبوكاي يشير إلى تغيير جذريّ في أيّامنا على أعلى مستوى في العالم الإسلاميّ، من تلك المواقف تلك الوثيقة التي صدرت عن أمانة سر الفاتيكان والتي وُزعت فيما بعد على المجمع الفاتيكانيّ الثاني لغير المسيحيّين، وتضمّنت توجيهات للحوار بين المسيحيّين والمسلمين، والتي تشهد من وجهة نظر المستشرق بوكاي بعمق التغيير في المواقف الرسميّة[3]. ويمكن أن

[١]- علي عفيفي علي غازي، مرجع سابق.

[٢]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٤.

[٣]- وقد استقى بوكاي هذه المحاور من وثائق المجمع الفاتيكانّي الثاني:
انظر: الدستور العقائديّ – المجمع الفاتيكانيّ الثاني، الصادر في ٢١ نوفمبر ١٩٦٤م، البند السادس عشر.
انظر: وثائق المجمع الفاتيكانيّ الثاني - دستور عقائدي «نور الأمم» ١٦، ص٣٣٦-٣٣٧.
انظر: وثائق المجمع الفاتيكانيّ الثاني - تصريح عن علاقات الكنيسة مع الديانات غير المسيحيّة ص٤٧١، ٤٧٣.

نفسّر حكمه هنا ونفهمه في قوله: «وبعد أن دعت هذه الوثيقة إلى تنحية الصورة البالية الموروثة عن الماضي أو المشوّهة ببعض الأوهام والافتراءات التي كانت لدى المسيحيّين عن الإسلام، فقد أصرّت على الاعتراف بأخطاء الماضي وانحرافاته، التي اقترفها الغرب ذو النشأة المسيحيّة بحقّ المسلمين»[1].

ليس هذا فحسب، بل «إنّها تنتقد مفاهيم المسيحيّين الخاطئة عن الإسلام وتمسّكه بالتشريع وتعصّبه، وتلحّ على وحدانيّة الإيمان بالله، وتذكّر بالمفاجأة العظيمة التي أدهش بها الكاردينال كوننغ سامعيه في المحاضرة التي ألقاها سنة ١٩٦٩ في جامعة الأزهر حين أعلن هذه الأفكار، كما تذكّر بتوجيهات أمانة سرّ الفاتيكان سنة ١٩٦٧ التي دعت المسيحيّين إلى تهنئة المسلمين بانتهاء صيام رمضان وأقرّت بأنّه قيمة دينيّة أصيلة»[2].

وربما نفهم من بين السطور أنّ بوكاي كان يرجع عدم ذيوع وانتشار هذه المواقف المعتدلة الصادرة من أماكن رسميّة مسيحيّة إلى عدم تجاوب وسائل الإعلام معها؛ وربما هو لا يدري لماذا؛ لذا يقول مستغربًا: «ولكن كم كان قليلًا عدد الذين أخطروا بهذه الوقائع المهمّة التي تعاقبت في العالم الغربيّ؛ حيث لا تعوزه وسائل النشر والإعلان والطباعة والإذاعة والتليفزيون! فالصحف لم تفسح إلّا القليل من صفحاتها للزيارة الرسميّة التي قام بها في الرابع والعشرين من نيسان سنة ١٩٧٤ رئيس غرفة أمانة سرّ الفاتيكان الكاردينال بنيدولي لغير المسيحيّين لفيصل ملك العربيّة السعوديّة، كما أعلنت عنها صحيفة لوموند في الخامس والعشرين من نيسان سنة ١٩٧٤ في بضعة أسطر»[3].

ويمكن القول إنّ بوكاي قد عوّل على هذه الوثيقة باعتبارها خطوة رائدة تجاه تصحيح نظرة حول الإسلام وصولًا إلى نوع من تصفية الأجواء كبداية لتواصل من

انظر: وثائق المجمع الفاتيكانيّ الثاني - الدستور الرعوي رقم ٢٢، ص٥٨.

[١]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٥.

[٢]- م.ن، ص١٥.

[٣]- م.ن، ص١٥.

نوع جديد قائم على الاحترام المتبادل. لقد كان لدى بوكاي أمل في تحقيق الالتقاء بين الأديان والتواصل والتسامح؛ لأنّها لم تعد كما كانت من قبل منطوية على نفسها، «بل إنّ كثيرًا منها يحاول أن يحقّق إدراكًا مشتركًا وتفكيرًا واحدًا، وكيف لا نتأثّر عندما نجد في أعلى مستويات الكهنوتيّة المسيحيّة الكاثوليكيّة مَن يسعى إلى تثبيت اللقاء مع المسلمين ويحاول محاربة سوء الفهم، ويجتهد في تعديل الرؤية غير الصحيحة، المنتشرة عن الإسلام»[1].

وهو هنا يشير إلى وثيقة الفاتيكان التي كان قوامها مئة وخمسون صفحة، تهدف إلى تصحيح النظرة حول الإسلام من خلال تفنيد بعض المزاعم المثارة حوله، وتعرض جزءًا من حقيقته. فالوثيقة تمثّل مراجعة لموقف الكنيسة والمسيحيّين من الإسلام والمسلمين، والتي من أهمّ ملامحها الرئيسة التي ذكرها بوكاي:

- التخلّي عن الصورة الباهتة تجاه الإسلام.
- الكفّ عن المزاعم والأباطيل والافتراءات التي تصف القرآن والإسلام عامّة بالجبر أو بأنّه دين الخوف أو بالدين الخالي من النظام الأخلاقيّ.
- الاعتراف بالأعمال المشينة التي قام بها الغرب ضدّ الإسلام.
- الدعوة إلى التسامح والتواصل.
- تصحيح بعض المفاهيم الخاطئة كوصف الغربيّين لقضيّة الجهاد كوسيلة لنشر السلام والدفاع عن النفس في القرآن والسنّة خطأً بأنّه الحرب المقدّسة[2].

كان المستشرق بوكاي معجبًا بتلك الوثيقة -حتى أنه من شدّة إعجابه لم يقف على بعض المآخذ فيها فيما يتعلّق بمفهوم الله في الديانتين وغيرها- حتى أنّه وصفها

[١]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٤٠.

[٢]- وقد استقى بوكاي هذه المحاور من وثائق المجمع الفاتيكانّي الثاني:
انظر: الدستور العقائديّ - المجمع الفاتيكانّي الثاني، الصادر في ٢١ نوفمبر ١٩٦٤م، البند السادس عشر.
انظر: وثائق المجمع الفاتيكانّي الثاني - دستور عقائدي «نور الأمم» ١٦، ص٣٣٦-٣٣٧.
انظر: وثائق المجمع الفاتيكانّي الثاني - تصريح عن علاقات الكنيسة مع الديانات غير المسيحيّة، ص٤٧١، ٤٧٣.
انظر: وثائق المجمع الفاتيكانّي الثاني - الدستور الرعوي رقم ٢٢، ص٥٨.

بكونها مظهر صدق وفكر منفتح يتناقض تمامًا مع المواقف السابقة، ومن ثمّ ينظر إلى الوثيقة على أنّها دفاع عن الإسلام من قِبل أكبر المؤسّسات المسيحيّة، ذلك الدفاع الذي يدهش عنده المعاصرين من أتباع الأديان الثلاثة، لكنّه يتساءل بحزم وربما استنكار قائلًا: « ولكن كم هو عدد أولئك الغربيّين الذين تنبّهوا إلى هذه المواقف الجديدة التي اتخذتها سلطات الكنيسة الكاثوليكيّة العليا»[1].

وكان من ضمن ما جاء في وثائق المجمع الفاتيكانيّ الثاني النصّ التالي: «روابط الكنيسة مع غير المسيحيّين: أمّا الذين لم يقبلوا الإنجيل بعد، فإنّهم متّجهون نحو شعب الله بطرق مختلفة[2]، وأوّلهم ذلك الشعب اليهوديّ الذي أُعطى العهود والمواعيد وكان منه المسيح بحسب الجسد رو ٩: ٤، ٥ ذلك الشعب المختار المحبوب من أجل الآباء؛ لأنّ مواهب الله ودعوته هي بلا ندامة رو ١١: ٢٨، ٢٩، وتدبير الخلاص يشمل الذين يعترفون بالخالق أيضًا، وفي طليعتهم المسلمون الذين يعلنون تمسّكهم بإيمان إبراهيم، ويعبدون معنا الإله الأوحد الرحيم الذي سيدين البشر في اليوم الأخير»[3].

بل إنّ بوكاي كان يرى فيما يبدو أنّ هناك محاولات تقارب وتواصل من قبل الكنيسة الغربيّة مع الإسلام من أجل رأب الصدع الذي أحدثته صراعات الماضي وأدرانه، ومن ثمّ فقد عدّد هذه المحاولات في الآتي[4]:

الأولى: ما قام به رئيس غرفة أمانة سرّ الفاتيكان من زيارة الملك فيصل كما سبق أن أشرنا، والتي حملت رسالة من البابا بول السادس، والتي كان فحواها الإيمان العميق بتوحيد العالمين الإسلاميّ والمسيحيّ اللذين يعبدان إلهًا واحدًا على حدّ وصفه.

الثانية: وهي المحاولة التي تلت المحاولة السابقة بستّة أشهر، ففي تشرين

---

[١]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٤٠.

[٢]- راجع القدّيس توما المجموعة اللاهوتيّة الجزء الثالث السؤال الثامن البند الثالث الإجابة على السؤل الأوّل.

[٣]- الدستور العقائديّ - المجمع الفاتيكاني الثاني، الصادر في ٢١ نوفمبر ١٩٦٤م، البند السادس عشر.

[٤]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٥-١٦.

الأول عام ١٩٧٤م استقبل البابا رسميًّا كبار علماء الجزيرة العربيّة السعوديّة في الفاتيكان، وسنحت الفرصة وقتها لحوار بين المسلمين والمسيحيّين عن حقوق الإنسان الثقافيّة في العالم.

الثالثة: استقبال المجلس المسكونيّ لكنائس جنيف علماء الجزيرة العربيّة، كما استقبلهم المطران إِلْشِنْجَر أسقف استراسبورج، ودعاهم إلى إقامة صلاة الظهر في الكاتدرائيّة أمامه.

ولعلّ الهدف من هذا اللقاء الذي كان يريده بوكاي بين المسيحيّة ممثّلةً بالإنجيل، والإسلام ممثّلًا بالقرآن، هو مواجهة التيّار المادّيّ المنحرف الذي كوّن اتجاهًا إلحاديًّا يخشاه بوكاي ذاته على أهل الأديان عامّة. ونحن لا نشكّ في أنّ هذا التيّار أو ذاك الاتجاه كان نتيجة لسلطة الكنيسة في الغرب.

لكن هل استطاعت هذه المواقف من الكنيسة أن تغيّر شيئًا من تلك الصورة التي تكاد تكون قد انطبعت في مسيحيّي الغرب عن الإسلام؟ لا نظنّ أنّها غيّرت كثيراً؛ بل نعدّها مجرّد أقاويل قيلت في الغرف المغلقة والمجامع المنعزلة، بل إنّها لا تعدو كونها في كثير من الأحيان مجرّد أحاديث يتطلّبها بروتوكول الجلسة، بدليل أنّ بوكاي ذاته يعترف أنّ التجهيل المتعمّد للإسلام لا زال في تلك الفترة التي عايشها، وبدليل أنّه أكّد أيضًا على كون هذه المواقف والمحاولات كانت أولًا من قبيل المظاهر، وثانيًا كانت مجهولة للكثيرين، وهذا ما أكده بقوله: «ولئن كان الأمر قد أعلن عنه فمن قبيل المظاهرة أكثر منه من قبيل تقدير معناه الدينيّ العظيم. وعلى كلّ حال فقد كانوا قلائل أولئك الذين سألتهم عن هذه المظاهر وأجابوا بأنّهم علموا بها»[1].

ونحن بدورنا نرى أنّ الغرب لا زال إلى الآن يسبح في بحر من غمامات التشويه والازدراء ضد الإسلام، ولم تنفع معها تلك المحاولات القليلة في تغيير تلك النظرة؛ لأنّه كما قلت سابقًا كان يغلب عليها المظاهر أكثر من غلبة الجوهر، بدليل أنّها

[١]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٦.

لم تتناول القضايا الرئيسة، وإنّما تناولت قضايا مثل التواصل والتسامح، وهذا شيء جيّد لا غبار عليه، لكن تناول قضايا مثل: قضيّة العلم والدين التي تناولها بوكاي، وقضيّة مصدريّة الكتب المقدّسة الموجود الآن وغيرهما من القضايا لم تكن على طاولة النقاش، ما يعني أنّنا بصدد مظاهر بروتوكوليّة ليس أكثر، وربما كان لها أهدافها غير المعلنة على الصعيد السياسيّ أو الصعيد الدينيّ.

إذن هذا يعني أنّ عمليّة التصحيح التي أرادها المستشرق بوكاي من الغرب تجاه الإسلام تستلزم في المقام الأوّل ما يمكن أن نسمّيه عمليّة الصدمة، ونقصد بها توجيه الغرب بقوّة نحو التناقضات التي تظهرها النصوص المقدّسة، فإذا وقفوا على هذه التناقضات فإنّ الحديث عن اتّهام الإسلام عندها سيكون لا أساس له من الصحّة. وكأنّه يرسي مبدأً مهمًّا مؤدّاه: قبل أن تتّهم غيرك بالهرطقة انظر إلى نفسك أوّلًا، فقد تكون أنت زعيم الهراطقة.

وفي إطار عمليّة ما أسميناه بالصدمة يقول بوكاي: «فلقد كان بالنسبة إلى الأناجيل موقف الكنيسة الحاسم في عصورها الأولى في أمر العديد منها؛ إذ أعلنت اعتماد أربعة منها فقط رغم وجود التناقضات فيما بينها في كثير من النقاط، وأمرت بإخفاء الأخرى التي وُصفت بأنّها مشكوك فيها»[1]. وهذه العمليّة وإن كانت صادمة، فإنّها في الوقت ذاته توجّه ناحية معالجة مواضع الخلل والعوار من خلال المنهج النقديّ، ومقابلتها مع معطيات العلم الحديث. بحيث تخفّف من غلواء النقد الموجّه إلى القرآن دون وازع علميّ أو منطقيّ.

٣- التركيز على المضامين الدالّة على مصدريّة القرآن الإلهيّة

وقد كانت هذه الصدمة مقدّمة لصدمة جديدة أو حقيقة مؤكّدة ربما لم يعهدها الغرب من قبل، وهي التي صاغها بوكاي بقوله: «إنّ ثمة فرقًا أساسيًّا بين المسيحيّة والإسلام فيما يتعلّق بالكتب المقدّسة، وهو غياب النصّ الموحى به

[١]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٦.

المحدّد عند المسيحيّة، بينما يملك الإسلام القرآن الذي يحقّق له ذلك»[1]. وهذه الحقيقة تلخّص نظرة بوكاي للنصوص المقدّسة، فهناك نصّ محدّد متكامل تحكم كلّ كلمة فيه بمصدريّتها الإلهيّة -وهذا ما أثبته ولا يزال العلم الحديث في علاقته بالقرآن- وبين نصّ غير محدّد المعالم تدخّلت فيه يد الكتبة، فصارت أسفارًا كثيرة اعترفت المجامع بعدد منها ورفضت العدد الآخر، حتى مع الاعتراف ببعضها، فإنّها لم تسلم من نقد المتخصصين. «ولا شكّ في أنّ دراسة التاريخ منذ ولادة المسيح عليه السلام وحتى الآن بشكل موضوعيّ سيعيد إلى الأذهان حقيقة بل حقائق جوهرية غُيبت عن العقل البشري حتى بات اليوم مستسلمًا لكل المقولات الكهنوتية حول المسيح وطبيعته وما جاء به من تعاليم»[2].

وهذا يعني أنّ بوكاي كان يحمل تقديرًا واحترامًا في صدره للقرآن الكريم؛ لذا كان حريصًا كلّ الحرص على تعديل نظرة الغرب إليه وتصحيحها ولفت انتباهه إلى الإشارات العلميّة التي يحملها بين ثناياه. ولقد كان سبب هذا التقدير والاحترام أنّ القرآن نصّ الوحي المنزل على سيّدنا محمّد ﷺ عن طريق أمين الوحي جبريل؛ ومن ثمّ فقد كُتب في الحال، وحفظه المؤمنون في قلوبهم قبل ذاكرتهم، وكانوا يتعبّدون به في صلواتهم، مستدلًّا على أصالته بما أمر به سيّدنا محمّد من ترتيب آيات السور، والتي جُمعت بعد وفاته، فوصل القرآن إلينا على الصورة التي كانت على أيّام النبيّ الكريم، «وخلافًا لما جرى في الإسلام، فإنّ الوحي المسيحيّ انبنى على شهادات إنسانيّة متعدّدة وغير مباشرة؛ لأنّنا لا نملك أيّ شهادة من شاهد عاين حياة المسيح، خلافًا لما يتصوّره كثير من المسيحيّين...»[3].

ولعله يستند إلى بعض الكتابات المسيحيّة التي ليس لها علاقة بالعقيدة المسيحيّة، ولا بكلمات المسيح التي قالها[4]. علماً بأنّ العقيدة التي فرضها الله

[١]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٨.

[٢]- حسن الباش، العقيدة النصرانية بين القرآن والأناجيل - دمشق/ بيروت، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ٦.

[٣]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٨.

[٤]- حسن الباش، العقيدة النصرانيّة بين القرآن والأناجيل، ص٦.

تعالى على سيّدنا عيسى لا تكاد تختلف عن الإسلام في جوهرها التوحيديّ، كما أنّها لا تختلف عن العقيدة التوحيديّة التي جاء بها سيّدنا موسى عليه السلام[1].

فبوكاي يلفت نظرنا إلى أنّه يوجد نصّ مكتوب يتوافق مع العلم الحديث وهو القرآن الكريم، ونصوص مقدّسة سابقة عليه لا تتوافق معه، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه بقوّة هو: هل عدم التوافق مع العلم يعني وجود تناقضات واستحالات وتضادّ يخدش الإيمان بالله على الإطلاق؟ يجيب بوكاي على السؤال بالنفي، فهذا الأمر لا يخدش قضيّة الإيمان بالله، ولكنّه في الوقت ذاته يثير عنده موضوع مسؤوليّة البشر. فليس من أحد لا يملك ما يمكن أن تكون عليه النصوص الأصليّة، وما نصيب الكتابات التي أملاها الهوى، وما مقدار تصرّف البشر بهذه النصوص، ممثّلًا لذلك بما أسماه التغيّرات اللاشعوريّة للكتابات المقدّسة، «والذي يصدم في هذه الأيام أنّ نرى بعض الاختصاصيّين في دراسة النصوص يتجاهلون مثل هذه التضادات أو التناقضات مع المعطيات العلميّة الثابتة، أو يحدّدون عيوبها مع محاولة سترها بواسطة بهلوانيّات جدليّة»[2].

علمًا بأنّ دين الله تعالى واحد، والقرآن إضافة إلى التوراة والإنجيل الصحيحين من لدن الواحد الأحد[3]. وإن كان هذا لا يمنع من أنّ الشرائع بين أهل الكتاب والمسلمين مختلفة في التفاصيل والكيفيّات، حيث إنّ لكلٍّ شرعته ومنهاجه[4].

ومن جانب آخر فإنّ محاولات بوكاي في تعديل صورة الإسلام والقرآن لدى الغرب لم تكن لتقف عن حدود الإشارات العلميّة المتضمَّنة في عدد ليس بالقليل من الآيات القرآنيّة، بل تعدّاه إلى محاولته تعديل هذه الصورة من خلال البيئة الإسلاميّة في ذلك الوقت وتطبيقاتها للنصّ القرآنيّ الداعي للعلم، «فكانت مكتبة

---

[١]- حسن الباش، المرجع السابق، ص٦.

[٢]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص٢١.

[٣]- انظر: علي بن عتيق الحربّي، ما جاء عن التوراة والإنجيل في القرآن الكريم، مجلّة الدراسات الإسلاميّة والبحوث الاجتماعيّة، العدد ٦٨، ص٣٠٨.

[٤]- انظر: علي بن عتيق الحربّي، المرجع السابق، العدد ٦٨، ص٣٠٨.

الخليفة في قرطبة تحتوي على ٤٠٠٠٠٠ كتاب، ولهذا كان الناس يذهبون إليها من مختلف البلدان الأوروبيّة للدراسة، كما يذهبون في أيّامنا هذه لإتمام بعض الدراسات في الولايات المتحدة، وكم من مخطوطات قديمة وصلتنا بواسطة الأدباء العرب الذين حملوا الثقافة إلى البلدان المفتوحة»[1]. وهذا اعتراف بتأثير الفكر الإسلاميّ العلميّ المستند إلى الدعوات القرآنيّة في مجرى الحضارة والثقافة والعلم العالميّ، بل إنّه يمثّل وسيلة مهمّة في سبيل تعديل نظرة الغرب إلى الإسلام وتصحيحها.

ولا شكّ أنّ ذلك يستند إلى جهود بعض العلماء المسلمين أيضًا الذين كان لهم قصب السبق في ورود بعض العلوم التي كان يجهلها العالم، والتي كان لهم فيها باع طويل، مما قاد البشريّة إلى البناء على هذه الجهود الكبيرة، فمن منّا ينكر دور الخوارزميّ وجابر بن حيّان والحسن بن الهيثم وابن سينا وغيرهم كثير في المساهمة في البناء العلميّ العالمي من خلال جهوده، في ارتياد علوم جديدة لم تكن معرفة من ذي قبل[2]؟ ولعلّ هذا ما دعا المستشرق بوكاي إلى القول: «وكم من دين علينا نحو الثقافة العربيّة في الرياضيّات «الجبر العربيّ» والفلك والطبيعة «البصريّات» وعلم طبقات الأرض وعلم النبات والطبّ «ابن سينا» إلخ.. وللمرّة الأولى أخذ العلم صفة العالميّة في الجامعات الإسلاميّة، ولقد كان فكر الناس الدينيّ في ذلك العصر أكثر عمقًا منه في هذا الزمن، ولم يمنعهم ذلك من أن يكونوا في نفس الوقت علماء ومؤمنين في وسط إسلاميّ، لقد كان العلم توأم الدين، ولم يكن من الواجب أن يكون غير ذلك»[3].

ولا شكّ في أنّ بلاد الغرب في العصور الوسطى كانت بلادًا متراجعة ومتخلّفة لم

[١]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٤٥.

[٢]- انظر: في جهود هؤلاء المفكرين كلّ من:

عاطف محمّد، عبقريّ علم الرياضيّات الخوارزميّ، القاهرة، دار اللطائف للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣م.

جابر بن حيان، مجموعة مصنّفات في الخيمياء والإكسير الأعظم، دراسة وتقديم: بيير لوري، لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ٢٠٠٨م.

مصطفى نظيف، الحسن بن الهيثم كشوفه وبحوثه البصريّة، القاهرة، مطبعة نوري، ١٩٤٢م.

ابن سينا، القانون في الطبّ، تحقيق محمّد أمين، بيروت/ لبنان، دار الكتب العلميّة.

[٣]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٤٥.

تكن تعرف عن العلم شيئًا، في الوقت الذي كانت فيه الحضارة الإسلاميّة القائمة على العلوم والمعارف في أوج مجدها وعزّها[1]، فإذا كانت الحضارة الغربيّة في عصرنا في أوج تقدّمها، فإنّ العرب والمسلمين كانوا في عصور أوروبا الوسطى في قمة تطوّرهم العلميّ والحضاريّ، في الوقت الذي كان ترسف فيه أوروبا في غياهب الجهل وكهوف اللاوعي.

وإذا كانت أوروبا في العصور الوسطى ترسف في ذلك، فلأنّ رجال الدين فيها حاربوا العلم ونالوا من رجاله، حتى أنّهم حرّموا كلّ منجز علميّ، بدعوى أنّه مخالف للنصوص المقدّسة، مع أنّ الأمر لم يكن يتعلّق بالوحي، وإنّما كان يتعلّق بمن يحاربون التطوّر، ثمّ يدعون أنّ موقفهم هذا نابع من النصّ الموحى به! وهذا شيء في قمّة الغرابة. بوكاي نفسه فصل بين الوحي في موقفه من العلم وبين رجال الكنيسة، وهذا ما يؤكّده بقوله: «لقد كان هذا العصر الأوسط بالنسبة للبلدان المسيحيّة عصر الركود والخضوع المطلق للشكليّات، وكان البحث العلميّ ملجمًا، ليس بسبب الوحي اليهوديّ-المسيحيّ، ولكن بسبب أولئك الذي يدّعون أنّهم خدمته»[2].

لكن ردّ الفعل من المفكّرين والعلماء بعدما استتبّ لهم الأمر في عصر النهضة كان قاسيًا وإقصائيًّا من جنس الموقف نفسه الذي اتخذته الكنيسة ضدّهم من قبل[3]، لكن ردّ الفعل هذا كان له أثر سلبيّ على الدين، لا أقصد على الدين

---

[١]- للمزيد حول هذه القضيّة انظر:

سعيد عبد الفتاح عاشور، المدنيّة الإسلاميّة وأثرها في الحضارة الأوروبيّة، القاهرة، دار النهضة العربيّة، الأولى، ١٩٦٣م، ص٣٥، وما بعدها.

موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: علي السيّد علي المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م، ص٢٩٥.

[٢]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٤٥.

[٣]- انظر: في ذلك:

حمود الرحيلي، العلمانيّة وموقف الإسلام منها، السعودية، الناشر الجامعة الإسلاميّة بالمدينة المنوّرة، العدد ١١٥، السنة ٣٤، ١٤٢٢هـ ص٣٣٩، ٣٥٠.

سفر بن عبد الرحمن الحوالي، العلمانية نشأتها وتطوّرها وآثارها في الحياة الإسلاميّة المعاصرة، السعوديّة، دار الهجرة، بدون تاريخ، ص١٢٣.

المسيحيّ فحسب، بل كان على الأديان قاطبة[1]. وقد أكّد المستشرق بوكاي على أنّ ردّ الفعل كان طبيعيًّا من قبل هؤلاء العلماء والمفكّرين بغية الثأر لأنفسهم من خصوم الأمس، وتتابع ذلك حتى أيّامنا هذه، حتى أصبح من يتكلّم الآن عن الله في الغرب في وسط علميّ عازلًا نفسه حقيقةً، ولقد كان لهذا الموقف انعكاسات كبيرة على جميع الأفكار الشابّة التي تتلقّى التعاليم الجامعيّة بما فيهم المسلمون[2].

وهذا ما حدث بالفعل في موقف عصر النهضة من الدين، فلم يكن الردّ موجّهًا ناحية سلطة الكنيسة أو رجال الدين[3]، وإنّما كان موقفهم موجّهًا إلى الدين، فقد تعاملوا مع كلّ ما هو دينيّ على أنّه خطأ، ومن ثمّ وجب عندهم وأده، ومن ثمّ ظهر الدين في الغرب وحيدًا لا ناصر له، وصار المتديّنون ملاحقين، لا على المستوى السياسيّ فقط، بل على مستوى النظرة المجتمعيّة التي تشبّعت بأفكار عصر النهضة أيضًا.

ومن ثمّ فقد صار موقف العلماء والمفكّرين من الدين خطيرًا، فقد طغت المادّيّة والنفعيّة على الحضارة الغربيّة التي قامت على أكتافهم[4]، حتى صار بعضهم ينادي بإنكار وجود الله تعالى علانية، دون وازع من ضمير أو عقيدة[5]. يقول بوكاي: «وكيف لا يكون ذلك عندما نعرف المواقف المتطرّفة التي اتخذها أكابر علمائنا، كالذي قام به حامل جائزة نوبل في الطبّ الذي حاول في سنواته الأخير في كتاب موجّه لجمهور كبير بأن يقنع قارئه بأنّ المادّة الحيّة هي التي

---

[١]- وهذا ما نجده على سبيل المثال واضحًا في كتابات كلّ من:

هيجل، العقل في التاريخ، المجلّد الأوّل من محاضرات في فلسفة التاريخ، ترجمة: د. إمام عبد الفتاح، طبعة بيروت، دار التنوير، الثالثة، ٢٠٠٧م.

فريدريك نيتشه، هكذا تكلم زاردشت، ترجمة فليكس فارس، القاهرة، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٤م.

[٢]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٤٥.

[٣]- أبو الحسن على الحسني الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص١٥٩.

[٤]- انظر: على سبيل المثال ميكيافللي، الأمير، القاهرة، مكتبة ابن سينا للطبع والنشر والتوزيع، ٢٠٠٤م، ص٥١، ١٠٨.
وانظر: أكرم مؤمن، مقدمة ترجمة كتاب الأمير لمكيافللي، القاهرة، مكتبة ابن سينا للطبع والنشر والتوزيع، ٢٠٠٤م، ص٤.

[٥]- وهذا ما قادت إليه أفكار داروين في أصل الإنسان انظر: دارون، أصل الأنواع، ترجمة: مجدي محمود المليجي، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤م، ص٦١.

خلقت نفسها صدفة من بعض المركّبات البدائيّة، وأنّها تشكّلت تحت تأثير ظروف مختلفة معقّدة، فأصبحت كائنًا حيًّا ذا أعضاء، ثمّ انتهت إلى المركّب الأكبر الذي هو الإنسان»[1].

وعندما يتعرّض المستشرق موريس بوكاي لهذه القضيّة، فإنّه يقصد من وراء ذلك أمرين لا ثالث لهما:

الأوّل: أنّ الإلحاد خطر على الأديان: اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام، وخطر على الكتب السماويّة: التوراة والإنجيل والقرآن؛ لأنّه لا يعترف بالأديان، ولا حتى برب هذه الأديان، ويقضي على العلاقة بين المؤمن وربه.

الثاني: أن تكاتف أتباع الأديان والحرص على قيمة العلم، والاعتراف بارتباط النصوص بالعلم من عدمه هي أولى الطرق لتصحيح ما علق بالدين من شوائب نتيجة خطأ أتباعها.

فقضيّة عدم منطقيّة الإلحاد كانت تشغل بال بوكاي كثيرًا؛ بل إنّه كان يرى أنّ معطيات العلم الحديث تتوافق مع ما ورد في كتاب مقدّس كالقرآن، وتثبت يومًا بعد يوم أنّ الموقف الإلحاديّ موقف متهاوٍ لا يصمد أمام النقد العلميّ السليم، وهذا ما جعل بوكاي يتساءل في معرض ردّه على هذا الموقف المخالف للعقل والمنطق:

ألم يكن يجب على معجزات المعرفة العلميّة المعاصرة أن تصل في إطار الحياة بمن يفكر في نقيض هذه النتيجة؟!

ألم تكن البنية التي قادت إلى ولادة الحياة وكيانها تبدو للدارس معقّدة أكثر فأكثر، بحيث تبعث في نفوسنا الإعجاب عندما نتعرّف تفاصيلها؟!

ألا تؤدّي المعرفة بها إلى النظر لعامل الصدفة على أنّه أقلّ صحّة مرّة بعد أخرى[2]؟!

---

[١]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٤٥.

[٢]- م.ن، ص١٤٦.

وهذه كلّها أسئلة منطقيّة، ولا يستطيع التيّار الإلحاديّ إلّا أن يقف أمامها صامتًا، وإن حاول الإجابة، فإنّه يتعلثم، وإن ادّعى وتمادى في غيّه، فإنّ العلم يكون الحكم الذي يقضي على ما يدعي ويتمادى فيه. فالقول بالصدفة هو عودة إلى البدائيّة ومرحلة السذاجة؛ وكيف يستقيم القول بالصدفة مع ما يظهر في الكون من تناسق وانسجام واتفاق؟! هل الصدفة باستطاعتها أن تفعل ذلك؟! وماذا عن قضيّة الأسباب والمسبّبات، هل يُخلق الكون أو تُخلق الحياة بدون مسبّب؟! إنّ الإلحاد بموقفه هنا يقضي على أهمّ خصّيصة من خصائص العلم، وهي قضيّة السبب والمسبَّب أو الأسباب والنتائج؛ فإذا كانت الأشياء تخلق هكذا كيفما اتفق، فلا داعي للقانون القائم على الأسباب ولا داعي للعلم من الأساس.

والحقيقة أنّ موقف بوكاي من الإلحاد وهجومه على الأديان وعلى الكتب السماويّة وأخصّها القرآن الكريم كان موقفًا علميًّا بامتياز؛ يقدّم الحجّة الموجزة والدليل الواضح القوي الذي يصيب الهدف من أقصر طرقه، وأهمّ هذه الطرق طريق العلم والمعرفة، «وكلّما تقدّمنا في طريق المعرفة، وخاصّة فيما يتعلّق الجوهر، كلّما كانت البراهين في صالح وجود الخالق، ولكن بدل أن يتواضع الإنسان أمام بعض الوقائع، فإنّه ينتفخ كبرياءً وغرورًا، إنّه يخيّل إليه أنّ من حقّه الاستهزاء بكلّ فكرة عن الله، بل والسخرية بكلّ ما يصادفه إذا كان يحجزه عن تحقيق متعته وشهوته، هذه هي الآن ظاهرة المجتمع المادّيّ الغربيّ في كامل تفتّحه»[1].

هذا الإسفاف الفكريّ لا يستطيع أن يواجه إلا أولئك النفر من علماء الدين الذين لديهم القدرة على دفع هذا التيار الشائك بالحجة المنطقية والعقليّة، لكنه كان يرى أنه ليس هناك من دين يستطيع أن يواجه هذا التيار سوى الإسلام وكتابه القرآن، فاليهودية والمسيحيّة في الغرب أعلنتا عجزهما عن صده، وعن حجز الغرب عنه، « وكلاهما تجاهها في كامل الاضطراب، ألسنا نجد من عشر سنوات إلى أخرى تزايد عجز مقاومتهما الظاهر لهذا التيّار الذي يهدّد باكتساح كلّ شيء؟ إنّ المادّيّة

[١]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٤٦.

الملحدة لا ترى في المسيحيّة التقليديّة إلّا نظامًا صنعه الناس منذ قريب من ألفي سنة لتثبيت نفوذ أقلّيّة على أمثالها»[1].

ومن خلال الاستقراء العام لفكر المستشرق بوكاي تجاه كتابات العهد القديم والجديد نفهم أنّه يقصد هنا أن يستحضر قضيّة التناقضات والتضادّات الموجودة فيهما والتي أشار إليها فيهما مرارًا وتكرارًا، وكأنّه يشير إلى أنّ الإلحاد في الغرب كان نتيجة تمسّك السلطة الكنسيّة هنا بتلك التناقضات والتضادّات وعدم مواجهتها، خاصّة وأن بوكاي كان يرى أنّها لا تتوافق مع العلم الحديث؛ ولذا يؤكد قائلًا: «ولا نعرف في كتابي اليهوديّة-المسيحيّة المقدّسين وجود لغة تنتمي ولو من بعيد إلى لغتهما؛ لأنّ هذه الكتابات تحتوي الكثير من التضادّات، وما لا يتفق مع الحقّ، ولا مع معطيات العلوم الحديثة، التي ترفض أن نأخذ بعين الاعتبار نصوصًا يريد غالبيّة اللاهوتيّين قبولها مسلّمة جملة واحدة»[2].

إنّ الإسلام وكتابه الأعظم القرآن هو -فيما أظنّ- الطريق الآمن الذي اتّخذه بوكاي ملاذًا للبشرية من الموجة الإلحاديّة العاتية التي تحكّمت في الغرب، وتحاول أن تأكل في طريقها الأخضر واليابس. وهذا لشيء بارز، وهو أنّ القرآن يتعامل بعقلانيّة مع قضايا الإنسان والعالم بصورة تتوافق مع معطيات العلم الحديث، وهذه هي المحوريّة الأساسيّة التي يستطيع الإسلام من خلالها أن ينتصر على هذا التيّار الإلحاديّ، وأن تتكسّر تلك الموجة الإلحاديّة على صخرته.

لكن الإسلام وكتابه القرآن اللّذين يراهما المستشرق بوكاي أهلًا للقيام بهذه المهمّة الجليلة كانا لا ينالان التقدير والاحترام اللائقين في الغرب، فالغرب لم يكن يعرف الإسلام الحقيقيّ، لكن ما عرفه هو إسلام مشوّه لا يمتّ إلى هذا الإسلام الحقيقيّ بصلة؛ نتيجة كمٍّ من الأفكار الخاطئة التي تكوّنت في الذهنية الغربيّة عنه جرّاء كتابات لم تراع الأمانة العلميّة، ولا البحث العلميّ النزيه. فهل باستطاعة

[١]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٤٦.

[٢]- م.ن، ص١٤٦.

أحد بعد هذه الصورة المشوّهة أن يقدّم لهم الإسلام كمنقذ للعالم من براثن هذه الذئب المفترس المسمّى الإلحاد؟! ولقد طرح بوكاي مثل هذا السؤال على مخيّلته وأجاب بحسم «هل نكلّمها -يقصد هنا القوى الروحيّة المتصدّية لموج الإلحاد في الغرب- عن الإسلام؟ لا شكّ أنّها ستبتسم ابتسامة اكتفاء لا يعدله سوى عدم كفاية معرفتها في الموضوع، ومثلها أغلبيّة المفكّرين الغربيّين، أيًّا كانت عقائدهم الدينيّة، وقد تكوّنت لديهم عنه مجموعة عظيمة من الأفكار الخاطئة»[1].

فقضيّة التشويه تشويه الإسلام عامّة والقرآن خاصّة كانت متغلغلة في النفوس الغربيّة، بحيث يعدّ أيّ رأي مخالف من قبيل الشذوذ الفكريّ، وبوكاي يعترف بهذا ولا ينكره مطلقًا، بل إنّه دائم الذكر له والأسف منه، حتّى أنّه ليقرّر حقيقة لا مناص منها، وهي أنّ كلّ غربيّ حصّل بعض المعارف المعمّقة عن الإسلام ليدرك إلى أيّ مدى تمّ تشويه الإسلام تاريخًا وعقيدة وأهدافًا، ومن ثمّ كانت الكتابات الغربيّة المنشورة عنده عن الإسلام، عدا بعض دراسات المتخصّصين، لا تسهّل عمل من يريد الوصول إلى الحقيقة[2].

لكنّنا وإن كنا متفقين مع بوكاي في القول بالتشويه المتعمّد للإسلام في كتابات الغربيّين، فإنّنا لسنا معه في ذهابه إلى استثناء دراسات المتخصّصين من هذا التشويه، وهذا خطأ كبير من بوكاي، إذ لو تأمّل بعض كتابات هؤلاء المتخصّصين لوجد العجب العجاب، ولوجد أنّهم أحد روافد هذا التشويه، إن لم يكونوا هم مصدره الأوّل، وإلّا فلينظر إلى ما كتب نولدكه عن تاريخ القرآن[3]، وما كتبه تيسدال عما أسماه المصادر الأصليّة للقرآن[4]، والتي اتّهم من خلالها الإسلام بأنّه اقتبس من الديانات والكتب السماويّة السابقة عليه، وكذلك من الشعر الجاهليّ، ولينظر إلى ما كتبه غالبيّة المستشرقين في هذا الموضوع.

---

[١]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٤٦.

[٢]- م.ن، ص١٤٧.

[٣]- نولدكه، تاريخ القرآن، نقله إلى العربيَّة جورج تامر، بيروت، مؤسّسة كونراد أدناور، ٢٠٠٤م، ج٣.

[٤]- سان كلير تيسدال، المصادر الأصليّة للقرآن، ترجمة: عادل جاسم، بغداد بيروت، منشورات الجمل، الطبعة الأولى، ٢٠١٩م.

ثالثًا: ربط القرآن بالعلم

لا شكّ في أنّ ما أظهره العلم الحديث، من اتفاق مع الآيات القرآنيّة كشف عن باب من أبواب الإعجاز في القرآن الكريم، وقد انطلق بوكاي من هذه الجزئيّة ليبيّن الفارق بين القرآن وبين غيره من الكتب السماويّة الأخرى التي وجد أنّها تخالف العلم وتضادّه. وقد أرّخ بوكاي لبدايات الكشف عن العلاقة بين العلم والكتاب المقدّس، فعدّ مقابلة نصوص الكتاب المقدّس بمعطيات العلم على طوال الزمن؛ حيث ظلّت موضع تفكير الإنسان، «وقد لوحظ مع تطوّر المعرفة وجود اختلافات بين نصّ التوراة والعلم، فتقرّر عدم المقابلة بينهما. يجب الاعتراف بأنّه بهذه الطريقة برز في أيّامنا وضع خطير، هو تصادم العلماء وشرّاح التوراة؛ لأنّه لا يمكن القبول في الواقع بأن يكون الوحي الإلهيّ متكلّمًا عن شيء غير صحيح»[1].

ولا شكّ أنّ النصّ المقدّس ذا الأصالة والمصدريّة الإلهيّة يصمد أمام معطيات العلم الحديث ويتوافق معه؛ لا لشيء إلّا لأنّه من لدن ربّ العالمين، ومن ثمّ فهو صحيح، هذا هو حال القرآن الذي ظلّ طوال أكثر من ١٤٤٠عامًا صامدًا أمام العلم الحديث، بل على الأحرى تجد فيه إشارات علميّة ومضامين في الكون والحياة بدأ العلم الحديث يكتشفها الآن، ما يعني أنّ القرآن -حسبما أشار الكثيرون- سبق العلم الحديث في الوصول إليها[2]. وهذا ما أكّده بقوله: «لقد أدهشتني في البداية هذه الصورة العلميّة الخاصّة بالقرآن إلى حّد بعيد؛ لأنّي لم أكن أظنّ أبدًا أنّه يمكن حتى هذا الزمن أن نكتشف في نصّ مكتوب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا عددًا من اليقينيّات المتّصلة بموضوعات شديدة التنوّع ومتّفقة تمامًا مع المعارف العلميّة الحديثة»[3].

ويمكن القول إنّ بوكاي قد حدّد واحدًا من ثلاثة مواقف أمام عدم توافق النصوص المقدّسة مع العلم، وهي:

---

[١]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٨-١٩.

[٢]- انظر: عبد الرازق نوفل، القرآن والعلم الحديث، بيروت/ لبنان، دار الكتاب العربيّ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص٢٣.

[٣]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٤٧-١٤٨.

أ. التوفيق المنطقيّ بينهما.

ب. إبطال كلّ مقطع توراتيّ يتحدّث عن أمر غير مقبول علميًّا.

ت. الاندفاع إلى الاحتفاظ بكامل النصّ رغم عدم توافقه مع العلم[1].

فعلى الأوّل يكون ثمّة توفيق بين النصّ المكتوب والعلم الحديث، بحيث نزيل شبهة التناقض التي قد تظهر للوهلة الأولى، أو بحيث نكشف عن المضامين المكنونة في النصّ من الناحية العلميّة، والتي قد تكون خافية على الكثيرين، نتيجة الاحتياج إلى التأمّل العميق في النصّ. وعلى الثاني فإنّنا بذلك نكون قد أنصفنا العلم وبيّنّا ما في النصوص المقدّسة من عوار، ومن ثمّ كان ذلك دليلًا على المصدريّة البشريّة لهذه النصوص؛ لأنّها إن كانت ذات مصدريّة إلهيّة فإنّ التناقض ما كان له أن يتخلّلها على الإطلاق، وهذا هو الحلّ المنطقيّ الذي كان يجب على أتباع هذه النصوص أن يتمسّكوا به. وعلى الثالث يكون التمسّك بالنصّ على حساب العلم، رغم إدراك ما يشتمل عليه من عوار من الناحية العلميّة. ومن ثم فقد قادتهم روحهم التعصّبيّة إلى مناقضة المنطق والعقل والعلم الحديث.

وبالنظر إلى الاستقراء العام لفكر المستشرق موريس بوكاي نجد أنّه يؤكّد على أنّ أتباع العهدين على مرّ العصور يتمسّكون بموقف الاحتفاظ بكامل النصّ، وليكن العلم في جانب ودينهم في جانب آخر، في حين يؤكّد على أنّ أتباع القرآن يتمسّكون بالموقف الأوّل القائم على البحث عن التوافق بين الدين والعلم.

وهذا ناتج عما يوجد في كلا الكتابين السماويّين، وقد اهتمّ غير دارس ببيان موقف الكتابين من العلم، من خلال إثبات، خلوّ القرآن الكريم من الأخطاء العلميّة، وتناول التقريرات العلميّة في القرآن مع محاكمتها إلى صحيح العلم، كذلك تناول الشبهات التي يزعم الملحدون وغيرهم من خلالها أنّ القرآن خالف فيها العلم، مع عدم الاقتصار على ردّ الشبهة عن القرآن الكريم، وإثبات ربّانيّة

[1]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٩.

القرآن وعصمته من الأخطاء العلميّة وموافقته صحيح العلم، وإنّما يتّجه إلى بيان بعض أوجه الإعجاز العلميّ في القرآن، خاصّة القضايا التي وقع فيها مؤلّفو الكتاب المقدّس في أخطاء علميّة، مع التحفّظ والحرص وعدم التكلّف والتقوّل على القرآن بما ليس فيه، فلا يأتي إلّا بالنصوص الواضحة، مع الاستدلال لصحّة الدعاوى العلميّة بكلام علماء الطبيعة الغربيّين من غير المسلمين[1].

وهذا ما انتهى إليه بوكاي عن القرآن في توافقه مع العلم بقوله: «فالقرآن.. يذكر حقائق للعلم فيها كلمته، وذلك في عدد ضخم، إذا ما قورن بما ورد منها في التوراة. وليس ثمّة أيّ قياس مشترك بين السمة المحدّدة للأخبار التوراتيّة المجابهة للعلم، وكثرة الموضوعات ذات السمة العلميّة الواردة في القرآن، ولا أحد من هذه كلّها يصطدم مع وجهة النظر العلميّة»[2].

وهذه الحقائق العلميّة في القرآن التي يشير إليها المستشرق بوكاي تنضوي تحت أربعة مجالات، هي:

أ. نشأة الكون خلق السماوات والأرض.

ب. عالم الفلك.

ت. عالم الأرض.

ث. عالم الإنسان والنبات والحيوان.

هذا خلاف ما تنضوي تحته هذه المجالات الرئيسة من حقائق علميّة، وهي كما أشار بوكاي تشمل عددًا كبيرًا، تتوافق مع العلم ولا تتصارع معه البتة، بخلاف ما وجده فيما تقدّمه التوراة مثلًا[3].

وهذا ما قاده إلى أن يقول بحزم: «نعلم أنّ الإسلام ينظر إلى العلم والدين

[١]- سامي عامري، العلم وحقائقه بين سلامة القرآن الكريم وأخطاء التوراة والإنجيل، رواسخ للنشر، ٢٠٢٠، ص المقدمة.

[٢]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٩.

[٣]- سامي عامري، العلم وحقائقه بين سلامة القرآن الكريم وأخطاء التوراة والإنجيل، ص٨.

كتوأمين، وأنّ تهذيب العلم كان جزءًا من التوجيهات الدينيّة منذ البداية، وأنّ تطبيق هذه القاعدة أدّى إلى التقدّم العلميّ العجيب في عصر الحضارة الإسلاميّة العظمى التي استفاد منها الغرب قبل نهضته»[1].

ولعلّ هذا النصّ يمثّل شهادة حقّ من مستشرق عاش في الغرب وتديّن بالديانة المسيحيّة تجاه الإسلام، خلافًا لما كان عليه المستشرقون قبله، وتتمثّل أهمّيّة هذه الشهادة في أنّها:

ـ تبيّن العلاقة الوثيقة بين القرآن والعلم والتي وصفها بالتوأمة.

ـ تجعل هذه العلاقة هي السبب الرئيس في ازدهار الحضارة الإسلاميّة وشمولها وتأثيرها الإيجابيّ في الحضارة الغربيّة.

ـ تصحح الصورة الغربيّة حول الإسلام، وتقود إلى تعديلها لدى أصحاب العقول.

وهذا يعني أنّه كان مدركًا لموقف الإسلام عامّة والقرآن خاصّة من العلم، فالقرآن والسنّة حثّا على طلب العلم وجعلاه فريضة، بل لقد كان يدرك جيّدًا باعترافه أنّ القرآن يدعو إلى تطوير العلم لاحتوائه العديد من النظريّات عن أحداث طبيعيّة مع تفصيلات موضحة لها؛ بحيث تبدو في اتفاق تامّ مع معطيات العلم الحديث. في الوقت الذي يقرّ فيه بوكاي بأنّه ليس في الوحي اليهوديّ المسيحيّ مثل ذلك[2].

وموقف الإسلام هنا يختلف عن موقف الأديان الأخرى، وهذا ما كان يعرفه بوكاي جيّدًا، إذ كان يدرك أنّ العلاقات بين الأديان والعلم لم تكن واحدة في كلّ زمان ومكان، فهو وإن كان يعترف بأنّه ما من دين وحدانيّ نقيّ لم تتدخّل فيه أيدي البشر، إلّا كان متوافقًا مع العلم، ولكنّ الإشكاليّة نتجت عندما تدخّل البشر بأهوائهم في الدين، «ولكن ينبغي الاعتراف بأنّ أرباب العلوم في الممارسة تنازعوا مع السلطات الدينيّة في بعض المذاهب»[3]. ومن المعلوم أنّ السلطة في الكنيسة قد

---

[١]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٩.

[٢]- م.ن، ص١٤٤.

[٣]- م.ن، ص١٤٤.

تصدّت لانتشار العلم في أوروبا بدعوى مخالفة النصوص الدينيّة[1]، على الرغم من أنّه لم يكن لديها سند في ذلك، خوفًا على هذه السلطة المخوَّلة إليها؛ لذا حاربت كلّ تطوّر، وقد اتّخذت كلّ الوسائل لمواجهة ما عدّته خطرًا، فهناك من العلماء من عُذّب، ومنهم من نُفي، ومنهم من أُجبر على طلب العفو والصفح والغفران، وخير مثال على ذلك موقف الكنيسة في أوروبا من العالم جاليليو «الذي لوحق؛ لأنّه أعلن اكتشافات كوبرنيك في موضوع دوران الأرض. فقد حكم عليه بموجب تفسير ضالّ للتوراة؛ إذ لا يمكن استعمال أيّ كتابة مقدّسة ضدّه»[2].

لكن هذا لا ينفي عنده أنّ بعض المؤمنين بالإسلام كان لهم موقفهم المخالف للعلم وللقرآن في دعوته للعلم، ومن ثمّ يشير إلى أنه قد أسيء فهم فرض تعليم وتعلّم الآخرين في بعض العصور، لكنّه وإن كان يشير إلى نوع من رفض العلم لدى البعض، فهو يؤكّد في الوقت ذاته على أمرين:

الأوّل: أنّ القرآن -وكذلك السنّة- كان يدفع إلى طلب العلم دفعًا، ما يعني أنّ موقف الرفض من قبل بعض المسلمين في بعض العصور كان مخالفة صريحة للدين الإسلاميّ عامّةً وللنصّ القرآنيّ خاصّة[3].

---

[1]- للمزيد انظر: حمود الرحيلي، العلمانية وموقف الإسلام منها، ص٣٣٩-٣٤٠. وانظر: سفر بن عبد الرحمن الحوالي، العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلاميّة المعاصرة، ص١١٩.

[2]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٤٤.

[3]- من الآيات القرآنيّة الداعية إلى العلم قول الله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ سورة العلق.. ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾.. المجادلة آية ١١. ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ سورة الزمر، الآية ٩. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ سورة فاطر، الآيتان ٢٧ـ٢٨.

ومن الأحاديث النبويّة ما جاء عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه أنّه قال: قال رسول الله (ص): **طلبُ العلم فريضةٌ على كلّ مسلمٍ.** رواه ابن ماجه ٢٢٤، وابن عبد البر في جامع بيان العلم ١/ ٨-٩، والطبراني في الصغير ٢٢ من طرق عن أنس، وقال السيوطي: سُئل الشيخ النووي عنه فقال: إنه ضعيف سندًا، وإن كان صحيحًا معنى، وقال المِزّي: رُوي من طرق تبلغ الحسن، وهو كما قال؛ فإني رأيت له خمسين طريقًا، جمعتها، وللحديث شاهد عند ابن شاهين، وقد روي أيضًا بسند رجاله ثقات عن أنس رضي الله عنه وانظر: مجمع الزوائد ١/ ١١٩-١٢٠، وكشف الخفا ٢/ ٤٣-٤٤ ١٦٦٥، وصحّحه الشيخ الألباني في صحيح الجامع ٣٨٠٨ و٣٨٠٩. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله (ص) يقول: **ألا إنّ الدنيا ملعونةٌ، ملعونٌ ما فيها، إلّا ذكرُ الله، وما والاه، وعالمٌ أو متعلمٌ.**

الثاني: أنّه في الوقت الذي كانت فيه أوروبا ترزح في غياهب الجهل في العصور الوسطى كان المسلمون يقودون شعلة العلم في العالم، مما أثّر في الحضارة الغربيّة مستقبلًا، وأقام الغرب عليه نهضتهم[1].

لكن يبقى سؤال مهمّ مؤدّاه: هل كان المترجمون أو المفسّرون على دراية كبيرة أو صغيرة بالإشارات العلميّة في القرآن الكريم، خاصّة أنّ هذه الترجمات أو التفسيرات نُقلت إلى الغرب دون الإشارة إلى أيٍّ من ذلك؟ ونحن نستطيع أن نجد إجابة واضحة عند بوكاي، فحواها أنّ شيئًا من هذا لم يُذكر في ترجمات القرآن الكريم التي كانت بحوزته في تلك الفترة، وأنّ المقدّمات لهذه الترجمات لم تشر من قريب أو بعيد لشيء من ذلك. «وهذه الملاحظة هي صحيحة تمامًا؛ إذ إنّ المترجمين المسلمين للقرآن الكريم إلى اللغة الفرنسيّة، وكذلك المترجمين غير المسلمين، والكلّ ذوو ثقافة أدبيّة محضة، قد مرّوا غالبًا بترجمات صحيحة على مقاطع لم يستطيعوا إدراك معناها الحقيقيّ لنقص في معارفهم العلميّة»[2].

هذا يعني أنّ الإشكاليّة هنا هي عدم الوصول إلى المعنى العلميّ الحقيقيّ المتضمَّن في الآية، ربما لشيء خارج عن إرادة المترجمين، وهو الجهل بالمعارف

رواه الترمذي ٢٣٢٢ وقال: حسن غريب، وابن ماجه ٤١١٢، وحسّنه الألبانيّ كما في صحيح الجامع: ١٦٠٩، والصحيحة: ٢٧٩٧.

وعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبيّ (ص) قال:

مثَلُ ما بعثني الله به مِن الهدى والعلم، كمثَل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقيةٌ قبِلَتِ الماء، فأنبتت الكلأ **والعُشب الكثير، وكانت منها أجادبُ أمسكت الماء، فنفع اللهُ بها الناس، فشربوا وسقَوْا وزرعوا، وأصابت منها طائفةً أخرى، إنما هي قيعانٌ، لا تُمسك ماءً، ولا تُنبت كلًا، فذلك مثَل مَن فقُه في دِين الله، ونفعه ما بعثني اللهُ به، فعلِم وعلَّم، ومثَل مَن لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلتُ به.**

رواه البخاري، باب فضل من علِم وعلَّم ٧٩، واللفظ له، وأخرجه مسلم في الفضائل، باب بيان مثَل ما بُعث به النبي (ص) من الهدى والعلم رقم ٢٢٨٢.

[1]- انظر: حول قضيّة تأثير الحضارة الإسلاميّة في الحضارة الغربيّة كلاًّ من:

جوستاف جرونيباوم، حضارة الإسلام، القاهرة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ١٩٩٤م، ص٤٣٢، ٤٣٥.

إسماعيل أحمد ياغي، أثر الحضارة الإسلاميّة في الغرب، السعودية، مكتبة العبيكان، الأولى، ١٩٩٧م، ص٤٢.

سعيد عاشور، المدنية الإسلاميّة وأثرها في الحضارة الغربيّة، القاهرة، دار النهضة العربيّة، الأولى، ١٩٦٣م، ص٥٣.

عز الدين فراج، فضل علماء المسلمين على أوروبا، دار الفكر العربيّ، ١٤٣٢هـ ص٢٣.

سيد عبد الماجد الغوري، أثر الحضارة الإسلاميّة في الغرب، مؤتمر المعاني الحضاريّة في الإسلام، رابطة العالم الإسلاميّ، ذو الحجة ١٤٤٠هـ أغسطس ٢٠١٩م، ص١٠.

[2]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص١٧٠.

العلميّة من جانب والسير خلف التفسير القديم من جانب ثانٍ، «والحال أنّ المترجمين الأوائل منهم تأثّروا بشروحات المفسّرين القدامى المتمتّعين بنفوذ كبير تقليديّ، ولكن جاهلين بالمعارف العلميّة – وكان هذا نصيب الناس أجمعين في ذلك العصر، ولمّا كانوا غير قادرين على التصوّر بأنّه كان ثمّة إشارات إلى معلومات دنيويّة، ولم يكونوا يعيرون أيّ اهتمام لأيّ مقطع، ومقابلته بسائر الآيات القرآنيّة التي تبحث في الموضوع ذاته»[1].

وبناءً عليه فإنّ بوكاي يشير إلى أنّ ترجمات القرآن -خاصّة إلى اللغة الفرنسيّة- لا يصحّ الاستناد إليها في استخلاص إشارات علميّة تلخص التوافق بين القرآن والعلم الحديث. وعليه فقد أعرض صفحًا عنها، واتّجه اتجاهًا منهجيًّا قوامه تعلّم اللغة العربيّة؛ حتى يكون على صلة بالمصادر الأصليّة، وأخصّها القرآن الكريم.

[١]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، المكتبة العلميّة، بدون تاريخ، ص١٧٢.

الفَصْلُ الثّانِي

علميّة القرآن الكريم

الفصل الثاني

علميّة القرآن الكريم

أوّلًا: خلق السماوات والأرض

تعدّ قضيّة خلق السموات الأرض من القضايا التي تحدّث عنها القرآن الكريم تأكيدًا لقدرته الله تعالى المطلقة، وقد كثرت الآيات القرآنيّة التي تعالج هذه القضيّة[1]، وقد اهتمّ المستشرق موريس بوكاي بهذه القضيّة محاولاً البحث فيها عن مدى توافقها مع العلم الحديث، مقارنًا إيّاها بالرواية التوراتيّة في القضيّة ذاتها، ومن ثمّ فقد عمد بوكاي إلى تطبيق منهجيّته -التي ذكرناها سابقًا- حول هذه القضيّة، فكانت المقارنة سبيله، والنزعة النقديّة أداته، والموضوعيّة سمته.

وأوّل ما لفت نظر بوكاي في قضيّة خلق السموات والأرض أنّه إذا كانت التوراة تذكر قضيّة الخلق متتابعة في موضع واحد[2]، فإنّ القرآن خلافًا لذلك يسردها في مواطن متعدّدة في سور متعدّدة بما تحمل من مشاهد، ويعطيها الدقّة المطلوبة في الوقائع المتلاحقة التي تعبّر عنه، ولكي يقدّم بوكاي فكرة واضحة عن الطريقة التي تُعرض بها هذه المشاهد كان عليه أن يجمع الأجزاء الموزّعة على عدد كبير من السور والمواضع القرآنيّة.

علمًا بأنّ الحقيقة المهمّة هي أنّ القرآن يتبع هذه الطريقة في العديد من الموضوعات، أي أنّ قضيّة الخلق موزّعة في مواطن وقضايا متعدّدة في القرآن. على الرغم من أنّ بوكاي كان يدرك جيّدًا أنّ قضيّة الخلق في القرآن لم تكن تختلف في نظر الكثير من مفكّري الغرب عنها في التوراة، بل لعلّهم كانوا يجدون في مثل هذه المقابلات متعة تؤيّد من وجهة نظرهم الزعم باقتباس القرآن من التوراة، إلّا

---

[١]- أنظر: على سبيل المثال لا الحصر سورة ق: ٣٨، ص٢٧، الفرقان: ٥٩، طه: ٤، النمل: ٦٠، الإسراء: ٩٩، يونس: ٣، ٦، الحجر: ٨٥، الأنعام: ١، لقمان: ٢٧، الزمر: ٥، فضلًا عن العديد من الآيات القرآنيّة.

[٢]- أنظر: سفر التكوين، الإصحاح الأوّل.

أنّه كان يرى في هذا خطأً كبيرًا، يقول: «وأظنّ أنّ هذا الفهم خاطئ؛ لأنّ بينهما فروقًا واضحة، حيث نكتشف في القرآن إيجابيّات في المسائل التي ليست ثانويّة، من الناحية العلميّة نعجز أن نعثر على مثيل لها في التوراة التي تحوي على شروح وزيادات خلا منها القرآن»[1]. لكن بوكاي الذي يعترف بفروق بين الروايتين: الرواية التوراتيّة الكهنوتيّة والرواية القرآنيّة من الناحية العلميّة لا يكابر في الاعتراف بوجود توافق في بعض الأخبار الواردة فيهما، كالإخبار بأيّام الخلق الستّة التي ذُكرت في كلتا الروايتين[2]، ومن ثمّ فقد حازت قضيّة الأيّام السّتة على بعض الاهتمام من هذا المستشرق الفرنسيّ.

فالرواية التوراتيّة تذكر قضيّة الخلق في ستّة أيام ثمّ تتبعها بيوم راحة حسب الاعتقاد اليهوديّ، وهو يوم السبت، اتّباعًا لله تعالى الذي استراح -بزعمهم- بعد ستّة أيام من العمل في خلق السماوات والأرض. وهذا الاعتقاد لا أصل له في عقيدتنا الإسلاميّة؛ كونه يشبّه الله تعالى حاشاه بالإنسان في مسألة التعب والراحة[3]، وهذا لا يجوز في حقّ الخالق سبحانه؛ لأنّه يتنافى مع مبدأ تنزيه الله تعالى عن الند والشبيه والتجسيم وغيرها من الأمور التي تجوز في حقّ الإنسان حيث عالم الشهادة، لا الله تعالى.

لكن بوكاي لفت نظره مفهوم كلمة يوم في الروايتين، ومن ثمّ تتبّع المدلول المقصود فيهما، الأمر الذي أوصله إلى نتيجة مهمّة تكشف عن الأبعاد العلميّة التي تقوم عليها قضيّة الخلق في القرآن، خلافًا للقضيّة ذاتها في التوراة.

يذهب بوكاي إلى أنّ مفهوم كلمة يوم في التوراة محدّدة بالمسافة الزمنيّة المعتبرة بين مطلعين للشمس أو مغربين لها متتابعين بالنسبة إلى ساكن الأرض، بما يعني أنّ اليوم المحدّد على هذه الصورة إنّما هو حصيلة دوران الأرض حول نفسها. «وأنّه لواضح أنّه لا يمكننا منطقيًّا التحدّث في إطار هذا التحديد لمعنى الأيّام في

---

[١]- أنظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٦٥.

[٢]- أنظر: سفر التكوين، الإصحاح الأول، والقرآن الكريم سورة السجدة: الآية ٤.

[٣]- أنظر: سفر التكوين: ٢/ ٢، وسفر الخروج: ١٧/ ٣١.

نفس الوقت الذي لم يظهر فيه في الواقع ما يحقّق تجمعه على هذه الصورة في دورات الخلق الأولى حسب رواية التوراة، بمعنى أنّ وجود الأرض ودورانها حول الشمس»[1].

وهذه في الحقيقة ملاحظة جديرة بالتأمّل؛ لأنّه لا معنى لليوم باعتبار دوران الأرض حول نفسها، ولم يكن ثمّة أرض ولا سماء قبل خلقهما؛ فالعلم الحديث توصّل إلى أنّ تعاقب الليل والنهار ينتج عن دوران الأرض حول نفسها، فبأيّ منطق تستخدم الرواية التوراتيّة اليوم على معنى لم يتحدّد إلّا بعد خلق السماوات والأرض، وليس أثناءهما؟!

وبناءً على هذا التصوّر فقد أخذ بوكاي على المترجمين والمفسّرين كونهم لم ينتبهوا إلى هذا المعنى العلميّ الذي تحمله كلمة يوم القرآنيّة، «إنّنا لا نعرف كيف نعتب على المترجمين عدم إعطائهم الكلمة العربيّة معناها الأكثر شيوعًا، كذلك تظهرها الترجمات عادة... وقليلة تلك هي ترجمات القرآن وشروحه التي تفيد بأنّ كلمة أيّام ينبغي أن تفهم حقيقةً بمعنى الدورات الزمنيّة»[2]. لكن من المؤكّد أنّ المترجمين والمفسّرين القدامى لم يكونوا على دراية بهذا المعنى الجديد؛ وذلك لأنّ العلم لم يتوصّل إلى مفهوم اليوم إلّا حديثًا، فضلًا عن أنّ كثيرًا منهم ربما لم يكن على اتصال دائم بمعطيات العصر الحديث، فكانت المعلومة غائبة عنه.

ويمكن القول إنّنا قد نجد شيئًا من هذا عند القرطبيّ؛ حيث قال في تفسير الأيّام: «في ستّة أيّام» أي من أيّام الآخرة، أي كلّ يوم ألف سنة لتفخيم خلق السماوات والأرض... وذكر هذه المدّة ولو أراد خلقها في لحظة لفعل، إذ هو القادر على أن يقول لها «كوني فتكون»، ولكنّه أراد أن يعلم العباد الرفق والتثبّت في الأمور... وحكمة أخرى من خلقها في ستّة أيّام؛ لأنّ لكلّ شيء عنده أجلًا...[3].

[١]- أنظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٦٦.

[٢]- م.ن، ص١٦٦.

[٣]- القرطبي، تفسير القرطبي، القاهرة، طبعة دار الشعب، بدون تاريخ، ج ٧، ص٢١٩.

وهناك من ترك علم الأيّام الستة لله تعالى عندما يقول: «فأمّا الأيام الستّة التي خلق الله فيها السموات والأرض، فهي غيب لم يشهده أحد من البشر، ولا من خلق الله جميعًا: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ سورة الكهف، الآية ٥١. وكلّ ما يقال عنها لا يستند إلى أصل مستيقَن»[1].

ويقول في تفسير سورة يونس: «وعلى كلّ حال فالأيّام الستّة غيب من غيب الله الذي لا مصدر لإدراكه إلّا هذا المصدر، فعلينا أن نقف عنده ولا نتعدّاه، والمقصود بذكرها هو الإشارة إلى حكمة التقدير والتدبير والنظام الذي يسير به الكون من بدئه إلى منتهاه»[2].

لكنّه يقترب من قول بوكاي عندما يقول في تفسير سورة الفرقان: «وأيّام الله التي خلق فيها السموات والأرض غير أيّامنا الأرضيّة قطعًا، فإنّما أيّامنا هذه ظلٌّ للنظام الشمسيّ، ومقياس لدورة فلكيّة وُجدت بعد خلق السموات والأرض، وهي مقيسة بقدر دورة الأرض حول نفسها أمام الشمس... ولعلّ هذه الأيّام الستّة من أيّام الله التي لا يعلم مقدارها إلّا هو، إنّما تمّت فيها أطوار متباعدة في السموات والأرض حتى انتهت على وضعها الحاليّ»[3].

وهذا ما أكّده في تفسير سورة السجدة: «وليست هذه قطعًا من أيّام هذه الأرض التي نعرفها، فأيّام هذه الأرض مقياس زمنيٌّ ناشئ من دورة هذه الأرض حول نفسها أمام الشمس مرّةً، تؤلّف ليلًا ونهارًا على هذه الأرض الصغيرة الضئيلة التي لا تزيد على أن تكون هباءة منثورة في فضاء الكون الرحيب، وقد وجد هذا المقياس الزمنيّ بعد وجود الأرض والشمس، وهو مقياس يصلح لنا نحن أبناء هذه الأرض الصغيرة الضئيلة، وأمّا حقيقة هذه الأيام الستّة المذكورة في القرآن الكريم فعلمها عند الله تعالى، فلا سبيل إلى تحديدها وتعيين مقدارها، فهي من أيّام الله تعالى التي يقول عنها: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ سورة الحج، الآية ٤٧. قد تكون

[١]- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، الطبعة الثانية والثلاثون، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣، ص١٢٩٦.

[٢]- سيد قطب، في ظلال القرآن، ص١٧٦٢

[٣]- سيد قطب، في ظلال القرآن، ٢٥٧٥.

ستّة أطوار مرّت بها السموات والأرض وما بينهما حتى انتهت إلى ما هي عليه، أو ستّة مراحل في النشأة والتكوين، أو ستّة أدهار لا يعلم ما بين أحدها والآخر إلّا الله»[1].

ومن ثمّ فإنّ المفسّرين فسّروا كلمة الأيّام أو اليوم على أنّه الفترة الزمنيّة المحدّدة بشروق شمس يوم حتى شروق شمس اليوم الآخر، على الرغم من أنّ هذا الفهم -وربما كان فهمًا يلائم عصرهم نتيجة معارفه المحدودة- لا يتّفق مع كلمة يوم فيما كشف عنه العلم الحديث. ولا مشكلة عند بوكاي في أن تعني كلمة الأيّام معناها العاديَّ المعروف، لكنّ الإشكاليّة عنده في أن نفهم كلمة الأيّام -أيّام خلق الكون- في القرآن على هذا المعنى، «إنّ فهمنا للفظة الأيّام الواردة في القرآن بالمعنى الذي ندركه عادةً هو مهزلة»[2].

إنّ التفسير الصحيح لكلمة الأيّام في القرآن عند بوكاي هو الامتداد الزمنّي الطويل أو الدورة الزمنيّة ممتدّة الطول، لكن السؤال الذي يطرح نفسه: علام اعتمد بوكاي في تفسيره هنا؟ يمكننا القول إنّه اعتمد على الآيات القرآنيّة الآتية:

قول الله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ سورة السجدة، الآية ٥.

وقوله سبحانه: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ سورة المعارج، الآية ٤.

هذا يعني أنّ اليوم مدّة زمنيّة ممتدّة، أي له امتداد زمنيّ طويل، لكن الملفت للنظر أنّ فهم بوكاي كان منسجمًا مع تفسير المفسّر أبي السعود في القرن السادس عشر؛ حيث فسّر الأيّام في القرآن بالنوبات، أي الفترات الزمنيّة[3]. هذا التفسير الجديد استفاد منه سيّد قطب في ظلال القرآن كما سبق أن أشرنا[4]، وكلا التفسيرين

[1]- سيد قطب، في ظلال القرآن، ص٢٨٠٦-٢٨٠٧

[2]- أنظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٦٨.

[3]- أنظر: أبو السعود بن محمّد العمادي الحنفي، تفسير أبو السعود أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، الرياض، مكتبة الرياض الحديثة، ج ٥، ص٣٤.

[4]- سيّد قطب، في ظلال القرآن، ص٢٨٠٦-٢٨٠٧

يشيران إلى فترات زمنيّة ممتدّة أو دورات زمنيّة طويلة، وهذا هو المعنى الذي انتهى إليه المستشرق بوكاي الذي أشاد بهما فيما توصّلا إليه من تفسير، على الرغم من أنّ المعطيات العلميّة الخاصّة لم تكن متوفّرة لهما في هذا الصدد.

لكن بوكاي يتّخذ من الدورات الزمنيّة الممتدّة معبرًا إلى القول إنّ الأيّام في الآيات القرآنيّة السابقة تعبّر عن مراحل خلق الكون أو مراحل تشكّل الكون، يقول: «وعلى هذا فإنّه يمكننا القول إنّ القرآن يعبّر عن مراحل خلق العالم بأنّها ستّة، وبمعنى دورات طويلة من الزمن، والعلم الحديث لم يسمح للناس بالتأكيد بإثبات المراحل المتنوّعة للتكوين الممتدّ التي انتهت بتكوين العالم، ولكنّه أوضح شكليًّا بأنّه يُراد منها دورات زمنيّة طويلة»[1].

والذي قاد بوكاي إلى هذا التفسير مقطع من سورة فصّلت يتحدّث فيه الله تعالى عن خلق السماوات والأرض والمدّة الزمنيّة لخلقهما، والتي يقول الله تبارك وتعالى فيه: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ سورة فصلت، الآيات ٩-١٢.

فبوكاي يؤكّد على أنّ هذه الآيات تبرز عدّة مشاهد: الحال الغازيّة البدائيّة لمادّة السماء، التحديد الرمزيّ -كما يسمّيه- لعدد السماوات السبع، والحوار الرمزيّ -كما يسمّيه أيضًا- بين الله تعالى من جانب والسماء والأرض في بداية تكوّنهما من جانب آخر، بما يعني خضوع السماوات والأرض بعد تشكّلهما لأوامر الله تعالى[2]. لكنّ هذه الآية نالت هجومًا شديدًا من أولئك النفر الذين لا علم لهم باللغة العربيّة

---

[١]- أنظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٦٨.

[٢]- م.ن، ص١٦٨.

ودروبها ومسالكها، فادّعوا كذبًا ما يخالف مراحل أو دورات الخلق الست، بزعم أنّ الآية تورد ثمانية أيّام أو مراحل لا ستًّا كما في الآيات التي تتحدّث عن الأيّام الستّة أو المراحل الستّ.

لكن بوكاي يردّ على هذا الادعاء قائلًا: «والواقع أنّ هذا النصّ الذي دعي فيه الناس إلى التفكير بالقدرة الإلهيّة الشاملة ابتداءً من الأرض وانتهاءً بموضوع السماوات يمثّل جزءين موصولين بلفظة ثمّ المترجمة إلى زيادة، ولكنّها تعني بعد ذلك أو تبعًا لذلك أكثر من أن تعني من ناحية ثانية. فهي إذًا تفرض معنى تتابع مترتّب على تتابع أحداث، أو تتابع في تفكير الإنسان في الأحداث المذكورة هنا، ويمكن أن يراد أيضًا مجرّد ذكر عاديّ لأحداث يقابل بينها دون مقصد إدخال معنى التتابع فيما بينها»[1].

ويُحسب لبوكاي هنا محاولة الدفاع عن القرآن ضّد هذه الشبهة لإيمانه العميق بأنّ الكتاب ذا المصدريّة الإلهيّة لا ينطوي عن هوى ولا يحوي خطأً، لكن على الرغم من ذلك فإنّ ردّه كان مقتضبًا وغير واضح. إذ كان عليه أن يؤكّد على عدم التفاوت أو التعارض بين آيات الخلق من خلال التأكيد على أنّ الله إذا كان قد خلق الأرض في يومين فإنّه جعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في اكتمال الأربعة أيّام، بمعنى في يومين تاليين مجموعين على يومي خلق الأرض، فيكون مجموع الأيام أربعة. ومن ثمّ نفهم أنّ الأرض خُلقت في يومين، والرواسي والأقوات في يومين متمّمين لأربعة أيام، وخلق السماوات في يومين فيكون المجموع ستّة أيّام لا غير.

وقد توصّل إلى هذا الفهم عدد من المفسّرين، منهم القرطبيّ في تفسيره والزمخشريّ في الكشاف، فالقرطبيّ يقول: «في أربعة أيّام، ومثاله قول القائل: خرجت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيّام، وإلى الكوفة في خمسة عشر يومًا، أي

[١]- أنظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٦٩.

في تتمّة خمسة عشر يومًا»[1]. في حين يؤكّد الزمخشريّ على هذه الحقيقة قائلاً: «في أربعة أيّام فذلكة -يقصد جملة القول وخلاصته- لمدّة خلق الأرض وما فيها، كأنّه قال: كلّ ذلك في أربعة أيّام كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان.. وقال الزجّاج في تتمّة أربعة أيّام، يريد بالتتمّة اليومين»[2].

ومن ثمّ نفهم أنّه ليس هناك مخالفة في هذا الأمر؛ لأنّ المجموع يكون ستّة أيّام[3]، ولكن التوهّم يأتي هنا من عدم فهم الآيات عند بعض الباحثين؛ ربما لضعف درايتهم باللغة العربيّة. لكن ينبغي أن ندرك جيّدًا أن خلق السماوات والأرض في ستّة أيام لا يتعارض مع ما توصّل إليه العلماء من أنّ خلقهما قد استغرق بلايين السنين؛ لأنّ اليوم عند الله مختلف عن يومنا. فيوم الدين وأيّام الله والأيّام الستة لخلق السماوات والأرض مداها لا يعلمه إلّا الله تعالى[4].

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا والذي حاول بوكاي أن يضع إجابة له مؤدّاه: هل هناك نظام في خلق السماوات والأرض؟ ويقصد هل هناك نظام متتابع في خلقهما؟ قبل الإجابة على هذا السؤال يجب التأكيد على أنّ خلق السموات والأرض ذُكر في بعض المواضع في القرآن الكريم، كقول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ سورة الأعراف، الآية ٥٤. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَىٰ

[١]- القرطبي، تفسير القرطبي، ج٧، ص٢١٩.

[٢]- الزمخشريّ، تفسير الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، رتبه وضبطه وصحّحه: محمّد عبد السلام شاهين، بيروت/ لبنان، ٢٠١٥م، دار الكتب العلميّة، ج٤، ص١٨٣.

[٣]- أنظر: محمّد أبو النور الحديدي، البيان في دفع التعارض المتوهّم بين آيات القرآن، القاهرة، مكتبة الأمانة، ١٩٨١م-١٤٠١هـ ص١٠٥-١٠٦.

[٤]- محمود حمدي زقزوق، حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٦م-١٤٢٧هـ ص٢٨٠ وما بعدها.

إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ سورة فصلت، الآيات ٩-١٢.

وهناك بعض الآيات التي ذُكر فيها خلق الأرض أوّلًا، وهناك آيات أخرى ذُكر فيها خلق السماء أوّلًا، فمن الآيات التي ذكرت خلق الأرض أوّلًا قول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ سورة البقرة، الآية ٢٩. وقوله: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ سورة طه، الآية ٤.

بينما كانت هناك آيات كثر تتحدّث عن خلق السماوات والأرض، ولكنّها تذكر السماوات قبل الأرض، منها:

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ سورة الأعراف، الآية ٥٤.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ سورة يونس، الآية ٣.

وقوله جل شأنه: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ سورة هود، الآية ٧.

إضافة إلى هذه الآيات توجد آيات أخرى في سورة النمل آية ٥٩، وفي سورة السجدة آية ٤، وفي سورة ق آية ٣٨، وفي سورة الحديد آية ٤، وفي سورة النازعات الآيات ٢٧: ٣٣، وفي سورة الشمس الآيات ٥: ١٠.

يستنتج المستشرق بوكاي من هذه الآيات أنّه ليس هناك نظام محدّد في خلق

السماوات والأرض، وهو يقصد بذلك أنّه ليس هناك تتابع واضح بين أحداث خلق السماوات والأرض -وسوف نناقشه في هذا الحكم في سطور قادمة- إلّا في موضع واحد في رأيه، حيث قول الله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ سورة النازعات، الآيات ٢٧-٣٣.

لكن يجب القول هنا إنّ ما ذهب إليه بوكاي من عدم وجود تتابع واضح بين أحداث خلق السماوات والأرض لا يقصد به النقد، أو الزعم بعدم وضوح قضيّة خلق الكون في القرآن، وكلّ ما هنالك في ظنّي أنّ الرجل أراد أن يقول إنّ خلق السماوات والأرض كان متداخلًا، فلم يخلق الله الأرض كاملًا، ثمّ فرغ لخلق السماوات، وإنّما كان الخلق متداخلًا حتى اكتمل البناء جملة واحدة، فهذا ما كان بوكاي يعمل على تأكيده والمضيّ فيه.

فبوكاي يؤكّد على أنّ ذكر القرآن المرحلة التي بسط فيها الله تعالى الأرض، وجعلها صالحة للزرع، وارد زمنيًّا بالضبط بعد أن تحقّق تكوّن الأيّام والليالي، مبيّنًا أنّ القرآن ذكر مجموعتين من الأحداث، إحداهما تتعلّق بالأرض، وهي متتابعة في الزمن، وبناءً عليه يفترض وجود الأرض ضرورة قبل أن تُبسط، ومن ثمّ فوجودها كان قائمًا حين أقام الله السماء، «ويستخلص من هذا ظاهرة معيّة التطوّر السماويّ والأرضيّ مع تداخل بعض الأحداث، فلا لزوم إذن للبحث عن أيّ تفسير خاصّ لما هو مذكور في القرآن في موضوع الخلق من ورود ذكر الأرض قبل السماوات أو العكس؛ لأنّ موضع الكلمات في النصّ هنا لا يثبت النظام الذي تمّ فيه الخلق إذا لم تتمّ تحقيقات في ذلك»[1].

لكن من خلال التأمّل في مجمل الآيات التي تعرض لخلق السماوات والأرض نستطيع أن نؤكّد على أنّ خلق السماوات والأرض مرّ بالمراحل التالية:

الأولى: مرحلة الرتق والفتق، وذلك يتّضح في قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ

[١]- أنظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٧٠.

كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ سورة الأنبياء، الآية ٣٠. وهذا يعني أنّ السماوات والأرض كانتا مجموعين في شيء واحد، ثمّ تمّ الفصل بينهما[1]. فالرتق هو الجمع والضم، ففي معجم القاموس المحيط فتقه أي شقّه، والرتق عكس ذلك بمعنى جمعه وضمّه[2].

الثانية: مرحلة خلق الأرض، ولكن ليس على سبيل الاكتمال والتمام، ويتّضح ذلك في موضعين اثنين من كتاب الله تعالى، في الموضع الأوّل قول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ سورة البقرة، الآية ٢٩. فجملة خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ أي أصلها، يقال إنّ خلق هنا بمعنى قدّر ما سيكون من أرزاق. والموضع الثاني في سورة فصّلت؛ حيث يقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ سورة فصلت، الآيات ٩-١٢.

الثالثة: خلق السماوات السبع[3]، كما يتضح في سورة البقرة الآية رقم ٢٩ المشار إليها، فيكون بذلك خلق السماوات السبع بما فيها بعد خلق الأرض.

الرابعة: دحو الأرض[4]، حيث أخرج منها الله تعالى الماء والمرعى والأشجار وغير ذلك. وذلك يتّضح في قول الله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا

[١]- أنظر: خالد عثمان حمدانين، الإعجاز العلميّ الكوني في القرآن الكريم، تركيا، جامعة يوزنجو ييل، وان، ٢٠١٩م، ص٤. وأنظر: ماهر أحمد الصوفي، آيات الله في خلق الكون ونشأة الحياة الموسوعة الكونيّة الكبرى، صيدا – بيروت، المكتبة العصريّة، ٢٠٠٧م، ج ٣، ص١٤١.

[٢]- أنظر: المعجم الوسيط، القاهرة، مكتبة الشروق الدوليّة، ٢٠٠٥م، ص٣٢٧.

[٣]- أنظر: ماهر أحمد الصوفي، آيات الله في خلق الكون ونشأة الحياة الموسوعة الكونيّة الكبرى، ج ٣، ص١٤١.

[٤]- أنظر: زغلول راغب محمّد النجار، من آيات الإعجاز العلميّ.. الأرض في القرآن الكريم، بيروت – لبنان، دار المعرفة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م، ص١٣١.

وَمَرْعَاهَا﴾. أمّا في قول الله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ سورة النازعات الآيات ٢٧-٣١ فلا يُتوهم فيها تعارض؛ لأنّ الأرض خُلقت أوّلًا غير مدحوّة، ثمّ خُلقت السماوات السبع، ثمّ دُحيت الأرض بتقدير ما عليها.

ومن ثمّ نفهم أنّه بعد فتق السماوات والأرض -حيث كانتا رتقًا- خُلقت الأرض غير مدحوّة، ثمّ خُلقت السماوات، ثمّ دُحيت الأرض، فاكتمل البناء.

وفي هذا السياق قال العلّامة محمّد الأمين الشنقيطي رحمه الله: «اعلم أوّلًا أنّ ابن عباس رضي الله عنهما سئل عن الجمع بين آية السجدة [أي آية سورة فصلت] وآية النازعات، فأجاب بأنّ الله تعالى خلق الأرض أوّلًا قبل السماء غير مدحُوَّة، ثمّ استوى إلى السماء فسواهنَّ سبعًا في يومين، ثمّ دحا الأرض بعد ذلك، وجعل فيها الرواسي والأنهار وغير ذلك. فأصل خلق الأرض قبل خلق السماء، ودحوها بجبالها وأشجارها ونحو ذلك، بعد خلق السماء. ويدلّ لهذا أنّه قال: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ ولم يقل: خلقها، ثمّ فسر دحوه إياها بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ وهذا الجمع الذي جمع به ابن عباس بين هاتين الآيتين واضح لا إشكال فيه. مفهوم من ظاهر القرآن العظيم»[1].

وهناك وجه آخر لقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾، أي مع ذلك، فكلمة بعد بمعنى مع، مثل قوله تعالى ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾، وبها قرأ مجاهد والأرض مع ذلك دحاها[2].

والوجه الأخير تحديدًا هو الذي يؤيّد ما ذهب إليه المستشرق موريس بوكاي عندما ذهب إلى أنّ خلق السماوات والأرض لم يكن فيه تتابع، وإنّما تمّ جملةً واحدة، بمعنى أنّ الخلق كان على الجانبين، وتداخل أحداث الخلق بينهما.

---

[١]- محمّد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، بدون تاريخ، ١٦/ ١٠-١٨.

[٢]- محمّد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان، ١٦/ ١٠-١٨.

لكن فيما يتعلق بالتتابع الزمنيّ، فإنّه يُعدّ عند بوكاي أساس تكوين العالم، وأنّه انتهى ببناء العالم، وقد وقف عند آيتين وجدهما تقدّمان خلاصة الأحداث التي ألّفت التتابع الزمنيّ الذي هو أساس تكوين العالم، الأولى قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ سورة الأنبياء، الآية ٣٠. والثانية قوله عزّ وجلّ: ﴿... ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ سورة فصلت، الآية ١١.

وقد قرأ بوكاي الآية قراءة علميّة فاحصة، فانتهى إلى أنّ هاتين الآيتين تقدّمان معلومات تتوافق بالكلّيّة مع معطيات العلم الحديث، خاصّة في المادّة الأولى المكوِّنة للكون وقضيّة العوالم وغيرها.

وقد أكّد بوكاي على أنّ الآيتين تحملان بداخلهما تأكيدًا واضحًا على أنّ السماء كانت عبارة عن دخان، وهو طبقة غازيّة مشحونة بذرّات دقيقة[1]، لكن هذا المعنى ليس له وجود في المعاجم العربيّة، وهذا ما دعا بوكاي إلى ضرورة تفسير كلمة دخان بهذا المعنى، وأظنّ أنّ الذي دعاه إلى هذا محاولة ربط المعنى العلميّ المستخرَج من الآية بالمعنى المعجميّ في المعاجم العربيّة. ومن ثمّ يقول: «تأكيد وجود طبقة غازيّة مشحونة بذرّات دقيقة[2]؛ لأنّه كذلك ينبغي تفسير كلمة الدخان في العربيّة؛ إذ الدخان على العموم مؤلَّف من أصل غازيّ مشوب بذرّات دقيقة لها إمكانيّة الانتماء إلى حالات المادّة الجامدة أو السائلة، وأن تكون في درجة من الحرارة مرتفعة تقريبًا مع بقائها في حالة من الاستقرار»[3].

كما انطلق بوكاي من التأمّل في الآيات إلى وجود تتابع زمنيٍّ للفتق من كتلة واحدة أساسيّة واحدة ملتئمة العناصر، وهذه الكتلة يسمّيها القرآن الرتق، ومن

---

[١]- للمزيد أنظر: خالد عثمان حمدانين، الإعجاز العلميّ الكونيّ في القرآن الكريم، ص٤.

[٢]- أنظر: ماهر أحمد الصوفي، آيات الله في خلق الكون ونشأة الحياة الموسوعة الكونيّة الكبرى، ج ٣، ص١٤٠-١٤١.

[٣]- أنظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٧١.

المعلوم أنّ الفتق مضاد الرتق، فالأوّل يعني الشقّ، والثاني يعني الالتئام[1]. وعلى ذلك فإنّ الفتق يحمل معاني الانشقاق والانفصال والانكسار، والرتق يحمل معاني الاتصال والجمع والالتئام.

لكنه من جانب آخر ينطلق من تأكيد القرآن على وجود شق أو انفصال لهذا الرتق مكوِّنًا بذلك الكون، ويشير بذلك إلى وجود عوالم أخرى، مستدلًّا على ذلك ببداية سورة الفاتحة[2]، في قول الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ومن يتأمّل في القرآن الكريم يدرك وجود العشرات من الآيات التي تحتوي على كلمة العالمين، فضلًا عن الآيات التي تذكر السماوات بصيغة الجمع أو السماء بصيغة المفرد، وقد ارتبط ذكرها في كثير من الآيات بالعدد سبعة. «والرقم ٧ ورد في القرآن أربعًا وعشرين مرّة لمعدودات مختلفات، ومعناه في الغالب هو الكثرة دون أن نتأكّد من معرفة سبب هذا الاستعمال بهذا المعنى، ويبدو أنّ الرقم ٧ عند اليونان وعند الرومان يحمل أيضًا معنى الكثرة غير المحدودة، ولقد ورد هذا الرقم في القرآن سبع مرّات مضافًا إلى السماوات، ومرّة بمعنى السماوات المضمرة، ومرّة أخرى مع الطرائق التي هي فوقنا»[3].

وبوكاي هنا يحاول أن يتّخذ من النصّ القرآنيّ سندًا له في القول بتعدّد العوالم انطلاقًا من تعدّد ذكر كلمة العالمين في القرآن، ومن ارتباط السماوات بالعدد سبعة الذي يدل على الكثرة عند العرب أكثر من كونه مجرّد رقم، وهذا يعني عنده أنّ السماوات كثيرة، وهذا دليل على تعدد العوالم أو العالمين. والحقيقة أنّ هذه القضيّة لم تثبت إلى الآن يقينًا من الناحية العلميّة. لكن على حدّ تعبير أحد الباحثين، فإنّ هذا الاكتشاف العلميّ إذا ثبت فإنّه لا يعدله أيّ اكتشاف علميّ آخر، بل تتضاءل كلّ العلوم أمام هذا الاكتشاف[4].

---

[١]- أنظر: المعجم الوجيز، القاهرة، طبعة مجمع اللغة العربيّة، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، ص٢٥٤، ٤٦١.

[٢]- أنظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٧١. للمزيد انظر: ماهر أحمد الصوفي، آيات الله في خلق الكون ونشأة الحياة الموسوعة الكونية الكبرى، ج٣، ص١٩٧.

[٣]- أنظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٧١.

[٤]- أنظر: ماهر أحمد الصوفي، آيات الله في خلق الكون ونشأة الحياة الموسوعة الكونية الكبرى، ج٣، ص١٩٧.

ومن الآيات التي تربط ذكر السماوات بالعدد سبعة قول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ سورة البقرة، الآية ٢٩. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ سورة المؤمنون، الآية ١٧. وقوله سبحانه: ﴿الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ سورة الملك، الآية ٣. وقوله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ سورة نوح، الآيتان ١٥-١٦. وقوله: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ سورة النبأ، الآية ١٢.

فإذا أضفنا إلى ذلك أنّ المفسّرين ذهبوا إلى أنّ العدد سبعة يدلّ على الكثرة المطلقة وليس مجرّد عدد بذاته، وهم في ذلك لا ينطلقون من فراغ، وإنّما ينطلقون من لغة العرب ذاتها، فقد كان من الملاحظ «في نصوص عصر محمّد أو القرون الأوائل التي أعقبت وفاته والتي نقلت أقواله أنّ الرقم ٧ كان مستعملًا لإفادة الكثرة»[1].

هذا يعني عند بوكاي أنّ السماء ليست واحدة، وبالتالي الأرض كذلك، «فالسماوات إذن كثيرة، وكذلك الأرضون، وليست هذه من المدهشات لقارئ القرآن المعاصر، أن يجد في نصّ من نصوص هذا العصر الإخبار بأنّ أراضي كثيرة مثل أرضنا يمكن أن تكون في الكون، وهو ما لم يستطع الناس حتى زماننا أن يصلوا إلى كشف حقيقته»[2].

ولعلّ المتأمّل في كتاب الله تعالى يجد أن ما ذهب إليه بوكاي ليس هناك ما يمنعه من نصوص القرآن، بل ربما يجد ما يؤيّده، ولننظر إلى قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ سورة الطلاق، الآية ١٢.

---

[١]- أنظر: مقدمة ترجمة، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم لموريس بوكاي، هامش ص١٧٢.

[٢]- أنظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٧٢-١٧٣.

فالعدد سبعة في القرآن عند بوكاي عدد يفيد الكثرة، أي أنّ هناك سماوات كثيرة وكذلك أراضيَ كثيرة، ومن ثمّ يستنتج من النصّ القرآنيّ أنه لا يوجد سوى أرض هي أرض الناس، وأنّه يوجد أمثال لها في الكون[1].

ومن جانب آخر فإنّ مخلوقات الله تعالى على ثلاثة أنواع حسب مكانها:

ـ مخلوقات أرضيّة.

ـ مخلوقات سماويّة.

ـ مخلوقات بينيّة أي بين السماء والأرض

والآيات الدالّة على ذلك عديدة، منها على سبيل المثال:

قول الله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾ سورة طه، الآية ٦.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ سورة الأنبياء، الآية ١٦.

وقوله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ سورة الحجر، الآية ٨٥.

وقوله: ﴿الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ سورة الفرقان، الآية ٥٩.

وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ سورة السجدة، الآية ٤.

وقوله: ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ سورة الزخرف، الآية ٨٥.

---

[١]- م.ن، ص١٧٣.

وقوله: ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ سورة الدخان، الآية ٧.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ سورة ق، الآية ٣٨.

وقوله: ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ سورة النبأ، الآية ٣٧.

وبالتأمّل في الآيات السابقة نجد أنّها تتضمّن المخلوقات الثلاثة السابقة الذكر، لكنّ بوكاي كان مهتمًّا في هذا الموضع بالمخلوقات البينيّة وما بينهما، محاولًا الربط بينها وبين المادة الكونيّة خارج الفضاء التي قال بها العلم الحديث، ومن ثمّ يقول: «إنّ هذا الخلق الكائن بين السماوات والأرض والوارد ذكره أكثر من مرّة في القرآن، وهو من أوّل وهلة بعيد التصوّر؛ لذلك فإنّه يجب، لكي نفهم معنى هذه الآيات، أن نتذكّر التجارب البشريّة الأكثر حداثة عن وجود مادّة خارج الفلك، ثمّ نسترجع المعلومات المثبتة من العلم المعاصر مبتدئين من الأكثر بساطة إلى الأكثر تعقيدًا فيما يتعلّق بتكوين الكون»[1].

ويلخّص بوكاي النقاط الرئيسة التي يعرّفنا القرآن بها في معرض حديثه عن قضيّة الخلق فيما يأتي[2]:

ـ وجود ستّ دورات للخلق على العموم.

ـ تداخل فترات خلق السماوات وخلق الأرض.

ـ خلق الكون من جرم بدائيّ أوحد يشكّل كتلة انقسمت فيما بعد.

ـ كثرة السماوات وكثرة الأراضي.

ـ وجود خلق وسيط بين السماوات والأرض.

[١]- أنظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٧٣.

[٢]- م.ن، ص١٧٤.

لكن بوكاي لم يكن ليقف عند حدود استنتاج هذه النقاط من النصّ القرآنيّ، ولكنّه ألزم نفسه بعرضها على العلم الحديث، وكانت المفاجأة التي أدهشته ولا زالت تدهشنا من عظمة القرآن ذي المصدريّة الإلهيّة، والذي لا ينطق عن هوى ولا يحوي خطأً، ولا يرتضي تعارضًا. ومن ثمّ عرض هذه النقاط على العلم الحديث وبيان موافقته لها، لتكشف عن نتائج كبيرة هي في التحليل الأخير تهدم الافتراءات والشبهات التي حاكها الغرب طيلة قرون عن القرآن والإسلام.

١- خلق الكون من مادة واحدة بين القرآن والعلم

إنّ المتخصّصين الاستروفيزيكيّين وصلوا بالنسبة لتكوّن النظام الشمسيّ إلى درجة مرتفعة من العلم عن الامتداد الزمنيّ العامّ، والذي لخّصه بوكاي بقوله: «تكثّف ثمّ تقلّص طبقة غازيّة مع دوران، ثمّ انفصال إلى أجرام، كان منها الشمس والكواكب السيّارة، ومنها الأرض، هذه المكاسب العلميّة عن الطبقة الغازيّة المظلمة الأولى وطريقة انقسامها إلى كمّيّة عجيبة من النجوم تجمّعت في مجرّات لا تدع مجالًا لأدنى شكّ في صدق فكرة تعدّد العوالم، لكنّها لا تزال غير مالكة لأيّة أداة لإثبات وجود ما يشبه الأرض في الكون من قريب أو بعيد»[1].

فبوكاي يعمد هنا إلى بيان أسبقيّة النصّ القرآنيّ في الإشارة إلى حدث لم يصل إليه العلم بأدواته وتكنولوجيّاته إلى اليوم[2]، حتى ولو لم تكن هناك دلائل علميّة على ذلك، فإنّه يثق أوّلًا في صدق النصّ القرآنيّ، وثانيًا يعلم أنّ العلم سيصل يومًا ما إلى هذه الحقيقة، وما تأخّره هنا إلّا نتيجة أمرين: ضعف الأدوات التي يمكن أن تمكنّنا من ذلك رغم التقدّم التكنولوجيّ الهائل، سعة الكون الرهيبة والتي لا يستطيع تصوّرها أيّ عقل بشريّ.

لكن من المؤكد أنّ الكون كان شيئًا واحدًا رتقًا، ثمّ نتيجة لأمر ما وضّحه العلم

---

[١]- أنظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٧٩.

[٢]- وهذا ما أكد عليه غير باحث انظر: ماهر أحمد الصوفي، آيات الله في خلق الكون ونشأة الحياة الموسوعة الكونيّة الكبرى، ج٣، ص١٤٠-١٤١. انظر: أيضًا: خالد عثمان حمدانين، الإعجاز العلميّ الكونيّ في القرآن الكريم، ص٤. أنظر: زغلول النجار، من آيات الإعجاز العلميّ.. السماء في القرآن الكريم، بيروت – لبنان، دار المعرفة، الرابعة، ٢٠٠٧م، ص١٣٧.

تمّ الانفصال، فنشأ الكون بمجرّاته ونجومه وكواكبه[1]. والحقيقة التي لا جدال فيها ولا مراء أنّ الله تعالى بذكره هذه الأحداث المعجزة إنّما يريد أن يوجّه أنظار الناس إلى قدرة الله تعالى المطلقة، ومن ثمّ الإقرار له بالعبوديّة. يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ سورة العنكبوت، الآية ١٩. ويقول تعالى أيضًا: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ سورة العنكبوت، الآية ٢٠.

الرتق والفتق القرآنيّين هو ما اصطلح عليه العلم الحديث بالانفجار العظيم أو الانفجار الكونيّ، وهي النظريّة التي تقول إنّ الكون كان عبارة عن كتلة غازيّة ضخمة عظيمة من حيث الكثافة والحرارة؛ لكنّ هذه الحرارة الموجودة فيه أدّت إلى إحداث ضغط هائل داخلها، الأمر الذي أفضى إلى انفجارها انفجارًا عظيمًا فصل الكتلة الغازيّة بعضها عن بعض الفتق القرآنيّ، فتطايرت الكتل المتجزّئة هنا وهناك مكوِّنة المجرّات والنجوم والكواكب[2].

ولقد تمّ اكتشاف هذه النظريّة في عام ١٩٢٧م على يد العالم البلجيكيّ جورج لوميتر، وفي عام ١٩٦٤م توصّل كلّ من العالم أرنو بنزياس والعالم روبرت ويلسون إلى وجود موجات راديو سُمّيت بالنور المتحجّر، يُقال إنّه آتٍ من الانفجار العظيم في الأزمنة السحيقة[3]. وقد أُيّدت هذه النظريّة، نظريّة الانفجار العظيم، من المحطة الفضائيّة السوفيتيّة عام ١٩٨٦م، ومن وكالة ناسا الأمريكيّة عام ١٩٨٩م.

وهذا يقودنا إلى شيء من الأهمّيّة بمكان، وهو أنّ المعلومات العلميّة الواردة عن نشأة الكون لتتوافق تمامًا مع تصوّر القرآن لهذه النشأة وإخباره بها، مع الوضع في الاعتبارات أنّ النصّ القرآنيّ يقدّم إشارات علميّة، ولا يقدّم تفصيلات، لكن ما يقدّمه العلم من هذه التفصيلات يؤيد ما تلمّح إليه هذه الإشارات في أسلوب موجز محكم.

---

[١]- أنظر: زغلول النجار، من آيات الإعجاز العلميّ.. السماء في القرآن الكريم، ص٩٦-٩٧.

[٢]- للمزيد حول هذه القضيّة انظر: زغلول النجار، من آيات الإعجاز العلميّ.. السماء في القرآن الكريم، ص٩٧ وما بعدها.

[٣]- للمزيد حول هذه القضيّة انظر: زغلول النجار، من آيات الإعجاز العلميّ.. السماء في القرآن الكريم، ص١٠٢.

٢- تعدّد العوالم بين القرآن والعلم

أمّا قضيّة تعدّد العوالم فإنّها قضيّة يؤيّدها بوكاي بشدّة، ويؤكّد على أنّ القرآن ذكرها في آية سورة الطلاق، كما يؤكّد على أنّ العلم الحديث يقبلها ولا يجد غضاضة فيها، وإن لم توجد القرآئن العلميّة الدالّة عليها؛ ولذا يقول: «فإنّ الإستروفيزيكيّين المعاصرين يفرضون وجود كواكب مماثلة للأرض في الكون، لكنّ واحدًا منهم لا يظنّ بأنّ من المعقول فيما يخصّ النظام الشمسيّ بإمكانيّة وجودٍ على كوكب آخر من هذا النظام بشروط عامّة مشابهة للتي على الأرض، وفي حالة افتراض قبول وجود مثل ذلك، فينبغي أن يُبحث عنه خارج المجموعة الشمسيّة»[1].

ولعلّ بوكاي هنا يستند إلى أنّ من علماء الفلك من ذهب إلى أنّ مجرّتنا مجرّة درب التبانة تمتلئ بالنجوم التي يبلغ عددها ٥٠ مليار نجم، كلّ نجم منها يستدعي وجود كواكب سيّارة تابعة له، وأنّ هذه النجوم بعيدة جدًّا بحيث لا يمكن رؤية الكواكب السيّارة حولها، فضلًا عن أنّه ربما لا يمكن رؤية النجم ذاته؛ ولذلك فإنّهم يرجّحون فرضيّة وجود هذه النجوم للخصائص الهاليّة أي تموّجات الهالات الضوئيّة حولها[2].

وكلّ هذه فرضيّات علميّة، لكنّها إنْ صحّت وصارت يقينًا، لكانت انتصارًا للدين وردًّا مفحمًا على الملحدين ومن سار على نهجهم؛ فهي تؤكّد على عظمة الله تعالى في الكون؛ ذلك الكون الفسيح المترامي الذي يتّسع بقدرة من يقول للشيء كن فيكون وإنا لموسعون، فمَن لا يُدهش من تلك المسافات الشاسعة التي لا يمكن أن يتصوّرها عقل؟! فنحن أمام أرقام مهولة، خمسين مليار نجم في مجرّتنا وحدها! فما بال المجرّات الأخرى؟! وإذا كانت هذه المجرّات بهذا العدد، فكم يكون عدد الكواكب السيّارة التي تدور حولها؟! إنّ هذا ليدلّ على عظمة الخالق سبحانه وتعالى، وعلى قدرته المطلقة[3].

---

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص١٨٠.

[٢]- م.ن، ص١٨٠.

[٣]- أنظر: للمزيد حول دقة صنع الله تعالى في الكون بمجراته ونجومه وغيرها: زغلول النجار، من آيات الإعجاز العلميّ.. السماء في القرآن الكريم، ص١٥٠، ١٥٣.

لكن مع كلّ هذا فإنّه إذا كانت أعداد النجوم والمجرّات تظلّ في إطار الفرضيّة، فإنّ ما نؤمن به يقينًا وجود أراضين أخرى عوالم أخرى يوجد عليها حياة كما يُفهم من آية سورة الطلاق، وكما أخبرنا الرسول صلى الله عليه وآله، وقد أشار كثير من العلماء إلى هذه القضيّة منهم ابن كثير في البداية والنهاية وغيره.

ومن الأدلّة على وجود السماوات السبع والأراضين السبع ما جاء عن الرسول صلى الله عليه وآله ممّا ذكره السيوطيّ مما أخرجه ابن مردويه عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنه- أنّه قال: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وآله في غزوة تبوك، إذ عارَضَنا رجل مترجّب -يعني طويل- فدنا من النبيّ عليه الصلاة والسلام فأخذ بخطام راحلته فقال: أنت محمّد؟ قال: نعم، قال: إنّي أُريد أن أسألك عن خصال لا يعلمها أحد من أهل الأرض إلّا رجل أو رجلان، فقال عليه السلام: سل عما شئت، قال: يا محمّد ما تحت هذه؟ يعني الأرض، فقال: خلق، قال: فما تحتهم؟ قال: أرض، قال: فما تحتها؟ قال: خلق، قال: فما تحتهم؟ قال:أرض حتى انتهى إلى السابعة -أي أنّه عليه السلام قد عدّ سبع أراضين- قال: فما تحت السابعة؟ قال: صخرة... إلى أن قال: فما تحت الهواء؟ قال: الثرى، قال: فما تحت الثرى؟ ففاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وآله بالبكاء، فقال: انقطع علم المخلوقين[1].

ومن ثمّ نفهم من هذه الأحاديث أنّه لا شكّ في أنّ السماوات سبع وأنّ الأراضين سبع، علمًا بأنّ العدد ربما لا يُقصد به مجرّد الإحصاء؛ لكنّه -وهو ما عليه كثيرون- يفيد الكثرة، فالسماوات على هذا الرأي كثيرة والأراضين كذلك، وهذا دليل على عظمة الله تعالى وقدرته التي لا حدود لها، ولا يمنعها مانع. لكن الاختلاف هنا هل هذه سبع أراضين طباقًا، بعضها فوق بعض، بين كلّ أرض وأرض مسافة كالمسافة بين السماء والسماء، وفي كلّ أرض سكّان من خلق الله تعالى؟! أم سبع من الأراضين، ولكنّها مطبقة بعضها على بعض من غير فتوق بخلاف السماوات؟! والأوّل هو الأصحّ؛ لأنّ القرائن والأدلّة والأخبار تدلّ عليه.

---

[1]- جلال السيوطي، الدر المنثور في التفسير المأثور، بيروت - لبنان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١١م، الجزء العاشر، ص١٥٩.

ونتهي من هذا إلى التأكيد على ثلاثة أمور:

الأوّل: أنّ الله تعالى خلق سبع سماوات.

الثاني: أن الله تعالى خلق سبعًا من الأراضين مثلهنَّ.

الثالث: أنّ شكل هذه السموات السبع والأراضين السبع وهيئتهن وما فيهن وغير ذلك من علم الله تعالى.

ونؤكّد هنا على أنّ العلم بحقيقة الأرضين السبع لا يمكن القطع به، قال الألوسي في رسالته: «ما دلّ عليه القرآن ممّا يعضد الهيئة الجديدة القويمة بالبرهان - أمّا الأرضون السبع، فقد حارت فيها عقول المفسّرين، وذكروا فيها أقوالًا كثيرة، وقد جعلها الله تعالى مثل السماوات، والمثليّة تصدق بالاشتراك في بعض الأوصاف، فقال الجمهور: المثليّة هاهنا في كونها سبعًا، وكونها طباقًا بعضها فوق بعض، بين كلّ أرض وأرض مسافة كما بين السماء والأرض، وفي كلّ أرض سكّان من خلق الله عزّ وجلّ لا يعلم حقيقتهم إلّا الله تعالى... ويمكن أن تكون الأرضون وكذا السماوات أكثر من سبع، والاقتصار على العدد المذكور الذي هو عدد تامّ لا يستدعي نفي الزائد، فقد صرّحوا بأنّ العدد لا مفهوم له[1].

هذا وكثير من الأخبار في أمر السماوات والأرض والكواكب لا يعوّل عليها كما أشار إليه النسفيّ في بحر الكلام، وكذا ما قاله قدماء أهل الهيئة ومحدّثوهم، وفي كلٍّ ممّا ذهب الفريقان إليه ما يوافق الأصول وما يخالفه، وأمّا الشريعة الغرّاء، فهي ساكتة عنه لم تتعرّض له بنفي أو إثبات.. وفي الجملة من صدّق بسعة ملك الله تعالى وعظيم قدرته عزّ وجلّ، فلا ينبغي أن يتوقّف في وجود سبع أرضين على الوجه الذي قدّمناه، ويحمل السبع على الأقاليم أو على الطبقات المعدنيّة والطينيّة ونحوهما، وليس ذلك مما يصادم ضروريًّا من الدين أو يخالف قطعيًّا من أدلّة المسلمين[2].

[1]- https://www.islamweb.net/ar/fatwa/188929/

[2]- https://www.islamweb.net/ar/fatwa/188929/

وقال الدكتور أحمد أبو الوفا في رسالته تقويم الأعمال التي تناولت الإعجاز العلميّ والطبّيّ في السنّة النبويّة: يلاحظ أنّه في أعمال الإعجاز العلميّ التي ترتبط بالمعارف غير المستقرّة والاحتماليّة وغير قطعيّة، فإنّ أسلوب المطابقة يؤدّي إلى استدلالات ظنّيّة، وعلى المشتغلين بهذه الأعمال أن ينتبهوا لذلك، وأن يطمئنّوا إلى أنّ نصوص الآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة قادرة على استيعاب المتغيرات العلميّة، فمثلًا عندما يقرؤون قول الله سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ (سورة الطلاق، الآية ١٢) ويطالعون حديث رسول الله صلى الله عليه وآله: من أخذ شبرًا من الأرض ظلمًا طوّقه إلى سبع أرضين - فإنّهم يطبّقون تلك النصوص على الأبحاث الفلكيّة التي تميل إلى أنّ الأرضين السبع كلّها في الأرض، وهي الطبقات السبع التي تتكوّن منها الأرض، وقد تأتي البحوث الفلكيّة في المستقبل لتوضّح النصّ القرآنيّ: ومن الأرض مثلهنّ -والنص الحديثيّ: سبع أرضين- على نحو علميّ آخر، لكنّه يطابق تلك النصوص[1].

وقال الأستاذ الدكتور منصور حسب النبي، رئيس قسم الفيزياء في جامعة عين شمس: «إنّ العلم لا يعرف إلى الآن ماهي السماوات والأرضون السبع، ولكنّنا نستطيع أن نفهم من الآيات القرآنيّة مثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ...﴾ أنّ هناك ستّة أرضين أخرى غير أرضنا، ولكلّ أرض سماؤها التي تعلوها، وممّا يؤيّد هذا التفسير قول سيّدنا الرسول المصطفى محمّد صلى الله عليه وسلّم: اللهم ربّ السماوات السبع وما أظللنَ، وربّ الأرضين السبع وما أقللنَ -ممّا يفيد بأنّ لكلّ أرض سماء تعلوها، وقال تعالى: وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ- وإنّ هذه الأرضين والسماوات يتنزّل بينهنّ الأمر الإلهيّ المشار إليه في الآية الكريمة أعلاه، الذي لا بدّ أن يكون موجَّهًا إلى كائنات عاقلة موجودة على هذه الأرضين الستّ الأخرى التي قد يتمكّن العلماء في المستقبل من الكشف عنها بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ (سورة الشورى، الآية ٢٩) وفي ذلك إشارة إلى احتمال

[1]- https://www.islamweb.net/ar/fatwa/188929/

التقاء العوالم المختلفة في الحياة الدنيا أو في الآخرة[1].

وبذلك يُعلم أنّ وجود حياة على غير الأرض أمر محتمل، ولكن ذلك يكون لخلق آخرين غير بني آدم، فقد ذكر الشيخ ابن عثيمين في الفوائد المستنبطة من قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (سورة البقرة، الآية ٣٦) أنه لا يمكن العيش إلّا في الأرض لبني آدم، قال: ويؤيّد هذا قوله تعالى: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ (سورة الأعراف، الآية ٢٥) وبناءً على ذلك نعلم أنّ محاولة الكفّار أن يعيشوا في غير الأرض إمّا في بعض الكواكب، أو في بعض المراكب محاولة يائسة، لأنّه لا بد أن يكون مستقرّهم الأرض[2].

٣- المخلوقات الوسيطة بين السماء والأرض

توصّل العلم إلى وجود مادّة بين النجوم أُطلق عليها المادّة الفلكيّة بين النجوم، فالكون كما أشرنا سابقًا كان عبارة عن مادّة قديمة بدائيّة مظلمة، ثمّ انقسمت هذه المادّة على نفسها بقدرة الله تعالى الرتق والفتق، مكوِّنةً النجوم و الكواكب، لكن هذا الانقسام تولّد عنه فراغات بين النجوم والكواكب والمجرّات سمّيت بالمادّة الفلكيّة بين النجوم، أو الطبقة الغازيّة المتلألئة، أو الطبقة الغازيّة المظلمة بكثافة أقلّ، أو مادّة بين النجوم أكثر تركيزًا[3]. وبناءً على هذه المعطيات يقول بوكاي: «إنّ وجود جسور من المادّة بين المجرّات نفسها لا شكّ فيه، وبالرغم من ندرة هذه الغازات فإنّها يمكنها بسبب المسافة الفسيحة من الفضاء التي تشغلها وتبعًا للبعد الرحيب بين بعض المجرّات والبعض الآخر أن تتجانس مع طبقة تكون قابلة رغم ضعف كثافتها لتجاوز مجموعة أجرام المجرّات»[4].

ولعلّ كلّ هذه الأطروحات العلميّة هي التي جعلت المستشرق موريس بوكاي

[1]- https://www.islamweb.net/ar/fatwa/188929/

[2]- https://www.islamweb.net/ar/fatwa/188929/

[٣]- انظر: في ذلك: زغلول النجار، السماء في القرآن، ص١٣٨-١٣٩؛ انظر: عدنان الشريف، من علم الفلك القرآني.. الثوابت العلميّة في القرآن، دار العلم للملايين، الأولى ١٩٩١م، ص٦٤.

[٤]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص١٨٠.

يجد توافقًا في ما يقوله القرآن وما يثبته العلم في هذه القضايا سالفة الذكر، ومن ثمّ فقد انتهى بناءً على ذلك إلى مجموعة الأفكار الرئيسة المتوافقة بينهما فيما يتعلّق بنشأة الكون وخلق السماوات والأرض، والتي يمكن عرضها في الآتي:

الأوّل: أنّ الأيّام الستّة التي ذكرها القرآن في قضيّة خلق الكون، ليست عنده أكثر من دورات ستّة لخلقه، وهذه الدورات هي التي تغطّي تشكيل الأجرام السماويّة والأرضيّة، فخُلقت الأرض وما عليها في أربعة أيّام وقُدر فيها أقواتها، وأُخرج منها ماؤها ومرعاها، وخُلقت السماوات في يومين. «فهل علينا أن نرى العصور الجيولوجيّة التي وصفها العلم المعاصر، بعد أن ظهر الإنسان كما نعلم في العصر الرابع؟ إنّ هذا ليس سوى مجرّد افتراض، ولا يستطيع أحد الإجابة على هذا السؤال»[1]. وبوكاي هنا يرمي من طرف خفيٍّ إلى أنّ الدورات الأربع -من ضمن الستّ- قد تكون العصور الأربعة الجيولوجيّة والتي كانت قمّتها في العصر الرابع؛ حيث وُجد الإنسان، إلّا أنّه حسنًا فعل عندما أكّد على أنّه مجرّد فرض يحتاج إلى دليل، وهو لا يملك هذا الدليل، لكنّه على الأقل يلفت النظر إلى ضرورة دراسة هذه القضيّة، فلربما كشفت عن شيء في سياق التوافق بين القرآن والعلم.

اتّخذ بوكاي من الآيات ٩ -١٢ من سورة فصّلت دليلًا على أنّ تشكّل السماوات والأرض كان في القرآن الكريم على مرحلتين: مرحلة الرتق ومرحلة الفتق، إلّا أنّه كان يدرك أنّ ذلك ما كان له أن يتمّ إلّا في امتداد زمنيّ طويل من خلال تكثّف المادّة البدائيّة الغازيّة ثمّ انفصالها، «وهو بالضبط ما يقوله القرآن ببساطة بذكر امتدادات زمنيّة حقّقت انطلاقًا من الدخان السماويّ تلاحمًا ثمّ انفصالًا»[2]، وبهذا يسجّل بوكاي تشابهًا وتوافقًا بين النظرتين: القرآنيّة والعلميّة.

الثاني: لا شكّ أنّ ما كان يقوّي لديه القول بتوافق القرآن والعلم الحديث، ما انتهى إليه الأخير من تداخل حدثين لتكوين نجم كالشمس وسيّاراتها أو كواكبها،

---

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص١٨١.

[٢]- م.ن، ص١٨١.

أو أحدها كالأرض، ومن ثمّ يتساءل في اندهاش: أفلا يظهر هذا التداخل في النصّ القرآنيّ من خلال آياته التي تبيّن بوضوح أصل بدء الخلق؟![1]

الثالث: يوجد تطابق واضح بين مفهوم الدخان باعتباره مادّة الكون التي صنع منها في القرآن، وبين مفهوم المادّة البدائيّة الغازيّة لأصل الكون كما يؤكّد ذلك العلم الحديث، وهذا ما لفت نظر بوكاي بشدّة وأثار انبهاره، والحقّ أنّ هذا التطابق لا يزال يبهرنا.

الرابع: تمسّك بوكاي بالقول إنّ العدد سبعة عدد رمزيّ يشير إلى الكثرة، وهو ما ذهب إليه الكثير من اللغويّين والمفسّرين لكتاب الله تعالى[2]، في حين يفترض العلم الحديث كثرة العوالم أرضًا وسماءً، «وعلى العكس فإنّ كثرة الأراضي بالمقابلة على الأقلّ في بعض الصور مع أرضنا هي نظريّة مستخرجة من نصّ القرآن، ولكن العلم لم يكشف عن حقيقتها بعد، بينما يعتبرها الاختصاصيّون كما لو كانت حقيقة مقبولة تمامًا»[3].

الخامس: يستخلص بوكاي من الآيات الكريمة التي تتعلّق بخلق السماوات والأرض وما بينهما أنّ هناك خلقًا أو مخلوقات بين السماء والأرض، وهذا قريب عنده من اكتشاف جسور المادّة هذه الموجودة خارج النظام الفلكيّ الدقيق[4].

ولا شكّ في المعطيات العلميّة حول نشأة الكون وتكوّن العالم لم تؤيّد جميع المسائل المطروحة في القرآن حول هذه القضيّة؛ نتيجة تأخّر الاكتشافات العلميّة أو عدم قدرة العقل البشريّ على التوصّل لتفسيرها، لكنّ بوكاي يسجّل أمرين مهمّين: الأوّل: أنّه لا يوجد أيّ تعارض بين هذه المعطيات وبين المعطيات القرآنيّة، الثاني: أن هذا يحسب لصالح الوحي القرآنيّ. في الوقت الذي يعترف فيه بوكاي بأنّ نصّ

---

[١]- م.ن، ص١٨١.

[٢]- أنظر: في ذلك: تهذيب اللغة، مشارق الأنوار، الفائق في غريب الحديث، التحرير والتنوير، غرائب التفسير، تفسير القاسمي تفسير الرازي، النكت في القرآن الكريم، تفسير النيسابوري، وغيرها من الكتب.

[٣]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص١٨٢.

[٤]- م.ن، ص١٨٢.

التوراة الذي بين أيدينا الآن غير مقبول من وجهة النظر العلميّة. يقول بوكاي: «كيف ندهش من هذا عندما نعرف أنّ النصّ الكهنوتيّ لخبر الخلق في التوراة، كُتب من الكهنة الذين كانوا في زمن النفي إلى بابل، والذين كانت لهم أهداف نظاميّة حقّقوها، كما صنعوا حسب تفكيرهم رواية مناسبة لنظرتهم اللاهوتيّة»[1]. ومن ثمّ كان يلحّ على تسجيل هذه الاختلافات بين ما تخبر به التوراة التي بين أيدينا وبين المعطيات القرآنيّة التي تتوافق مع العلم الحديث، مبيّنًا خطأ تلك الاتّهامات التي ليس لها ما يبرّرها والتي تتّهم النبيّ محمّد الكريم بأنّه نقل الأخبار التوراتيّة[2]، على الرغم من أنّ الأخيرة لا تستند إلى أيّ سند علميّ فيما يتعلّق بقضيّة الخلق، بخلاف القرآن الكريم، ومن ثمّ يتساءل بوكاي: «كيف يمكن لرجل مضى على ظهوره أربعة عشر قرنًا تقريبًا أن يصحّح الخبر في هذه النقطة بالذات، وهي جزء من مجموعة أخطاء من وجهة النظر العلميّة، ويبدلها من عنديّاته بمعطيات أظهر العلم نهائيًّا صحّتها في هذا العصر؟ إنّ مثل هذا الافتراض غير ممكن؛ لأنّ القرآن قد أعطى عن الخلق خبرًا يختلف كلّ الاختلاف عمّا أعطته التوراة»[3].

لكن الغريب في تناول المستشرق بوكاي لقضيّة الخلق في القرآن وتوافقها مع المعطيات العلميّة أنّه كان يتحدّث عن القرآن ويدافع عنه كأنّه يدافع عن عقيدته، أو كأنّه مسلم يدافع عن دينه بكلّ شجاعة وبسالة، ويظهر هذا جليًّا في كلّ القضايا التي أباحت عن توافقها التامّ مع العلم الحديث. لكن الحقيقة الأكيدة أنّ الرجل

---

[١]- م.ن، ص١٨٢-١٨٣.

[2]- Rubin, Between Bible and Qur'an: The Children of Israel and the Islamic Self-Image, The Darwin press. ING, PRINCETON, NEW GERSEY, 1999, P. 61.

أنظر: هاينريش شباير، قصص أهل الكتاب في القرآن، ترجمة وتقديم وتعليق: نبيل فياض، بيروت، دار الرافدين، الطبعة الأولى، ٢٠١٨م.

وأنظر: شالوم زاوي، مصادر يهوديّة في القرآن بالعبرية، القدس، ١٩٨٣م، ص١٣ نقلًا عن محمّد جلاء إدريس، الاستشراق الإسرائيليّ في المصادر العبريّة، القاهرة، العربيّ للنشر والتوزيع، ١٩٩٥م، ص١٢١.

وأنظر: أحمد البهنسي، كتاب مصادر يهوديّة في القرآن للمستشرق شالوم زاوي – عرض وتقديم، مجلّة القرآن والاستشراق المعاصر، المركز الإسلاميّ للدراسات الاستراتيجيّة، العدد ٣، ١٤٤١هـ - ٢٠١٩، ص١٤ وما بعدها.

[٣]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص١٨٣.

كان يسير مع العلم والمنطق حيث سارا، ولم يحد عنهما قيد أنملة، وهذا ما يظهر في هذه القضايا جليًّا.

فدفاع بوكاي عن العلم في قضيّة الخلق في القرآن -وبالطبع غيرها من القضايا- هو دفاع عن العقل والعلم، فما قاد إليه العقل والعلم يلتزم به ويحني له الجبين، وفي غير وجود العلم والعقل يستحيل أن يذعن بوكاي للقضيّة. فبوكاي على سبيل المثال يعترف بوجود تشابه بين الأخبار التوراتيّة والأخبار القرآنيّة في بعض المواضيع، خاصّة تلك التي تتعلّق بالتاريخ الدينيّ، إلّا أنّه كان ينتقد طريقة تعامل الغرب مع الإسلام والقرآن تلك الطريقة التي تحمل اتهامًا مباشرًا لهما، خاصّة في تعامله مع هذه الأخبار، ومن يتساءل مستنكرًا: إنّنا إذا لم نُعِب على عيسى عليه السلام إعادة ذكر الوقائع الخاصّة بنفس الموضوع والتعاليم التوراتيّة، فكيف نعيب على محمّد صلى الله عليه وآله أن يوردها هو أيضًا في مواعظه، فضلًا عن أن نصفه بأنّه غشّاش ومخادع لأنّه ساقها على أنّها من جملة ما يُوحى إليه؟! ثمّ يتساءل في استنكار أيضًا: أين هو البرهان الذي يثبت أنّ محمّدًا نقل في القرآن مما علمه الربّانيّون وأملوه عليه؟![1] وهو يطرح هذين التساؤلين يدرك تمام الإدراك أنّه ليس هناك من سند باستثناء ما يسوقه الغربيّون من أنّ الراهب بحيرا هو من علّمه هذا الدين. هذا على الرغم من أنّ نبيّنا الكريم لم يرَ هذا الراهب إلّا مرّة واحدة، ولم يجمع بينهم غير لقاء عابر لم يستغرق وقتًا، فكيف يذهب هؤلاء مثل هذا المذهب الخاطئ؟![2] علماً بأنّ هناك رأيًا آخر يرى أن قضيّة الراهب مختلقة من الأساس معارضًا بذلك الرأي السابق.

ولعلّنا نرى أنّ موقف بوكاي في هذه القضيّة كان ردًّا غير مباشر على المستشرق بلاشير ومن لفّ لفّه، ممّن كالوا الاتهامات حول شخصيّة النبيّ ومصدريّة القرآن، فبلاشير كتب كتابًا كلّه اتهامات عن سيّدنا محمّد أسماه المسألة المحمّديّة، وهو

---

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص١٨٣.

[٢]- أنظر: ردًا على هذه الشبه كلاً من:

محمّد أبو زهرة، خاتم النبيّين ص، القاهرة، دار الفكر العربيّ، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، الطبعة الأولى، ص١٢٩.

محمّد رضا، محمّد رسول الله (ص)، بيروت – لبنان، دار الكتب العلميّة، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م، ص٣٣.

موفق الجوجو، قوانين النبوّة، دمشق، دار المكتبيّ، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، ص٧١.

تعبير حقيقيّ عن موقف الغرب وخاصّة المستشرقين تجاه الإسلام عامّة والقرآن خاصّة، إلّا ربما قلّة نادرة، ومن ضمنهم لا شكّ موريس بوكاي.

ونحن لا نشكّك -وبوكاي من أصحاب هذا الرأي- في أنّ هناك تشابهًا بين القرآن والتوراة في بعض القضايا، وهذا راجع إلى وحدويّة المصدر الذي خرج منه الكتابان، لكنّ الإشكاليّة الكبرى تكمن في أنّ الأكثريّة الغربيّة اتّخذت من هذا التشابه مدعاة للقول باقتباس القرآن من التوراة، وهذا غير صحيح، وقد ردّ بوكاي على هذه الفرية بصورة منطقيّة قائلًا: «ونستطيع أن نقول بصورة أعمّ أنّا رأينا تسرّب بعض الأساطير المتعلّقة بالخلق في الكتابات المقدّسة، نذكر منها على سبيل المثال عقيدة البولننزيّين في وجود المياه البدائيّة غارقة في الظلمات التي انقشعت بالنور، فتكوّنت السماء والأرض. إنّنا عندما نقارن هذه الخرافة مع خبر الخلق في التوراة نجد على سبيل اليقين بعض التشابه، ولكن من السخف بمكان اتهام التوراة بأنّها نقلت هذه الأسطورة في الخلق»[1].

فبوكاي إذن ينأى بالأخبار التوراتيّة والكتابات التوراتيّة عن الأسطورة البدائيّة القديمة التي ربما كان لها تفسيرها البدائيّ حول نشأة الكون، لكن هذا التفسير محال أن يكون قد تطرّق إلى هذه الأخبار، كونها من لدن ربّ العالمين، فالقرآن كتاب الله تعالى، والتوراة في نسختها الأولى النقيّة -دون أن يتدخّل فيها بشر- كذلك. لكن بوكاي رغم هذا كلّه يؤكّد على فكرة صحّة بعض العقائد والأساطير في تفسيرها لقضيّة خلق السماوات والأرض قائلًا: «على أنّه من المهمّ أن نعالج هذه العقائد والأخبار الأسطوريّة؛ لأنّه لا يظهر فيها أحيانًا فكرة البدء صحيحة في ذاتها، وفي بعض الأحوال مطابقة للحقيقة التي نعرفها اليوم أو التي نفرض معرفتها، ولكن تتراكم عليها في الخرافة أوصاف الخلق الأسطوريّة فتطمسها»[2].

لكن هذا لا يعني أنّ بوكاي يقرّ بالأسطورة أو أنّه يجعلها بديلًا للعلم، أو يشير

---

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص١٨٤.

[٢]- م.ن، ص١٨٤.

إلى تأثيرها في الكتب الدينيّة المقدّسة، ولكنّه يشير إلى أنّ السمة الغالبة في تفسير الخلق لقضيّة السماوات والأرض يقوم على تصوّرهما شيئين انفصلا بعد اتّحاد طويل بينهما. ومن ثمّ فإنّ السمة العامّة التي استخلصها بوكاي هنا هي أنّ السماء والأرض كانتا كتلة واحدة وُجدت في حيّز طويل من الامتداد الزمنيّ المتطوّر للكون، ثمّ انتهى بالانفصال إلى عوالم متعدّدة[1].

بيد أنّ بوكاي في الوقت نفسه يفرّق بين المفهوم الأسطوريّ لخلق الكون في العقائد والأساطير السابقة وبين المفهوم في القرآن الكريم، فما تحدّث بوكاي عن الفهم الأسطوريّ لقضيّة الخلق إلّا لكي يؤكّد على الاختلاف العميق الموجود بينه وبين الأخبار القرآنيّة فيها، فالأخبار القرآنيّة منزّهة عن تلك التفاصيل الخياليّة التي رافقت المعتقدات الأسطوريّة، وموسومة على العكس تمامًا باعتدال عباراتها الإخباريّة وانسجامها مع معطيات العلم الحديث، ومن ثمّ ينتهي إلى النتيجة التي لا جدال فيها والتي يؤكّدها قائلًا: «وهكذا فإنّ أخبار القرآن عن الخلق -وقد اتّسمت بهذه الخصال منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا- تبدو خالية من أيّ مداخلة بشريّة»[2].

ثانيًا: القرآن وعلم الفلك

قضيّة الفلك في القرآن الكريم من القضايا المهمّة في طريق التوافق بين القرآن والعلم، وقد عبّر القرآن عنها بكثير من المعطيات، حتى أنّ أحد الباحثين ذهب إلى أنّه القسم الوحيد الذي وصفه المولى بأنّه عظيم من بين الآيات الكريمة التي أقسم فيها بمخلوقاته، والمعلومات الفلكيّة التالية عن مواقع النجوم تعطي فكرة مبسّطة عن عظمة مواقع النجوم وأهمّيّتها البالغة في النظام الكونيّ[3].

كان بوكاي مؤمنًا تمام الإيمان بأنّ القرآن يقدّم لنا إشارات علميّة لا حصر لها

---

[١]- م.ن، ص١٨٤.

[٢]- موريس بوكاي، مرجع سابق.

[٣]- انظر: عدنان الشريف، من علم الفلك القرآنّي.. الثوابت العلميّة في القرآن، دار العلم للملايين، الأولى ١٩٩١م، ص٦٤.

شريطة الفهم الجيّد لها، وكذلك الفهم الجيّد للمعطى العلميّ الذي يُبرز يومًا فيوم عظمة هذا الكتاب الخلّاق، وهذا ما ظهر جليًّا في تناول بوكاي لقضيّة نشأة الكون أو خلق العالم بين القرآن والعلم الحديث، وهذا ما سنجده كذلك في تناوله لقضيّة القرآن وعلم الفلك، والتي يحاول بوكاي أن يكشف من خلالها عن التوافق الكبير بين الأخبار القرآنيّة عما في الفلك وبين المعطى العلم الحديث.

انتهى بوكاي من قراءته للقرآن خاصّة فيما عرضنا له في الفصل السابق إلى تعدّد السموات وتعدّد الأراضين، وأنّ هناك موجودات بين السماء والأرض والتي عبّر عنها القرآن بقوله وما بينهما، وهي -بحسب ما ذهب بوكاي- الجسور الفلكيّة التي اكتشفها العلم الحديث. والحقيقة أنّ حديث القرآن عن عالم السماء والأرض أمدّتنا بمعلومات لا يزال العلم الحديث يكتشفها واحدة بواحدة، في دليل حيٍّ على أسبقيّة القرآن للعلم الحديث في هذه القضايا، والتي تؤكّد على المصدريّة الإلهيّة لكتاب الله تعالى، وانتفاء أيّ سبب بشريّ.

لقد وقف المستشرق موريس بوكاي عند أربعين آية من كتاب الله تعالى تتعلّق بموضوع الفلك بخلاف الآيات التي تتحدّث عن خلق السماوات والأرض. وتعدّ هذه مع تلك كاشفة عن قدرة الله تعالى من جانب[1]، ومكمّلة لبعضها بعضًا في معطياتهما، فهذه الآيات عند بوكاي «بعضها ليس إلّا تأمّلات في مجد الخالق مدبّر أنظمة النجوم والكواكب السيّارة التي نعرفها منضّدة حسب أوضاع من التوازن أوضح نيوتن تماسكها بموجب قانونه في تجاذب الأجسام»[2].

لكن بوكاي كان يدرك جيّدًا أنّ القرآن الكريم ليس مادّة للتفكير العلميّ، ولا هو كتاب في الفلك وعلومه، ولكنّه كتاب يشير إلى إشارات علميّة تقود البشر إلى الإقرار بقدرة الله المطلقة، فهو إذن لم يقدّم هذه الآيات التي تشير إلى إشارات فلكيّة على أنّها مادّة تفكير علميّ، وإنّما ليعطي فكرة علميّة عن الأسلوب الذي

[١]- أنظر: عدنان الشريف، من علم الفلك القرآنّي، ص٦٧.

[٢]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص١٨٦.

قدّم به القرآن نظام الكون منذ أربعة عشر قرنًا[1].

يعمد بوكاي إلى إبراز هذه الصورة القرآنيّة الإيجابيّة بصور كبيرة على الدوام، ومن ثمّ فقد كان لا يتوانى في مقارنتها بتلك الصورة التي يراها سلبيّة والتي تقدّمها له الأسفار. فقد انتهى إلى أنّه لا الأناجيل ولا العهد القديم تناولت نظام الكون باستثناء تلك المواضع التي ذكرت خلق السماوات والأرض، بينما اختلف الأمر في القرآن كثيراً؛ حيث عرض لعدد من القضايا التي تدخل في مجال علم الفلك ونظام الكون. «والواقع أنّه لم يحوِ سردًا للنظريّات المتبنّاة حينئذ في تنظيم عالم السماء الذي كشف العلم عدم صحّته والذي سنمثّل له فيما بعد، فهذه الصورة السلبيّة ينبغي ذكرها»[2]. فهو يبّرئ القرآن من كلّ خطأ علميّ، كما يبّرئه من أيّ تدخّل أو تأثير بشريّ من أيّ نوع[3]. وموقفه هنا يعدّ ردًّا على أولئك الذين يعمدون إلى السعي الدائم نحو تفسير قضايا القرآن تفسيرًا إنسانيًّا، محاولين نزع مصدريّته الأساسيّة وتشويهها، خاصّة في قضيّة الفلك وما يحتوي عليه القرآن من إشارات علميّة فيها، حتّى أنّهم علّلوا تلك الإشارات بأنّ العرب كانوا على دراية كبيرة بهذا العلم، علم الفلك، «وقد نسي الكثيرون أنّ توسّع العلم في العموم في البلاد الإسلاميّة كان بعد القرآن، وأن كلّ طريقة للمعارف العلميّة لهذا العصر العظيم لم تسمح لأيّ كائن إنسانيّ لكتابة بعض الفقرات عن الفلك التي وجدناها في القرآن»[4].

وعلى أيّ حال فإنّ بوكاي قد ارتكز في منحاه بأنّ القرآن تحدّث عن الفلك أو علم الفلك على خمسة محاور:

الأوّل: أفكار عامّة عن السماء.

الثاني: طبيعة الأجرام السماويّة.

---

[1]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص١٨٦.

[2]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص١٨٧.

[3]- وهذا ما أثبته وأكّد عليه العلماء والمفكّرون المهتمّون بالإعجاز العلميّ في القرآن، انظر: زغلول النجار، السماء في القرآن الكريم، ص١٣٧، وعدنان الشريف، من علم الفلك في القرآن، ص٦٥.

[4]- مقدّمة ترجمة كتاب موريس بوكاي، مرجع سابق، هامش ص١٨٧.

الثالث: التنظيم السماويّ.

الرابع: تطوّر عالم السماء.

الخامس: غزو الفضاء.

وهي الموضوعات الخمسة التي عمد بوكاي إلى استنتاجها من نصوص القرآن الكريم، كما عمد إلى بيان موقف العلم الحديث من هذه الموضوعات الخمسة، ليكشف عن التوافق بين النصّ ومعطيات العلم الحديث.

لكن أوّل ما يمكننا ملاحظته هنا أن الأفكار العامّة عن السماء ليست عامّة على الإطلاق، بل هي محدّدة بدقّة من قبل ربّ العالمين. إنّ الموضوعات التي تناولها هذا المحور والآيات القرآنيّة التي استشهد بها لتشهد على خصوصيّة الموضوع لا عموميّته.

يقول الله تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ**﴾ سورة ق، الآية ٦.

وقوله سبحانه: ﴿**خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا**﴾ سورة لقمان، الآية ١٠.

وقوله أيضًا: ﴿**اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ**﴾ سورة الرعد، الآية ٢.

ولكن إذا كان يشير إلى أنّ الآيتين الأخيرتين تدحضان الرأي القائل إنّ السماء لا يمكن أن تنتهض إلّا على عمد خشية أن تقع على الأرض[1] فكيف تكون الفكرة هنا عامّة؟! إنّها واضحة تمام الوضوح؛ حيث تبيّن أنّ السماء مرفوعة بغير عمد كدليل على قدرة الله تعالى المطلقة، والتي لا تدانيها أيّ قدرة إنسانية، ومن ثمّ فالفكرة واضحة والغاية بارزة.

لكن بخلاف هذه الجزئيّة فإنّ بوكاي قدّم تحليلًا تحت ما أسماه أفكارًا عامّة،

---

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص١٨٨.

واستشهد بالعديد من الآيات القرآنيّة التي تحمل إشارات علميّة فلكيّة تؤكّد على المصدريّة الإلهيّة لكتاب الله تعالى، وتنتقد بذلك الزعم القائل ببشريّته.

ومن الآيات التي استشهد بها في ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ سورة الرحمن، الآية ٧.

وقوله: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ سورة الحج، الآية ٦٥.

ومن ثمّ يقول معلّقًا: «إنّنا نعلم أنّ تباعد الأجرام السماويّة على مسافات كبيرة ومتناسبة مع أهمّيّة الأجرام نفسها يؤلّف أساس توازنها، وكلّما كانت متباعدة، كلّما كانت القوّة الجاذبة من بعضها نحو البعض الآخر ضعيفة، وكلّما كانت متقاربة، كلّما هوش بعضها على الآخر، كما هو حال القمر عند قربه من الأرض»[1]. ولعلّ بوكاي هنا يشير إلى أنّ النظام الذي وضعه الله تعالى في الكون هو الذي يجعل السماء في مكانها والأرض في مكانها، ولا يحدث أيّ خلل إلّا بإذنه حتىّ لا تقع السماء على الأرض. وهذا ما حدا بعضهم إلى التساؤل: «فهل موقع الشمس بالنسبة للأرض كان نتيجة الصدفة أم من تدبير العزيز العليم الذي ﴿**خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا**﴾ سورة الفرقان، الآية ٢»[2]؟.

ومن ثمّ فإنّ السماء ليس لها أعمدة مادّيّة ترفعها وتقوم عليها، وإن كان لها من عماد فهو النظام، فعماد السماء الذي يرفعها، والذي يمنع من أن تقع على الأرض إنّما هو النظام. وهذا النظام يعدّ جزءًا من قانون الغائيّة الذي استخدمه العلماء المسلمون، ومنهم ابن رشد، في إثبات وجود الله تعالى؛ حيث اعتمدوا على أنّ الانسجام والتوافق والتناغم الناتج عن النظام الكونيّ إنّما هو الدليل الشرعيّ والعقليّ على وجود الله الذي يحاول الملاحدة إنكاره.

هذا النظام يعبّر عنه بوصفه السياق الفلكيّ، ويعدّ قانون الجاذبيّة واحدًا من

[1]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص١٨٨.

[2]- أنظر: عدنان الشريف، من علم الفلك القرآنّي، ص٦٧.

ركائز هذا السياق الفلكيّ، وكذلك النظام الشائع في كلّ أرجاء الكون، «والمقصود هنا -يقصد في الآيتين الأخيرتين- السياق الفلكيّ؛ إذ يؤثّر حسب قانون الجاذبيّة على وضع المياه في البحار، فتظهر عمليّة المدّ والجزر، أمّا إذا تلاقى جرمان سماويّان خطأً فالتصادم لا مفرّ منه، والخضوع للنظام هو شرط لا بدّ منه لامتناع الاختلال»[1]. ولا شكّ في أنّ مسبّب هذا النظام وواضعه هو ربّ العالمين، ألم يقل الله تعالى في قرآنه: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ سورة المؤمنون، الآية ٨٦؟

ومن الآيات أيضًا التي استند إليها بوكاي في بيان ما بين القرآن ومعطيات علم الفلك من توافق قول الله تعالى:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ سورة الجاثية، الآية ١٣.

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ سورة الرحمن، الآية ٥.

﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ سورة الأنعام، الآية ٩٦.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ سورة إبراهيم، الآية ٣٣.

وهذا يصبّ في الفكرة السابقة القائمة على التناسق والتوافق والانسجام في عالم السماء[2]، باعتباره هو أكسير الحياة، والذي بدونه سيفقد الكون وجوده، ما يعني أنّ الشمس تعمل بحساب، والقمر يعمل بحساب وغيرهما من مخلوقات الله في سمائه التي نعلم منها والتي لا نعلم. وهذا دليل على أنّ هناك عمليّة تنظيميّة هدفها الإبقاء على الكون حتى يأذن الله تعالى له بالفناء.

وقد وقف بوكاي عند الآية الأخيرة تحديدًا -الآية ٣٣ من سورة إبراهيم- حيث نظر إليها على أنّها مكمّلة للأخرى، وذلك لسبب يراه منطقيًّا؛ إذ من ثمرات الحسبان

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص١٨٨.

[٢]- أنظر: زغلول النجار، السماء في القرآن الكريم، ص١٣٧؛ أنظر: عدنان الشريف، من علم الفلك في القرآن، ص٦٦.

ولوازمه تنظيم حركة الأجرام السماويّة المتواجهة، والمعبَّر عنها بوصف دائب، كاسم فعل لفعل يشير إلى أنّ معناه الأصليّ العمل بحرارة مع المثابرة، لشيء ما وقد أعطي هنا معنى الاجتهاد لعمل ما بعناية وبصورة متتالية لا تتبدّل، وبمقتضى عادة ثابتة[1].

ويؤكّد بوكاي في تناوله لقضيّة علم الفلك والقرآن على مسألة التنظيم المحكم الذي تسير بموجبه السماء بما تحويه؛ لأنّه يقوّي الافتراض الذي سار عليه وتحقّق من صدقه في النهاية وهو أنّ القرآن وعلم الفلك متّفقان؛ لذا وقف عند آية: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ (سورة يس، الآية ٣٩) والتي استنتج منها أنّ في الآية إشارة إلى انحناء العرجون اليابس الذي يأخذ شكل تقوّس الهلال[2]. في بيان واضح للتوافق بين العلم والقرآن في هذه الجزئيّة.

لكن لو أكمل بوكاي بقيّة المقطع الذي اقتطع منه الآية الأخيرة لدلّته أيضًا على تناغم كبير في الكون، الأمر الذي يؤكّد حقيقة هذا التوافق؛ يقول الله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (سورة يس، الآيات ٣٨-٤٠). حيث إنّ هذه الآيات الثلاث تكشف بوضوح عن علاقة التناغم والانسجام بين الشمس والقمر، لكن هذا ليس وقفًا عليهما فحسب، بل هذا ما عليه كلّ الفلك بأكمله[3].

فضلًا عن هذا فإنّ بوكاي كان مهتمًّا بما أسماه المقابلة العمليّة لهذا التنظيم السماويّ الكامل، فقد ألحّ على إبراز فائدتها في تسهيل انتقالات الإنسان في البرّ والبحر، وتسهيل حسابات الزمن. «وتتّضح هذه الملاحظة عندما نتذكّر أنّ القرآن هو في الأصل إرشاد موجّه إلى الناس الذين لا يستطيعون سوى فهم لغتهم البسيطة

---

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص١٨٩.

[٢]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص١٨٩.

[٣]- انظر: للمزيد حول النظام الكونّي والشمس والقمر خليل البدروي، الموسوعة الفلكيّة، عمان – الأردن، دار عالم الثقافة، الأولى، ١٩٩٩م، ص٥، ١٢، ١٧.

المتداولة بينهم في حياتهم الجارية»[1]. لكن هذه المقابلة العمليّة ليست شيئًا أكثر ممّا نسمّيه الغائيّة والعناية الإلهيّة، فاهتداء الناس بالنجوم والقمر من العناية الإلهيّة، وانتظام حركة النجوم في السماء وما يصاحبها من كواكب سيّارة تعني وجود عناية إلهيّة[2]. وهذا ما يتّضح جليًّا في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ سورة الأنعام، الآية ٩٧.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ سورة يونس، الآية ٥.

﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ سورة النحل، الآية ١٦.

لكن بوكاي كان يدرك جيّدًا أنّ المقارنة كاشفة عن مدى قرب النصوص المقدّسة من العلم؛ لذا فقد قارن بين القرآن والتوراة في مسألة الشمس والقمر، «في الوقت الذي وصفت التوراة الشمس والقمر بالنيّرين، وأضافت إلى إحداهما وصف الكبر، وإلى الثاني وصف الصغر، فإنّ القرآن ينسب إلى كلّ منهما امتيازات أخرى غير امتياز الحجم»[3].

فالقرآن لا يتحدّث عن نيّرين، ولكنّه يتحدّث عن سراج وهّاج وهو الشمس والقمر المنير، والفرق بينهما شاسع لا شكّ، ونجد هذا الفرق عندما نتأمّل قول الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ سورة الفرقان، الآية ٦١. وقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ سورة نوح، الآيتان ١٥-١٦. وقوله: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ سورة النبأ، الآيتان ١٢-١٣.

---

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص١٨٩.

[٢]- وهذه الدقة وهذا الاتساق في كلّ جنبات الكون دعتا أحمد الباحثين إلى تسمية ذلك بالهندسة المتكاملة، انظر: هشام طالب، بناء الكون ومصير الإنسان، بيروت – لبنان، دار المعرفة، الأولى، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، ص٦٥.

[٣]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص١٩٠.

فالشمس كما نفهم من القرآن ضياء، والقمر منير، فالضياء مأخوذ من ضاء، وهو الشيء المضيء بذاته، ويمكن أن يكون المقصود بالضياء ما يشعّ ضوءًا وحرارة، وهو يحمل في طيّاته معنى الإنارة داخليًّا وخارجيًّا، أي مضيء من داخله، ويبعث الضوء خارجه، كما هو حال الشمس فيها تشعّ ضوءًا وحرارة من داخلها، وتبعث ضوءها خارجها فتضيء الأرض نهارًا، وينعكس ضوؤها ليلًا بفعل انعكاسه على القمر[1]. في حين أن القمر منير، اسم فاعل من أنار، فالقرآن لم يقل إن القمر مُنار، اسم مفعول من أنار؛ لأنّه لو قال كذلك، لوقع عليه فعل الإنارة داخليًّا، ومن ثمّ لكان النور من داخله؛ لكن القرآن لم يقل ذلك، وإنّما قال منيرًا بما يعني أنّه ينير خارجيًّا، والواقع عليه فعل الإنارة هنا هي الأرض، وغير منير من الداخل. وهذا ما ثبت فلكيًّا فيما بعد، فالقمر جسم معتِم، وإنّما ما يظهر لنا منه من نور إنّما هو بفعل انعكاس ضوء الشمس الواقع عليه.

يؤكّد بوكاي من جانبه على أنّ إخبار القرآن عن طبيعة الشمس والقمر هنا ليس فيه أيّ تعارض مع ما نعرفه عنهما فلكيًّا، ومن ثمّ يقول متعجّبًا: «إنّ أيّ رجل من عصر محمّد يمكنه بالتأكيد التفريق بين الشمس الكوكب المشتعل والمعروف جيّدًا من سكان الصحراء، والقمر الكوكب المهيّأ لبرودة الليالي، والمقارنات التي نجدها في هذا الأمر في القرآن إذن هي طبيعيّة. ولكن ما يهمّ تسجيله هنا هو ببساطة التشبيه وإيجازه وغياب كلّ عنصر للتشبيه كان متداولًا في ذلك العصر من نصّ القرآن، الأمر الذي يبدو في أيّامنا كأنّما هو من قبيل السحر»[2]. فالقرآن هنا يقدّم إشارة علميّة عظيمة في أقلّ عدد من الكلمات، وهذه خاصّية معجزة لا نجد لها مثيلًا في غير القرآن.

ويمكن القول إن النجم والنجوم ذُكرت في القرآن في ثلاثة عشر موضعًا، وهي:

﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ سورة طارق، الآية ٣.

---

[١]- للمزيد انظر: خليل البدوي، الموسوعة الفلكيّة، ص١٠، ١٩.

[٢]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص١٩١.

﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ سورة الأنعام، الآية ٩٧.

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ سورة الأعراف، الآية ٥٤.

﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ سورة النحل، الآية ١٢.

﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ سورة النحل، الآية ١٦.

﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ سورة الحج، الآية ١٨.

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى النُّجُومِ﴾ سورة الصافات، الآية ٨٨.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ سورة الطور، الآية ٤٩.

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ سورة النجم، الآية ١.

﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ سورة الرحمن، الآية ٦.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ سورة الواقعة، الآية ٧٥.

﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ سورة المرسلات، الآية ٨.

﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ سورة التكوير، الآية ٢.

ونفهم من جملة هذه الآيات أنّ النجم جسم في السماء، ولم يحدّثنا القرآن عن طبيعته باستثناء أوصاف الضياء والنور التي ذكرت في معرض حديث القرآن عن الشمس، وهي نجم من النجوم. وهي المعاني التي وقف عندها بوكاي، وقد حاول أن يستدلّ على ذلك بقول الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ سورة الطارق، الآيات ١-٣. فهو يفسّر طبيعة النجم من خلال فهمه للآيات بأنّها ذات شقّين ضوء وحرارة، يقول بوكاي: «إنّ نجم الليل موصوف بالقرآن بكلمة ثاقب، وتعني المشتعل المحترق، والذي ينسرب عبر شيء ما -وهنا ظلمات

الليل- والكلمة نفسها مستعملة في مكان آخر من القرآن لتعني النجوم السارية إلّا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب، وهذه الشهب هي نتيجة الاحتراق»[1].

لكن العلم يكشف لنا يومًا بعد يوم ما تضمّنه القرآن من إعجاز على الصعيد العلميّ، وخاصّة في النجم الثاقب، تكشّفت حقيقته اليوم، وهي الحقيقة التي تدلّ دون أدنى شكّ على عظمة القرآن، وأنّه من قِبل ربّ العالمين ردًّا على الملحدين والمنكرين ومن يناصبون الدين العداء.

لقد كشفت الفيزياء الفلكيّة عن حقيقة النجوم الطارقة والتي سُمّيت في الفلك الحديث النجوم النيوترونيّة (Neutron Stars) أو النجوم النابضة (Pulsar Stars)، فهي نجوم انفجرت بشكل مستعر منذ مئات وآلاف السنين، وكانت كتلة هذه النجوم المستعرة تفوق حدّ شاندرا سيكار أي ١، ٤ من كتلة الشمس وأقلّ من ٣ أضعاف كتلة الشمس، وبقيت مخلَّفات النجوم المستعرة على شكل أنويّة ذات كثافة هائلة جدًّا، بحيث أدّى التجاذب الثقالي في المادّة المتخلِّفة عن الانفجار إلى انضغاطها بشكل كبير حتى تحوّلت مادّة النجم المتبقّية إلى نيوترونات، أي دخول الالكترونات سالبة الشحنة في ذرّة الهيدروجين داخل المنطقة المحرّمة في الذرّة، حتى اندمج مع النواة، وتحديدًا مع البروتونات موجبة الشحنة، فتتحوّل إلى نيوترونات وهي متعادلة الشحنة، وكما هو معلوم فإنّ الذرّة تتكوّن من نيوترونات متعادلة الشحنة وبروتونات موجبة الشحنة وعمليّة اندماج الإلكترونات مع البروتونات، وأدّت إلى تكوّن النيوترونات؛ لذلك تصبح الذرّة عبارة عن نيوترونات فقط[2].

ويقول العلماء اليوم: إنّ هذه النجوم النيوترونيّة أو الثاقبة تُصدر هذه الموجات وتصدر هذه الطرقات بدقّة مذهلة، حتى إنّهم يعتبرونها من أدقّ الساعات الكونيّة على الإطلاق، يعني هذه النجوم أدقّ من أيّ ساعة على الأرض، فهي تصدر هذه الطرقات بصورة شديدة الانتظام، ولا تخطئ في عملها أبدًا[3].

---

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص١٩١.

[2]- https://www.addustour.com/articles/876744

[3]- http://kaheel7.com/pdetails.php?id=852&ft=39

فكأنّ الله تبارك وتعالى يخاطب الناس جميعًا ويقول لهم: كما أنّ هذه النجوم التي خلقتها وحدّثتكم عنها وعن عملها ودقّتها، كذلك فقد وكّلت عليكم ملائكة لا تخطئ في كتابتها أبدًا، لا تخطئ في كتابة أيّ شيء أبدًا يصدر عنك أيّها الإنسان، فكلّ شيء مكتوب ومحسوب، ولا يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء[1].

أمّا فيما يتعلّق بالكواكب السيّارة، فقد اتّخذ بوكاي من حديث القرآن عنها دليلًا على أنّ القرآن يعرض بعض الأمور في علم الفلك، فالكواكب جزء أصيل من فلك السماء؛ لذا تحدّث عنه القرآن باعتباره مكوِّنًا لها كالنجوم والقمر إلى غير ذلك. لكنّه كان يدرك في الوقت نفسه أنّه من الصعوبة بمكان القول إنّ هذه الكواكب الموجودة في السماء مذكورة في القرآن بالمعنى العلميّ الدقيق لها، وإنّما كلّ ما هو مذكور يعبّر عن أنّها مخلوقات من مخلوقات الله تعالى تعبّر عن قدرته تعالى.

نحن نعلم أنّ الكواكب أجسام مظلمة ليست مضيئة بذاتها ولكن يأتيها الضوء من الشمس، والكواكب علميًّا تدور حول الشمس، والأرض التي نحن نعيش عليها واحد من هذه الكواكب، وهي تدور في النظام الشمسيّ، وهي مكوِّن رئيس من مكوِّناته، ولا ندري هل هناك في هذا النظام الشمسيّ أو في خارجة من الأنظمة الأخرى التي لا يزال العلم يكشف عنها أرض مماثلة عليها حياة أم لا؟

المستشرق موريس بوكاي من جانبه يؤكّد على أنّ القرآن يعني بالكواكب الاسم المتعارف عليه علميًّا الآن، لكنّه ينفي أن يكون القرآن قد حدّد عددها، رافضًا أن يكون قول الله تعالى على لسان سيّدنا يوسف: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (سورة يوسف، الآية ٤) يعني عدد الكواكب بداعي أنّها في نظره قصّة خياليّة[2]. لكن بغضّ النظر عن ذكر القرآن لعدد الكواكب من عدمه، فإنّه يجب التأكيد على خطأ بوكاي في وصفه للقصّة هنا؛ لأنّ الأنبياء لا يأتون بخيال ولا أوهام، وإنّما هو وحي من عند ربّ العالمين، حتى مع كون سيّدنا

---

[1]- http://kaheel7.com/pdetails.php?id=852&ft=39

[٢]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص١٩٢.

يوسف صغيرًا عند حلمه هذا فإنّ هذا رؤيا من الله تعالى وإرهاصًا، «وإرهاصات الأنبياء لا يداخلها الخيال الذي يمتزج فيه الحقّ بالباطل؛ لأنّها حقّ كلّها»[1].

أمّا مسألة العدد ذاتها، فصعب تأكيدها، ليس لأنّ القرآن فيه شيء حاشا لله تعالى؛ ولكن لأنّ صيغة أحد عشر جاءت في صيغة النكرة، فلم يقل القرآن الأحد عشر؛ إذ لو قالها لفهمنا أنّ الكواكب أحد عشر فقط، إلّا أنّ ذكرها جاء نكرة، بما يعني أنّها قد تكون أحد عشر من مجموع كواكب أكبر سواء أكان في نظامنا الشمسيّ أم في نظام آخر في مجرّتنا الكبيرة والتي تتألّف بدورها من ملايين المجرّات التي يشملها الكون وأكّد عليها العلم.

ولو أنّ بوكاي علّل رفضه للعدد بهذا المنطق لكان أجدى، ولعبّر عن منهجه الذي التزمه في كتابه الشهير ومشروعه العلميّ البوكايي، لكن على كلّ حال نفهم أنّ بوكاي كان معنيًّا بتفسير القرآن لطبيعة الكواكب لا بعددها.

ومن هذا المنطق وقف عند قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ (سورة النور، الآية ٣٥) محاولًا الوقوف على طبيعة الكوكب كما ذكره القرآن، مقارنًا بين فهمه للآية وبين ما انتهى إليه العلم الحديث حول طبيعة الكوكب، ومن ثمّ يعلّق على ذلك قائلًا: «ويُراد هنا اتجاه ضوء على جسم يعكسه الزجاج مع إعطائه التماعة اللؤلؤة، كما يكون الكوكب منارًا من الشمس، هذا هو التفصيل الوحيد الموضح المتعلّق بهذه الكلمة الذي يمكن الوقوع عليه في القرآن»[2]، وتفسير بوكاي يعني أنّ القرآن ينظر للكوكب على أنّه جسم معتم يأتيه النور من انعكاس ضوء الشمس الساقط عليه.

لكن بوكاي وقف عند هذه الآية تحديدًا للكشف عن طبيعة الكوكب في القرآن،

---

[١]- حسن خالد مترجم كتاب موريس بوكاي، مرجع سابق، هامش ص١٩١.

[٢]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص١٩٢.

رافضًا أن تكون هناك آيات أخرى تكشف عن هذه الطبيعة، فذهب إلى أنّ آية: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا﴾ سورة الأنعام، الآية ٧٦، وآية: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ (سورة الانفطار، الآية ٢) لا يمكن أن تكشف لنا عن الجرم السماويّ الذي تعنيه[1]، ويرد على هذا الكلام عدّة ملاحظات:

الأولى: أنّه لا اختلاف بين طبيعة الكوكب المنصوص عليها في آية سورة النور -الذي فهمه بوكاي على أنّه جسم معتم ينير بانعكاس ضوء الشمس عليه- عنه في آيتي: سورة الأنعام وسورة النور، ولو قرأ بوكاي المقطع الذي ذُكرت فيه الآية من أوّله إلى آخره، لفهم أنّ الكوكب المنصوص عليه في الآيتين السابقتين من جنس الكوكب في آية سورة النور، فلننظر إلى قول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ سورة الأنعام، الآيات ٧٦-٧٩.

والحديث عن هذه المظاهر الثلاثة لقدرة الله تعالى: الكوكب، القمر، الشمس تمّ في جنح الليل، أي أنّ المشاهدات هنا كانت ليليّة لكلٍّ من الكوكب والقمر بنصّ القرآن؛ فجنّ هنا بمعنى استتر أو أظلم، أي استتر عليه الليل أو أظلم عليه الليل، في حين أنّ مشاهدة الشمس نهاريّة؛ لأنَّ الشمس هي مصدر الضوء والحرارة في الكون. ولكن يستوقفك هنا أنّ هذه المخلوقات الثلاثة تظهر في السماء، ويستوقفك أيضًا أنّ الثلاثة مختلفة، فالكوكب جسم معتم لا ينير من خلال استقبال ضوء الشمس نهارًا، والقمر جسم معتم يعكس ضوء الشمس الساقط عليه، فهو منير لا مُنار، والشمس جسم يشعّ ضوءًا وحرارة ويبعث نوره للأرض والقمر، ولذا وصف القمر بالبزوغ أي التلألؤ والاستنارة، فالبازغ هو المتلألئ المستنير ووُصفت الشمس

---

[١]- م.ن، ص١٩٢.

بكونها الأكبر هذا أكبر بالبزوع الأكبر، أي التلألؤ والاستنارة الكبرى، فهي متلألئة مستنيرة بصورة أكبر بمراحل من القمر، في الوقت الذي لم يوصف فيه الكوكب بالبزوغ مثلهما، فهل بعد ذلك تحديد لمعنى الكوكب وطبيعته؟! وهل بعد ذلك كشف عنه كجرم سماويّ؟!

أمّا قول الله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ سورة الصافات، الآية ٦، فهي تشير إلى أنّ هذا المخلوق من قبل الله تعالى والموجود في السماء هو زينة لها، كما أنّ الحديث هنا عن كواكب السماء الدنيا بنصّ القرآن، الأمر الذي استرعى انتباه بوكاي متسائلًا: فهل تعني عبارة القرآنالسماء الدنيا النظام الشمسيّ؟! ويجيب قائلًا: «إنّا نعرف بأنّه لا يوجد بين العناصر السماويّة الدانية منّا عناصر أخرى دائمة إلّا الكواكب، والشمس هي النجم الوحيد من مجموعة النظام الشمسيّ الذي يحمل اسمه، ولا ندري أيّ أجرام سماويّة غير الكواكب المعروفة علميًّا قد تُراد من هذه الآية، فالتفسير إذن صحيح، والقرآن بذكره وجود الكواكب كان يعنيها حسب التعريف الحديث»[1].

ولقد تحدّث القرآن الكريم في عدد من المواضع عن السماء الدنيا، يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ سورة الملك، الآية ٥. ويقول أيضًا: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ سورة فصلت، الآية ١٢. وهذا يعني أن الشمس والكواكب والقمر توجد في السماء الدنيا، وهذا ما لا يتعارض مع هذه الآيات أو الآيات الأخرى التي تتحدث عن السماوات السبع.

وقد وقف بوكاي كثيرًا بدوره عند مسألة السماء الدنيا، مندهشًا من تعرّض القرآن في هذه القضيّة لمعلومات مادّيّة يقبلها العلم المعاصر ويفهمها المعاصر المستنير، وهذا ما يصفه بالغموض الشديد في فهم كيف يكشف كتاب وُجد منذ أكثر من ١٤٠٠عام هذا الأمر، في الوقت الذي لم يصل إليه العلم الحديث إلّا منذ عقود.

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص١٩٢.

لكن بوكاي كان يدرك جيّدًا أنّه إذا كان الأمر يتعلّق بأشياء مادّيّة تتعلّق بالسماوات والأرض، فإنّ العلم كفيل البحث عنها، إلّا أنّه إذا كان الأمر يتعلّق بشيء غيبيّ، فإنّ العقول تجد استحالة في الوصول إليه إلّا بتعاليم إلهيّة في رأيي. يقول بوكاي: «فإذا كان فهمنا للآية الأخيرة سهلًا -يقصد آية ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾، أي تتحدّث عن شيء ماديّ هو الكواكب- فإنّنا مع الآية رقم ٧ من نفس السورة: وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ، التي فيها لفظة وحفظًا الواردة أيضًا في السور ٢١ آية ٣٢، والسورة ٤١ آية ١٢ نجد أنفسنا في مواجهة مع اعتبارات من نوع آخر»[1].

وهو يشير إلى آية: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ سورة الأنبياء، الآية ٣٢، وآية: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ سورة فصلت، الآية ١٢. وقد نظر بوكاي إلى هاتين الآيتين على أنّهما فوق مستوى الفهم الإنسانيّ؛ كونهما يتحدّثان عن نجوم تمنع الشياطين من التلصّص على السماوات، فالسماء إذن محفوظة من الشياطين - وهذا وجه من وجوه تفسير كلمتي: محفوظًا و حفظًا. وقد استوقفته كذلك آية: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ (سورة الملك، الآية ٥) متسائلًا: ما تأويل وضع الحجارة التي هي لرجم الشياطين في الآية الواردة في تلك الآية؟ وهل المصابيح المذكورة في هذه الآية بالذات هي النجوم السيّارة[2]؟

لكن القرطبيّ في تفسيره ذهب إلى رأي مستفاد من القرآن ذاته، ومن ثمّ فإنّ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ أي جعلنا شهبها، فحذف المضاف. دليله: إلّا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب، وعلى هذا فالمصابيح لا تزول ولا يُرجم بها. وقيل: إنّ الضمير راجع إلى المصابيح على أنّ الرجم من أنفس الكواكب، ولا يسقط الكوكب نفسه إنّما ينفصل منه شيء يرجم به من غير أن ينقص ضوؤه

[١]- م.ن، ص١٩٣.

[٢]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص١٩٣.

ولا صورته. قاله أبو علي جوابا لمن قال: كيف تكون زينة وهي رجوم لا تبقى. قال المهدويّ: وهذا على أن يكون الاستراق من موضع الكواكب. والتقدير الأوّل على أن يكون الاستراق من الهوى الذي هو دون موضع الكواكب. القشيري: وأمثل من قول أبي عليٍّ أن نقول: هي زينة قبل أن يرجم بها الشياطين. والرجوم جمع رجم، وهو مصدر سمّي به ما يُرجم به. قال قتادة: خلق الله تعالى النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يُهتدى بها في البر والبحر والأوقات، فمن تأوّل فيها غير ذلك فقد تكلّف ما لا علم له به، وتعدّى وظلم[1].

لكن ربما بوكاي لم يرجع إلى تفسير القرطبيّ وربما رجع؛ لأنّ تساؤله لا يحمل استنكارًا، ولكنّه يحمل استفسارًا قاده إلى أنّ الآية تتضمّن قضيّة غيبيّة لا مجال للعلم فيها، ولا طريق له لإثباتها؛ كونها من خصوصيّة العلم الإلهيّ الغيبيّ. ومن ثمّ فإنّها خارج موضوع دراسته القائم على بيان التوافق بين القرآن والعلم الحديث، وبما أنّ قضيّة حفظ السماء من الشياطين كونها رجومًا لها لا تخضع للدراسة العلميّة، فإنّه لم يكلّف نفسه مؤونة دراستها، «وعلى كلّ فإنّ المعطيات العلميّة الحديثة لا تبدو قادرة على أن تنزّل الأشياء منازلها، فتسلط الضوء على موضوع يتجاوز الفهم الإنسانيّ»[2].

ولكن ماذا عن النظام الذي يسير عليه الكون أو ما يسمّيه بوكاي التنظيم السماويّ؟ يمكن القول إنّ بوكاي وقف عند آيتين تتعلّقان بهذا التنظيم، الأولى يقول الله تعالى فيها ﴿**وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ سورة الأنبياء، الآية ٣٣، والثانية يقول الله تعالى فيها: ﴿**لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ سورة يس، الآية ٤٠. فالآيتان تتحدّثان عن وجود نظام في حركة الشمس والقمر، وأنّهما مجتمعان في فلك يسبحان فيه، فهما يتناولان الأفلاك والشمس والقمر والحركة المنتظمة التي يقومان بها في السماء، ما يعني أنّ هناك تنظيمًا إلهيًّا دقيقًا لا يصيبه

[١]- القرطبي، تفسير القرطبي الجزء ٢٩، ص٥٦٢.

[٢]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص١٩٤.

الخلل أو الاضطراب، بدليل الانسجام والتناسق في حركتهما.

لكن أيّهما يدور حول الآخر: هل الأرض تدور حول الشمس؟ أم أنّ الشمس هي التي تدور حول الأرض؟ لا شكّ في أنّ العلم الحديث يبني فكرته على التمسّك بالرأي الأوّل، فالأرض في نظر العلم هي التي تدور حول الشمس، فبدورانها حول نفسها يتعاقب الليل والنهار، وبدورانها حول الشمس تتولّد الفصول الأربعة ومن ثمّ السنون، هذا الرأي هو الرأي الذي يميل إليه العلم، لكن هناك رأيًا آخر يبني فكرته على التمسّك بالرأي الثاني، فالشمس في نظر أصحابه هي التي تدور حول الأرض، محاولين الاستدلال على ذلك بآية وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا.

كان المستشرق موريس بوكاي يؤمن بالرأي الأوّل الذي يرى أنّ الأرض هي التي تدور حول الشمس؛ وذلك لأمرين:

الأوّل: أنّ العلم انتهى إليه، والثاني، أنّ الرأي الثاني لم يظهر في أيّ موضع في القرآن من وجهة نظره، ومن ثمّ يختم حديثه بنصّ يقول فيه: «ويبدو زيادةً على ما تقدّم من قراءة هذه الآيات حدث من النوع السلبيّ، فيظهر بأنّ الشمس تنتقل في فلك، دون أن يوضح ما سيكون عليه هذا الفلك بالنسبة إلى الأرض، فقد كان الناس يعتقدون في عصر الوحي القرآنيّ بأنّ الشمس تجري مع الأرض كنقطة ثابتة، وهذا هو النظام المحوريّ المعروف الذي ظلّ مقيمًا منذ بطليموس في القرن الثاني قبل الميلاد حتى عهد كوبرنيك في القرن السادس عشر، هذا المفهوم الذي التقى الناس عليه مع ذلك حتى عصر محمّد لم يظهر في القرآن في موضع منه مطلقًا»[1].

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل ما انتهى إليه العلم يمثل حقيقة ثابتة لا تقبل الشك؟ أم أنه مجرد فرض علمي مبني على الحسابات الفلكية ليس لا؟ أو بعبارة أخرى: هل الرأي العلميّ ناتج عن مشاهدة حقيقيّة أو واقع محسوس؟ أم نتاج نظريّة حسابيّة افتراضيّة؟ الحقيقة التي لا جدال فيها ولا مراء أنّ الرأي العلميّ مبنيّ على حسابات قد تكون دقيقة ليس إلّا، فلم يثبت لنا العلم -إلى

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص١٩٤.

حدّ علمي- من خلال المشاهدات الحقيقة والواقع المشاهد أنّ الأرض تدور حول نفسها، والأمر لا يعدو مجّرد حسابات تفترض دوران الأرض حول نفسها.

وثمّة سؤال ثانٍ يطرح نفسه بقوّة أيضًا: هل ما انتهى إليه أصحاب الرأي القائل بدوران الشمس حول الأرض يقوم على حقائق علميّة ثابتة، تلامس الواقع؟ هل رأيهم هنا علميّ؟ بمعنى هل يستندون في ذلك إلى رأي علميّ واضح ولا يقبل الشكّ؟ أم أنّهم يستندون إلى نصّ دينيّ صريح أو تفسير واحد يصبّ في صالحهم؟ لا يستند أصحاب هذا الرأي إلّا للآية التي ذكرناها سابقًا، ولا يقدّمون لها غير تفسير واحد، على الرغم من أنّها ليست محصورة فيه، بل يمكن أن توجَّه توجيهًا آخر؛ إذ ليس في القرآن ما يدلّ صراحة على أنّ الشمس تدور حول الأرض.

ومن ثمّ فإنّ ثمّة فرقًا كبيرًا بين النظريّة والحقيقة العلميّة، «ومن أمثلة النظريّات العلميّة هذه النظريّات التي تتناول حقيقة حركة الشمس والأرض، ونسبة كلّ واحد منها للآخر، فلا يزال فيها جدل علميّ كبير بين العلماء المتخصّصين, وما هو مشهور من إثبات دوران الأرض حول الشمس لا يعود إلى حقيقة مشاهَدَة، أو واقع ملموس، وإنّما يرجع إلى دقّة الحسابات الناشئة من افتراض أنّ الأرض تدور حول الشمس، وليس العكس»[1].

ومن ثمّ فليس هناك من دليل مادّيّ يرجّح كفّة أحد الرأيين على الآخر، ومن ثمّ فليس في مقدرة أيٍّ من الطرفين اتهام الآخر بالخطأ. يقول الفيلسوف الإنجليزيّ والتر ستيس إنّه ليس من الأصوب أن تقول: إنّ الشمس تظلّ ساكنة، وأنّ الأرض تدور من حولها، من أن تقول العكس[2].

حتّى أنّ كوبرنيكس برهن على أنّه من الأبسط رياضّيًا أن نقول: إنّ الشمس هي المركز... ومن ثمّ فلو أراد شخص في يومنا الراهن أن يكون «شاذًّا» ويقول: إنّه

---

[1]- https://www.islamweb.net/ar/fatwa/226582/

[2]- https://www.islamweb.net/ar/fatwa/226582/

لا يزال يؤمن بأنّ الشمس تدور حول أرض ساكنة، فلن يكون هناك من يستطيع أن يثبت أنّه على خطأ[1].

لكن من الواضح أن قضيّة الفلك الذي فيه الشمس والقمر من القضايا التي شغلت عقول المفسّرين والمترجمين للقرآن منذ عهد بعيد، حيث إنّه لم يكن في استطاعتهم الكشف عن طبيعة جريان الشمس والقمر في هذا الفلك، فلجأوا إلى توقّعات واستنتاجات حول هذا الجريان هو إلى الخيال أقرب منه إلى أيّ شيء آخر.

فثمّة من فسّر الجريان قائلًا: "لقد قام العلماء بدراسة حركة الشمس المجموعة الشمسيّة لمعرفة المسار الدقيق الذي ترسمه الشمس أثناء دورانها حول مركز المجرّة، وقد وجدوا أنّ الشمس لا تدور دورانًا بل تجري جريانًا حقيقيًّا!! وأنّ جريانها يشبه جريان الخيل في حلبة السباق!"[2]. ومنهم من رأى ضرورة السكوت عمّا لا علم لنا به[3]. ولا شكّ في أنّ عدم الإلمام بمفهوم الفلك الذي تجري فيه الشمس القمر كان من الصعوبة بمكان، بحيث لم يستطع أحد الإلمام بالفهم العلميّ الدقيق الذي ظهر جليًّا في عصر العلم الحديث.

لكن بوكاي لم يكن من أولئك النفر الذي التزموا الصمت في هذه القضيّة، فقد أراد أن يسلك طريق الولوج إلى هذه القضيّة بدافع إثبات التوافق الكبير بين القرآن والعلم الحديث، علمًا بأنّه كان يدرك جيّدًا صعوبة تصوّر وجود فلك تتحرّك الشمس في مداره، في الوقت الذي اعتاد الناس على أنّ النظام الشمسيّ محوره الشمس الذي تدور حوله الكواكب، «لذا فإنّه لكي نفهم الآية القرآنيّة ينبغي تصوّر مركز الشمس في مجرّتنا، وبالتالي تُذكر المفاهيم العلميّة الحديثة»[4].

---

[1]- https://www.islamweb.net/ar/fatwa/226582/

[٢]- عبد الدايم الكخيل، هل الشمس تدور أم تجري؟ على الرابط التالي:
http://www.kaheel7.com/ar/index.php/2010- 02- 02- 20- 06- 04/ 504- 2012- 10- 17- 18- 07- 52.

[٣]- ابن جرير الطبريّ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، القاهرة، دار هجر، الطبعة الأولى، ج١٦، ص٢٦٧.

[٤]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص١٩٦.

بيد أنّ أفضل ما أثبته لنا بوكاي بالدليل الحسابيّ هو القدرة المطلقة لله تعالى في الكون عامّة وفي الفلك الذي تسبح فيه الشمس والقمر والمجرّات؛ إذ من المعلوم أنّ مجرّتنا واحدة من عدد من المجرّات التي ربما لا حصر لها. وتحتوي مجرّتنا كما يقول بوكاي على عدد من النجوم موزّعة في مدار يعدّ مدى عمقه المركزيّ أبعد من استدارته، تشغل الشمس منه موضعًا بعيدًا عن مركز المدار، وتدور المجرّة كلّها حول نفسها دورانها على المحور في فلك مستدير[1].

ولكن ماذا عن بعد مسافة الشمس عن مركز المجرّة؟ وماذا عن المسافة الزمنيّة التي تقطعها المجرّة عندما تدور حول نفسها دورة كاملة؟ والمسافة التي تقطعها بالكيلو مترات؟ إنّ الإجابة على هذا السؤال تذهل العقول من ضخامة المسافة الزمانيّة والمكانيّة التي تشغلها المجرّة عندما تقوم بهذه الحركة، يجيب بوكاي على ذلك مستندًا إلى علماء الفلك والاختصاصيّين: «وقد أجرى علم الفلك حساب عناصرها وقيم (shapley) سنة ١٩١٧ بعد مسافة الشمس التقريبيّ عن مركز المجرّة بـ١٠ كيلو بارسك، تساوي بالكيلومترات تقريبًا رقم ٣ ملحقًا بسبعة عشر صفرًا. ولتدور كلٌّ من المجرّة والشمس حول نفسها دورة كاملة تقضي مئتين وخمسين مليون سنة تقريبًا، مع العلم أنّ سرعة الشمس في تنقّلها هذا هي مئتان وخمسون كيلومتر في الثانية تقريبًا»[2].

هذا يعني أنّ المسافة التي تقطعها المجرّة والشمس في اليوم الواحد أثناء دورانها حول نفسها هي: ٢٤ × ٦٠ × ٦٠ × ٢٥٠ = ٢١٦٠٠٠٠٠ كيلومتر

في حين أنّ المسافة التي تقطعها في عام هي:

٢١٦٠٠٠٠٠ × ٣٦٥ = ٧٨٨٤٠٠٠٠٠٠ كيلومتر

فكم تكون المسافة التي تقطعها في مئتين وخمسين مليون سنة[3]؟!!

---

[١]- م.ن، ص١٩٦.

[٢]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص١٩٦.

[٣]- وهي تتّخذ في ذلك حركات وتموّجات محدّدة انظر: عبد الدايم الكحيل، هل الشمس تدور أم تجري؟ على الرابط التالي:

إنّ محيط المدار الذي تقطعه لا يمكن أن يتصوّره عقل بشريّ مهما بلغت تكنولوجيّاته وأدواته العلميّة.

لكن بوكاي هنا لم يدّع أنّ القرآن حدّد هذه المسافة؛ لإيماننا العميق بأنّ القرآن لم يكن معنيًّا بتحديد مسافات؛ لأنّه ليس كتابًا في الفلك، وإنّما القرآن أشار إلى إشارات علميّة تبيّن قدرة الله تعالى المطلقة التي يكشف عنها العلم يومًا بعد يوم، وهذا ما كان يهمّ بوكاي في هذه القضيّة على وجه الخصوص.

وقد قدّم بوكاي لتلك الترجمات القرآنيّة التي ترجمت جريان القمر والشمس بما لا يتناسب مع الحقيقة العلميّة؛ لأنّهم كانوا يجهلون ذلك، فترجموا الكلمة العربيّة التي تعني هذا الجريان بأحد معانيها الذي يفيد السباحة، لكن بوكاي كان يرى في هذه الكلمة معنى خاصًّا، فمعاني الفعل عنده تفرض التنقّل المرتكز إلى حركة خاصّة لجسم متنقّل، مستندًا إلى أنّ التنقّل في الماء يُقال له سبح، وإلى أنّ التنقّل على الأرض يكون بالأطراف الذاتيّة، فيقال مشى، ومن ثمّ فإنّ معنى سبح في آية ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ لا تحمل عنده أيًا من المعنيين، الأمر الذي ألزمه بتفسيرها تفسيرًا آخر، «لكن إذا كان التنقّل في الفضاء، فإنّنا لا نستطيع أن نعرف إذا استعملنا هذه الكلمة كيف تؤدّي المفهوم الذي تعنيه عندما نطلقها في معناها الأصليّ»[1].

وعليه فإنّ السباحة في الفلك عنده هي حركة دوران، ومن ثمّ نفهم أنّه يفسّر يسبحون على أنّها يدورون، ونفهم ذلك من خلال استناده إلى أمرين: الأوّل أنّ القمر يدور حول نفسه في الوقت الذي يدور فيه حول الأرض حتى يبلغ دورته في ٢٩ يومًا ونصف اليوم تقريبًا بصورة ليس فيها أيّ اختلال. والثاني: أنّ الشمس تدور حول نفسها في ٢٥ يومًا تقريبًا، فالكلّ مدفوع بحركة دوران متواصلة. ومن ثمّ يقول: «ويظهر إذن أنّ في القرآن تلوينًا من التعبير يشير إلى حركات خاصّة بالشمس

---

http://www.kaheel7.com/ar/index.php/2010- 02- 02- 20- 06- 04/ 504- 2012- 10- 17- 18- 07- 52.

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص١٩٧.

والقمر تثبتها معطيات العلم الحديث»[1]. يفسرّ أحد الباحثين المعاصرين هذه الحركات الخاصّة قائلًا: «لقد وجد العلماء أنّ للشمس حركتين داخل المجرّة: الأولى حركة دورانيّة حول مركز المجرّة، والثانية حركة اهتزازيّة للأعلى وللأسفل؛ ولذلك فإنّ الشمس تبدو وكأنّها تصعد وتنزل وتتقدّم للأمام! وتتمّ الشمس دورة كاملة حول مركز المجرّة خلال ٢٥٠ مليون سنة! ويستغرق صعود الشمس وهبوطها بحدود ٦٠ مليون سنة، وهكذا تصعد وتهبط وتتقدّم مثل إنسان يجري»[2].

وهذا يقودنا إلى شيء من الأهمّيّة بمكان، وهو: أنّى لرجل عاش قي القرن السابع الميلاديّ أن يتحدّث عن الشمس والقمر وفلكهما بتلك الصورة التي ليس فيها أدنى مخالفة للعلم الحديث؟! بل كيف يصل إلى معلومات في الفلك وغيره ممّا لا يزال العلم يكشف عنه يومًا بعد يوم؟! أليس في ذلك ما يثير الدهشة والعجب؟! ومن ثمّ يقول بوكاي: «ولا يمكننا أن نفهم بأنّ رجلًا من القرن السابع الميلاديّ، مهما كان واسع العلم في عصره، وهو ما لم يكن عليه حال محمّد صلى الله عليه وآله بإمكانه أن يتصوّرها -يقصد حركات الشمس والقمر»[3]. فالجانب العلميّ في القرآن إذن خير شاهد على إلهيّته، وأنّه ليس من عند بشر؛ لثبوت هذه الحقائق علميًّا من جهة، واستحالة قدرة النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله سلّم على الإتيان بها من جهة ثانية[4].

لكن قد يعترض معترض بداعي أنّه توجد العديد من المعلومات الفلكيّة التي اكتشفها بعض المفكّرين في عصر ما قبل الميلاد، وأثبت العلم صحّتها، فما المانع من وجهة نظرهم من أن يكون محمّد قد ألمّ ببعض هذه المعلومات باجتهاده ومعرفته بالفلك؟! وقد فطن بوكاي إلى هذه الفرية، لكنّنا نستطيع القول إنّ ردوده كانت تسير في ثلاثة اتجاهات: الأوّل: أنّ هؤلاء المفكّرين -ونعني تحديدًا الفيثاغوريّين- لم

---

[١]- م.ن، ص١٩٧.

[٢]- انظر: عبد الدايم الكحيل، هل الشمس تدور أم تجري؟ على الرابط التالي:
http://www.kaheel7.com/ar/index.php/2010- 02- 02- 20- 06- 04/ 504 - 2012- 10- 17- 18- 07- 52.

[٣]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص١٩٧-١٩٨.

[٤]- أنظر: ادّعاء أنّ القرآن من وضع البشر، موسوعة بيان الإسلام، على الرابط التالي:
http://www.bayanelislam.net/Suspicion.aspx?id=01 -01- 0087&value=&type=

يعتمدوا فيما توصّلوا إليه على الاستتاج العلميّ، وإنّما استندوا إلى تصوّر فلسفيّ نظريّ وضعوا من خلاله أسس أفكارهم الفلسفيّة، ما يعني أنّ طريقتهم في الوصول إلى المعلومة تمّت من طريق مغاير لما عليه العلم الحديث. الثاني: أنّه على الرغم من أنّ الفيثاغوريّين تبنّوا نظريّة دوران الأرض حول نفسها في القرن السادس قبل الميلاد، وأنّ الكواكب تدور حول الشمس، إلّا أنّه من غير المقبول النظر إلى هؤلاء الفيثاغوريّين كمفكّرين عباقرة، في حين أنّ النبيّ محمّد أولى بهذا الوصف، «غير أنّه إن كان مقبولًا عقد مقارنة مع وضع هؤلاء الفيثاغوريّين فإنّ من اليسير طرح فرضيّة محمّد صلى الله عليه وآله كمفكّر عبقريّ أن يتصوّر بنفسه ما اكتشفه العلم الحديث بعد قرون من ظهوره»[1]. والثالث: الأخطاء الكبيرة التي قامت عليها كتابات المفكّرين أصحاب الفكر الفلسفيّ، خاصّة أنّ الفيثاغوريّين كانوا يدافعون عن نظريّة ثبوت الشمس في الفضاء[2]، فقد كانت عندهم مركز الكون، ومن ثمّ كانت فكرتهم عن الكون خليطًا من الصحيح والخطأ، «والبريق الذي عكسته في مثل هذه المجالات الإنسانيّة أفكارهم المتقدّمة التي احتوتها لا ينسينا مطلقًا بالمقابل الأفكار الخاطئة التي خلّفوها، وهذه هي فقط وجهة النظر العلميّة التي تفصلهم عن القرآن الذي عرض أعدادًا من الموضوعات تتصل بالمعارف الحديثة دون أن يكون فيها أيّ تصادم مع ما أثبته العلم في عصرنا الحاضر»[3].

وإذا كان بوكاي يُخطّئ قول الفيثاغوريّين بأنّ الشمس مركز الكون، وأنّه لا يُتصوّر تنظيم سماويّ إلّا حولها، فإنه يُخطّئ أيضًا من يعتقدون من المسلمين بأنّ الأرض مركز الكون وأنّ الشمس تتحرّك بالنسبة إليها، بالاستناد إلى أنه كان يرى أنّ شيئًا من هذا لم يرد في القرآن.

ويمكن القول إنّ بوكاي استند إلى مجموعة من الآيات هي:

---

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص١٩٨.

[٢]- لكن من الباحثين من يرى أنّ الفيثاغوريّين كانوا يرون أنّ مركز الكون هو النار المركزيّة التي تدور حولها الكواكب والشمس أيضًا، أنظر: أحمد أمين، زكي نجيب محمود، قصة الفلسفة اليونانية، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصريّة، الثانية، ١٩٣٥م، ص٣٦.

[٣]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص١٩٨.

قول الله تعالى: ﴿يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ سورة الأعراف، الآية ٥٤.

وقوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ سورة يس، الآية ٣٧.

وقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾سورة لقمان: الآية ٢٩.

وقوله: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ سورة الزمر، الآية ٥.

فإذا كان بوكاي ينظر إلى الآية الأولى على أنّه لا يعوزها شرح، والثانية ترسم لنا صورة فقط، فإنْ وَقَفَ عند الآيتين: الثالثة والرابعة، وهما آيتا سورة لقمان وسورة الزمر، فسيجد أنّهما الآيتان المهمّتان والأساسيّتان اللتان تمكّنان في نظره من تقديم فائدة عظيمة فيما يتعلّق بامتداد التداخل، خاصّة تكوير الليل على النهار وتكوير النهار على الليل[1].

فما معني التكوير؟ يجيب بوكاي على هذا السؤال من خلال احتكامه إلى ترجمة بلاشير للقرآن، قائلًا: «ويبدو أنّ كلمة (enrouler) كما هي واردة في ترجمة ر. بلاشير هي أنسب تعبير فرنسيّ للكلمة العربيّة كوّر، والمعنى الأوّل لهذا الفعل هو إدارة شريط على الرأس بشكل لولبيّ أو حلزونيّ. وفي كلّ المعاني الأخرى فإنّ مفهوم الإدارة هذا ملحوظ»[2].

وهذا المعنى الذي ذهب إليه بوكاي مأخوذ من المصدر اللغويّ، فكوّر الشيء لفّه على جهة الاستدارة، والنهار على الليل بمعنى أدخل هذا في ذاك، أو زاد في هذا من ذاك[3]. والتكوير مأخوذ من تكوير العمامة أي إدارتها[4]. وهذا المعنى هو ما

[١]- م.ن، ص١٩٩.

[٢]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص١٩٩.

[٣]- أنظر: المعجم الوجيز، القاهرة، طبعة وزارة التربية والتعليم، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، ص٥٤٥.

[٤]- أنظر: مجلّة الإعجاز العلميّ، الصادرة عن المجمع العالميّ للإعجاز العلميّ في القرآن والسنة، ١٤٢٧هـ العدد ٢٤، جمادى الأولى، ص٣٦.

ذهب إليه ابن حزم، مستندًا إلى أنّ أيًّا من العلماء المسلمين وأئمتهم المستحقّين لاسم الإمامة بالعلم لم ينكروا تكوير الأرض ولا يُحفظ لأحد منهم ما يخالف ذلك، خاصّة وأنّ الكتاب والسنّة كانا إمامهم[1]. وبناء على ذلك فإنّ الأرض مستديرة، والشيء المستدير لا حوافّ له[2]. وهذا يعني أنّ الأرض في انحناء مستمرّ، ذلك الذي ينتهي بدائرة يتلاقى فيها الطرفان، وهذا هو التعبير القرآنيّ لمعنى التكوير[3].

إذن فماذا يقدّم لنا العلم في هذه الناحية؟ وهل العلم يؤكّد النصّ القرآنيّ في هذه القضيّة؟ إنّ إجابة بوكاي على هذا السؤال تنطلق من مشاهدات رواد الفضاء وآلات التصوير العملاقة في المركبات الفضائيّة، والتي باستطاعتها التقاط صور لمسافة بعيدة عن الأرض. فالشمس تضيء باستمرار، فهي تضيء نصف الكرة الأرضيّة المواجه لها، في حين يظلّ النصف الآخر منها في ظلام. وعند دوران الأرض حول نفسها، فإنّ النصف المظلم ينير عند مواجهته للشمس بفعل الدوران، في حين يصير النصف المنير مظلمًا نتيجة الفعل ذاته. ومن ثمّ فإنّ المنطقة المضاءة والتي تكون على شكل نصف فضاء فلكيّ تؤدّي دورتها حول الأرض في مدّة أربع وعشرين ساعة، في حين نصف الفضاء الآخر المظلم يواصل الدوران مستغرقًا المدّة ذاتها. «هذه الدورة الدائبة للنهار والليل هي كاملة الوصف في القرآن، وقبول إدراكها يسير على الفهم الإنسانيّ في هذه الأيّام؛ لأنّنا نملك المفهوم الذي يؤكّد ثبوت الشمس النسبيّ ودوران الأرض، وأنّ امتداد هذا التكوّر المستمرّ مع تداخل قسم بآخر بشكل متعاقب معبّر عنه في القرآن، كما لو كان الناس قد تصوّروا في ذلك الزمن كرويّة الأرض، بينما لم يكن الأمر كذلك»[4].

وترتبط بقضيّة تعاقب الليل والنهار والتكوير المنصوص عليه في القرآن والتي يدلّل عليها العلم الحديث قضيّة أخرى من الأهمّيّة بمكان وهي قضيّة تعدّد

---

[١]- أنظر: ابن حزم الظاهري، الفصل في الملل والنحل والأهواء، القاهرة، مكتبة الخانجي، ج٢، ص٧٨.

[٢]- أنظر: الشنقيطي، أضواء البيان، القاهرة، مكتبة ابن تيميّة، ١٩٩٢، ج٦، ص٦٧٥.

[٣]- أنظر: محمّد سعيد البوطي، لا يأتيه الباطل، دمشق، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، ص٣٩-٤٠.

[٤]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص١٩٩.

المشارق والمغارب. وقد ذكر الله تعالى المشارق والمغارب في أكثر من آية قرآنيّة، من ذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ سورة الزخرف، الآية ٣٨. وقوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ سورة الرحمن، الآية ١٧. وقوله سبحانه: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ سورة المعارج، الآية ٤٠.

وهذه الآيات فهمها بوكاي باعتبار أنّها تقدّم وصفًا لظاهرة فلكيّة بإمكان الملاحظة العامّة أن تدركه، وقد ربط بين قضيّتي: تعاقب الليل والنهار من جانب والمشارق والمغارب من جانب؛ ليدلّل على أنّ ما يحويه القرآن في هذا الموضوع وارد على أكمل صورة.

لقد فطن بوكاي بحسّه العلميّ والنقديّ إلى أنّ القرآن لا يحمل أيّ تناقض بين هذه الآيات التي تتحدّث عن مشرقين ومغربين أو عن مشارق ومغارب أو حتى عن مشرق ومغرب، وقد استند إلى العلم الحديث في بيان ما ينطوي عليه القرآن الكريم من توافق مع العلم. ولعلّ الملاحظة المباشرة العاديّة تكشف عن أنّ الشمس تشرق من نقاط مختلفة حسب فصول السنة الأربعة، وتغرب في نقاط مختلفة في المغرب، بيد أنّ هذا لا يمنع من وجود علامات في الآفاق عبارة عن نقاط قصوى تثبت مشرقين ومغربين تنحصر بينهما على طول السنة نقاط متوسّطة عبارة عن المشارق والمغارب المتعدّدة. «والظاهرة الموصوفة هنا هي عامّة ومعروفة، ولكن الذي يستدعي الانتباه بشكل خاص هو ما يعود إلى الموضوعات الأخرى المطروحة في هذا الفصل؛ حيث يبدو فيها وصف الظواهر الفلكيّة الواردة في القرآن متّفِقًا مع المفاهيم الحديثة»[1].

ويرى بعض العلماء -تأكيدًا على ما يذهب إليه بوكاي- أنّ قضيّة المشارق والمغارب عبارة عن خطاب لمن أُوتي مزيدًا من العلم بقوانين الفلك، وشكل الأرض؛ وبناء عليه فإنّ آية ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ تقول لنا:

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٠٠.

«إنّ الشمس أينما كانت تكون مشرقًا لمن هي مقبلة إليهم، ومغربًا لمن هي مدبرة عنهم، ونظرًا لدوران الأرض حول الشمس فإنّ إشراقها يتجدّد للناس والبلدان التي تطلع عليها من جديد، فهي تظل في إشراق ومغيب، ومن ثمّ فإنّ بقاع الأرض تتقاسمها مشارق الأرض ومغاربها دون توقّف، إذن فهي مشارق ومغارب»[1].

بل إنّ ثمّة معنًى آخر «وهو أنّ الأرض تزاور عن الشمس ما بين صيف وشتاء، بحيث تتدرج الشمس متنقّلة في مطالع متعدّدة من الأرض؛ كي يقصر نهار الشتاء، وتتدرّج فيها عكسيًّا، كي يطول نهار الصيف، إذن فهي مطالع، أي مشارق متعدّدة للشمس ما بين كلّ صيف وشتاء»[2].

ولكن هل يتطوّر عالم السماء؟!

تبدو الإجابة هنا بالإثبات والإيجاب، فنحن نعلم أنّ العلم قد انتهى إلى أنّ الكون تكوّن من طبقة غازيّة بدائيّة كوّنت الرتق، فلما حدث الفتق أو الفصل لهذه الطبقة تكونّت المجرّات والنجوم، وقد خضع النظام الشمسيّ بما يشمله من كواكب وأقمار لهذا التطوّر في حركة الكون في مرحلة من مراحله. ومما لا شكّ فيه أنّ العلم الحديث يشير إلى أنّ هناك تطوّرًا مستمرًّا ومتتابعًا في هذا النظام بشكل خاصّ والكون بشكل عام. وفي ذلك توافق تامّ مع ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ سورة الذاريات، الآية ٤٧.

ويعد الكشف عن تمدّد الكون واتّساعه من الأمور المهمّة التي كشف عنها العلم الحديث، وأنّه حسب تعبير بوكاي أكيد الثبوت، وإنّما المختلَف عليه هو الشكل الذي يكون عليه هذا الاتّساع. والمستند الطبيعيّ لاتّساع الكون يظهر جليًّا عنده في اختبارات صورة المجرّات، حيث إنّ الانتقال النظاميّ نحو احمرار صورتها يتّضح بتباعد المجرّات عن بعضها، وعليه فإنّ فسحة الكون في تمدّد مستمرّ. فالاتّساع إذن يظهر في التباعد، خاصّة وأنّ السرعات التي تنتقل بها الأجرام السماويّة في هذا

[١]- انظر: محمّد سعيد البوطي، لا يأتيه الباطل، ص٣٩.

[٢]- م.ن، ص٤٠.

الاتساع المستمرّ يمكن أن تصل إلى رقم سرعة الضوء، بل وإلى نسب أعلى منها[1].

وأمام آية ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[2] يتساءل بوكاي سؤالين يفيدان الإقرار والتسليم، وهما: هل يمكن أن يكون قول الله تعالى في الآية السابقة متعرّضًا لهذه المفاهيم الحديثة؟! أليست السماء التي يعنيها القرآن هي على التحقيق العالم الخارج عن الأرض؟!

ولئن كان بوكاي قد انتبه إلى كلمة موسعون بوصفها اسم فاعل بصيغة الجمع للفعل أوسع -كما انتبه إلى معانيه: أفسح، أمد، جعله رحبًا فسيحًا[3]- فإنه لم ينتبه إلى أهمّيّة اسم الفاعل في كونه يدلّ على الاستمرار، أي استمرار اتساع الكون وتعاظمه، فالكون في تمدّد واتساع مستمرّين.

لكن بوكاي من جانب آخر وقف على معاني الكلمة عند بعض المترجمين في ترجماتهم لمعاني القرآن وعند بعض المفسرين من المسلمين، لكنه هاله أن الكلمة لم تأخذ حظها من الاهتمام العلميّ[4]، وقد صنّف الموقف من كلمة موسعون عند المترجمين والمفسرين في النصّ التالي: «بيد أنّ بعض المترجمين أعطوا هذه الكلمة بسبب عدم جدارتهم بإدراك معناها تفاسير تبدو لي مخطئة مثل نحن ممتلؤون بالسعة (ر. بلاشير)، والبعض الآخر اكتشف معناه، ولكنهم لم يجرؤوا على إظهاره، وحميد الله في ترجمته للقرآن يتكلم عن اتساع السماء والفضاء، ولكن

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٠٢.

[٢]- تذهب بعض التفاسير إلى تفسير موسعون على معنى اتساع أنحائها وأرجائها. انظر: التفسير الميسر، السعوديّة، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الطبعة الثانية، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م، الآية ٤٧ من سورة الذاريات، وانظر: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تفسير السعدي تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، تحقيق عبد الرحمن بن معلا بيروت – لبنان، مؤسّسة الرسالة، الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

[٣]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٠٢.

[٤]- هو يقصد جملة المفسرين الذين فسروا الكلمة تفسيرًا دينيًا بعيد عن الإلمام بالمعنى العلميّ، انظر: الحسين بن مسعود البغوي، تفسير البغوي معالم التنزيل، تحقيق محمّد عبد الله النمر بالاشتراك، دار طيبة، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، الآية ٤٧ من سورة الذاريات؛ جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي، تفسير الجلالين، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م؛ مجمع البحوث الإسلاميّة بالأزهر، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، الهيئة العامّة لشؤون المطابع الأميريّة، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمّد السلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م؛ القرطبي، تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركيّ، مؤسّسة الرسالة، الأولى، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

مع علامة الاستفهام، وقد أعطى البعض ممن استعانوا في تفاسيرهم بالآراء العلميّة الثابتة هذا المعنى، كما هو دأب مفسري تفسير المنتخب، المطبوع من قبل المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة في القاهرة، فقد ذكروا امتداد الكون واتساعه دون أي غموض»[1].

المستشرق بوكاي أكد على هذه الحقيقة العلميّة، لكن كان عليه أن يتمعن في الآيات القرآنيّة ليستخرج منها الأدلة على فكرة تطور العالم، وجد أن الحديث عن الشمس والقمر -وهما أهم ما في السماء بالنسبة لنا من هذا الكون الفسيح- يكون في معرض إظهار القدرة الإلهيّة المطلقة. وهذه حقيقة لا مجال فيها للشك، لكنها في الوقت ذاته تلقي إشارات علميّة تكشف -من خلال اكتشافات العلم الحديث- بصورة أكبر للإنسان عن عظمة هذه القدرة.

ويمكن هنا أن نشير إلى عدد من الآيات التي تؤكد هذه الحقيقة:

يقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ سورة الرعد، الآية ٢.

ويقول تعالى في كتابه العزيز: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ سورة لقمان، الآية ٢٩.

ويقول عز وجل: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ...﴾ سورة فاطر، الآية ١٣.

ويقول سبحانه: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ سورة الزمر، الآية ٥.

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٠٢-٢٠٣.

وهذه الآيات تكشف بوضوح عن قدرة الله تعالى المطلقة في كونه، وقد ربط بوكاي فكرة الأجل المسمى في هذه الآيات بفكرة مستقرّ الشمس في قول الله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ سورة يس، الآية ٣٨. ويؤكّد بوكاي هذه الفكرة قائلًا: «يثبت القرآن للشمس وصفًا تطوّريًّا ومكان الاستقرار، ويحدّد أيضًا للقمر وصفًا، ولا بدّ لكي ندرك ما تعنيه هذه المعلومات من استعراض المعارف الحديثة عن تطوّر النجوم على العموم، والشمس على الخصوص، وعلى سبيل الاستنتاج التشكلات السماويّة التي تتبع حركتها في الفضاء والتي يمثّل القمر جزءًا منها»[1].

ولا شكّ أنّه يستند في ذلك إلى العلماء الإستروفيزيكيّين الذين قدّروا عمر الشمس بأربعة مليارات ونصّ المليار سنة، فهم ينظرون إلى الشمس نظرتهم إلى أيّ نجم يصيبه التطوّر، فالشمس في تطوّر، هذا التطوّر يبدأ في مرحلته الأولى بتحوّل ذرّات الهيدروجين إلى ذرات هيليوم، هذا التحوّل -حسب العلماء- سيستغرق خمسة مليارات ونصف المليار سنة، حيث يعطون عمرًا افتراضيًا إجماليًّا للشمس مقداره عشرة مليارات سنة. ثمّ في مرحلة ثانية يكتمل التحوّل من الهيدروجين إلى الهيليوم، مما يؤدّي إلى برودة الشمس وتمدّد الطبقات الخارجيّة لها، الأمر الذي يؤدّي في مرحلة ثالثة إلى تناقص قوّة إضاءتها تناقصًا كبيرًا مع ارتفاع نسبة الكثافة بها. «وهذا ما نلاحظه في طراز النجوم التي أطلق عليها اسم الأقزام البيض»[2].

والأقزام البيضاء مرّت بسلسلة من التحوّلات؛ إذ يبدأ النجم يتحوّل إلى نجم متغيّر؛ حيث يبدأ في التمدّد والانكماش بشكل دوريّ، وهذا ما سيحدث لنجم كالشمس، ثمّ يصل النجم إلى مرحلة يقذف فيها جزءًا من مادّته أو ما يعرف بالطبقات الخارجيّة مشكّلًا ما يسمّى بالسديم الكوكبيّ[3]. والقلب الساخن للنجم هو الناجي الوحيد في هذه العمليّة، ثمّ يصبح هذا القلب قزمًا أبيض، يبرد خلال

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٠١.

[٢]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٠١.

[٣]- أنظر: مشهور الوردات، الفيزياء الفلكيّة – الجزء الأوّل: النجوم، عالم الكتب الحديث، طبعة ٢٠١٩م، ص١١٠.

مليار عام أو ما يقرب من ذلك[1].

بيد أنّ من اللازم التأكيد على أنّ بوكاي لم تكن لتشغله التواريخ؛ لأنّها في النهاية تواريخ تقريبيّة، وإنّما كان كلّ ما يشغله هو مفهوم التطوّر الذي يصيب نجمًا كالشمس. هو يستند إلى أنّ المعطيات المعاصرة تسمح للعلماء بالتنبّؤ بأنّه بعد بضع المليارات من السنين لن تبقى شروط النظام الشمسيّ كما هي الآن، كما هو الحال بالنسبة للنجوم الأخرى التي سجّل لها العلماء تحوّلات حتى مراحلها النهائيّة، الأمر الذي يوضح ما يمكن أن تؤول إليه الشمس مستقبلًا[2].

ومن ثمّ نفهم لماذا ربط بوكاي بين الأجل المسمّى ومستقرّ الشمس؟ فالمستقرّ الذي ستؤول إليه الشمس هو المستقرّ الذي ستبلغه في نهاية أجلها، وهو الذي قدّره العلماء، ما يعني أنّ أجلها المسمّى هو مستقرّها الذي ستبلغه بعد مرورها بالمراحل الثلاث سابقة الذكر. ومن ثمّ فلا غرو من أن يؤكّد على أنّ «الآية الثانية الواردة هنا سورة ٣٦ آية ٣٨ تذكر الشمس على أنّها تجري لمستقرّ لها، وقد حدّده علم الفلك الحديث تمامًا أعطاه اسم (Apex) الشمس. فالنظام يتحرّك في الواقع في الفضاء نحو نقطة محدّدة في مجموعة نجوم هيرقيل، وبجوار نجم (Vega) التي تمّ الاتفاق عليها، وذلك بسرعة قد حقّقت من قبل، وهي بمعدّل تسعة عشر كيلومترًا في الثانية. كلّ هذه المعطيات الفلكيّة تستحق أن تذكّر بمناسبة هاتين الآيتين من القرآن اللتين يمكننا أن نقول عنهما إنّهما متّفقتان تمامًا مع المعطيات العلميّة الحديثة»[3].

هل كلّ هذا يدلّ على إعجاز علميّ في القرآن؟ لا شكّ في أنّ بوكاي كان يتّخذ من كلّ التوافقات السابقة بين القرآن والعلم منطلقًا بأنّ القرآن يحتوي على إعجاز علميّ لا مثيل له، والحقيقة أنّ ما كشفه بوكاي هنا وما لا يزال يُكتَشف على يد

---

[١]- ناسا بالعربي، ما هي النجوم القزمة البيضاء؟ على الموقع التالي: www.nasainarabic.net

[٢]- للمزيد حول هذه القضيّة انظر: مشهور الوردات، الفيزياء الفلكيّة – الجزء الأوّل: النجوم، ص١١٠؛ أنظر: كذلك: ناسا بالعربي، ما هي النجوم القزمة البيضاء؟ على الموقع التالي: www.nasainarabic.net

[٣]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٠١-٢٠٢.

علماء عصرنا يدلّ دلالة واضحة على هذا الإعجاز. ومن ثمّ فقد كان احتفاء بوكاي به وإبرازه والتأكيد عليه مبرّرًا. وآخر ما أبرزه بوكاي وأكّد عليه من إعجاز علميّ في السماء هو قضيّة غزو الفضاء.

ويمكن القول ونحن بصدد هذه القضيّة إنّ القرآن ذكر آيتين تتعلّقان بهذا الأمر الجلل، هما:

قول الله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ سورة الرحمن، الآية ٣٣.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاء فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ سورة الحجر، الآية ١٤-١٥.

فالآية الأولى تشير إلى إمكانيّة صعود الإنسان إلى السماء -فضلًا عن النفاذ إلى أعماق الأرض-، ولكن بقدر محدود لا يمكن تجاوزه، ربما بسلطان العلم الذي منحه الله تعالى للعلماء[1]. والآية الثانية تشير إلى ما ينتاب الذي يعرج إلى السماء -إنْ قُدّر له العروج- من حال أقرب إلى حال السكر أو السحر. ويقول بوكاي معلِّقًا على هاتين الآيتين: «في القرآن ثلاث آيات تستحقّ أن تجتذب كلّ الانتباه من وجهة النظر هذه، تذكر أحدهما دونما لبس ما يمكن أن يفعله الناس في هذا المضمار وسيفعلونه، أمّا الأخريان فيذكر الله فيهما لكفّار مكّة الدهشة التي ستصيبهم إذا عرجوا في السماء، مشيرًا بهذا إلى فرضيّة يستحيل عليهم تحقيقها»[2].

وقد وقف بوكاي عند الآية الأولى محدِّدًا ثلاثة أمور هي:

الأولى: أنّ الآية تحدث عن وجود إمكانيّة للصعود إلى السماء[3].

---

[١]- أنظر: منصور محمّد حسب النبي، المعارف الكونيّة بين العلم والقرآن، دار المعارف للطباعة النشر، ٢٠٠٣م، ص٢٣٤؛ أنظر: زغلول النجار، من آيات الإعجاز العلميّ.. الأرض في القرآن، ص٣٤٢.

[٢]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٠٣.

[٣]- أنظر: منصور محمّد حسب النبي، المعارف الكونيّة بين العلم والقرآن، ص٢٣٤.

الثانية: أنّ الله تعالى يخاطب الجن والإنس على حدّ سواء، ولا يخاطب صورًا رمزيّة أساسًا[1].

الثالثة: أنّ الفعل نَفَذَ الملحق بحرف الجرّ من يعني -حسب معجم كازيميرسكي- الدخول في جسم والتجاوز فيه من جهة إلى أخرى، ثمّ الخروج من الطرف الآخر، فهو يذكر النفوذ العميق والخروج من طرف آخر للجهات المعيّنة[2].

بوكاي كان مدركًا أنّ ذلك إنْ تحقّق فإنّما يتحقّق بقدرة الله تعالى ومشيئته، لكنّه فهم النفوذ هنا بمعنى الانطلاق إلى خارج الغلاف الجويّ والصعود إلى القمر وبعض الكواكب كالمريخ، لكنّ بوكاي لم يكن يدرك أنّ القرآن يتحدّث عن أقطار السماوات والأرض، والقطر كما هو معلوم رياضيًّا الخطّ الواصل بين طرفين مرورًا بالمركز، وإذا تخيّلنا أنّ هناك خطًّا واصلًا بين قطر ما على نقطة ما من أقطار السماء، فكم تبلغ مسافته ومساحته؟! لا شكّ في أنّ الأمر سيفوق قدرة البشر على التخيّل، فالقطر الأكبر لمجرّة درب التبّانة -وهي مجرّة واحدة من ملايين المجرّات كما أكّد العلماء- يساوي ١٠٠ ألف سنة ضوئيّة، والسنة الضوئيّة تساوي ٩,٥ مليون مليون كيلومتر تقريبًا، أمّا قطرها الأصغر فيساوي ١٠ آلاف سنة ضوئيّة، هذا يعني أنّ الإنسان يحتاج إلى عشرات الآلاف من السنين لكي يصل إلى أقطار المجرّة من ناحية القطر الأصغر، بل يحتاج إلى مئات الآلاف من السنين للوصول إلى أقطار المجرّة من ناحية القطر الأكبر، فسبحان الله تعالى!!

ومن ثمّ نفهم أنّ فهم بوكاي لمعنى الأقطار كان محدودًا وضيّقًا، ومحصورًا في إطار الخروج من الغلاف الجويّ إلى بداية السماء الدنيا، في حين أنّ مفهوم الأقطار على المعنى الرياضيّ للكلمة ينطلق بنا إلى آفاق أوسع مما تحدّث فيها بوكاي بمراحل، وهنا تكمن استحالة حدوث النفوذ منها؛ لأنّ ذلك فوق مستوى القدرة البشريّة.

---

[١]- أنظر: زغلول النجار، من آيات الإعجاز العلميّ.. الأرض في القرآن، ص٣٤٤.

[٢]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٠٣.

إنّ أبعاد الجزء المدرك من السماء الدنيا تبلغ من الضخامة ما لا يمكن أن تطويها قدرات كلٍّ من الإنس والجنّ، مما يشعر كلًّا منهما بضآلته أمام أبعاد الكون، وبعجزه التامّ عن مجرّد التفكير في الهروب منه، أو النفاذ إلى المجهول من بعده..! فمجرّتنا - سكّة التبّانة- يقدّر قطرها الأكبر بمئة ألف سنة ضوئيّة ١٠٠,٠٠٠×٩,٥ مليون مليون كيلومتر تقريبًا، ويقدّر قطرها الأصغر بعشرة آلاف سنة ضوئيّة ١٠,٠٠٠×٩,٥ مليون مليون كيلومتر تقريبًا[1]. وهذا يعني أنّ لكي يتمكّن الإنسان من الخروج من مجرّتنا عبر قطرها الأصغر، فسيحتاج إلى وسيلة تحرّكه بسرعة الضوء ليستخدمها في حركة مستمرّة لمدّة تصل إلى عشرة آلاف سنة من سنيننا، وبطاقة انفلاتٍ خياليّة لتخرجه من نطاق جاذبيّة الأجرام التي يمرّ بها من مكوّنات تلك المجرّة[2].

إنّ هذه كلّها من المستحيلات بالنسبة للإنسان الذي لا يتجاوز عمره في المتوسط خمسين سنة، ولم تتجاوز حركته في السماء ثانية ضوئيّة واحدة وربع الثانية فقط، وهي المسافة بين الأرض والقمر، على الرغم من التقدّم التقنيّ المذهل الذي حقّقه في ريادة السماء، ومجموعتنا الشمسيّة تقع من مجرّتنا على بعد ثلاثين ألفًا من السنين الضوئيّة من مركزها، وعشرين ألفًا من السنين الضوئيّة من أقرب أطرافها[3].

هذا فيما يتعلّق بالآية الأولى، أمّا ما يتعلّق بالآية الثانية ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾، فهي عند بوكاي تعبير عن الاندهاش من مشهد غير منتظَر مخالف لما كان يمكن للإنسان أن يتصوّره، وقد استند إلى الحرف لو -وهو حرف امتناع لامتناع- في استحالة تحقيق المطلوب من المخاطبين[4].

ومن ثمّ نفهم أنّه كان يدرك جيّدًا أنّنا أمام آيات من القرآن بعضها يشير إلى إمكانيّة الصعود إلى السماء مكتشفًا بعض أسرارها القريبة، بما يملكه الإنسان من

[١]- أنظر: زغلول النجار، أقطار السماوات والأرض، على الرابط التالي: http://iswy.co/e4or3

[٢]- أنظر: زغلول النجار، أقطار السماوات والأرض، على الرابط التالي: http://iswy.co/e4or3

[٣]- أنظر: زغلول النجار، أقطار السماوات والأرض، على الرابط التالي: http://iswy.co/e4or3

[٤]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٠٤.

أدوات وُفّق إليها بتوفيق من الله تعالى، والجزء الآخر يجزم بأنّ كفّار مكّة لن يفتح الله لهم بابًا من السماء، «لأنّ مفهوم الشرط هنا هو لما لا يتحقّق قريبًا، وإن كان سيراه آخرون كما تسوّغ الآية الأولى افتراضه. وتصف ردود الفعل الإنسانيّة أمام المشهد المفاجئ الذي سيواجه المسافرين في الفضاء؛ أبصار مضطربة مسكرة، وشعور بأنّهم مسحورون»[1].

ولعلّ رواد الفضاء في أوّل رحلة طيران حول كوكب الأرض في عام ١٩٦١م قد عايشوا تلك التجربة التي أصابتهم بالدهشة، خاصّة عندما اكتشفوا أنّ السماء -التي تبدو لنا في صورة زرقاء- سوداء[2]، فالناظر من الفضاء خارج كوكب الأرض يجد سوادًا حالكًا، فأدركوا أنّ هذه الزرقة ليست شيئًا أكثر من امتصاص ضوء الشمس من طبقات الجو[3]، وأنّ اللون الأزرق الذي يحيط بالأرض للناظر من الفضاء ليجد الأمر ذاته، فضلًا عن القمر الذي وجدوه مظلمًا في حقيقته، في حين يبدو للرائي من داخل الأرض أنّه منير. كلّ هذه حقائق مدهشة تكشّفت لرواد الفضاء الأوائل، وكانت مصدر اندهاشهم، لكنّها صارت بالنسبة لنا أمورًا عاديّة. وأمام ذلك لم يجد بوكاي مفرًّا من التساؤل: «كيف لا نجد أنفسنا هنا أيضًا عند مقابلة نصّ القرآن مع المنجزات الحديثة، متأثّرين بهذه التحقيقات التي لا يمكننا أن نفترض ظهورها في فكر إنسان عاش منذ أربعة عشر قرنًا»[4].

ثالثًا: القرآن وعلوم الأرض

لا شكّ أنّ لفظ الأرض تكرّر ذكره كثيرًا في القرآن الكريم[5]، فقد ورد في ٤٥٨ مرّة، كلّها جاءت في صورة المفرد، ولم تأتِ في صورة الجمع مطلقًا، وقد تعدّدت

---

[١]- م.ن، ص٢٠٤.

[٢]- أنظر: للمزيد: أحمد شوقي إبراهيم، موسوعة الإعجاز العلميّ في الحديث النبويّ، القاهرة، مكتبة نهضة مصر الطبعة الثانية، ٢٠٠٥م، ج ٤، ص٤٣؛ أنظر: زغلول النجار، من آيات الإعجاز العلميّ.. السماء في القرآن الكريم، ١١٠.

[٣]- أنظر: زغلول النجار، المرجع السابق، ص٤١٥. وانظر: منصور محمّد حسب النبي، المعارف الكونيّة بين العلم والقرآن، ص٢٧٠.

[٤]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٠٥.

[٥]- انظر: محمّد مسيح عافية، القرآن وعلوم الأرض، الزهراء للإعلام العربيّ الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، ص٥٣.

معاني اللفظ في مواضع كثيرة، فجاءت بمعنى الجنّة، مكّة، المدينة، الشام، مصر، والأراضين السبع، كما أنّ لها معانيَ أخرى تُفهم من سياق الآيات. كان المستشرق موريس بوكاي مهتمًّا بدراسة الآيات التي ذكرت الأرض في شقّها العلميّ، فقد كان مدركًا أنّ ثمّة مجموعة من الآيات ذات اتجاه عامّ قوامه التفكير في قدرة الله تعالى في خلقه في مواضيع مختلفة، لكن بوكاي استند إلى مجموعة أخرى من الآيات ذات الخصوصيّة العلميّة، وهي: دور المياه والبحار، الأرض، الجو الأرضيّ.

على الرغم من أنّ الآيات القرآنيّة التي تذكر الأرض كانت تعبّر عن سياق القدرة الإلهيّة وعناية الله تعالى بخلقه، إلّا أنّها في الوقت ذاته كان تتضمّن عددًا من الإشارات العلميّة التي أثبتها العلم الحديث، ولا زالت تتكشّف حقائقها العلميّة يومًا بعد يوم. وهذا الأمر أدركه موريس بوكاي، الذي عمد إلى البحث في مضمون الآيات لاستخلاص ما يمكن استخلاصه من إشاراتها العلميّة؛ إذ «في نفس الوقت الذي تقدّم فيه هذه الآيات أدلّة تسوق الناس للتأمّل في آلاء الله تجاه مخلوقاته، تتابع هنا وهناك طرح تأكيدات يهمّ مواجهتها مع منجزات العلم الحديث. ولعلّها أيضًا من وجهة النظر هذه أكثر نفعًا؛ لأنّها لا تعبّر عن كلّ أنواع المعتقدات الخاصّة ببعض الظواهر الطبيعيّة التي كانت مقبولة بين أبناء عصر الوحي القرآنيّ، وأظهرت المعرفة العلميّة فيما بعد خطأها»[1].

إذن هو كان يستكشف في هذه الآيات ما يخدم مشروعه وهدفه الرئيس وهو إثبات التوافق الكبير بين الإشارات العلميّة في القرآن والعلم الحديث، لقد كان يدرك أنّ هذه الآيات تعبّر عن أفكار بسيطة سهلة الفهم لأولئك النفر الذين كان القرآن يخاطبهم في محيطه الجغرافيّ، بيد أنّه كان يدرك جيّدًا أنّ ثمّة جانبًا آخر فيها يتيح للجميع بتأمّله أن يخرج منها باجتهاده وتفكيره بأفكار جديدة، خاصّة في شقّها العلميّ، وهذا كان أحد الأدلّة عند بوكاي على عالميّة القرآن.

ومن الآيات التي تذكر كلمة الأرض وتحتوي على إشارات ولمحات علميّة:

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٠٩.

قول الله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ سورة البقرة، الآية ٢٢.

وقول سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ سورة البقرة، الآية ١٦٤.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿هُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ سورة الرعد، الآية ٣.

وقوله جلّ شأنه: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ سورة الحجر، الآيات ١٩-٢١.

وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ سورة طه، الآيتان ٥٣-٥٤.

وقوله: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سورة النمل، الآية ٦١.

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ سورة الملك، الآية ١٥.

وقوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ سورة النازعات، الآيات ٣٠-٣٣.

تعبّر هذه الآيات عن قدرة الله تعالى في خلق الكون وجعلها مستقرّة تتوافر فيها كلّ سبل الحياة؛ تلبية لمطالب الإنسان الذي جعله الله تعالى خليفة في هذا الكون الفسيح، فالأرض ممهّدة مسخّرة للعيش والحياة وطلب الرزق، وأمدّ الله تعالى الإنسان فيها بالماء والمرعى والثمار، كمتاع الإنسان والحيوان، ووضع فيها الجبال للحفاظ على استقرار الأرض وعدم اضطرابها[1].

وقد وقف القرآن كثيرًا عند الماء باعتباره مصدر الحياة على الأرض، وهو سبب وجودها[2]، فالذي يميّز الأرض عن غيرها ويجعل فيها حياةً تدبّ إنمّا هو الماء، «ولكن ذكر القرآن له يتجاوز هذه الخاصّيّة الجغرافيّة إلى إبراز الأرض التي هي الكوكب الغنيّ بالماء، والوحيد في مجموعة النظام الشمسيّ حسب معطيات المعارف الحديثة الأحسن ثبوتًا، ولولا الماء لكانت الأرض نجمًا ميتًا كالقمر؛ ولذا فإنّ القرآن يعطيه المكانة الأولى في عرض ظواهر الأرض الطبيعيّة ويصف دوره بدقّة مشهورة»[3].

وهذا يفسّر لنا لماذا يؤكّد القرآن على ذكر الماء في مواضع كثيرة، فالماء ذكر ٦٣ مرّة، كما أنّ هناك ثلاثة وعشرين نوعًا من الماء ذُكرت في القرآن الماء المعين والماء الصديد والماء الأجاج وغيرها. وهذا كلّه إن دلّ فإنّما يدلّ على عظمة الباري تعالى.

ومن الآيات التي تتحدّث عن الماء:

قول الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ سورة المؤمنون، الآية ١٨٠.

ويقول أيضًا: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ سورة الحجر، الآية ٢٢.

[١]- أنظر: التفسير العلميّ لآية ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانه وغرابيب سود، وآية وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين زغلول النجار، من آيات الإعجاز العلميّ.. الأرض في القرآن الكريم، ص٣١٩، ٣٦٥.

[٢]- أنظر: زغلول النجار، من آيات الإعجاز العلميّ.. الأرض في القرآن الكريم، ص١٣١، ٤٦٩.

[٣]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢١١.

ويقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ سورة السجدة الآية ٢٧.

ويقول: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ سورة فصلت، الآية ٣٩.

وهناك العديد من الآيات التي تبيّن أهمّيّة الماء للحياة:

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ سورة الأنفال، الآية ١١.

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ سورة البقرة، الآية ٢٢.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ سورة النحل، الآية ١٠.

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ سورة الكهف، الآية ٤٥.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ سورة المؤمنون، الآية ١٨.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ سورة لقمان، الآية ١٠.

﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ سورة البقرة، الآية ١٦٤.

﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ سورة النساء، الآية ٤٣ .

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ سورة الأنعام، الآية ٩٩.

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ سورة الأنفال، الآية ١١.

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ سورة الرعد، الآية ١٧.

﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾ سورة ابراهيم، الآية ١٦.

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ سورة ابراهيم، الآية ٣٢.

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ سورة الحجر، الآية ٢٢.

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ سورة العنكبوت، الآية ٦٣.

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ سورة النمل، الآية ٦٠.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ سورة القصص، الآية ٢٣.

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ سورة الروم، الآية ٢٤.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ سورة لقمان، الآية ١٠.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ سورة فاطر، الآية ٢٧.

كلّ هذه الآيات تؤكّد على أهمّيّة الماء في هذه الحياة، وعلى قدرة الله تعالى ورعايته وعنايته بخلقه[1]؛ إذ لولا الماء لهلك كلّ شيء من إنسان وحيوان وزرع[2]، ومن ثمّ فقد جعله الله تعالى أساس الحياة. وعلى الرغم من أنّ هذه الآيات تقدّم أفكارًا واضحة عن الماء وأهمّيّته وفوائده وقدرة الله تعالى في خلقه، إلّا أنّها تحتوي عند بوكاي وعند دارسي الإعجاز العلميّ في القرآن على إشارات علميّة لا نجد لها نظيرًا في كتاب آخر في توافق عجيب بين القرآن والعلم الحديث.

وقد حاول بوكاي هنا أن يقف عند قضيّة الماء بين القرآن والأفكار القديمة قبل

[١]- أنظر: هشام طالب، بناء الكون ومصير الإنسان، بيروت – لبنان، دار المعرفة، الأولى، ٢٠٠٦م، ص٤٠٤.

[٢]- أنظر: فتحي عبد العزيز العبادسة، الماء في القرآن الكريم، رسالة ماجستير بكلّيّة أصول الدين – الجامعة الإسلاميّة، غزّة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م، ص٨-٩.

الميلاد أو بعده، والتي تتعلّق بمصدر الماء وفوائده، يقول: «تبدو الآيات القرآنيّة المتعلّقة بدور المياه في حياة الإنسان -لدى قراءة بعضها تلو البعض الآخر في هذه الأيام- معبّرة عن أفكار واضحة جدًّا، وذلك ببساطة لأنّنا أصبحنا في عصرنا نعرف مع زيادة أو نقص في الدقّة والتحقيق ماهيّة دور المياه في الطبيعة»[1].

في حين كانت المفاهيم القديمة في موضوع المياه قبل الإسلام مفاهيم مغلوطة عند بوكاي، ارتبطت بفهم وثنيّ شائع، والقرآن ليس في معطياته ما يدعم هذه المفاهيم الخاطئة؛ لأنّ النظرة الفلسفيّة كانت شائعة في هذه المفاهيم أكثر من شيوع التجربة والملاحظة، «ولئن كانوا قد نجحوا في الماضي تجريبيًّا بالحصول على معارف علميّة نافعة في مستوى محدود لتحسين ريّ الأراضي، فقد كان لهم بالمقابل في دور المياه على العموم أفكار قليلة القبول في هذه الأيّام»[2].

بل إنّ بوكاي انتقد كلّ تلك الآراء القديمة، خاصّة في تصوّرها لمصدريّة المياه الجوفيّة التي زعمت أنّها نتيجة اندفاعات في باطن الأرض، وقد ظهرت هذه الآراء قبل الميلاد وتبنّتها بعض العقول، وهذه الفكرة مما عدّها بوكاي فكرة خاطئة؛ لأنّها لا تنطلق من أساس علميّ تجريبيّ، وإنّما من أساس فلسفيّ نظريّ لم يرقَ إلى مستوى الملاحظة حتّى[3].

كما انتقد النظريّة القائمة على دفع مياه المحيط وسقوطها بفعل الرياح على الأراضي إلى داخل القارات، ثمّ تسرّبها في التربة، كما انتقد أفلاطون الذي أيّد هذه النظريّة، بل لقد انتقده في الزيادة التي قال بها، والتي تنحصر في أنّ هذه المياه تعود إلى المحيط من خلال هوّة كبيرة أسماها التتار، بل انتقد ديكارت في تمّسكه بهذه النظريّة أيضًا[4].

كما انتقد أرسطو في تمّسكه بالافتراض القائم على أساس أنّ بخار ماء الأرض

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢١١.

[٢]- م.ن، ص٢١١.

[٣]- م.ن، ص٢١١-٢١٢.

[٤]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢١٢.

يتكثّف في فجوات باردة من الجبال، ويكوّن البحيرات الجوفيّة التي تغذّي الينابيع، وتبعه في ذلك العديد من المؤيّدين قديمًا وحديثًا. لكن تاريخ أوّل فكرة واضحة عن المياه من وجهة نظر بوكاي تعود إلى برنارد باليسي في عام ١٥٨٠م الذي أثبت أنّ المياه الجوفيّة تتأتّى من تسريبات مياه المطر في التربة[1].

فكلّ الأفكار الخاطئة حول قضيّة المياه والتي ظهرت قبل الإسلام بمئات السنين والتي كانت شائعة في عصره لم يكن لها أيّ تأثير في القرآن؛ إذ لم يتردّد صداها فيه، كيف وهو كتاب من لدن ربّ العالمين؟ هذه الحقيقة أدركها بوكاي للوهلة الأولى، بل وجد للنظريّة القائلة بأنّ المياه الجوفيّة تأتي من مياه المطر أصلًا في القرآن الكريم، وهو يستند في ذلك إلى عدد من الآيات منها:

قول الله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ سورة الرعد، الآية ١٧.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ سورة يس، الآية ٣٤.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ سورة الزمر، الآية ٢١.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ سورة الملك، الآية ٣٠.

فالرافد الرئيس والوحيد لينابيع المياه الجوفيّة هو مياه المطر السالك إليها[2]، فالله تعالى أدخل ماء المطر في الأرض وجعله ينابيعَ، أي عيونًا في الأرض تنبع[3]،

[١]- م.ن، ص٢١٢.

[٢]- أنظر: فتحي عبد العزيز العبادسة، الماء في القرآن الكريم، ص٩٧.

[٣]- أنظر: السمرقندي، بحر العلوم، ٣/ ١٤٨.

بمعنى أنّه صار تحتها ينبع منها[1]، ويكون في باطنها شرايين تتجمّع[2]، وهذه حقيقة علميّة انتهى إليها العلم الحديث[3]، ويؤكّدها القرآن الكريم في الآيات السابقة، في انتصار حقيقيّ على تلك الأفكار الخاطئة التي كانت شائعة قديمًا، وظلّت تتردّد في العصور الوسطى وما بعدها بقليل، وفي تأكيد واضح على أنّ القرآن والعلم يتوافقان.

وقد وقف بوكاي في قضيّة المياه على حقيقتين:

الأولى: قدرة الله المطلقة في إنزال المطر.

الثانية: توافق مراحل تكوّن المطر في القرآن مع العلم الحديث.

فالله تعالى يقول: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ سورة الواقعة، الآيات ٦٨-٧٠.

ويقول أيضًا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ سورة النور، الآية ٤٣.

فهاتان الآيتان -فضلًا عن آيات أخرى يزخر بها القرآن- اتّخذ منهما منطلقًا إلى بيان قدرة الله تعالى في التحكّم في المياه وإنزال المطر. بل إنّ بوكاي قد انبهر بذلك الأسلوب القرآنيّ في الآية الأولى في التعبير عن شيئين: تحويل الماء السائغ شرابه إلى ماء أجاج، والتحدّي الإلهيّ للإنسان بأن ينزل المطر من السماء. «وإذا كان يُشتمّ من الأسلوب الأوّل بعض الوعيد، أليس في الثاني كلّ الوعيد للعصر الحديث، حيث تمكّنت تقنيته العلميّة من انتزاع المطر صناعيًّا؟ فهل تتعارض هذه القدرات البشريّة في إنزال المياه مع تأكيدات القرآن؟ لا نظنّه كذلك؛ لأنّه يبدو لنا أنّه ينبغي

[١]- أنظر: الجزائري، أيسر التفاسير، ٤/ ٤٧٨.

[٢]- أنظر: عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآنّي للقرآن، ٢٣/ ١١٤١.

[٣]- أنظر: الموسوعة العربية الميسرة السعودية، مكتبة الملك فهد الوطنية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، المجلد الرابع والعشرين، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، ص٥٠٤-٥٠٥.

أن يؤخذ بالاعتبار حدود إمكانيّات الإنسان في هذا المضمار»[1].

وقد استشهد بوكاي على ذلك بالموسوعة العالميّة في مادّتها عن إنزال المياه التي كتبها المهندس م. أ فاسي، والتي ورد فيها: «لا يمكن مطلقًا إنزال المياه من السحاب الذي ليست له خصائص السحاب المطير أو السحاب الذي لم يتوصّل بعد إلى مستوى من النضوج المناسب»[2]. وهذا ما أكّده أحد الباحثين الذي انتهى إلى أنّ السحب المطيرة بطبيعتها هي أكثر السحب قابليّة للاستمطار كما في سحب الركام البرجيّ والركام المتجمّع[3].

ومن ثمّ فإنّ الإنسان لا يستطيع أن يخلق مطرًا، ولا أن يصنع سحابًا لإنزال المطر ولو استخدم ما يمتلكه وما سوف يمتلكه من تقنيات علميّة وأدوات تكنولوجيّة، وكلّ ما في وسعه هنا هو التعجيل بإنزال المطر من السحاب الذي وصل مرحلة النضوج[4]، والذي توافرت فيه الشروط الطبيعيّة لإنزاله بفعل ربّ العالمين[5].

وإذا كان الأمر بخلاف ذلك فإنّ الجفاف لا يوجد عمليًّا، وهذا غير وارد البتة عند موريس بوكاي، الذي وصف ذلك بالحلم لا الواقع، كما أنّ فرضية أنّ الإنسان سيبقى سيّد المطر وعدمه من باب الأحلام أيضًا عنده؛ معلّلًا بأنّ الإنسان لا يستطيع أن يخرق النظام المثبت الذي يؤكّد جريان المياه في الطبيعة[6].

أمّا الآية الثانية، فتتحدث عن مراحل تكوّن المطر، وما ورد في الآية هو ما انتهى إليه العلم الحديث في تكوّن المطر، فأشعّة الشمس تسقط على البحار والمحيطات والمياه على الأرض والمزروعات فتتبخّر، فيرتفع البخار في الجوّ، ويتعلّق بالغبار

---

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢١٥.

[٢]- م.ن، ص٢١٢.

[٣]- محمّد سعيد حميد، الاستمطار، صنعاء، ٢٠٠٥م، ص٦٩.

[٤]- للمزيد انظر: ياسين محمّد الغادي، الاستمطار في الإسلام، جامعة الكويت، مجلة الشريعة والدراسات الإسلاميّة، ١٤٢٣هـ ص٧.

[٥]- أنظر: هيفاء محمّد عبد الزيدي، الاستمطار الصناعي للسحب وفق المنظور الشرعي، مجلة الأستاذ للعلوم الاجتماعية والإنسانية، ٢٠١٠، العدد ١٢٥، ص٢٨-٢٩.

[٦]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢١٥.

والأتربة الصاعدة، مكوّنًا السحاب، ثمّ تهبّ الرياح فتسقطه مطرًا، وتعاد الدورة من جديد بصورة متواصلة. لكنّ البخار قد يتلاشى في رحلة صعوده إلى الجوّ فلا ينزل مطرًا، كما أنّه قد يتجزّأ فيسقط مطرًا في بعض المناطق، وقد ينضمّ إلى تكثّف أكبر.

هذا المطر ينتهي دوره سريعًا بسقوطه على البحار والأنهار والمحيطات، أمّا عندما يسقط على الأرض، فإنّ المزروعات تمتصّ بعضه، فيكون سببًا في نمائها، وعن طريق عمليّة التنفس تعيد هذه المزروعات جزءًا منه إلى الجوّ مرّة أخرى، في حين يتسرّب جزء كبير منه متّجهًا من خلال الأرض إلى المحيطات في مجارٍ مائيّة، أو أن يسلك طريقه في الأرض نحو الينابيع الخاصّة بالمياه الجوفيّة. ومن ثمّ يقول بوكاي: «فلنقارن هذه المعطيات الحديثة في علم المياه مع تلك التي تقدّمها لنا الآيات العديدة من القرآن في هذه الفقرة، وسنشعر حتمًا بوجود اتفاق ملحوظ بين الاثنين»[1].

هذا عن المياه التي مصدرها المطر، ولكن ماذا عن البحار؟ لا شكّ في أنّ بوكاي كان ينظر لقضيّة البحار وما يتعلّق بها في القرآن على أنها تسير في الدرب نفسه الذي سارت فيه قضيّة المياه عامّة وأهمّها المطر من حيث التوافق مع معطيات العلم الحديث، فلئن كان يظهر دهشته من الآيات القرآنيّة التي تقدّم مادّة توافق مع هذه المعطيات فيما يتعلّق بموضوع المياه، فإنّه يظهر هذه الدهشة وربما بصورة أكبر تجاه الآيات التي تتناول قضيّة البحار؛ إذ ليس فيها ما يتعارض مع العلم في أيّ تفصيل، وهذا ما انتبه إليه بوكاي جيّدًا، فضلًا عن انتباهه إلى أنّها لا تحوي عقائد وثنيّة أو خرافات أسطوريّة، إضافة إلى ارتباط الحديث عن البحار في القرآن بالقدرة الإلهيّة.

والقرآن زاخر بالآيات التي تتناول البحار وما يتعلّق بها من فلك وغيرها، ومن الآيات التي وردت في البحار:

---

[1]- م.ن، ص٢١٦.

قول الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ سورة إبراهيم، الآية ٣٢.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ سورة النحل، الآية ١٤.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ سورة لقمان، الآية ٣١.

وقوله سبحانه: ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ سورة يس، الآيات ٤١-٤٤.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ سورة الرحمن، الآية ٢٤.

وتبيّن الآيات بوضوح أهمّيّة البحر أو البحار[1]، سواء أكان في مجال الطعام أو في مجال التنقّل، أو في الاستفادة منه في لبس الحليّ، أو في مجال -وهذا هو الأعظم- التدليل على القدرة الإلهيّة التي لا تعادلها قدرة أخرى. وهذه الآيات تقدّم لنا معلومات في هذا المجال لا تتعارض مطلقًا مع أيّ معارف علميّة حديثة، وليس فيها أي خطأ على الإطلاق. ومن ثمّ فقد كانت قضيّة البحار منطلقًا رئيسًا عند بوكاي للتدليل على أنّ القرآن والعلم صنوان لا يفترقان، وتوأمان لا ينفصلان.

وتوجد ظاهرة علميّة أخرى مرتبطة بقضيّة البحار، تبرز في قول الله تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾ سورة الفرقان، الآية ٥٣.

---

[١]- انظر: في هذه القضيّة زغلول النجار، الأرض في القرآن، ص١٣٤، ١٣٨.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ سورة فاطر، الآية ١٢.

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ سورة الرحمن، الآيات ١٩-٢١.

هذه الظاهرة هي ظاهرة البرزخ، وهي ظاهرة تنشأ عند التقاء مياه البحار المالحة بمياه الأنهار العذبة، وهذه الظاهرة يتحدّث عنها القرآن بكلّ دقّة في إيجاز بليغ. وقد وقف بوكاي عند هذه الظاهر القرآنيّة مؤكّدًا على اتفاقها مع معطيات العلم الحديث، وعلى الرغم من أنّه أشار إلى أنّ القرآن يبيّن أنّ في البحار أسماكًا وحُليًّا كاللؤلؤ والمرجان، فإنّ ظاهرة البرزخ وقف عندها كثيرًا باعتبارها مظهرًا من مظاهر الإعجاز العلميّ في القرآن. وهو هنا لم يخصّص الظاهرة على نهري دجلة والفرات في التقائهما بشط العرب -وهما ممّا لم ينصّ عليهما في الآيات وإن كان يعتبرهما هما المقصودان بناء على أقوال البعض- وإنّما نظر للموضوع في ضوء التعميم، فاعتبرها ظاهرة موجودة دومًا عند التقاء مصبّ نهر ببحر في أيٍّ من أنحاء العالم، وهو القول الصواب.

ومن الظواهر القرآنيّة التي وقف عندها بوكاي ظاهرة الجبال، والجبال صورة من صور النتوء الأرضيّ التي حدثت في الأرض منذ ملايين السنين[1]. لكن بالنظر إلى تركيب الأرض نجد أنّها حسب العلماء مكوّنة من عدة طبقات. «إنّ تركيب الأرض معقّد، يمكننا اليوم بصعوبة تصوّرها كما لو كانت مكوّنة من طبقة عميقة؛ حيث تسيطر فيها حرارات مرتفعة جدًّا، وبخاصة مع قسم مركزيّ تذوب فيه الصخور، وطبقة سطحيّة تمثّل القشرة الأرضيّة التي هي يابسة وباردة ورقيقة جدًا بسماكة بعض الكيلومترات أحيانًا أو بعض عشرات الكيلومترات في أعظم سماكة لها. في الوقت الذي يزيد فيه نصف قطر الأرض قليلًا عن ستة آلاف كيلو متر، بمعنى أنّ

[١]- أنظر: في تعريف الجبال وغلول النجار، المفهوم العلميّ للجبال في القرآن، القاهرة، مكتبة الشروق الدوليّة، الطبعة العاشرة، ٢٠٠٨م، ص٢٦-٢٩.

سماكة القشرة الأرضيّة لا تعادل واحد في المئة من نصف قطر الأرض»[1].

وهذا يدلّ على عظمة صنع الخالق سبحانه وتعالى[2]، وأنّه مثلما كانت قدرة الله تعالى ظاهرة في خلق السماء، فإنّ قدرته ظاهرة أيضًا في خلق الأرض. والعلماء عاجزون عن الإحاطة بهذه الظواهر العظيمة، إلّا بمقدار يسير لا يمثّل شيئًا من عظمة هذه الظواهر، خاصّة إن علمنا أنّنا لا نعلم من الأرض إلّا سطحها الذي نعيش عليه كجزء أوّل من القشرة الأرضيّة التي يبلغ سمكها العشرات من الكيلومترات. وقد حدّد العلماء في مجال علم الجيولوجيا أنّ هناك عوامل أدّت إلى انفصال القشرة الأرضيّة مكوّنةً الجبال[3].

وينظر بوكاي إلى أنّ تاريخ تكوّن البحار والأرض على سطح الكرة ثمرة بحث جديد لم يكتمل بعد، حتى إذا كنا بصدد الفترات الزمنيّة الأقلّ قدمًا والأفضل معرفة، «ويرجّح بأنّ ظهور المحيطات التي تؤلِّف المحيط المائيّ للكرة يعود إلى نصف مليار من السنين تقريبًا، فقد كانت القارّات تكوّن مجموعة واحدة في آخر العصر الأوّل، ثمّ تفرّقت، على أنّ بعض القارات أو أجزاء منها حصلت بفعل عمليّة تشكّل الجبال في منطقة المحيط، كحال اليابسة في شمال الأطلنطي وجزء من أوروبا»[4].

فالجبال إذن جزء رئيس من تشكّل الأرض والتي تعمل على التوازن بين البحار والقارات، علمًا بأّن سلاسل الجبال مرّت بالعديد من المراحل التطوّريّة التي كانت تعتري تشكّل سطح الأرض في مساحات زمنيّة بالملايين من السنين في سبيل تكوّن البحار والمحيطات والقارّات.

---

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢١٧-٢١٨.

[٢]- أنظر: عمار أمين محمّد الددو، دلالة كلمة الجبال في القرآن دراسة بيانية، مجلة البحوث والدراسات الإسلاميّة، العدد ٦١، ص٢٠٩. وانظر: في تعريف الجبال وغلول النجار، المفهوم العلميّ للجبال في القرآن، ص٢٦-٢٩.

[٣]- أنظر: حول هذه العوامل مروان وحيد، الإعجاز القرآنّي في ضوء الاكتشاف العلميّ الحديث، ص٣٤٨. وانظر: زغلول النجار، من آيات الإعجاز العلميّ في القرآن.. الأرض في القرآن الكريم، ص٢٥٢-٢٥٥.

[٤]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢١٨.

ومن ثمّ فإنّ أبرز النتوءات في القشرة الأرضيّة الجبال، وقد وردت الجبال كعلامة على قدرة الله تعالى في العديد من الآيات في القرآن الكريم، منها قول الله تعالى[1]:

﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ سورة الأعراف، الآية ٧٤.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ﴾ سورة الرعد، الآية ٣١.

﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ سورة إبراهيم، الآية ٤٦.

﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ سورة الحجر، الآية ٨٢.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ سورة النحل، الآية ٦٨.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ سورة النحل، الآية ٨١.

﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ سورة الإسراء، الآية ٣٧.

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ سورة الكهف، الآية ٤٧.

﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ سورة مريم، الآية ٩٠.

وقد وقف بوكاي على بعض هذه الآيات لا كلّها، منتهيًا إلى نتيجة مؤدّاها: إنّ النتوء الأرضيّ في القرآن لا يذكر إلّا في الجبال، كما يقرّ بأنّ ما لديه في هذا الموضوع

[١]- ومنها: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ (طه، ١٠٥)، ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ (الأنبياء، ٧٩). ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ (الشعراء، ١٤٩)، ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ (النمل، ٨٨). ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ (فاطر، ٢٧)، ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ (ص، ١٨). ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ (الطور، ١٠)، ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾، (الواقعة، ٥)، ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ (المعارج، الآية ٩) ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾ (المزمل، ١٤)، ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ (المرسلات، ١٠)، ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ (النبإ، ٢٠)، ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ ﴿التكوير، ٣﴾، ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ (الغاشية، ١٩)، ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ (القارعة، ٥). ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا) (البقرة، ٢٦٠﴾.

قليل من الناحية الواقعيّة، مؤكّدًا على أنّ الآيات التي تذكر الجبال تأتي في سياق قدرة الله تعالى ومحبّته للإنسان وعونه به، مع ذكر تكوّن الأرض[1].

وقد فسّر بوكاي آيات الجبال تفسيرًا علميًّا -فلم يكن يريد تفسيرًا أدبيًّا ولا تفسيرًا يلتمس معاني الكلمات في إطارها اللغويّ- بوصفه الطريق الذي يقوده إلى إدراك مواطن التوافق بين القرآن والعلم الحديث، ومن ثمّ فقد فُسّر البساط في قوله الله تعالى: ﴿**والله جَعَلَ لَكُمُ الأرض بِسَاطاً لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً**﴾ بالقشرة الأرضيّة اليابسة التي باستطاعتنا العيش عليها، فالبساط يعني المدّ والنشر؛ لأنّ الطبقات العميقة من الكرة الأرضيّة عميقة جدًّا سائلة وساخنة جدًّا، ومن ثمّ فهي غير صالحة لأيّ نوع من أنواع الحياة [2].

كما فسّر على هذا النحو الإشارات الخاصّة بثبات الجبال ورسوّ في قول الله تعالى: ﴿**وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ**﴾، وفي قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا**﴾. والوصف القرآنيّ للجبال بالأوتاد هنا هو وصف دقيق من الناحية العلميّة[3]، ويفسرّ ذلك بوكاي بقوله: «والأوتاد التي ذُكرت هنا تستخدم في تثبيت الخيمة في الأرض -وهي جمع وتد- وعلماء الجيولوجيا الحديثون يصفون انخفاضات الأرض التي ركّزت النتوءات، والتي لها أبعاد مختلف من كيلومترات حتى عشرات الكيلومترات، ومن ظاهرة الانخفاض هذه نستخلص رسوخ القشرة الأرضيّة»[4].

فالجبال في القرآن تشير إلى الرسوّ وثبيت الأرض، خاصّة وأنها تمتدّ إلى أعماق الأرض عدّة كيلومترات كما يثبّت الوتد في الأرض لتثبيت الخيمة، بمعنى أنّ الأرض أصل والجبال فرع، فقد «ثبت علميًّا في عام ١٩٥٦م أنّ الجبل له جذر يخترق

---

[١]- حدد الدكتور زغلول النجار مجموعة من السياقات التي تظهر فيها كلمة الجبال مبينًا دلالتها وإشارتها العلميّة في القرآن والتي حصرها في تسع، زغلول النجار، المفهوم العلميّ للجبال في القرآن، ص٢٦-٢٩.

[٢]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢١٩.

[٣]- انظر: زغلول النجار، المفهوم العلميّ للجبال في القرآن، ص٢٩.

[٤]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢١٩.

طبقات الأرض، ويمتدّ تحت سطح الأرض؛ حتى يصل إلى طبقة الغطاء السيما، وهذا الجذر يعادل من ٥ إلى ١٠ أضعاف الجبل فوق سطح الأرض»[1]. والعلم الحديث يقودنا إلى أنّ الأخيرة هي نتاج عوامل حدثت للقشرة الأرضيّة عبر السنين، ومن ثمّ ينتهي بوكاي إلى أنّ الطريقة التي أُرسيت بها الجبال هي مناسبة لرسوّها وثباتها، وهو ما يتّفق تمامًا مع المعطيات الجيولوجيّة[2].

هذا ما يتعلّق بالأرض وخاصّةً الجبال، ولكن ماذا عن الفضاء المحيط بالأرض؟ نحن تحدّثنا في سطور سابقة عن السماء، ولكن السؤال هنا يتعلّق ببعض ظواهر الفضاء الأرضيّ كالبرق والرعد وغيرهما؟! لعلّ المتأمّل في القرآن الكريم يجد بعض ظواهر هذا الفضاء في عدد من الآيات. وقد استند بوكاي إلى ثلاثة ظواهر في الفضاء الأرضيّ في توافق مع العلم، وفي دليل قويّ على قدرة الله تعالى، وهي ظواهر: الارتفاع في الجو، البرق والرعد، الظلّ.

ولعلّ المتأمّل في كتاب الله تعالى يجد عددًا من الآيات التي تتحدّث عن هذه الظواهر في عدد من المواضع، وهي:

الموضع الأوّل: قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ سورة الأنعام، الآية ١٢٥.

ففي هذا الموضوع وهذه الآية يشير القرآن إلى حقيقة علميّة، وهي إحساس الإنسان بالضيق عند الارتفاع في الجوّ[3]. وهذا ما أثبته العلم الحديث وشعر به روّاد الفضاء أنفسهم، إذ كلّما زادت نسبة ارتفاعهم في الجو زادت درجة الضيق[4].

---

[1]- ماهر أحمد الصوفي، الموسوعة الكونيّة الكبرى، آيات الله في الجبال والصحاري والغابات وفي النبات والثمار والأزهار والألوان، ج٩، ص٧٤.

[2]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢١٩.

[3]- أنظر: عبد الرحمن سعد صبيّ الدين، آيات الإعجاز العلميّ من وحي الكتاب والسنة، ص٦٧. وانظر: عبد الدائم الكحيل، كأنما يصعّد في السماء، على الموقع التالي: com.www.kaheel7، وانظر: سيد قطب، التصوير الفنّيّ في القرآن، القاهرة، دار الشروق، الطبعة الرابعة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ص٣٦.

[4]- أنظر: عبد الجواد الصاوي، ضيق الصدر والتصعّد في السماء، الهيئة العامّة للإعجاز العلميّ في القرآن والسنة على الموقع

وقد اتخذ بوكاي من هذه الآية دليلًا على التوافق بين القرآن والعلم الحديث في هذه المسألة، لكنّ بوكاي لكي يؤكّد على رأي يذهب فيه إلى أنّ ظاهرة الارتفاع كانت معروفة في شبه الجزيرة العربيّة مستدلًّا على أنّ القمم المرتفعة وصلت في بعضها إلى ٣٥٠٠م، ومن ثمّ فإنّ القول بأنّ هذه البيئة كانت تجهل صعوبة التنفس عند الارتفاع في الجو هو قول غير صائب عنده أو بعيد الاحتمال[1]. وإن كان بوكاي قد أجهد نفسه هنا، إذ لا يلزم للتدليل على هذه القضيّة أن يستند إلى وجود معرفة بها في الجزيرة العربيّة من عدمه؛ إذ كم من قضايا تطرّق إليها القرآن ولم يكن لأهل الجزيرة العربيّة عهد ولا معرفة بها.

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ سورة الرعد، الآيتان ١٢-١٣. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ سورة النور، الآية ٤٣.

والآيات تتعلّق بالحديث عن المطر وارتباطه في بعض الأحيان بالصواعق، الأمر الذي جعل الدارسين للإعجاز القرآنيّ يربطون بين مضمون الآية وظاهرة كهربة الجوّ في العلم الحديث[2]، ومنهم بوكاي الذي يؤكّد قائلاً: «في هاتين الآيتين وضوح التناسب بارز بين تكوّن السحاب المثقل بالمطر أو بالبرد وفعل الصاعقة، موضوع الأوّل الطمع في الخير الذي يحمله، وموضوع الثاني الخوف؛ لأنّ سقوط ذلك مرهون بمشيئة الله القادر على كلّ شيء. والربط بين الظاهرتين مقبول من المعرفة التي

التالي: www.nooran.org، وانظر: زغلول النجار، من آيات الإعجاز العلميّ.. السماء في القرآن الكريم، ص٣٩٢.

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٢٠.

[٢]- انظر: ماهر أحمد الصوفي، الموسوعة الكونيّة الكبرى.. آيات الله في الرياح والمطر والأعاصير والبراكين والزلازل، بيروت، المكتبة العصريّة، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، ج١٣، ص١١١ وما بعدها. وانظر: محمود حمدي زقزوق، حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشكّكين، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، ص٤٥٦.

توصّلنا إليها في هذه الأيام في كهربة الجوّ»[1].

وقد وقف بوكاي عند هاتين الآيتين، لكن هناك آية لم يذكرها، على الرغم من أنها تؤكّد ما ذهب إليه بوكاي مع شيء من التوضيح، وهي قول الله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاء فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ سورة البقرة، الآيتان ١٩-٢٠.

الموضع الثالث: قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ (سورة النحل، الآية ٨١) وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ سورة النحل، الآية ٤٨. وقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلا ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ سورة الفرقان، الآيتان ٤٥-٤٦.

وقد انطلق بوكاي من هذه الآيات إلى التأكيد على التوافق بينها وبين العلم الحديث، فإذا استثنينا ما تشير إليه من قدرة الله تعالى على الظلّ وقبضه إليه قبضًا يسيرًا، فإنّ النصّ القرآنيّ يشير إلى علاقة الظلّ بالشمس[2]، يقول بوكاي: «والقرآن يتحدّث هنا عن هذه الظاهرة دون تفسيرها المنتشر في عصر نزوله، هذا التفسير كان يرتضيه الناس بعد عصر محمّد صلّى الله تعالى عليه وسلّم بقرون، إلى أن ثبت عدم صحّته أخيرًا؛ لذلك فإنّ القرآن يكتفي بالتحدّث فقط عن دور مؤشّر الظلّ الذي تلعبه الشمس، الأمر الذي يجعلنا نلاحظ أيضًا غياب التناقض بين الطريقة التي يعرض بها القرآن الظلّ، وما نعرفه عنه في عصرنا الحديث»[3].

وتفسير الظلّ في العلم الحديث يستند إلى أنّ الظلّ هو الظلام الذي يسبّبه

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٢١.

[٢]- أنظر: يحيى وزيري، إعجاز وصف الظل والظلال في القرآن الكريم، على الموقع التالي: https://quran-m.com

[٣]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٢١-٢٢٢.

جسم ما عندما يحجب الضوء من الوصول إلى سطح ما. فعندما تقف في ضوء الشمس يحجب الجسم بعض الضوء الذي كان يمكن أن يضيء الأرض، وهكذا يصبح ظلّك منطقة مظلمة بشكل جسمك. فالأرض تلقي ظلًّا على الفضاء؛ لأنّها تحجب بعض ضوء الشمس. ويظلم القمر خلال الخسوف القمريّ عندما يتحرّك داخل ظلّ الأرض[1].

أمّا بالنسبة لأسلوب حركة الظلال بصورة عامّة، فيمكن أن يتّضح بمراقبة ظلّ جسم أو شخص معرّض للإشعاع الشمسيّ، حيث نرى أنّ الشمس عند طلوعها صباحًا من جهة الشرق وحتىّ منتصف النهار الزوال فإنّ ظلال الأجسام تقع جهة الغرب، فإذا اتّجهت الشمس من وسط الفلك إلى الجانب الغربيّ جهة الغرب وقعت ظلال الأجسام في الجانب الشرقيّ، وهذه هى حركة الظلّ بالانتقال من الغرب إلى الشرق[2].

ويلاحظ أيضًا أنّ أطوال الظلال تكون أكبر ما يمكن عند شروق الشمس، ثمّ تبدأ في التناقص كلّما ارتفعت الشمس في السماء، حتى تصل إلى وسط الفلك وقت الظهيرة تمامًا وفى هذه الحالة نجد أنّ ظلال الأشياء على اختلافها تكون أقلّ ما يمكن، ثمّ بعد انتقال الشمس إلى جهة الغرب تبدأ ظلال الأشياء في الازدياد مرّة أخرى إلى أن تصل إلى أقصى طول لها وقت غروب الشمس، وهذه هى حركة الظلّ بالامتداد والانقباض[3].

رابعًا: القرآن وعالم النبات والحيوان

١- القرآن وعلم النبات

يمكن القول إنّ بوكاي تتبّع الآيات القرآنيّة حول عالم النبات والحيوان والمنتشرة داخل كتاب الله تعالى، ثمّ صنّفها ووضعها تحت عناوين محدّدة تخدم فكرته في

[1]- https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B8%D984%

[٢]- أنظر: يحيى وزيري، إعجاز وصف الظل والظلال في القرآن الكريم، على الموقع التالي: https://quran-m.com

[٣]- أنظر: يحيى وزيري، إعجاز وصف الظلّ والظلال في القرآن الكريم، على الموقع التالي: https://quran-m.com

العلاقة التوافقيّة بين القرآن من جانب والعلم الحديث ومعطياته من جانب ثانٍ، فعمد إلى بيان الآيات التي تتحدث عن أصل الحياة في النبات مع صور مختلفة من عالمه الذي خلقه الله تعالى، كما عمد إلى تقسيم موضوعات النبات في القرآن إلى موضوعات خاصّة وموضوعات أعم منها.

بوكاي من جانبه تعامل مع هذه الآيات تعاملًا عقليًّا، بمعنى أنّه تأمّل الآيات وأعمل فيها عقله للخروج بمضمونها الذي يؤيّد فكرته وفكرة مشروعه في علاقة القرآن بالعلم الحديث.

لكن بوكاي كان يدرك جيّدًا أنّ اختيار النصوص ذات الصلة سوف يحتاج منه جهدًا كبيرًا، ودقّة متناهية في اختيار النصّ واستخرج مضمونه العلميّ، وذلك باعترافه رغم صعوبة المفردات عليه، حيث يؤكّد على أنّ اختيار الآيات حول موضوع عالم النبات والحيوان دقيق أحيانًا؛ وذلك «بسبب بعض الصعوبات الملازمة للمفردات التي لا يمكن تجاوزها إلّا بعد أن نأخذ بالاعتبار المعطيات العلميّة المتّصلة بالموضوع الذي نعالجه، وبخاصّة فيما يتعلّق بالكائنات الحيّة كالنبات والحيوان والإنسان التي لا بدّ من مواجهتها مع معطيات العلم لإيجاد معنى لبعض تأكيدات القرآن في هذا الصدد»[1].

لكن بوكاي كان يدرك أيضًا أنّ هذه ليست هي الصعوبة الوحيدة التي تواجهه هاهنا، فقد كان هناك صعوبتان من نوع آخر؛ الأولى: تتعلّق بالترجمات الخاطئة لهذه الآيات، والتي لم يرضَ عنها -أعني الترجمات- الدارسون؛ لأنّها في نظرهم كانت خاطئة. والثانية: ببعض التفسيرات خاصّة القديم منها التي لم تكن تمتلك المعارف العلميّة لفهم النصّ؛ لأنّ الأخيرة كانت متأخّرة زمنًا عن هذه التفسيرات وعن أصحابها[2].

ويمكن القول إنّ أوّل ما اهتمّ به بوكاي في موضوع عالم النبات والحيوان هو

[1]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٢٤.

[2]- م.ن، ص٢٢٤.

مسألة أصل الحياة فيهما. ومن المعروف إنّ قضيّة أصل النبات والحيوان والإنسان قد شغلت الإنسان ذاته، واستحوذت على حيّز كبير من تفكيره، وقد تناولها بوكاي بصورة عموميّة، بمعنى أنّه لم يخصّص حديثًا لأصل النبات بمفرده أو للحيوان بمفرده أو للإنسان بمفرده، وإنّما عمد إلى النظرة إلى الكلّ نظرة عامّة ليست فيها تخصيص، وهي نظرة تقوم على وعي بمضمون القرآن الذي يقول الله تعالى في أحد آياته: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ سورة الأنبياء، الآية ٣٠.

ويُفهم من الآية السابقة أنّ الماء هو أصل كلّ شيء في هذا الكون وأساسه، فهو أصل الإنسان والحيوان والنبات، والأساس الذي يقوم عليها كلّ منهم، باعتباره مصدر الحياة الذي لا توجد حياة بدونه. وهذا ما يتّفق كلّيًّا وجزئيًّا مع المعطيات العلميّة الحديثة، ومن ثمّ يؤكّد بوكاي على هذه القضيّة قائلًا: «فقد عُثر على أنّ أصل الحياة مائيّ، وأنّ الماء هو العنصر الأوّل لكلّ خليّة حيّة، وأن لا سبيل إلى الحياة دون الماء، وعندما ندرس إمكانيّة الحياة على أيّ كوكب نبادر إلى التساؤل: هل يحتوي هذا الكوكب على الماء بكمّيّة كافية؟»[1].

غير أنّ بوكاي من جانب آخر يؤكّد على أنّ المعطيات الحديثة تسمح بالتفكير بأنّ الكائنات الأكثر قدمًا تعود إلى عالم النبات، مستندًا في ذلك إلى ما عُثر عليه من بعض النباتات المائيّة في الأراضي الأكثر قدمًا في العالم، وعلى أنّ بعض عناصر الحيوانات القديمة ظهرت بعد ذلك في المحيطات[2].

توجد العديد من الآيات التي تؤكّد مصدريّة الماء للحياة على الكون كلّه[3]، يقول الله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ سورة البقرة، الآية ٢٢. ويقول أيضًا: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا

---

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٢٦.

[٢]- م.ن، ص٢٢٦.

[٣]- انظر: زغلول النجار، من آيات الإعجاز العلميّ.. الأرض في القرآن الكريم، ص٣٥١.

سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ سورة طه، الآية ٥٣.

ولئن كانت الآيتان السابقتان تتحدّثان عن الماء في صورته العامّة المطلقة دون تحديد، فإنّ هناك بعض الآيات التي تحدّد نوعيّة الماء، منها:

قول الله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ**﴾ سورة النور، الآية ٤٥.

وقوله تعالى: ﴿**ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ**﴾ سورة السجدة، الآية ٨.

إذ الماء في الآية ليس إلّا السائل المنويّ الذي يكون منه الإنسان بقدرة ربّ العالمين. فضلًا عن بعض الآيات التي تتناول الماء بصور مخصوصة، كالماء الطهور، وغيره.

والمعنيان في صورتهما العامّة أو المحدّدة يتّفقان مع المعطيات العلميّة الحديثة، الأمر الذي دعا بوكاي إلى التأكيد على أنّ «كلّ آيات القرآن المتعلّقة بأصل الحياة سواء كان يراد أصل الحياة العامّة، أو العنصر الذي ينبت الزرع، أو البذرة الحيوانيّة متّفقة مع المعطيات العلميّة الحديثة كلّ الاتفاق. وليس لأيّ خرافة وثنيّة مما كان يفيض بها ذاك العصر حول أصل الحياة وجود في نصّ القرآن»[1].

ولكن ماذا عن عالم النبات في القرآن وعلاقته بالعلم الحديث؟ يمكن بدءًا قبل الإجابة على هذا السؤال أن نعرض لبعض الآيات القرآنيّة عن عالم النبات في القرآن، من ذلك قوله تعالى:

﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ﴾ سورة النحل، الآية ١١.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ﴾ سورة الأنعام، الآية ١٤١.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ سورة يوسف، الآية ٤٧.

---

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٢٦.

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ سورة الرعد، الآية ٤.

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ سورة إبراهيم، الآية ٣٧.

﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ سورة الكهف، الآية ٣٢.

﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ سورة الشعراء، الآية ١٤٨.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾ سورة السجدة، الآية ٢٧.

﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ سورة الزمر، الآية ٢١.

﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ سورة الدخان، الآية ٢٦.

﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ سورة الفتح، الآية ٢٩.

﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ سورة الفتح، الآية ٢٩.

﴿أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ سورة الواقعة، الآية ٦٤.

وتوجد كثير من الآيات التي تؤكّد مصدريّة النبات وهو الماء، فالماء أساس حياة الزرع والإنبات، من ذلك قوله تعالى[1]:

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ سورة البقرة، الآية ٢٢.

---

[١]- وتوجد آيات أخرى منها:
﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ (النحل، ١٠).
﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (النحل، ٦٥).
﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ (طه، ٥٣).
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ (الحج، ٦٣).
﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ (المؤمنون، ١٨).
﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (العنكبوت، ٦٣).

﴿ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ سورة البقرة، الآية ١٦٤.

﴿وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ سورة الأنعام، الآية ٩٩.

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ سورة الرعد، الآية ١٧.

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ سورة إبراهيم، الآية ٣٢.

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ سورة الحجر، الآية ٢٢.

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ سورة الروم، الآية ٢٤.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ سورة لقمان، الآية ١٠.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ سورة فاطر، الآية ٢٧.

ويمكن القول إنّ بوكاي قد اعتمد على عدد من الآيات القرآنيّة من جملة الآيات السابقة، لكنّ الملاحظ أنه ركّز جهوده على أمرين: الأوّل: التوازن السائد في عالم النبات في آيات القرآن[1]، والثاني: تكاثر النبات[2]. ويقصد بوكاي بالتوازن هنا خلق كلّ نبات من زوجين ﴿**وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ**﴾، وهذا له أهمّيّته في قضيّة التكاثر أيضًا، لكن من الملاحظ أنّ الآيات التي تتحدّث عن أنواع النبات لم تخرج عن المألوف في تلك البيئة من شبه الجزيرة العربيّة.

أما قضيّة تكاثر النبات -وهي الأمر الثاني الذي استحوذ على اهتمام بوكاي هنا- فإنّ آياتها عند بوكاي آسرة للانتباه. ومن المعلوم أنّ التكاثر في النبات يتمّ من

[١]- أنظر: للمزيد محمّد كامل عبد الصمد، الإعجاز العلميّ في الإسلام: القرآن الكريم، ص١٣٩.

[٢]- أنظر: للمزيد نظمي خليل أبو العطا، تسعة معانٍ للزوجيّة في القرآن الكريم وعالم النبات، بحث منشور بموقع موسوعة الإعجاز العلميّ في القرآن والسنة على الموقع التالي: www.quran-m.com.

خلال أحد طريقين: طريق التكاثر التناسليّ وطريق التكاثر اللاتناسليّ[1]، الأولى تتمّ عن طريق التلاقح بين النبات من خلال عناصر الذكورة والأنوثة في النبات والتي قد تكون في النبات ذاته أو منفصلة عنه. وهذا المعنى يمكن استفادته من قول الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾، وقوله سبحانه: ﴿وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾.

في حين أنّ التكاثر اللاتناسليّ يتمّ عن طريق انفصال جزء من النبات، ثمّ عند زراعة هذا الجزء المفصول يحاول أن يستعيد الحياة بإذن الله تعالى متشبّهًا بأصله الذي فُصل عنه، وذلك كما يحدث في فرع نبتة معيّنة، فإنّه عند زراعته تنمو له جذور، ثمّ في وجود الماء يرتوي ويزداد في النموّ إلى أن يصير نبتة مكتملة النموّ تمامًا[2].

يفسر بوكاي من جانبه معنى الزوجين -زوجي النبات- في الآيات القرآنيّة على أنّه إشارة إلى دورة تكاثر النبات، يقول: «إنّنا نعلم بأنّ الثمرة هي نهاية دورة التكاثر لدى النباتات العالية ذات التنظيم الأكثر كمالًا وتركّبًا. يسبقها مرحلة الزهرة مع أعضاء الذكورة اللقاح والأنوثة البويضات، التي بعد حملها اللقاح تعطي الثمرات التي تخرج الحبّ بعد نضجها، فكلّ ثمرة إذن تتطلّب وجود أعضاء الذكورة والأنوثة، وهذا ما تريد الآية القرآنيّة قوله»[3].

ولكن كيف تبدأ عمليّة الإنبات؟ يمكن أن نقف في ذلك على قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ سورة الأنعام، الآية ٩٥. والفلق هو الشقّ والصدع والشطر، وقد تنبّه بوكاي إلى حقيقة عمليّة الإنبات في هذه الآية الكريمة، بل

---

[١]- ويسمى التكاثر الجنسّي والتكاثر اللاجنسّي، انظر: ليث عبد الله ونشوان حازم، تكاثر النبات، العراق، جامعة الموصل، قسم التربية الأساسيّة، ص١٧-١٩. وانظر: الرابط التالي:

https://www.researchgate.net/publication/349105279_tkathr_alnbatat

[٢]- أنظر: المزيد حول أنواع التكاثر اللاجنسّي-واللاتناسلّي الآتي:

https://sciencing.com/five-types-asexual-reproduction-8204895.html

https://www.wikiwand.com/en/Asexual_reproduction

[٣]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٢٩.

على إثبات التوافق بينها وبين معطيات العلم الحديث، خاصّة وأن اكتمال عمليّة التكاثر -كما أوضحها بوكاي ذاته- يتمّ بامتداد تفريخ الحبّة بعد انفتاح قشرتها الخارجيّة -وقد تكون متركّزة في النواة- التي تسمح بخروج الجذور التي تتشعّب في الأرض؛ وذلك للحفاظ على الغرسة ذات الحياة البطيئة للحبّة ولنموّ الحبّة وأخذها كيانًا جديدًا[1]. وهذا المعنى لا يتعارض مطلقًا مع ما جاء في الآية الكريمة، كلّ ما في الأمر أنّ القرآن يقدّم المعلوم بإيجاز بلاغيّ في صورة إشارات علميّة، هذه الإشارات تتكشّف لنا مضامينها العلميّة ومع معطيات العلم الحديث، كما هو الحال في عمليّة الإنبات خاصّة وعالم النبات بعامّة.

ويحتلّ مفهوم الزوجيّة في عالم النبات في القرآن مساحة كبيرة من اهتمام بوكاي؛ فقد اكتشف بوكاي أنّ القرآن أكثرَ من ترديد وجود الأزواج في عالم النبات، ويسجّل مفهوم الزوجيّة عنده في إطار عام ذي حدود غير تفصيليّة، وهذا ما يتّضح جليًّا في قول الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ سورة يس، الآية ٣٦. ومن ثمّ يؤكّد على تفرّد القرآن ونهجه العلميّ قائلًا: «ويمكننا أن نعقد العديد من الافتراضات على معنى هذه الأشياء التي كان يجهلها الناس في عصر محمّد صلى الله عليه وآله، والتي من أجلها نرى جليًّا في أيّامنا حلقة أو بنية مزدوجة في نظام الكائنات الدقيقة الكيان، كما في الكائنات العظيمة، في العالم الحيّ أو في اللاحيّ، والمهم أن نحتفظ بمفاهيم واضحة المعاني، وأن نلاحظ مرّة أخرى بأنّا لا نجد فيها اختلافات مع العلم في هذا العصر»[2].

٢- القرآن وعلم الحيوان

لا شكّ في أن القرآن الكريم يتضمّن العديد من الآيات التي تتحدّث عن عالم الحيوان[3]، وبيان فائدتها ودورها في الحياة. وقد تضمّنت هذه الآيات الدعوة إلى

---

[١]- م.ن، ص٢٢٩.

[٢]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٢٩.

[٣]- أنظر: زغلول النجار، من آيات الإعجاز العلميّ.. الحيوان في القرآن الكريم، بيروت – لبنان، دار المعرفة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، ص٣٥.

التفكير في خلق الله تعالى سواء أكانت هذه الدعوة صريحة أو تفهم من سياق الآيات، كما أنّ في بعضها إشارات واضحة إلى التوافق والانسجام بين الحيوانات من جانب وحاجات الإنسان من جانب آخر، فهي تلبّي له ما لا يلبّيه غيرها.

ويمكن الوقوف على إحدى الآيات -وقد وقف عندها بالفعل بوكاي متأمّلًا- وهي قول الله تعالى: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ سورة النحل، الآيات ٥-٨.

وقول تعالى في سورة النحل: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِى جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾.

وقد وردت آيات قرآنيّة تدعو إلى وجوب الاهتمام بالحيوانات ورعايتها أيضًا، ومنها قوله تعالى: ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِى النُّهَى﴾ سورة طه.

وفي سورة النازعات يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾.

ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ سورة يس، الآيات ٧١-٧٣.

فهذه الآيات الكريمة تؤكّد أوّلًا على قدرة الله تعالى بما تحمله من دعوة للناس إلى التفكير في هذه القدرة، كما أنها ثانيًا تشير إلى عمليّة التوافق والانسجام التي

وضعها الله تعالى بين الحيوان والإنسان؛ بحيث يكون الأوّل ملبّيًا لحاجات الإنسان ومسخَّرًا له من قبل ربّ العالمين، وهذا يصبّ ثالثًا في جانب الغائيّة والعناية الإلهيّة المنتشرة في كلّ جزء من أجزاء هذا الكون الفسيح، إضافة إلى أنّه رابعًا لا يتعارض مع معطيات العلم الحديث، وفي ذلك يقول بوكاي: «في القرآن عدد من المسائل المتّصلة بعالم الحيوان محلّ ملاحظات تفرض أن تتجه إلى عقد مواجهة لها مع المعارف العلميّة الحديثة»[1].

ويمكن القول أيضًا إنّ بوكاي قد حرص على البحث عن هذا التوافق العلميّ القرآنيّ في أربع قضايا تتشكّل كلّ قضيّة منها من مجموعة من الآيات القرآنيّة، وهذه القضايا هي: قضيّة التكاثر، قضيّة وجود المجموعات الحيوانيّة، قضيّة وقفات مع النحل والعنكبوت والطير، قضيّة الحليب الحيوانيّ.

أ- هل هناك علاقة في قضيّة التكاثر بين القرآن والعلم؟

قبل الكشف عن وجود علاقة من عدمه، وعن موقف بوكاي منها، يجب أوّلًا أن نعرض لبعض الآيات التي تتحدّث عن التكاثر الحيوانيّ/ من ذلك قول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿**وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى**﴾ سورة النجم، الآيتان ٤٥-٤٦. ومن ثمّ فإنّ بوكاي ينطلق من هذه الآية إلى التأكيد على أنّها تشير إلى التكاثر التناسليّ. خاصّة أنّ كلمة النطفة تحمل معاني الخلق والتكاثر، كاشفة عن علاقة بين ذكر وأنثى للوصول إلى هذه النتيجة.

لكن بوكاي لم يقف كثيرًا عند قضيّة التكاثر الحيوانيّ، ولم يفرد لها المساحة نفسها التي أفردها من قبل لتكاثر النبات، ولا أدري ما السبب؟! إلّا إذا كان الأمر متعلّقًا بشيوع معرفة هذا الموضوع من قبل الجميع عامّة وخاصّة؛ إذ ليس فيه من غرابة البتة، في حين يبدو موضوع تكاثر النبات فيه بعض الغرابة؛ لعدم إلمام الكثيرين بكيفية ذلك، بخلاف الإلمام بعمليّة التكاثر الحيوانيّ.

---

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٣٠.

ب- ماذا عن تعايش الحيوانات في طوائف أو مجتمعات؟!

قبل أن نجيب على هذا السؤال يجب الوقوف على عدد من الآيات القرآنيّة في هذا الصدد، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ سورة الأنعام، الآية ٣٨. لكن بوكاي -في غرابة شديدة- بدأ في تعليقه على الآية تعليقًا لا يتوافق مع بحثه عن التوافق؛ حيث يقول: «في هذه الآية نقاط كثيرة تحتاج إلى شرح، ويبدو أوّلًا أنّ مصير الحيوانات بعد موتها مذكور؛ إذ ليس للإسلام على ما يظهر في هذه النقطة أيّ مذهب»[1]. فإذا كان بوكاي بصدد البحث عن هذا التوافق فما الذي جعله يبدأ بقضيّة المصير مصير الحيوانات؟! وإذا كان مصير الحيوانات في القرآن ربما يكون غير مذكور صراحة، إلّا أنّ السنّة النبويّة تؤكّد على أنّ الله تعالى يقتصّ للشاة الجلحاء من الشاة القرناء[2]، ثمّ تموت جميعها. هذا يعني أنّ بوكاي أخطأ في البدء وأخطأ كذلك في قضيّة تحديد المصير الذي تؤول إليه الحيوانات.

لكن بوكاي عاد إلى جادّة الصواب، فانتهى إلى أنّ العلم الحديث أثبت قضيّة العيش في جماعات أو تجمعات أو مجموعات حيوانيّة، فقد توصّل إلى أنّ هذا السلوك الحيوانيّ درس بدقّة عالية في عشرات من السنين السابقة، وتمّ التوصّل إلى وجود تجمّعات حيوانيّة حقيقيّة، «ولا شكّ بأنّ تفحص نتيجة عمل مجموعة استطاعت منذ زمن طويل أن تحمل على تبنّي ضرورة تنظيم المجموعات، ولكن ليس هذا إلّا في فترة حديثة؛ حيث اكتشفت فيها الطرق التي تتحكّم في مثل هذه التنظيمات لبعض الأنواع، وأحسن حالات الإنسان دراسة وأكثرها معرفة هي دونما جدال حال النحل»[3].

---

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٣١.

[٢]- الحديث: لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة؛ حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء بنطحها رواه مسلم/ ٢٥٨٢.

[٣]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٣١-٢٣٢.

ث- عجائب النحل والعنكبوت والطيور

يقول تعالى عن النحل: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ سورة النحل، الآية ٦٩.

وهنا في سورة العنكبوت، ورد ذكر العنكبوت في الآية: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ الآية ٤١، وجاء بعدها مباشرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ الآيتان ٤٢ و٤٣.

أما عن الطير فوردت الآيات الآتية:

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ سورة الواقعة، الآية ٢١.

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ سورة البقرة، الآية ٢٦٠.

﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ سورة آل عمران، الآية ٤٩.

﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ سورة آل عمران، الآية ٤٩.

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ سورة المائدة، الآية ١١٠.

﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ سورة المائدة، الآية ١١٠.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ سورة الأنعام، الآية ٣٨.

﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ سورة الأعراف، الآية ١٣١.

﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سورة الأعراف، الآية ١٣١.

﴿إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾ سورة يوسف، الآية ٣٦.

﴿وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ سورة يوسف، الآية ٤١.

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ سورة النحل، الآية ٧٩.

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ سورة الإسراء، الآية ١٣.

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ سورة الأنبياء، الآية ٧٩.

﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ سورة الحج، الآية ٣١.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ سورة النور، الآية ٤١.

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ سورة النمل، الآية ١٦.

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ﴾ سورة النمل، الآية ١٧.

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ سورة النمل، الآية ٢٠.

﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ سورة النمل، الآية ٤٧.

﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ سورة النمل، الآية ٤٧.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ سورة سبإ، الآية ١٠.

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ سورة يس، الآية ١٨.

كان بوكاي من جانبه مهتمًّا بالنحل والطير والعنكبوت، وذلك لما تنطوي عليه من خلق معجز، خاصّة فيما يتعلّق بجهازها العصبيّ، هذا الجهاز هو الذي يتحكّم في هذه المخلوقات الثلاثة بصورة تدلّ على تنظيم دقيق، إنّه «يمكننا أن نؤكّد بأنّ هذه المجموعات الثلاث تمثّل طرازًا جميلًا للتنظيم الرفيع، وكأنّ القرآن يتعرّض

لهذا الثالوث المثاليّ في عالم الحيوان، ويجيب تمامًا على الصفة المهمّة -بشكل خاصّ من وجهة نظر العلم- لكلٍّ من الحيوانات الذكورة هنا»[1].

لا شكّ في أنّ آية سورة النحل ﴿**وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ**﴾ تحمل في داخلها مظاهر قدرة الله تعالى في خلقه، فهي وإن كانت لم تشر تحديدًا إلى نظام اتّباع الربّ ذللًا، فإنّه يفهم من السياق أنّ ثمّة إعجازًا إلهيًّا يقودها بفطرتها إلى اتخاذ هذه السبل؛ ففضلًا عمّا فيها من تنظيم عصبيّ، وهو الركيزة الأساسيّة لكينونتها، فإنّ بوكاي ظلّ مشدوهًا لقدرة النحل على التواصل فيما بينها من خلال التراقص، ولقدرتها على أن تعرف بهذا قرناءها في أيّ اتجاه، وعلى أيّ بعد توجد الزهرات اللواتي يمكنها الامتصاص منها[2].

لكن بوكاي هنا لم يربط لنا -كما هو حاله دائمًا- بين الآية الكريمة ومعطيات العلم الحديث، كطريقة اتخاذ السبل -نعم، ربما كانت وسيلة التراقص واحدة منها- وهي كثيرة يكفي أن يعلم الإنسان تلك الأسرار المعجزة في تواصلها وتكاثرها وإخراج العسل وعمليّة تنظيمه، لكن بوكاي ترك كلّ هذا واستند إلى أمرين: التنظيم العصبيّ والتراقص من أجل التواصل[3]. كما أنّ بوكاي كان عليه أن يبينّ التوافق بين الآية ومعطيات العلم الحديث في مسألة اتخاذ النحل الجبال والشجر ومما يعرشون بيوتًا لها، لكنّه لم يفعل، ومسألة طعام النحل أو أكلها من كلّ الثمرات، ومسألة ألوان العسل التي تخرج من بطون النحل[4]، كلّ ذلك كان معينًا خصبًا لبوكاي يكشف من خلاله عن هذا التوافق الدينيّ العلميّ، لكن بوكاي لم يفعل.

وما قيل في كيفيّة تناول بوكاي للإشارات العلميّة في آية النحل، يقال مثله وأكثر

---

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٣٢.

[٢]- م.ن، ص٢٣٢.

[٣]- أنظر: في تراقص النحل، رمضان مصري هلال، آيات الله في عالم النحل، مجلّة الإعجاز العلميّ، العدد الرابع والعشرون، جمادى الأولى، ١٤٢٧هـ ص١١. وللمزيد انظر: كيرشتر & تاوني، الأساس الحسّيّ للغة الرقص عند عند نحل العسل، مجلّة العلوم، الكويت، المجلد الحادي عشر، العدد الثاني، ١٩٩٥م.

[٤]- وغيرها من آيات الإعجاز العلميّ في النحل، انظر: في ذلك أحمد عباس أحمد، وأوحي ربك إلى النحل على الموقع التالي: https://quran-m.com

في آية سور العنكبوت؛ إذ لم يكن تناوله مع المعطى الذي يتوافق مع المعطى العلميّ تناولًا يشغل المساحة التي يستحقّها.

يقول الله تعالى في آية سورة العنكبوت: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾، فالآية تشبه موقف من يتّخذ من دون الله ناصرًا ويتطلّب النصرة والعون والمساعدة من غيره في ضعفه وهوانه، بضعف خيوط العنكبوت وهوانها. وهذا هو المعنى الذي سيقت من أجله الآية، لكن هذه الآية تحمل إشارات علميّة لم يكشفها إلّا العلم الحديث.

إنّ العنكبوت تصنع خيوطها من لعابها، بحيث تسيل منه، لكن الغريب في الأمر أنّها تصنعها وفق نظام هندسيّ، هذا النسيج -من عظمة قدر الله- لا يستطيع الإنسان أن يقلّده. «ويتساءل علماء الطبيعة عن التنظيم العجيب للعمل المسجّل من خلايا الحيوان العصبيّة الذي يسمح لها بصناعة نسيج كامل الهندسة، ولكن القرآن الكريم قد سكت عنه»[1].

لكن بوكاي لم يقف على إشارات علميّة أخرى في الآية الكريمة، كالإشارة العلميّة في كلمة اتخذت؛ إذ اكتشف العلم الحديث أنّ أنثى العنكبوت هي التي تصنع الخيوط لا الذكر[2]، ولذا جاء مؤنّثًا، دلالة على أنّ الأنثى هي المنوط بها ذلك، وفي ذلك دلالة واضحة على إعجاز القرآن الكريم[3].

وفي مجال الطيور كان بوكاي مهتمًّا بإبراز قدرة الله تعالى في خلقه، خاصّة وأنّ

---

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٣٣.

[٢]- أنظر: أحمد مصطفى متولي، الموسوعة الذهبيّة في إعجاز القرآن الكريم والسنّة النبويّة، القاهرة، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، ص٣٦٨. انظر: عبد الوهاب الراوي، معجزات القرآن العلميّة في الأرض مقابلة مع التوراة والإنجيل، ص١٢٤.

[٣]- أنظر: أحمد شوقي إبراهيم، موسوعة الإعجاز العلميّ في الحديث النبويّ، ج٦، ص١٠٧.

أنظر: زغلول النجار، من آيات الإعجاز العلميّ.. الحيوان في القرآن الكريم، ص١٤١.

أنظر: نظمي خليل أبو العطا، آيات الله في العنكبوت.. سبحان الله، على الموقع التالي: https://quran-m.com

في الطيور غرائب لا يعلمها إلّا الله تعالى[1]، كهجرة الطيور عن أوطانها للبحث عن الدفء أو الغذاء، وربما التزاوج، ثمّ عودتها إلى أوطانها مرة أخرى بعد أن قطعت آلاف الأميال وهذا في الحقيقة أمر يدعو للدهشة، فهذا يعني أنّ لها جهازًا عصبيًّا يمكّنها من ذلك. أما قضيّة الإشارات العلميّة في القرآن في قضيّة الطيور فقد تورات خلف اهتمام بوكاي بقدرة الله تعالى.

ت- ولكن ماذا عن الحليب الحيوانيّ؟ وما مظاهر أعجازه؟

يقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ سورة النحل، الآية ٦٦. وهي الآية التي تبين في إشارة علميّة كيف يخرج اللبن الخالص سائغ الشراب من بطن الحيوان[2]. الأمر الذي دعا بوكاي إلى القول إنّ «وصف القرآن لمنشأ مركّبات الحليب الحيوانيّ، متّفق تمامًا مع معطيات المعرفة الحديثة»[3].

لكن بوكاي انتقد الترجمات الغربيّة حول هذه الآية التي رأى أنها تبتعد بالكلّيّة عن المعنى العلميّ الذي تشير إليه، فبلاشير يترجم الآية بقوله: «في الحقيقة إنّ لكم بالتأكيد عبرة في أنعامكم نسقيكم من حليب نقيٍّ سائغ للشاربين من هذا الذي في بطونها وبين الغذاء المهضوم والدم»[4]. في حين يترجمها حميد الله: «نعم لا شكّ أنّ ثمّة ما يستدعي تفكيركم في الأنعام وما في بطونها نسقيكم من خلال البراز والدم حليبًا صافيًا سائغًا للشاربين»[5].

وهذه الترجمات لم تنل رضى بوكاي لسبب واحد، وهو أنّه كان ينظر إليها

---

[١]- أنظر: في معجزات خلق الطير في القرآن على محمّد صالح السامرائي، الطير من منظور القرآن الكريم.. دراسة موضوعيّة، مجلّة سُرّ من رأى، المجلّد التاسع، العدد الثالث والثلاثون، السنة التاسعة، نيسان، ٢٠١٣م، ص٣١٠-٣١١.

[٢]- أنظر: في هذا الإعجاز القرآنّي حامد عطية محمّد، إشارات إعجازيّة في تكوين لبن الأنعام، دراسة منشورة ضمن كتاب المؤتمر العلميّ العاشر للإعجاز العلميّ في القرآن والسنة، السعودية، دار جياد، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م، ج١، ص٣١. أنظر: عبد المجيد الزنداني، آية اللبن من بين فرث ودم، على الموقع التالي: www.allsc.info

[٣]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٣٤.

[٤]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٣٤.

[٥]- م.ن، ص٢٣٤.

على أنّها بعيدة كلّ البعد عن المنحى العلميّ الذي كان ينتهجه، فضلًا عن أنّها لم تظهر التوافق بين القرآن وبين معطيات العلم الحديث، فضلًا عن كونها غامضة بالنسبة له، حيث يقول: «إن كلّ عالم بالحيوان يجيب عندما نقدّم إليه مثل هذه الترجمة للنصوص بأنّها غامضة جدًّا؛ إذ لا يبدو فيها شيء من الانسجام مع المفاهيم الحديثة، بل حتى البدائيّة، ومع أنّ هذه الأسطر من صنع أكابر العربيّة، إلّا أنّنا نعلم جيّدًا أنّ المترجم مهما كان بارعًا عرضة لارتكاب خطأ في ترجمة المفاهيم العلميّة الواردة فيها إذا لم يكن اختصاصيًّا في المادّة المعنيّة هنا»[1].

فما الترجمة التي يرتضيها بوكاي إذن؟

إنّ الترجمة التي يرتضيها بوكاي والتي تبدو عنده صحيحة هي مضمون النصّ التالي:

«في الحقيقة إنّ لكم في حيوانات قطعانكم عبرة، تعطيكم للشرب مما في داخل جسمها، والذي ينتج من الصلة ما بين محتوى الأمعاء والدم لبنًا حليبًا صافيًا سائغًا للشاربين»[2].

ولعلّ بوكاي متأثّر هنا في هذه الترجمة -والتي تحمل في الحقيقة تفسيرًا مختلفًا عن كثير من التفسيرات القديمة والجديدة حول تلك الآية- بتفسير كتاب المنتخب، هو تفسير اعتمد في تفسيره هاهنا على بعض معطيات علم أعضاء الحيوان[3].

ويستند بوكاي في نقد ترجمتي بلاشير وحميد الله وقبول الترجمة التي استند فيها إلى تفسير المنتخب على أمرين: أحدهما وهو الأوّل لم يكن مصيبًا فيه على الإطلاق، والآخر وهو الثاني كان مصيبًا فيه إلى حدّ بعيد، ويرجع ذلك في رأيي إلى أنّ الأوّل حاول أن يفسّر الأمر فيه في إطار لغويّ، وهو مهما بلغ من تعلّم اللغة العربيّة فهو ليس في طاقتها الإلمام بها، أمّا نجاحه في الثاني فيرجع إلى نهجه العلميّ فيه، وهذا ما لا ينكره أحد.

---

[1]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٣٥.

[2]- م.ن، ص٢٣٥.

[3]- تفسير المنتخب، النحل/ ٦٦.

فهو أوّلًا لم يعجبه تفسير بلاشير وحميد الله في بطونها واختار ترجمة ما في أجسامها بداعي أنّ كلمة بطن في العربيّة تعني وسط وداخل أيّ شيء، في حين أنّ كلمة بطن في الفرنسيّة ليس لها معنى تشريحيّ دقيق. وأنا لا أنازع بوكاي هنا في معرفته بالفرنسيّة -فهذا ممّا لا يهمّنا وليست لنا دراية به- وإنّما الترجمتان اختارتا الكلمة القرآنيّة ذاتها، فعلام النقد هنا؟ وإذا اخترنا ما في أجسامها فما الفرق بينها وبين في بطونها؟ ولا أرى فرقًا هنا إلّا في أنّ بوكاي خالف اللغة، وخالف القرآن الذي وصف الأمر كلّه في حدود البطن، فأراد بوكاي معنى أكثر عموميّة وهو الجسم، فالمعنى القرآنيّ المعجز محدّد في إطار البطن، فلماذا أخرجه من هذا المحدّد إلى معنى أكثر اتساعًا ليس مطلوبًا في الموقف؟!

أمّا في الأمر الثاني، فهو يرتكز فيه على مصدر مركّبات الحليب التي عبّر عنها القرآن بالحرف من وبالظرف بين، الذي لا يعني عنده خلال فقط كما ذهبت إلى ذلك تلكما الترجمتان، «ولكن يصلح للتعبير به أيضًا بأنّنا نضع بين شيئين أو شخصين الواحد بحضرة الآخر، وينبغى لالتقاط معنى هذه الآية من وجهة النظر العلميّة أن نذكر مفاهيم علم الأعضاء الحيوانيّ»[1].

وقد اتّخذ بوكاي سبيل النهج العلميّ في بيان ما تنطوي عليه الآية من إعجاز علميّ متضمَّن في كلمة أو كلمتين فقط منها، لكن كان عليه أوّلًا للوصول إلى ذلك أن يتعمّق في علم الحيوان، وخاصّة علم أعضاء الحيوان. وقد أفلح بوكاي بالاستناد إلى المعطيات العلميّة في هذا العلم، تلك المعطيات التي تبيّن صدق ما ذهب إليه القرآن، كعلامة دامغة على ما تقوم عليه الآية من إعجاز. فالمواد الأساسيّة التي تغذّي الجسم بوجه عامّ تتكوّن من تحوّلات كيميائيّة تجري داخل القناة الهضميّة[2]، وهذه المواد بدورها تتأتّى من عناصر موجودة في محتويات الأمعاء[3]، «وعندما تصل إلى المرحلة المراد فيها التحوّل الكيميائيّ تمرّ عبره غشاوة نحو الدورة

---

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٣٥.

[٢]- أنظر: أحمد شوقي إبراهيم، موسوعة الإعجاز العلميّ في الحديث النبويّ، ج٧، ص٣٦.

[٣]- أنظر: عبد الوهاب الراوي، معجزات القرآن العلميّة في الأرض، ص١٣٢.

الدمويّة العامّة، ويتحقّق هذا العبور بطريقين: إمّا بطريقة مباشرة بواسطة ما نسمّيه الشرايين الليمفاويّة، وإمّا بطريقة غير مباشرة بالدورة التي تسوقها إلى الكبد أوّلًا؛ حيث تتلقّى بعض التحويرات ثمّ تبرز لتتصل أخيرًا بالدورة الدمويّة العامّة، وبهذه الطريق كلّ شيء يمرّ أخيرًا عبر الدورة الدمويّة»[1].

وهذا يعني أنّ الحليب يترشّح من الغدد الرضعيّة التي تتغذّى بدورها على مستخلصات عمليّة هضم الأغذية التي تصل إليها بواسطة الدم، فالدم هنا يقوم بدورين؛ دور المصدر ودور المورّد لمستخلصات الأغذية، التي تعدّ الغذاء للغدد الرضعيّة المنتجة للحليب[2].

وهذا يقودنا إلى شيء من الأهمّيّة بمكان وهو: أنّى لرجل عاش في القرن السادس الميلاديّ أن يصل إلى هذه الحقيقة العلميّة التي لم يستطع العلم الوصول إليها إلّا في العصر الحديث؟![3] فكيف أدرك النبيّ الكريم مكان صدور اللبن الحليب من بين فرث ودم في إطار عمليّة كيميائيّة وعضويّة في الجهاز الهضميّ في الوقت الذي كانت فيه مثل هذه المعلومات غير متاحة في عصر النبوّة؟! إنّ هذا يدلّ على شيء واحد لا بديل له وهو التأكيد على المصدريّة الإلهيّة لكتاب الله تعالى، ونفي البشريّة عنه. وهذا ما أكّده بوكاي بقوله: «وفي رأيي أنّ وجود الآية التي تشير إلى هذه المعلومات في القرآن لا يمكن أن يكون له تفسير بشريّ بسبب العصر الذي أعطيت له»[4].

ج- مظاهر التوافق بين القرآن والعلم في التكاثر البشريّ

اتّخذ بوكاي من مسألة التكاثر البشريّ مادّة للبحث في التوافق بين القرآن والعلم، خاصّة وأنّ القرآن الكريم يزخر بالعديد من الآيات التي تتحدّث عن خلق

[1]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٣٥.

[2]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٣٥.

[3]- أنظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، المجلّد السابع، الجزء الرابع عشر، ص٢٠٠.
أنظر: زغلول النجار، من آيات الإعجاز العلميّ.. الحيوان في القرآن الكريم، ص٣٢١.

[4]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٣٦.

الإنسان منذ أن كان نطفة حتى مرحلة الممات. وقد أشار بوكاي إلى مكانة الطرح القرآنيّ فيها بالمقارنة مع ما عرفه العالم قديمًا وحديثًا؛ إذ من المعروف أنّ تفسير عمليّة التكاثر أصابها الكثير من الخرافات في العصور القديمة، فضلًا عمّا كان يشوب هذا التفسير من وَثَنيّات يرفضها الدين الإسلاميّ الحنيف.

ومن ثمّ فنحن مع بوكاي عندما يقول: «إنّ العمل الإنسانيّ القديم رغم ما كان عليه من ضآلة في التفصيل أنتج من يوم أن بدأ يتّجه إلى التكاثر أفكارًا خاطئة، وقد كان يحيط به في مرحلة من القرون الوسطى غير القديمة ألوانًا من الأخيلة الوثنيّة والخرافات. وكيف يمكن أن يكون في وضع غير هذا الوضع إذا كان في فهمه لتركيبه المعقّد يفتقر إلى معرفة علم التشريح، وإلى اكتشاف المجهر ونشأة العلوم الأساسيّة التي كان منها علم الفيزيولوجيا علم تركيب أعضاء الحيوان والأمبريولوجيا علم الأجنّة والأوبستريك علم الولادة»[1].

إلّا أنّ بوكاي كان يدرك جيّدًا أنّ الأمر يختلف كلّ الاختلاف، ونحن بصدد القرآن الكريم؛ لأنّ القرآن يتحدّث عن مراحل خلق الإنسان في أكثر من آية، وكيفيّة حدوث هذا الخلق في إشارات علميّة راقية. فالمصدر هنا مصدر إلهيّ لا يأتيه الباطل، في حين كانت الأفكار القديمة خاطئة كونها بشريّة المصدر، والبشر قرين الخطأ لا محالة. ومن ثمّ فإنّ «الأمر يختلف بالنسبة للقرآن؛ إذ يثير في أكثر من موضع منه مركّبات الإنسان الدقيقة، ويذكر عن التكاثر عبارات محدّدة، لا يشوب أيّ معلوم منها شائبة بطلان، فكلّ شيء معبّر عنه بعبارات بسيطة سهلة الفهم وشديدة الاتفاق مع ما سيكتشفه العلم بعد ظهوره بزمن طويل»[2].

فالمفاهيم العلميّة التي انتهى إليها العلم الحديث كانت بلا شكّ مجهولة تمامًا في عصر النبوّة[3]، لكنّ الغريب أنّ الآية الكريمة تقوم على إشارات علميّة تتوافق

---

[١]- م.ن، ص٢٣٦.

[٢]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٣٧.

[٣]- أنظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، المجلّد السابع، الجزء الرابع عشر، ص٢٠٠.
انظر: زغلول النجار، من آيات الإعجاز العلميّ.. الحيوان في القرآن الكريم، ص٣٢١.

مع هذه المفاهيم، تلك الإشارات التي لم يكن لطريق كشفها من سبيل إلّا في ضوء المعطيات العلميّة الحديثة. ومن ثمّ فقد عمد بوكاي إلى الوقوف على هذه المفاهيم و المعطيات حتّى يتسنّى له الكشف عمّا في الآية من توافق مع العلم الحديث.

ومن هذه المفاهيم والمعطيات عمليّة التكاثر البشريّ التي تحدث عند تلاقح منيّ الرجل مع بويضة المرأة[1]، وقد وقف بوكاي على هذه العلاقة بين الاثنين، فشرح كيفيّة نشأة الجنين في بطن الأم والمراحل التي يمرّ بها.

وقضيّة التكاثر البشريّ ذُكرت في عدد من الآيات القرآنيّة، منها على سبيل المثال قول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا...﴾ سورة الحج، الآية ٥.

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ سورة نوح، الآية ١٤.

﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ سورة القيامة، الآيات ٣٦-٤٠.

﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِى أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء﴾ سورة الانفطار، الآيات ٦ – ٨.

لكن بوكاي كان يدرك جيّدًا صعوبة تكوين فكرة عمّا في القرآن حول هذا الموضوع، وذلك ناتج عن تشعّب الموضوع وقلّة المعطى العلميّ الحديث الذي

[١]- أنظر: زغلول النجار، تفسير الآيات الكونيّة في القرآن الكريم، ج٤، ص٤١٢.
أنظر: زغلول النجار، خلق الإنسان في القرآن، ص٢٩٠.

يكشف عن مكنون النصّ بما فيه من درر علميّة. لكنّه لم ينظر إلى الأمر على أنّه في طور الاستحالة، لإيمانه بأنّ من يمتلك المعطى العلميّ، وكذلك الفهم العميق لمدلولات الكلمات، فمن اليسير عليه الكشف عما في النصّ من إشارات علميّة.

ومن ثمّ فقد لام مفسّري القرآن والمترجمين الذين لم ينتبهوا للأبعاد العلميّة في آيات التكاثر البشريّ -علمًا بأنّ المفسّرين القدماء كان لديهم العذر لعدم ظهور المعطيات العلميّة الحديثة في أزمانهم، وإن كان المترجمون المحدثون ليس لهم العذر لظهور تلك المعطيات في زمنهم- وذلك لأنّهم بتفسيراتهم وترجماتهم لها أعطوا صورة خاطئة عن خلق الإنسان ومراحل تطوّره وتكاثره. «والواقع أنّ في عصرنا ترجمات وشروحًا لبعض النصوص منتشرة دائمًا يمكنها أن تعطي العلماء الذين يقرأونها في الموضوع المقصود فكرة كاملة الخطأ عن الوحي القرآنيّ»[1].

وقد ارتكز بوكاي على خطأ الترجمات الرئيس في آيات التكاثر والتي تنحصر في أنهم ذكروا تكوّن الإنسان ابتداءً من العلقة، وقد انتقد بوكاي هذا الموقف؛ لأنّه ليس مقبولًا من قبل المتخصّصين في هذا الحقل، ولأنّ بداية الإنسان على الحقيقة لا تبدأ من العلقة. كما انتقد بعض المفسّرين البارزين ممن وقعوا في أخطاء مثل هذه؛ لعدم وقوفهم على الثقافة العلميّة والمعطى العلميّ آنذاك، خاصّة في مرحلة حضانة البويضة في رحم الأمومة[2].

وقد استوقف بوكاي في آيات القرآن أمر رئيس وأربعة أمور فرعيّة، أمّا الأمر الرئيس، فهو تركيز القرآن على التطوّرات المتتابعة للجنين في رحم الأمومة، أمّا الأربعة الفرعيّة فهي: أنّ اللقاح يتمّ بقليل من السائل، طبيعة سائل اللقاح، حضانة البويضة الملقّحة، تطوّر الجنين.

ففي قضيّة اللقاح الذي يتمّ بسائل قليل جاء قول الله تعالى:

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ سورة النحل، الآية ٤.

---

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٣٨.

[٢]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٣٨.

﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ سورة الكهف، الآية ٣٧.

﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ سورة الحج، الآية ٥.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ سورة المؤمنون، الآية ١٣.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ سورة فاطر، الآية ١١.

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ سورة يس، الاية ٧٧.

﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ سورة غافر، الآية ٦٧.

﴿مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ سورة النجم، الآية ٤٦.

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ سورة القيامة، الآية ٣٧.

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ﴾ سورة الإنسان، الآية ٢.

﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ سورة عبس، سورة الآية ١٩.

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ سورة المؤمنون، الآية ١٤.

ومن ثمّ نفهم أنّ القرآن ذكر النطفة -بمعنى السائل المنوي القليل الذي اختلط به ماء الرجل وماء المرأة[1]- اثنتي عشرة مرّة في القرآن الكريم، كما تبيّن في الآيات السابقة، لكن بوكاي ارتكز هنا على قصور الترجمات التي تترجم هذه الآيات القرآنيّة نتيجة القصور في ألفاظ اللغة الفرنسيّة -وهو ابن اللغة الفرنسيّة، وهو أدرى بشعابها ومسالكها فهي لغته الأمّ- التي لا تفي بمدلول الكلمة في اللغة العربيّة، فهو يعترف بوجود «العجز في اللغة الفرنسيّة عن امتلاك الكلمة الدقيقة

[1]- أنظر: محمّد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن، بيروت، دار الفكر، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، ج٢، ص٣٠٠. أنظر: زغلول النجار، تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم، القاهرة، مكتبة الشروق الدوليّة، الطبعة الثانية، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م، ج٢، ص١٥٨.

المناسبة لها»[1]. والنطفة في المعاجم العربيّة من ضمن معانيها القليل من الماء، أي أنّ الإنسان يُولد من القليل من ماء الرجل؛ ولذا سمّيت نطفة، «فهو إذن يشير إلى كميّة ضئيلة جدًّا من السائل؛ حيث يصبح المعنى الثاني قطرة من الماء»[2].

وقد وقف بوكاي عند قضيّة النطفة أو الكمّيّة الضئيلة من السائل المنويّ، حيث عدّها دليلًا جوهريًّا على توافق القرآن والعلم؛ حيث يقول: «والمهمّ بالخصوص هو أن نشير إلى أنّ قضيّة الكمّيّة الضئيلة من السائل الضروريّ للتلقيح متّفقة بدقّة مع ما نعرفه عنها في هذا العصر»[3].

ح- ولكن ماذا عن طبيعة هذا السائل الملقِّح؟

قبل الإجابة على هذا السؤال تجب الإشارة إلى أنّ هذا السائل له عدّة مسمّيات أو أوصاف غير المنيّ، الماء الدافق والماء المهين والأمشاج أو الأخلاط.

يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ القيامة: ٣٧، هذا هو المعنى الأوّل.

يقول الله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ﴾ سورة الطارق، الآيتان ٦-٧، وهذا هو المعنى الثاني.

يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ سورة السجدة، الآية ٨، وهذا هو المعنى الثالث.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ﴾ سورة الإنسان، الآية ٢.

لقد وقف بوكاي عند بعض أوصاف السائل المنويّ في القرآن كوصف المهين، وهو يرجّح أنّ هذا الوصف ليس من جهة نوعيّة السائل المنويّ، ولكن الوصف

---

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٣٩.

[٢]- م.ن، ص٢٣٩.

[٣]- م.ن، ص٢٣٩.

هنا من جهة أنّه يصدر من نهاية الجهاز البوليّ، مستعيرًا المجرى الذي يخرج منه البول[1]. لكنّنا نختلف مع بوكاي هنا؛ لأنّ طبيعة المنيّ السائل الذي يخرج من البول له رائحة كريهة تحمل الوصف ذاته. وإن كان من الباحثين من علّل وصفه بالمهين لقلّته وضعفه[2].

كما وقف بوكاي عند تحليل بعض القدماء والمحدثين لمعنى أمشاج، حيث وجد أنّ القدماء لم يقفوا على فكرة فيزيولوجيّة التلقيح، وبخاصة ظروفها البيولوجيّة من جهة المرأة، ولا شكّ أنّ ذلك ناشئ من عدم توافر المادة العلميّة لديهم نتيجة تأخّر اكتشافات العلم الحديث، ومن ثمّ فقد وقف تفسيرهم عند النظر إلى كلمة أمشاج على أنّها مجرّد التقاء عنصرين[3]. لكنّه أشاد في الوقت ذاته إشادة كبيرة بتفسير المنتخب المنشور من قبل المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة بالقاهرة الذي صحّح هذا الفهم، فاتّجه مفسّروه إلى أنّ السائل المنويّ مشحون بعناصر مختلفة، «من نطفة ذات عناصر شتى»[4]، وإن أشار بوكاي إلى أنّهم لم يفصلوا الحديث في هذا الأمر، مع إقرارهم بمعقوليّة ملاحظتهم هذه[5].

وقد اتّخذ بوكاي من ملاحظة تفسير المنتخب منطلقًا لبيان الجوانب العلميّة فيها، حيث أكّد على أنّ السائل المنويّ يتكون من عناصر مختلفة، فهو عبارة عن رشحات تنطف من الغدد الآتية[6]:

الغدد المنويّة للذكورة، والرشح الذي يخرج منها يحتوي على السبروماتوزوييد، وهو خلايا متطاولة مزوّدة بشعيرات مطمورة في سائل حليبيّ.

---

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٤٠.

[٢]- أنظر: محمّد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن، ج٨، ص٣٠٤.
انظر: زغلول النجار، تفسير الآيات الكونيّة في القرآن الكريم، ج٤، ص٢٦٣.

[٣]- ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج٢٤، ص٩٠.

[٤]- المنتخب في تفسير القرآن، تأليف لجنة من علماء الأزهر الشريف، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، بدون تاريخ، سورة الإنسان، آية ٢.

[٥]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٤٠.

[٦]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٤٠-٢٤١.

المبايض، وهي خزّانات للسبروماتوزوييد موجودة قريبًا من البروستات، ولها رشح خاصّ خال من عناصر التلقيح.

ـ البروستات، وهي ترشّح بسائل يكسب المنيّ لونه ورائحته.

ـ الغدد المساعدة للمسالك البوليّة، ترشّح بسائل سلس.

وهو يرى أنّ الأمشاج المنصوص عليها في القرآن تتألّف من كلّ هذا، «على أنّه بالإضافة إلى ما سبق إذا تكلّم القرآن عن سائل ملقَّح مكوَّن من عناصر مختلفة، فهو ينبّهنا إلى أنّ نسل الإنسان يتحقّق من بعض الأشياء التي يمكن أن تكون مستخرجة من هذا السائل»[1]. وهو يقصد قول الله تعالى: ﴿**ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ**﴾ سورة السجدة، الآية ٨. والسلالة هنا تعني جزءًا من كلّ، أو خلاصته[2].

إنّ الذي يُكسب البويضة اللقاح ويؤمّن عمليّة التكاثر خليّةٌ طوليّة الشكل، يبلغ طولها عشرة آلاف من المليمتر، وهناك عنصر واحد من عشرات الملايين المتدفّقة من منيّ الإنسان في ظروفه الطبيعيّة يتوصّل للدخول إلى البويضة في حين تبقى ملايين في الطريق دون التمكّن من الوصول إلى البويضة من مدخل الرحم عبر فجوة الجهاز التناسليّ الأنثويّ وخرطومها[3].

ومن ثمّ فإنّ الذي أبدى فاعليّة ونشاطًا هو عنصر دقيق جدًّا أو جزء دقيق من كلّ يبلغ الملايين من هذا الجزء، انفصل من السائل المنويّ شديد التعقيد[4]، ومن ثمّ يتساءل بوكاي في نبرة انبهار واندهاش: فكيف لا ندهش من الاتفاق القائم بين نصّ القرآن والمعرفة العلميّة التي توصّلنا إليها في هذه الظواهر؟![5] وإن

[١]- م.ن، ص٢٤١.

[٢]- أنظر: زغلول النجار، تفسير الآيات الكونية في القرآن المريم، ص٥٨.

[٣]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٤١.

[٤]- أنظر: زغلول النجار، تفسير الآيات الكونيّة في القرآن المريم، ص٥٨.

[٥]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٤١-٢٤٢.

كان هذا يشير إلى هذا الاتفاق، فإنّه يشير في الوقت ذاته إلى بعض من مظاهر قدرة الله تعالى في الكون، ومن هذه المظاهر ما كشفه العلم من عدد الحيوانات المنويّة في الدفقة الواحدة، فالسنتيمتر المكعّب من المنيّ يحتوي على ٢٥ مليونًا من السبروماتوزوييد بظروف طبيعيّة بالدفقة من بعض السنتيمترات المكعّبة[1].

وعندما تلقّح البويضة في الخرطوم، فإنّها تنزل إلى قرارها داخل الرحم، وهذا ما يسمّيه بوكاي حضانة البويضة، وقد ربط بين هذا المعطى العلميّ وبين القرآن الكريم، فالقرآن الكريم يطلق على المكان الذي تستقرّ فيه البويضة الملقّحة بالرحم، مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ سورة الحج، الآية ٥. ولكن ليست هذه هي قضيّة التوافق الوحيدة بين العلم والقرآن في هذا الموضوع فقط، بل هناك قضيّة أخرى، وهي قضيّة التعلّق أو العلق، حيث «يتحقّق استقرار البويضة في الرحم بنموّ الزغابات أي الامتدادات الحقيقيّة للبويضة التي تتشعّب كالجذور في الأرض؛ لتمتصّ من سماكة العضو ما هو ضروريّ لنماء البويضة، هذه التخلّقات تعلّق بالبويضة في الرحم تعلّقًا قويًّا، وهذه كلّها لم نعرفها إلّا في هذه الأزمان الحديثة»[2].

وقد وقف بوكاي على خمس مواضع في مسألة التعلّق أو العلق في القرآن الكريم، منها قول الله تعالى:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ سورة العلق، الآية ٢.

﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ سورة الحج، الآية ٥.

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ سورة المؤمنون، الآية ١٤.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ سورة غافر، الآية ٦٧.

---

[١]- انظر: ترجمة موريس بوكاي، مرجع سابق، هامش ص٢٤١.

[٢]- م.ن، ص٢٤٢.

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ سورة القيامة، الآيتان ٣٧-٣٨.

لكن بوكاي عمد إلى الاستدلال لنا من الناحية العلميّة على قضيّة مهمّة وهي مراحل تطوّر الجنين التي ذكرها القرآن، والتي تتوافق تمامًا مع معطيات العلم الحديث، فقد وقف بوكاي عند هذه القضيّة بوصفها واحدة من القضايا التي تثبت التوافق التام بين القرآن والعلم. ومن ثمّ يقول: «إنّ وصف مراحل تطوّر الجنين كما هو في القرآن يتجاوب مع كلّ ما نعرفه اليوم عن ذلك، وهو لا يحتوي أيّ عبارة ينتقدها العلم الحديث»[1].

ومن ثمّ نفهم أنّ العلق أو التعلّق عند بوكاي هو عبارة عن شيء ما يتعلّق بجدار الرحم، ثمّ يمرّ بمرحلة المضغة أي قطعة مثل قطعة اللحم الممضوغ، ثمّ مرحلة تكوّن العظام الذي يُكسى بعدها باللحم، ثمّ الإنشاء خلقًا آخر، ثم المخاض[2]، مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ سورة المؤمنون، الآية ١٤.

ويفسّر بوكاي مراحل تكوّن الجنين تفسيرًا علميًّا يتوافق مع الآية الكريمة؛ حيث يقول معلّقًا: «والجنين في البداية هو كتلة لها بالنسبة للعين المجرّدة في بعض مراحل نموها هيئة المضغة. والهيكل العظميّ يتطوّر في حضن هذه الكتلة فيما نسمّيه المشيمة، وعندما تتكون العظام تنكسي بالكتل العضليّة التي ينطبق عليها كلمة اللحم»[3].

ومن ثمّ فقد وقف عند كلمة خلق أو تخلّق؛ حيث فسرها على أنّها تكوّن بانسجام. والحقيقة أن القرآن في قضيّة خلق الإنسان أو تطوّر الجنين وإن كان

[١]- أنظر: ترجمة موريس بوكاي، مرجع سابق، هامش ص٢٤٢.

[٢]- أنظر: عبد الرحيم خير الله الشريف، شبهات حول مراحل تكوّن الجنين، على الموقع التالي: https://quran-m.com

[٣]- أنظر: ترجمة موريس بوكاي، مرجع سابق، هامش ص٢٤٤.

يقدّم لنا صورة من صور الإعجاز العلميّ، فإنّه يقدّم صورة واضحة منسجمة عن هذا الخلق أو التطوّر. أنظر مثلًا إلى قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ سورة الحج، الآية ٥. فضلًا عما ركّبه الله تعالى في الجنين من سمع وأبصار، أفئدة، يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ سورة السجدة، الآية ٩.

وقضيّة تطور الجنين في مراحل تطوره المختلفة جديرة بالتأمّل والدراسة، ولذلك دعا بوكاي إلى مقارنة النصوص القرآنيّة هنا بالمعلومات المثبتة في هذا العصر، والتي تظهر اتّفاقًا واضحًا. إلّا أنّه من المهمّ أيضًا عنده أن تتمّ مقارنتها مع المعتقدات العامّة في هذا الموضوع التي كانت منتشرة زمن الوحي القرآنيّ؛ وذلك للتأكّد إلى أيّ درجة كان الناس في ذلك الزمن بعيدين على أن تكون لهم رؤية شبيهة بتلك التي عرضها القرآن[1].

ولعلّ المقارنات التي يعقدها بوكاي لتؤكّد الفرق الشاسع بين المعطى القرآنيّ الذي يقدّمه القرآن والمعطى الذي تقدّمه الخرافات والأوهام التي ظلّ الغرب مؤمنًا بها لعقود طويلة حتى وقت قريب، خاصّة تلك الخرافات والأوهام التي تتعلّق بالجنين والتي لا أساس لها من الصحّة رغم شهرتها وتنوّعها طيلة القرون الوسطى[2]. فقد وقف على ما أسماه المرحلة الأساسيّة في علم الجنين، مستندًا في ذلك إلى ما أكّده هارفي في عام ١٦٥١م بأنّ كلّ من يعيش يأتي أوّلًا من بيضة، وأنّ الجنين يتكوّن ويتطوّر جزءًا بعد جزء. وعلى الرغم من أنّ بوكاي لم يكن ليقبل بمثل هذا الرأي – لأنّه لا يقبل بالخرافة، ولكنّه كان يؤرّخ هنا لبداية نشأة علم الأجنّة أو الجنين، وهو يقرّ بأنّه وإن كان العلم في طور نشأته في هذا العصر فإنّه أخذ يستفيد كثيرًا من اختراع المجهر[3]. كما وقف على رأي العالم الطبيعيّ بيفون في

[١]- أنظر: ترجمة موريس بوكاي، مرجع سابق، هامش ص٢٤٤.

[٢]- أنظر: عبد الرحيم خير الله الشريف، شبهات حول مراحل تكون الجنين، على الموقع التالي: https://quran-m.com

[٣]- أنظر: ترجمة: موريس بوكاي، مرجع سابق، هامش ص٢٤٤-٢٤٥.

نشأة الجنين وتطوّره والذي كان من مجموعة المؤمنين بالأصل البيضويّ مع العالم بوني الذي دعم نظريّة اندماج البذرة المنويّة، أي أنّ مبيض حواء أم البشر كان يحوي بذر كلّ الكائنات البشريّة مندمج بعضها ببعضها الآخر[1].

هذه الفرضيّات لاقت قبول بعض العلماء حتى القرن الثامن عشر الميلاديّ، إلى أن بدأ العلم يتوصّل شيئًا فشيئًا إلى مجموعة الحقائق حول نشأة الجنين وتطوّره، حيث بلغ ذلك قرونًا وأجيالًا، في الوقت الذي أخبرتنا نصوص القرآن منذ مئات السنين التي تربو على ١٤٠٠عام عن تطوّر الجنين بصورة تتوافق مع ما يتوافق مع ما انتهى إليه العلم الحديث، ومن ثمّ يقول بوكاي: «لقد كانت هذه النصوص -نصوص القرآن- عن التكاثر البشريّ تعبّر في كلمات بسيطة عن حقائق أوّليّة استغرق اكتشافها من الناس أجيالًا»[2].

خ- ولكن ماذا عن التربية الجنسيّة في القرآن باعتبارها أداة التكاثر ووسيلته؟! هل نظم الإسلام هذه القضيّة وقعد القواعد لها؟

لا شكّ أنّ القرآن الكريم قد وضع نظامًا يقوم على مجموعة من القواعد والشروط الواجبة لإقامة علاقة سليمة تؤسّس لتربية جنسيّة راقية وصحّيّة[3]، بحيث لا نجد لها نظيرًا في أيّ نظام آخر سواء أكان دنيويًّا أو دينيًّا. وقد راعى في هذا النظام مختلف المواقف في حياة الإنسان: في وقت الحج، وفي أثناء الصيام، وفي وقت الحيض، وفي وقت الليل أو النهار، إلى غير ذلك من المواقف، بحيث يكون الإنسان على بيّنة من دينه في هذه القضيّة. لكن إذا كانت القضيّة قضيّة عبادة في وقت الحج وأثناء الصيام، فإنّها تنبني على بعد صحّيّ في قضيّة وقت الحيض؛ لأنّ وجود علاقة جنسيّة أثناء الحيض يؤدّي إلى أضرار وأمراض كفّها عن الإنسان بالنهي عنها في وقت الحيض[4].

---

[١]- م.ن، هامش ص٢٤٤-٢٤٥.

[٢]- م.ن، هامش ص٢٤٥.

[٣]- فاروق عطية يوسف بخيت، التربية الجنسيّة في ضوء القرآن الكريم والسنة، رسالة ماجستير في أصول الدين بكلّيّة الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنيّة، نابلي - فلسطين، ص٣٣.

[٤]- فاروق عطية يوسف بخيت، التربية الجنسيّة في ضوء القرآن الكريم والسنة، ص٢٧، ٣٣.

كان بوكاي من جانبه يرى أنّه وإن كان العلم الحديث قد قاد إلى العديد من الاكتشافات في كلّ الحقول، واعتقد بأنّه أتى بجديد في مجال التربية الجنسيّة وأنّ العلم الحديث قاد الشباب إلى الانفتاح على معرفة مسائل الحياة، في الوقت الذي يحمّلون فيه الأديان أخطاء الجهل في العصور السابقة – فإنّه يرى في ذلك دليلَ برهانٍ وتأكيدٍ للقرآن لا دليلَ نقدٍ أو نقضٍ. وهو يؤكّد على ذلك قائلًا: «منذ أربعة عشر قرنًا طُرحت مسائل نظريّة -إذا صحّ القول- تتعلّق بالتكاثر البشريّ، مع العلم أنّهم ما كانوا يملكون معطيات في علم التشريح وعلم تركيب الأعضاء تساعد على تطوّرات واسعة، وأنّه كان ينبغي لكي يكون مفهومًا الاستعانة بلغة سهلة ومتجانسة مع القدرة العقليّة لسامعي الموعظة»[1].

ولا شكّ أنّه يقصد تلك الممارسات التي تتعلّق بالتربية الجنسيّة والتي وضحها القرآن في أكثر من آية من آياته[2]، والتي تنظّم له هذه الجزئيّة من حياته، والتي تعدّ وسيلة لتعمير الكون.

ويؤكّد بوكاي على أن قضيّة العلاقة الجنسيّة في القرآن أثيرت بتعبير صريح وبكلمات تجمع ما بين رغبة التدقيق وبين ضرورة الاحتشام، وهو يقصد قول الله تعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ سورة الطارق، الآيتان ٦-٧. وقد انتقد في ذلك تلك الترجمات الغربيّة حول الآيتين، فقد صدم على حدّ تعبيره من اختلافها وتباعدها، إلّا أنّه اعترف بأنّه مدين في الوصول إلى فهم صحيح لهما للعالم أ. ر جيرو، أستاذ قديم بكلّيّة طبّ بيروت. ومن ثمّ يقول في تفسيره لهاتين الآيتين: «لقد عبّر القرآن عن الناحية الجنسيّة في الرجل بكلمة صلب بالمفرد، كما عبر عن الناحية الجنسيّة في المرأة بكلمة الترائب بالجمع»[3].

ومن ثمّ فقد كانت هذه الترجمة هي الترجمة المقبولة عنده، في حين كانت

---

[١]- انظر: ترجمة موريس بوكاي، مرجع سابق، هامش ص٢٤٥.

[٢]- للمزيد انظر: عبد الدايم الكحيل، الثقافة الجنسيّة بين العلم والقرآن، على الرابط التالي:
http://www.kaheel7.com/ar/index.php/2010- 02- 02- 22- 25- 21/ 1966- 2016- 08- 20- 18- 16- 09.

[٣]- أنظر: ترجمة: موريس بوكاي، مرجع سابق، هامش ص٢٤٦.

الترجمات الفرنسيّة والإنجليزيّة غير مقبولة بالنسبة له؛ كونها تبدو في صورة اختلاف في التأويل أكثر من كونها ترجمة، فضلًا عن كونها غير مفهومة، وهذا نصّها: «خلق الإنسان من سائل دافق يخرج من بين خرزة الظهر وعظم الصدر»[1]. ولا شكّ في أنّ ترجمة كهذه لا تفي بالمعنى مطلقًا؛ لأنّها لا تناسب دلالة الآيتين أوّلًا، كما أنّها تبعد بها عن معناها الدقيق ثانيًا، فضلًا عن أن تلغي إعجازها العلميّ ثالثًا.

وتعدّ آيتا المحيض من الآيات التي تدلّ على تنظيم القرآن للعلاقة الجنسيّة تحقيقًا للمتطلّبات الصحيّة، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ سورة البقرة، الآيتان ٢٢٢-٢٢٣.

فالقرآن يوجّه هنا إلى ضرورة مراعاة الدورة الشهريّة للمرأة وعدم إقامة العلاقة الجنسيّة في تلك الفترة لمتطلّبات صحيّة[2]؛ لأنّ المحيض أذى، ما يعني أنّ هناك ضررًا واقعًا من جراء العلاقة إذا تمّت في هذه الفترة الزمنيّة، فالله تعالى لا ينهى إلّا لخير ولا يأمر إلّا لخير. وقف بوكاي من جانبه على دلالتين في هاتين الآيتين: الأولى تتعلّق بتحريم العلاقة الجنسيّة مع المرأة وقت الحيض، والتحريم هنا تحريم صريح، والثانية تتعلّق بكلمة الحرث، فقد لفت النظر إلى أنّ الحرث الذي يسبق بالنسبة للحارث وضع البذرة التي ستنبت وتكون غرسة جيّدة، بل لقد سلّط الضوء على تصوير القرآن وبطريقة غير مباشرة في الاهتمام بمعرفة المرء أنّ غاية العلاقة الجنسيّة البعيدة هي النسل[3].

فضلًا عن أنّ الحيض ذكر في القرآن في معرض الحديث عن الطلاق، وذلك في

---

[١]- م.ن، هامش ص٢٤٥.

[٢]- للمزيد انظر: عبد الدايم الكحيل، الثقافة الجنسية بين العلم والقرآن، على الرابط التالي:
http://www.kaheel7.com/ar/index.php/2010- 02- 02- 22- 25- 21/ 1966- 2016- 08- 20- 18- 16- 09.

[٣]- أنظر: في شرح هذه القضيّة، سيد قطب، في ظلال القرآن، ص٢٢١.

قول الله تعالى: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ سورة الطلاق، الآية ٤. فالآية تشير إلى فترة العدّة المحدّدة شرعًا لمن أصابهنّ انقطاع الحيض نهائيًّا، وهي فترة ثلاثة أشهر، وبعد انتهاء فترة العدّة يجوز للمعتدّة الزواج بمن شاءت.

ولكن ماذا عمّن لم يصبهنّ الحمل بعد؟ وماذا عن الحوامل؟ يجيب بوكاي: «أمّا النساء اللواتي لم يحضن بعد فعليهنّ ترقّب زمن الحمل، أمّا الحوامل، فلا ينفذ طلاقهنّ إلّا بعد وضع الحمل»[1]. ويحمل النصّ هناك أمرين يُنتقد بوكاي لأجلهما، أمّا الأوّل فهو ظنّه أنّ عدّة اللائي يئسن من المحيض تختلف عن اللائي لم يحضن بعد، وهذا خطأ؛ لأنّ الآية تشير إلى أنّهما سواء بسواء في العدّة التي تبلغ ثلاثة أشهر. أمّا الثاني فهو ظنّه أنّ الطلاق لا ينفذ على الحوامل إلّا بعد الولادة، وهذا خطأ أيضًا؛ لأنّ الطلاق نافذ بالفعل على المطلقة سواء التي انتهت عدّتها أو التي لم تنته، وإن كان يمكن مراجعتها من قبل زوجها أثناء العدة.

وقضيّة التكاثر هنا بما ترتبط به من علاقة جنسيّة استدعت قضيّة أخرى وهي احترام القرآن المطلق لحياة الإنسان، وبناءً عليه رفض بوكاي إسقاط الجنين؛ إذ يرى أنّ القرآن وإن كان لم يذكر موضوع إسقاط الجنين، فإنّ النصوص القرآنيّة العديدة عن التطوّرات المتعاقبة للجنين، هي من الوضوح بحيث يكون معها الإنسان متشكّلًا منذ مرحل العلقة، «وفي هذه الظروف فإنّ احترام القرآن المطلق للإنسان -المؤكّد دائمًا فيه- يستلزم استنكار عمليّة الإسقاط، وهو الموقف الذي تقفه جميع الديانات الموحّدة في هذا العصر»[2].

وحسن ما انتهى إليه بوكاي من احترام القرآن للنفس الإنسانيّة؛ فالإسلام لا يقبل وأدًا ولا قتلًا، حتى مع اختلاف الفقهاء في المدّة التي يجوز فيها إسقاط الجنين لمبرّر، فهناك من قال قبل أربعين يومًا، وهناك من قال قبل مئة وعشرين يومًا، إلّا

[١]- أنظر: ترجمة موريس بوكاي، مرجع سابق، هامش ص٢٤٨.

[٢]- م.ن، هامش ص٢٤٦.

أنّ الجميع يتّفق على حرمة ذلك، وإن كان ليس هناك نصّ صريح في ذلك، فإنّ المعطيات التي يقدّمها القرآن في آياته السابقة تقود إلى ذلك.

أمّا في قضيّة علاقة التربية الجنسيّة بالصيام، فنحن نستنتج ذلك من قول الله تعالى: ﴿حِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ سورة البقرة، الآية ١٨٧. فنحن نستنتج من الآية حرمة العلاقة الجنسيّة وقت النهار لوجود مانع الصيام طوال الشهر نهارًا، في حين تكون العلاقة مباحة ليلًا.

في حين نجد الوضع مختلفًا في شعيرة الحج؛ إذ يقول الله تعالى: ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ سورة البقرة، الآية ١٩٧. وهذ تحريم للعلاقة طوال فترة الحج، فليس هناك جواز بأيّ صورة من الصور.

لكن يُلاحظ على بوكاي في مسلكه تجاه هذه القضيّة أمران:

الأمر الأوّل: أنّ بوكاي في كثير من المواضع ينبّه إلى وجود توافق بين العلم والقرآن دون أن يدلي بدلو العلم في القضيّة حتى يتبيّن للقارئ كنه هذا التوافق ومقداره، وهذا ما حدث تفصيلًا في بعض القضايا، منها تلك القضايا المتعلّقة بالتكاثر البشريّ أو ما يتعلّق بها من طلاق وترمّل للنساء. والذي يدلّك على ذلك قوله: «كل هذا التشريع كامل الانسجام مع المعطيات الفيزيولوجيّة. ونستطيع أن نجد في القرآن بالإضافة إلى ذلك في النصوص التي تعالج الترمّل نفس الإجراءات التشريعيّة البصيرة». ولم يقدّم لنا بوكاي بعد هذ التعليق شيئًا يدلّل به على مسعاه كما كان يفعل في العديد من القضايا السابقة. فلم يوضح لنا كيف يقدّم العلم لنا دليلًا على استحسان العدّة للمطلّقة أو للحامل أو المترمّلة، نعم نحن نعلم العديد من الشواهد العلميّة التي تتوافق مع النصّ القرآنيّ، إلّا أنّ الإشكاليّة تكمن في أنّ بوكاي لم يتعرّض لذلك بشيء.

الأمر الثاني: أنّه ينتقي بعض الموضوعات هنا للتدليل عليها علميًّا بشيء من

التفصيل؛ بحيث يوضح للقارئ العلاقة التوفيقيّة من خلال الشواهد والأدلّة والمعطيات العلميّة التي يطرحها. من ذلك ما يقول فيه بوكاي عن التكاثر: «كذلك بالنسبة للمعلومات النظريّة المتعلّقة بالتكاثر -كما في الإرشادات العمليّة المقنّنة التي تحدّثنا عنها بمناسبة الحياة الجنسيّة للزواج- نلاحظ بأنّه ليس من واحد منها يتعارض مع معطيات المعارف الحديثة، ولا مع ما يمكن أن يتفرّع عنه منطقيًّا»[1]. والتدليل علميًّا على بعض القضايا في النصّ القرآنيّ دون البعض الآخر من قبل بوكاي هو من نواقص المشروع البوكايي. خاصّة أنّ الكتاب موجّه بالأساس إلى القارئ الغربيّ الذي يحمل أفكارًا سيّئة عن الإسلام؛ نتيجة الهالة المصطنعة حوله والتي تساهم في تشكيل أفكاره المغلوطة عنه، ومن ثمّ فإنّ هذا القارئ في حاجة إلى أن تدلّل له على كلّ قضيّة علميّة ترى توافقها مع القرآن وتبيّن له ذلك، أمّا أن تترك له الأمر دون توضيح، فإنّه سيعدّ الكلام نوعًا من الخطابيّة المفتقرة إلى دليل.

[١]- أنظر: ترجمة: موريس بوكاي، مرجع سابق، هامش ص٢٤٨.

الباب الثالث

قراءة النصّ القرآنيّ والنقد التاريخيّ

تمهيد

لا شكّ في أنّ القرآن الكريم تضمّن أخبارًا تاريخيّة كثيرة عن الأمم السابقة على أمّة الإسلام وعن بعض الأحداث التاريخيّة، كذلك عن الرسل والأنبياء قبل سيّدنا محمّد، كنوح وإبراهيم وإدريس وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء الذين قصّ علينا القرآن أخبارهم، كذلك عن قصّة بدء الخلق من لدن سيّدنا آدم أبي البشر وقصّة دخوله الجنّة وخروجه منها وغيرها من القصص. وما يلفت الانتباه -وهو ما لفت انتباه بوكاي أيضًا- أنّ كثيرًا من هذه الموضوعات التاريخيّة تناولتها التوراة بصورة أو بأخرى، مع اختلافات في القصص طولًا وقصرًا، صحّة -كما في القرآن- وكذبًا كما في بعض روايات التوراة. إنّنا نجد في التوراة أخبارًا عن عدد من رسل الله تعالى: نوح وإبراهيم ويوسف وداود وسليمان وغيرهم من الرسل، كما أنّ هناك أخبارًا عن عدد من الأحداث الكبرى كخلق السماوات والأرض، وخلق الإنسان، والطوفان أيّام سيّدنا نوح، وخروج موسى، وسيّدنا عيسى وولادته.

ونعني بالنقد التاريخيّ ذلك النقد الذي أخضع له بوكاي نصوص القرآن التي تتحدّث عن وقائع تاريخيّة حدثت بالفعل أو روايات يتضمّنها النصّ والاستدلال من خلال النقد التاريخيّ على توافقه مع المعطيات التاريخيّة العلميّة من عدمه.

وقد اهتم بوكاي كثيرًا بالبحث في الروايات التاريخيّة في القرآن والتي لها علاقة ما بالروايات التوراتيّة حول الموضوع ذاته محلّ البحث.

أراد بوكاي في هذه الدراسة التاريخيّة لنصوص التوراة والقرآن أن يكشف من خلال الموازنة بينهما عن التوافق بينها وبين العلم الحديث، ومن ثم فقد عمد إلى دراسة النصوص هنا وهناك دراسة نقديّة في الوقت ذاته، مستعينًا في ذلك بما انتهى إليه علم التاريخ من أحداث موثوقة، وبما تقدّمه الآثار الباقية الدالّة على ذلك كالنقوش والوثائق القديمة.

لقد كان ينظر إلى المعارف التاريخيّة على أنّها تبدو كثيرة الاختلاط، في الوقت الذي كان يدرك فيه أنّ معطيات الآثار هي من النقص بحيث لا يتيسّر معها عقد مقارنات في ضوء المعارف الحديثة، في مسائل تتعلّق بسلوك إسرائيل محور الروايات المشتركة بين التوراة والقرآن[1].

ولكنّه وقف عند موضوعين من الموضوعات التاريخيّة المهمّة التي ورد ذكرها في التوراة والقرآن الكريم، وهما موضوعان جوهريّان ويمثّلان بعدًا محوريًّا في تشكّل العقيدة التي يدين بها أتباع كتاب منهما، كما أنّهما جذبا انتباهه، فدرسهما في ضوء المعارف الحديثة، وهما موضوعا: الطوفان أيّام سيّدنا نوح، وخروج موسى. فالموضوع الأوّل -الطوفان- عمد فيه بوكاي إلى دراسته في النصوص التوراتيّة والنصوص القرآنيّة في ضوء العلم الحديث، خاصّة تاريخ المدنيّات؛ كي يتبيّن له مَن منهما يتوافق مع المعطيات العلميّة الحديثة، ومن منهما يتناقض معها. أمّا الموضوع الثاني، فقد وقف على أنّ الرواية التوراتيّة والرواية القرآنيّة تبدوان في الخطوط العريضة مكمّلة الواحدة منهما الأخرى، وعلى أنّ المعطيات الحديثة تبدو حاملة لأحدهما كما للأخرى سندًا تاريخيًّا مهمًّا[2].

[1]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٥٣.

[2]- م.ن، ص٢٥٣.

الفصل الأوّل

الطوفان والنقد التاريخيّ

الفصل الأول

الطوفان والنقد التاريخيّ

بدأ بوكاي حواره هنا بالتذكير بالرواية التوراتيّة[1] مبيّنًا الانتقادات التي طالتها، فقد تنبّه إلى أنّ التوراة لا تحتوي على رواية واحدة، بل تحتوي على روايتين كُتبتا في عصرين مختلفين، فهناك الرواية اليهوديّة التي كُتبت في القرن التاسع قبل الميلاد، وهناك الرواية الكهنوتيّة التي كتبت في القرن السادس قبل الميلاد. كما أشار بوكاي مؤكّدًا على أنّ الروايتين ليستا موجودتين الواحدة بجانب الأخرى، وإنّما كانتا متداخلتين، بحيث توجد عناصر إحداهما مدرجة بين عناصر الأخرى، مع تعاقب فِقر مرجعيّة مأخوذة من مرجع وفِقر أخرى من مرجع ثان. «ويظهر شرّاح ترجمة سفر التكوين الموضوعة من قبل الأب دوفو الأستاذ في المدرسة التوراتيّة في القدس التوزيع الكامل لهذه الفقر بين المرجعين، تبدأ الرواية لتنتهي لفقرة يهويّة، عشر فقرات يهويّة توجد في المجموع، بين كلّ واحدة منها تدرج فقرة كهنوتيّة، فتكون تسع فقرات كهنوتيّة في المجموع»[2].

وهنا مكمن الخطورة عند بوكاي؛ لأنّ هذا تلوين في النصوص، ومن ثمّ فهو لا يحقّق الانسجام في صور تتابع الأحداث، خاصّة إذا علمنا أن بين المرجعين تناقضات صارخة؛ مستندًا إلى ما ذكره الأب دوفو بأنّهما تاريخان لمصيبة الطوفان وقعت بحسبهما من عوامل مختلفة وفي فترة زمنيّة مختلفة حمل فيها نوح في السفينة عددًا مختلفًا من الحيوانات[3].

وقد أخضع بوكاي الرواية التوراتيّة للطوفان لميزان معطيات المعارف الحديثة، حيث وجدها أنّها غير مقبولة من ناحيتها، مستندًا في ذلك إلى دليلين: الأوّل: أنّ العهد القديم يصفة بأنّه طوفان عالميّ، الثاني: أنّه في الوقت الذي لم تذكر فيها

---

[١]- يمكن الرجوع إلى سفر التكوين.

[٢]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٥٤.

[٣]- م.ن، ص٢٥٤.

الفقر ذات المرجع اليهويّ تاريخًا للطوفان، نجد أنّ الرواية الكهنوتيّة على العكس من ذلك تحدّد زمنًا في عصر لا يمكن حدوث طوفان من هذا النوع فيه[1].

وقد حاول بوكاي الاستدلال على موقفه هذا بعدد من الأدلّة التي يقود العقل إليها، فأوّل ما استدلّ به أن الرواية الكهنوتيّة أكّدت بأنّ الطوفان وقع وكان نوح يبلغ من العمر ستمئة سنة، في حين أنّ الأنساب في الفصل الخامس من سفر التكوين تؤكّد بأنّ نوحًا ولد في سنة ألف وست وخمسين بعد آدم، الأمر الذي استخلص منه بوكاي أنّ الطوفان كان سنة ألف وستمئة وست وخمسين بعد خلق آدم، لكن بوكاي ربط بين ذلك وبين ما جاء في لائحة نسب إبراهيم الموضوعة في سفر التكوين ١١، ١٠ – ٣٢ التي سمحت له بأن يقدّر بأنّ إبراهيم ولد سنة مئتين واثنين وتسعين بعد الطوفان، ومن ثمّ فإنّه إذا كنّا نعلم أنّ إبراهيم كان يعيش حوالي ألف وثمانمئة وخمسين قبل ميلاد المسيح، فالطوفان إذن حسب التوراة كان في القرن الواحد والعشرين أو الثاني والعشرين قبل المسيح. «هذا الحساب متّفق تمامًا مع إشارات التوراة القديمة التي كان تظهر فيها هذه التحقيقات التاريخيّة في وضع لائق قبل النصّ التوراتيّ في فترة كان غياب المعارف الإنسانيّة في هذا الموضوع يجعل المعطيات التاريخيّة التوراتيّة بسبب عدم وجود الأدلّة المقابلة مقبولة دونما نقاش من قرّائها»[2].

ومن ثمّ فإنّ بوكاي لم يكن ليتصوّر -وما كان له أن يتصوّر- بأنّ طوفانًا عالميًّا حسب الرواية التوراتيّة هدم الحياة على وجه الأرض كلّها باستثناء مَن بالسفينة في القرن الحادي والعشرين أو الثاني والعشرين قبل ميلاد المسيح[3]، في الوقت الذي كانت فيه في ذلك العصر حضارات مزدهرة في عدّة جهات من الأرض، والتي انتقلت مدنيّاتها إلى الأجيال اللاحقة، كما هو الحال في مصر وحضارتها؛ حيث

---

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٥٥.

[٢]- م.ن، ص٢٥٥.

[٣]- وهذه الفرضيّة فرضيّة عالميّة الطوفان يؤكّد عليها عدد كبير من الباحثين، انظر: على سبيل المثال:
فاضل عبد الواحد على، الطوفان في المراجع المسماريّة، الناشر جامعة بغداد، بدون تاريه، ص١٨٥ وما بعدها.
أحمد منصور، بالأدلة القرآنيّة سفينة نوح غواصة فضائيّة، طبعة ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م، ص٣.

كانت هذه الفترة في مصر هي فترة الدولة الوسطى التي تلت الأمبراطويّة القديمة الدولة القديمة، وقد كانت حضارة الدولة الوسطى حضارة كبيرة. «أمّا وقد تأكّدنا مما نعرفه من تاريخ هذه الحقبة، فإنّ من المضحك دعم من يقول بأنّ الطوفان هذا قد انهدمت به كلّ المدنيّات إذ ذاك»[1].

هذا يعني أنّ بوكاي قد سلك ثلاث طرائق في سبيل التأكيد على خطأ الرواية التوراتيّة، وهما:

الأوّل: طريق مقابلة النصوص التوراتيّة بعضها ببعض، ووضعها في موضع التناقض؛ لا ليًّا لعنق النصّ، ولكن لما يقوم عليه النصّ من مضمون يفصح بهذا التناقض الصريح.

الثاني: طريق المعارف الحديثة التي تبيّن استحالة حدوث الطوفان في تلك الفترة الزمنيّة التي صرّحت بها الرواية التوراتيّة، وإنّما تحكم -بكلّ تأكيد- بعكس ما ذهبت إليه.

الثالث: طريق العقل الذي يؤكّد على أنّ فترة كهذه شاع فيها عدد من المدنيّات والحضارة في العالم -في الوقت الذي تشير الرواية التوراتيّة إلى عالميّة الطوفان، ما يعني أنّه غطى الأرض كلّها- فلا شكّ أنّها رواية خاطئة.

ومن ثمّ فقد تضافرت الطرائق الثلاثة: مقابلة النصوص، والمعارف الحديثة، وطريق العقل على بيان خطأ ما ذهبت إليه الرواية التوراتيّة، وما تضمنته من أحكام حول قضيّة الطوفان[2].

بل إنّ بوكاي اتخذ من هذا التضارب في الروايات منطلقًا إلى التأكيد على ما

---

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٥٦.

[٢]- وهناك من وضعها هذه الرواية التوراتيّة في مقابلة مع الأساطير القديمة والعلم الحديث بيصل إلى نتيجة مخالفة، أنظر: ليون أنيس ليون، الطوفان بين الكتاب المقدّس والأساطير والعلم الحديث، بيروت – لبنان، دار الثقافة، ٢٠٠١م، ص٧ وما بعدها. وانظر: إسماعيل مظهر، قصة الطوفان، القاهرة، مؤسسة هنداوي، ٢٠٢٠م، ص٦٢-٦٣.

أسماه التلاعب بالكتابات المقدّسة[1]؛ لأن الذي قاد إلى هذا التضارب هو البشر؛ لأنّ الله تعالى لا يأتي في أيٍّ من كتبه السماويّة بتناقض حاشا لله تعالى، فهو منزّه عن الخطأ والزلل والنسيان، وإنّما تتأتى هذه الأمور من البشر. وسوف نرى أنّه يرمي في ذلك من طرف خفيٍّ وربما ظاهر إلى أنّ القرآن ليس فيه مثل هذا التناقض؛ فدلّ ذلك على مصدريّته الإلهيّة.

لقد نظر بوكاي للرواية القرآنيّة للطوفان على أنّها عُولجت بطريقة مجملة مختلفة عن تلك الطريق التي تمّت معالجة الرواية التوراتيّة من خلالها في الكتاب المقدّس؛ لذا لم تثر أيّ انتقادات من أيّ نوع تجاهها، فالقرآن لم يسرد للطوفان قصة متتابعة[2]، وإنّما عالج الموضوع في أكثر من آية في أكثر من سورة بهدف بيان العقاب الأليم لقوم نوح؛ بحيث يكون هذا العقاب عظة وتحذيرًا للمسلمين من عدم الالتزام بالطاعة وتنفيذ أوامر الله تعالى، فقضيّة الطوفان صورة من صور بيان مواقف الأمم السابقة من أنبيائهم والجزاء الأليم المترتّب على موقفهم الرافض تجاههم.

وهناك عدد من الآيات القرآنيّة التي تعرض لحادثة الطوفان، ومن الآيات ما نصّ على ذكر كلمة الطوفان حقيقة، ومنها ما أشار إليها بالوصف، وهذه الآيات هي على النحو التالي[3]:

يقول الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ﴾ سورة الأعراف، الآية ١٣٣.

ويقول أيضًا: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ سورة العنكبوت، الآية ١٤.

---

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٥٦.

[٢]- في حين عرض الكتاب المقدّس للرواية التوراتيّة بصورة متتابعة، انظر: سفر التكوين: من الإصحاح السادس إلى الإصحاح التاسع.

[٣]- وهناك آيات أخرى منها أيضًا: سورة المؤمنون: ٢٧: ٣٠، الفرقان: ٣٧. الشعراء ١١٧: ١٢٢، العنكبوت: ١٤-١٥، الصافات: ٧٥-٨٢، سورة غافر: ٥، النجم: ٥٢، القمر: ٩-١٧، نوح: ٢٥-٢٧.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ سورة الأعراف، الآية ٦٤.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ سورة يونس، الآية ٧٣.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ سورة هود، الآية ٣٩.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ سورة هود، الآية ٤٠.

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ سورة هود، الآية ٤١.

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ سورة هود، الآية ٤٢.

﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ سورة هود، الآية ٤٣.

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ سورة هود، الآية ٤٤.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ سورة الأنبياء، الآية ٧٦.

﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ سورة الأنبياء، الآية ٧٧.

فالآيات السابقة تصف الطوفان في أكثر من سورة من سور القرآن الكريم، وهي في التحليل الأخير تشير إلى أمرين: الأوّل: قدرة الله تعالى المطلقة التي لا حدود لها،

وهذا ما أكّدته الآيات فيما أصدره الله تعالى للسماء والأرض من أوامر في طريق نشأة الطوفان وتكوينه. والثاني: عقاب الله تعالى الشديد للمخالفين، فكما أنّ هناك ثوابًا ونعيمًا مقيمًا للمطيع، فكذلك هناك عذاب أليم للعاصي، ويعدّ الطوفان عذابًا أليمًا في الدنيا بخلاف العذاب المقيم في الآخرة لهؤلاء المخالفين.

ويمكن القول إنّ بوكاي يتمسّك بمبدأ رئيس أو فكرة رئيسة بنى عليها الاختلافات بين الرواية القرآنيّة والرواية التوراتيّة، وهو مبدأ أو فكرة عالميّة الطوفان من عدمه، فهذه الفكرة كانت المحور الرئيس لكلّ الأفكار التي قادته إلى دراسة الموضوع وإلى الأحكام التي انتهى إليها؛ حيث يؤكّد على أنّه في الوقت الذي كانت تشير فيه الرواية التوراتيّة إلى عالميّة الطوفان، فإنّه يؤكد في الوقت ذاته على محلّيّته في الرواية القرآنيّة[1].

فبوكاي ظلّ يستدلّ على أنّ التوراة وإن كانت تتحدّث عن طوفان عالميّ لمعاقبة البشريّة التي كفرت كلّها إلّا القليل ممّن آمن، فإنّ القرآن على العكس من ذلك، حيث إنّه ينزل العقوبة على مجموعات محدّدة[2]، خاصّة أنّ القرآن لا يتضمّن إشارة واضحة عن عالميّة الطوفان[3]. ومن جانبنا يمكننا التأكيد على المنابع والمصادر التي استقى منها رأيه هذا، وهي منابع قرآنيّة كما يبدو للناظر، من ذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ سورة الفرقان، الآيات ٣٥-٣٩.

---

[١]- ويميل إلى هذا الرأي بعض الدارسين المعاصرين، انظر:
جمعية التجديد الثقافيّة الاجتماعيّة مؤلف، طوفان نوح بين الحقيقة والأوهام، البحرين، سلسلة عندما نطق السراة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م، ص٩٨ وما بعدها.

[٢]- انظر: جمعيّة التجديد الثقافيّة الاجتماعيّة مؤلف، طوفان نوح بين الحقيقة والأوهام، ص٩٩، ١٠٥.

[٣]- منصور عبد الحكيم، طوفان نوح عليه السلام في القرآن الكريم والأساطير القديمة، دمشق - القاهرة، دار الكتاب العربّي، ص١٣٥.

ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ﴾ سورة الأعراف، الآيات ٥٩-٦٤.

والمتأمّل في هذه النصوص يجد أنّها توحي بالفعل بأنّ العقاب هنا وقع على جماعة محدودة هي قوم سيّدنا نوح[1]، مما يوحي بأنّ الطوفان هنا ليس عالميًّا وإنّما هو محلّيّ، بمعنى أنّه ليس المقصود به أنه عمّ الأرض كلّها، وإنّما كان خاصًّا بقوم سيّدنا نوح عليه السلام. وهذا هو الرأي الذي تحمّس له بوكاي وآمن به وحشد من أجله الآيات القرآنيّة التي تدلّ عليه. وبناء على هذا الرأي فإنّ العقاب كان خاصًّا بقوم سيّدنا نوح، ومن ألوان هذا العقاب في الدنيا الطوفان. ويؤكّد بوكاي هذا المعنى قائلًا: «يبرز القرآن أن ّكارثة الطوفان كانت عقابًا أُعدّ بخاصّة لقوم نوح، وهذا يعدّ المخالفة الأساسيّة الأولى بين الروايتين»[2]، أي الرواية القرآنيّة والرواية التوراتيّة.

وأنا أميل بدوري إلى ما انتهى إليه بوكاي من محلّيّة الطوفان لا عالميّته، وذلك انطلاقًا من ركيزتين: الركيزة الدينيّة والركيزة العقليّة، فهاتان الركيزتان هما المعوّل عليهما في الحكم على القضايا، وإن كنّا نعطي دومًا وأبدًا الأولويّة والأوّليّة للأولى؛ إذ ما دام هناك نصّ فلا يلغي العقل النصّ مطلقًا، ومن واقع إيماننا بالله تعالى وبكلّ التعاليم والنصوص الربّانيّة، فإنّنا نؤكد على أنّ قضيّة الطوفان حادثة مؤكّدة بنصوص القرآن الكريم، إلّا أّن الخلاف سواء أكان عالميًّا أم محلّيًّا هي موضع الخلاف في رأيي، والأخذ بأيٍّ من الرأيين دون الآخر لا يؤثّر في عقيدة المؤمن سلبًا أو إيجابًا.

[١]- أنظر: جمعيّة التجديد الثقافيّة الاجتماعيّة مؤلف، طوفان نوح بين الحقيقة والأوهام، ص١٠١-١٠٢.

[٢]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٥٧.

ويمكن القول إنّ القائلين بعالميّة الطوفان يرتكزون إلى بعض الآيات كقول الله تعالى:

﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ سورة القمر، الآيتان ١١-١٢.

﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ﴾ سورة الصافات، الآيات ٧٥-٧٧.

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ سورة نوح، الآيتان ٢٦-٢٧.

يستنتج القائلون بعالميّة الطوفان من الآية الأولى أنّ السماء هنا هي كلّ السماء وليست تلك التي تمطر على جزء من الأرض فقط وأنّ الأرض هنا عموم الأرض لا الأرض التي يعيش عليها قوم سيّدنا نوح[1]. أمّا الآية الثانية فيستنتجون منها أنّ الذرّيّة التي سبقت سيّدنا نوح هلكت جراء الطوفان، وأنّ نوحًا هو أبو البشريّة الثانية التي نجت من الطوفان وعمّرت الكون كلّه بعد ذلك. لكن عند التأمّل في الآيتين لا نجد ما يشير إلى عالميّة الطوفان وإغراقه عموم الأرض؛ وإذا كانوا قد استندوا إلى كلمة السماء وكلمة الأرض، فهذا ليس دليلًا على ما ذهبوا إليه، فالسماء في اللغة قد تطلق على الجزء الذي يعلو مكانًا محدّدًا، وكذلك الأرض قد تطلق على جزء محدّدٍ منها، وهذا ما يمكن أن نفهمه من الآيتين، فليس هناك دليل واضح فيهما على عالميّة الطوفان.

ويبدو أنّ الذي ألجأ القائلين بعموميّة الطوفان هو اعتمادهم على ما جاء في الرواية التوراتيّة التي تذهب إلى اعتماد رواية الطوفان العالميّ[2]. ونحن لسنا مجبرين على ما تقول به هذه الراواية؛ فنحن نعلم -وقد تأكّد ذلك من أكثر من

[1]- أنظر في ذلك: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة القمر، الآية ١١-١٢؛ النعماني، تفسير اللباب، تفسير سورة القمر، الآية ١١-١٢؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، تفسير سورة القمر، الآية ١١-١٢.

[2]- أنظر: القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن، بيروت - لبنان، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ج٩، ص٣٢.

مصدر- أنّ الروايات التوراتيّة أصابتها الكثير من التدخّلات البشريّة، لكن من المهمّ أن نعرف أن المسلمين، قد اختلفوا أيضًا حول هذا الموضوع، بين من اعتبره محلّيًّا خاصًّا بقوم نوح، ومن رأى في الآيات أنّها تدلُّ على عالميّته، وكلّ من الطّرفين قدّم تفسيره للآيات القرآنيّة وحججه بما يتناسب مع الرّأي الّذي ذهب إليه، وإن كان الرّأي الغالب بينهم هو أنّ الطّوفان كان شاملًا للأرض جميعها[1].

ومن أصحاب هذا الرأي الشّيخ محمّد عبده الذي يقول: «وأمّا مسألة عموم الطّوفان في نفسها، فهي موضوع نزاعٍ بين أهل الأديان وأهل النّظر في طبقات الأرض، وموضوع خلافٍ بين مؤرِّخي الأمم. أمّا أهل الكتاب وعلماء الأمّة الإسلاميّة، فعلى أنّ الطّوفان كان عامًّا لكلّ الأرض، ووافقهم على ذلك كثير من أهل النّظر. واحتجّوا على رأيهم بوجود بعض الأصداف والأسماك المتحجِّرة في أعالي الجبال، لأنّ هذه الأشياء ممّا لا تتكوّن إلّا في البحر، فظهورها في رؤوس الجبال دليل على أنّ الماء صعد إليها مرّةً من المرّات، ولن يكون ذلك حتّى يكون قد عمّ الأرض»[2]

وهذا ما ذهب إليه السيّد الطباطبائيّ: «الحقّ أنَّ ظاهر القرآن الكريم -ظهورًا لا ينكر- أنَّ الطوفان كان عامًّا للأرض، وأنَّ من كان عليها من البشر أغرقوا جميعًا، ولم يقم لهذا الحين حجَّة قطعيَّة تصرفها عن هذا الظّهور»[3].

وفي تفسير «التّحرير والتّنوير» لابن عاشور: «وفِي زمنِ نُوحٍ وقع الطُّوفانُ على جمِيعِ الْأرْضِ»[4].

وذُكِر أيضًا أنَّ من «الشَّواهد من كلامه تعالى على عموم الطّوفان، ما ذكر في موضعين من الأمر بأن يحمل من كلّ زوجين اثنين. ومن الواضح أنّه لو كان الطّوفان خاصًّا بالمنطقة... لم تكن حاجة إلى ذلك، نظرًا إلى إمكان تداوم النّسل

---

[١]- أنظر: سوسن غبريس، طوفان نوح.. عالميّ أم محلّي؟! منشور على موقع بيّنات بتاريخ ١٧/ ١٢/ ٢٠١٥م.

[٢]- محمّد عبده، فتاوى الإمام محمّد عبده، القاهرة، دار الكتب والوثائق القوميّة، ٢٠١٧م، ج١، ٣٩٧.

[٣]- الميزان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص٢٦٦.

[٤]- الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، تونس، دار سحنون، ١٩٨٣م، ج ١٢، ص١٢٥.

بسائر أفراد النّوع المنبثّة في أقطار الأرض حينذاك»[1].

وأكّدت على هذا الرّأي بعض الاكتشافات العلميّة الحديثة، المتعلّقة ببقايا حيوانيّة عثر عليها علماء الجيولوجيا في أعالى الجبال التي استندوا إليها في القول بعموميّة الطوفان[2].

إلّا أنّ بوكاي فهم من النصوص محليّة الطوفان ووقوعه في منطقة محدودة من الأرض هي أرض سيّدنا نوح عليه السلام، حتى أنّه وقف على آية: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ سورة القمر، الآيتان ١١-١٢ التي استدلّ بها القائلون بعالميّة الطوفان على عكس ما ذهبوا إليه.

هذا يعني أنّه يرى سماء محدّدة وأرضًا محدّدة، كأن تكون السماء هي تلك التي تظلّل بلدة سيّدنا نوح، وكأنّ تكون الأرض هي أرض قوم سيّدنا نوح، خاصّة أنّه لا مانع من ذلك في ضوء سياق النصّ القرآنيّ. والإيجاز بالحذف نجده في عدد من الآيات القرآنيّة، منها قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (سورة الكهف، الآية ٧٩) فالملك ليس أيّ ملك، ولكنّه ملك ظالم، فهو يقصد بالملك الملك الظالم، والسفينة ليست أيّ سفينة، وإنّما سفينة صالحة؛ إذ لو كانت معيبة لما أخذها، فهو يقصد بالسفينة السفينة الصالحة.

وهذا كلّه نوع من الإيجاز بالحذف الذي يقود إليه سياق الآيات، فما المانع من أن تكون آية الطوفان هنا من موارد الإيجاز بالحذف -وهو الأقرب- بحيث تقود إلى التدليل على محلّيّة الطوفان.

لكن بالنظر إلى الآيات القرآنيّة نجد أنّها ربما تقوّي لدينا فرضيّة محلّيّة الطوفان، من ذلك قول الله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، فالعقاب هنا محدّد لقوم

---

[١]- الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق.

[٢]- عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء، دمشق، بيروت، دار ابن كثير، الطبعة الرابعة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢، ص١٣٢.

نوح فقط، دون أن يشير من قريب أو بعيد إلى ما يفيد العموميّة.

كذلك في قول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ (سورة الشعراء، الآيات ١١٧-١٢٠) نجد العقاب محدّدًا بقوم سيّدنا نوح دون غيرهم، فهم الذين كذّبوا دون غيرهم، وهم إذن من يستحقّون العقاب. وليس في الآية ما يشير إلى مسألة عموميّة الطوفان أو عالميّته. كما أنّه في سورة الأعراف من الآية ٥٩ إلى الآية ٩٣ نجد تذكير الله تعالى بالعقوبات التي نزلت بقوم نوح وعاد وثمود ولوط ومديَن، فتذكر كلّ قوم بعقابهم نتيجة عدم امتثالهم أوامر الله تعالى ولرفضهم الاستجابة لدعوة الرسل.

وبالنظر إلى آيات (سورة هود، ٣٦-٤٨) لا نجد فيها ما يشير إلى مسألة عالميّة الطوفان وعموميّته لكلّ أجزاء الأرض، وإنّما تتحدّث الآيات عن موقف قوم سيّدنا نوح من دعوته وسخريتهم منه، ثمّ عقاب الله تعالى لهم بالغرق ولم ينج معه إلّا المؤمنون، ثمّ أمر الله تعالى للأرض والسماء بالكفّ عن الإمداد بالماء، وينتهي المقطع بحوار سيّدنا نوح لربه ورجائه بنجاة ابنه، فكان الردّ بالرفض. فهذه كلّها سياقات تدلّ على أحداث مخصوصة في أرض مخصوصة تحت جزء من السماء مخصوص.

وبالتأمّل في آيات القرآن الكريم نجد أنّ هناك بعض الآيات التي ذُكرت فيها كلمة الأرض وليس المقصود منها عموم الأرض، وإنّما المقصود منها خصوص الأرض أي أرض مخصّصة ومحدّدة بعينها، يقول الله تعالى:

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ سورة الإسراء، الآية ٧٦. والمقصود بالأرض هنا جزء منها، وهي هنا في الآية تعني أرض مكّة.

﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا﴾ سورة الإسراء، الآية ١٠٣ والمقصود بالأرض هنا أيضًا جزء من الأرض، وهي هنا تعني أرض مصر.

﴿وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَاءِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ سورة الإسراء، الآية ١٠٤.

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ سورة يوسف، الآية ٨٠.

هذا يقودنا إلى شيء من الأهمّيّة بمكان وهو أنّ كلمة الأرض لا تأتي دائمًا بمعنى كلّ الأرض وإنّما تأتي أحيانًا بمعنى أرض مخصوصه محدّدة يقرّ بها السياق الذي تدور الآية حوله.

وإذا كان بوكاي يرى أنّ هناك اختلافًا كبيرًا بين الرواية التوراتيّة والرواية القرآنيّة[1] خاصّة في القول بعالميّة الطوفان كما قالت التوراة أو بمحلّيّته كما توحي النصوص القرآنيّة، فإنّه من جهة أخرى، فقد وقف على عدد آخر من الاختلافات بين الروايتين، من ذلك أنّ القرآن يذكر أنّ نوحًا حمل معه في السفينة -إضافة لأسرته باستثناء ولده الذي كفر بدعوته- من كلّ زوجين اثنين والذين آمنوا معه وهم قلّة، في حين يرى بوكاي أنّ التوراة تأتي على ذكر هؤلاء الآخرين الذين ركبوا في السفينة، وتبرز عنده ثلاث روايات عن محتوى السفينة:

ـ حسب الرواية الكهنوتيّة: نوح وأهله دونما استثناء وزوج من كلّ نوع.

ـ فرّقت الرواية اليهوديّة بين الحيوانات الطاهرة والطيور من جهة وبين الحيوانات النجسة، وذكرت أنّ السفينة حملت من الأوائل سبعة من كلّ نوع من ذكر وأنثى وزوجًا واحدًا من الأخريات.

ـ وحسب آية يهويّة معدلة في سفر التكوين ٧، ٨ حملت زوجًا من كلّ نوع طاهر أو نجس[2].

حتّى أنّ من ضمن الاختلافات أنّ الجبل الذي استقرّت عليه سفينة نوح هو

[١]- أنظر: طوفان نوح، مرجع سابق، ص٥٤.

[٢]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٥٧-٢٥٨.

جبل آرارات، بينما يذكر القرآن أنّه جبل الجوديّ[1]، مؤكّدًا على أنّ الجوديّ هو ذروة جبل أرارات، لكنّه يستدرك ذلك مشيرًا إلى قضيّة مهمّة قائلًا: «ولكن لا شيء يثبت أنّ الناس لم يمارسوا تغييرات في الأسماء لتوافق الروايتين. ويؤكّد ذلك ر. بلاشير الذي يرى أنّ هناك سلسلة جبال لها اسم جودي في العربيّة، ويمكن أن تكون هذه الموافقة في الأسماء من صناعة الناس»[2].

إلّا أنّ هذا لم يمنع بوكاي من التأكيد على الاختلافات الجوهريّة بين الروايتين: الرواية القرآنيّة والرواية التوراتيّة، إلّا أنّه يعترف من جانب آخر بأنّ بعضها لا يخضع للنقد لعدم توفر المعطيات الموضوعيّة، خاصّة في الحكم على الرواية الأخيرة، لكنّه يؤكد على أنّ الاجتهاد في تحقيق أخبار الكتب المقدّسة بمساعدة المعطيات الأكيدة يقود إلى الجزم بأنّ عدم مطابقة الرواية التوراتيّة في تحديد وقت الطوفان ومدّة استمراره لما حصّلته المعارف الحديثة واضح وضوحًا تامًّا، بينما تثبت الرواية القرآنيّة بالمقابل براءةً من كلّ عنصر يبتعث الانتقاد الموضوعيّ. وهل استحدث الناس بين عصري رواية التوراة ورواية القرآن معلومات توضح مثل هذا الحادث؟ لا شكّ أن الجواب هو النفي؛ لأنّ الوثيقة الوحيدة التي كانت بين يدي الناس ما بين العهد القديم حتى ظهور القرآن عن هذا التاريخ كانت هي التوراة بالذات»[3].

---

[1]- انظر: عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء، القاهرة، مكتبة دار التراث، الكبعة الأولى، ١٩٨٥م، ص٤٨.

[2]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٥٨.

[3]- م.ن، ص٢٥٨.

الفَصْلُ الثّانِي

خروج موسى والدلائل التاريخيّة

الفصل الثاني

خروج موسى والدلائل التاريخيّة

من المعلوم أنّ سيّدنا موسى ظلّ في مصر عمرًا؛ حيث نشأ فيها حتى بلغ مبلغ الشباب، ونحن نذكر جيّدًا قصّته مع أمّه التي ألقته في اليمّ رضيعًا خوفًا عليه من القتل[1]؛ حيث إنّ فرعون كان يقتل كلّ طفل ذكر يُولد خوفًا من النبوءة التي كان تقول إنّ هلاكه على يد أحد أبناء هذا الجيل ممن يقطنون مصر[2]، وعندما ألقته أمه في اليمّ صار الصندوق الذي فيه يتهادى حتّى وصل في نهاية المطاف إلى آل فرعون، فأشارت عليه زوجته بأن يتّخذه ولدًا، فوافق، ثمّ تربّى موسى في بيت فرعون حتى صار شابًا[3]، ثمّ فرّ منها هاربًا إلى مدين مخافة أن ينال منه أهل القتيل الذي وكزه موسى فقضى عليه، وفي مدين تزوّج وأنجب وعاش سنين فيها، ثمّ قرّر العودة إلى مصر مرّة أخرى[4]، خاصّة وقد بعثه الله تعالى بالنبوّة، فكان ما كان من معارضة فرعون ومجاهرته له ورسالته العداوة والبغضاء، وانتهى الأمر بخروج موسى إلى كنعان بعد أن أغرق الله تعالى فرعون في اليمّ وجعله للناس آية.

وقصّة سيّدنا موسى منذ نشأته وحتّى خروجه من مصر ودعوته شغلت عددًا من السور القرآنيّة التي احتفّت بالقصّة لما فيها من معاني التذكير بقصص الرسل والأمم السابقة، وبما تنطوي عليه من تحذير للاحقين. واختلفت مساحة القصّة في كلّ سورة منهنّ طولًا وقصرًا حسب السياق ومدلولاته. كما ذكَرَت في هذه القصة في مواضعها المختلفة في القرآن أسماءً كفرعون وهامان وقارون والسامري وغيرهم

---

[١]- أنظر: حسن سليمان، قصص الأنبياء، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م، ص٩٥.

[٢]- أنظر: حسن أيوب، قصص الأنبياء، قصص الصفوة الممتازة أنبياء الله ورسله، القاهرة، دار التوزيع والنشر الإسلاميّة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، ص١٤٨.

[٣]- أنظر: محمّد متولي الشعراوي، قصص الأنبياء، القاهرة، دار القدس، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م، ص٢٥٧.

[٤]- أنظر: محمّد متولي الشعراوي، قصص الأنبياء، ص٢٦٠-٢٦٥.

من الشخصيّات. وقد قارن بوكاي هذا المحتوى القرآنيّ في روايته عن قصّة سيّدنا موسى بما فيها من قضيّة الخروج مع المحتوى الذي تقدِّمه الرواية التوراتيّة في الموضوع ذاته.

ويرى بوكاي أنّه بخروج موسى وقومه من مصر وهو الخطوة الأولى لاستقراره في أرض كنعان ندنو من حادث ذي أهمّيّة أساسيّة، حادث يسمه بأنّه تاريخيّ أكيد يندرج في سياق معروف رغم الاحتجاجات التي قد تظهر من هنا أو هناك، وتميل إلى أن تضفي عليها صفة أسطوريّة[1]. ولا شكّ أنّه يقصد بذلك حادثة فرعون موسى وما حولها من اكتشافات علميّة في المعارف الحديثة.

وقد اعتمد بوكاي في الرواية التوراتيّة على سفر الخروج في العهد القديم -إضافة إلى قصّة السير في الصحراء بعد الخروج من مصر، والميثاق الذي وثّقه الله تعالى في جبل سيناء- باعتباره الكتاب الثاني من الأسفار الخمسة والتوراة[2].

إنّ دراسة الرواية التوراتيّة والرواية القرآنيّة تمثّل عند بوكاي نفعًا من نوع ما، خاصّة أنّه يرى أنّهما يتّفقان في الأساس، ويختلفان في بعض التفاصيل. لكنّه مع هذا يؤكّد أنّه يستند إلى الرواية التوراتيّة -إضافة إلى الرواية القرآنيّة بالطبع- خلافًا لما ظهر لنا من قبل في موقفه من الرواية التوراتيّة في عدد من القضايا التي سبق دراستها؛ وذلك لأنّها تسوق عنده إلى طريق تحديد هويّة فرعون أو الفرعونين المقصودين على حدّ تعبيره. «ويأتي القرآن في هذه الفرضيّة عند منطلق الرحيل التوراتيّ ناقلًا خبرًا مكمّلًا، وتنضمّ إلى هذين المصدرين المقدّسين معطيات حديثة من التاريخ المصريّ؛ بحيث نصل من مواجهة القرآن والتوراة ومعارف زمننا إلى أن نركّز ظهور الكتابات المقدّسة في سياق تاريخيّ»[3]. نفهم من هذا أنّ بوكاي يعتمد ولأوّل مرّة في سياق مشروعه على التوراة مضافًا إلى القرآن ومعطيات المعارف الحديثة في محاولة الوصول إلى حقيقة تاريخيّة تتعلّق بهويّة فرعون موسى. وهذه

---

[1]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٥٩.

[2]- انظر: سفر الخروج، الإصحاح ١٣، ١٤.

[3]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٥٩.

من المرّات النادرة التي يعتمد فيها بوكاي على التوراة في محاولة الوصول إلى معرفة قضيّة ما؛ إذ كان على الدوام لا يقيم للرواية التوراتيّة وزنًا؛ خاصّة وأنّه كان ينظر إليها على الدوام على أنّها رواية تتعارض مع معطيات العلم الحديث.

وعند المقارنة بين الروايتين يميل بوكاي إلى إظهار نوع من التشابه الكبير بينهما، حتّى في أدّق التفاصيل، سواء أكان في نشأة سيّدنا موسى، أو في دعوته لفرعون، أو في انتقاله من مصر إلى مديَن، أو حتى قضيّة الخروج الكبير من مصر، فضلًا عمّا بين هذا وذاك من مشاركة هارون له في الدعوة، وذهابهما إلى فرعون سويًّا، وما أبداه موسى أمامه من معجزات بغية التصديق والإيمان برسالته، لكنّه رفض، فكان الجزاء من الله تعالى مجموعة من الابتلاءات؛ حيث بدّل أنهار الماء إلى دم، وسلّط الله عليهم الضفادع والدم والجراد والقمّل، ومع ذلك لم يؤمن فرعون حتّى غرق في اليم[1].

لكن في سفر الخروج نجد أنّ عدد من فرّ من بني إسرائيل بلغ ستمئة ألف رجل، دون حساب عائلاتهم[2]. في الوقت الذي تخبر فيه التوراة أنّ فرعون جهّز جيشه وقادته، واختار من عرباته ستمئة عربة فقط من أفضل عربات مصر محمّلة بالجنود، ثمّ انطلق تجاه بني إسرائيل، رافعًا يده إلى أعلى[3]. فكيف يستقيم وجود ستمئة عربة فقط في الوقت الذي تذكر فيها التوراة عدد رجال بني إسرائيل بستمئة ألف دون عائلاتهم، فلو كان لكلّ عائلة في المتوسط ٥ أفراد، فهذا يعني أنّنا أمام ثلاثة ملايين من أبناء بني إسرائيل، فكيف لهذا العدد الضخم أن يتعامل معه فرعون بستمئة عربة محمّلة بالجنود، فلو كان في كلّ عربة عشرة من الجنود لكان عدد الجنود ستة آلاف، وهذا عدد ضئيل، فإمّا أن يكون عدد بني إسرائيل مبالغًا فيه، وهذا ما أميل إليه، أو أن يكون عدد الجنود فيه تهاون من قبل الرواي.

وعلى أيّ حال فإنّ التوراة تستكمل سرد القصّة بوصول بني إسرائيل إلى الشاطئ،

---

[١]- سفر الخروج، ١٢/ ٣٧.

[٢]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٥٩.

[٣]- سفر الخروج، ١٤/ ٦ - ٨.

فما كان من موسى إلّا أن رفع عصاه إلى أن انفلق البحر أمامه، فأخذ الناس يسيرون عليه بأقدامهم، فتبعهم فرعون وجنوده وعدته وعداته وعرباته متعقّبين خطاهم وسط البحر[1]. وأثناء ذلك طما البحر وغرق فرعون بجنوده وعرباته عندما دخلوا وراءه، ولم يبق منهم واحد[2].

ومن ثمّ فإنّ من الملامح الرئيسة هنا والتي يمكن استنتاجها من هذه الرواية التوراتيّة حول سفر الخروج أنّ فرعون كان قائد الملاحقين لبني إسرائيل، وأنّه مات غرقًا في اليم، وهذا ما تؤكده هذه الرواية الوراتيّة حين ذكرت ولم يبق منهم أحد.

أمّا الرواية القرآنيّة لنشأة سيّدنا موسى في مصر، ثمّ خروجه منها، فقد ذكرت في عدد من الآيات القرآنيّة، منها قول الله تعالى[3]:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ سورة القصص، الآية ٧.

﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ سورة القصص، الآية ٣.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا﴾ سورة طه، الآية ٧٧.

﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ﴾ سورة طه، الآية ٨٦.

وهذه بعض الآيات التي تمثّل قليلًا من كثير من آيات القرآن الكريم التي تتحدّث عن سيّدنا موسى وبني إسرائيل، وهي الآيات الموزّعة على كثير من السور القرآنيّة بصورة تدعو للعجب، بيد أنّ هذا العجب ما يلبث عن يزول إذا علمنا أنّ الله تعالى جعل لنا في قصصهم عبرة وآية. ولكن ما سنركّز عليه هنا إنما هو الآيات

[١]- سفر الخروج، ١٤/ ٢٣.

[٢]- م.ن، ١٤/ ٢٨-٢٩.

[٣]- ومنها: ﴿طه، ٨٨﴾ ﴿طه، ٩١﴾ ﴿الأنبياء، ٤٨﴾ ﴿الحج، ٤٤﴾ ﴿المؤمنون، ٤٥﴾ ﴿المؤمنون، ٤٩﴾ ﴿الفرقان، ٣٥﴾ ﴿الشعراء، ١٠﴾ ﴿الشعراء، ٤٣﴾ ﴿الشعراء، ٤٥﴾ ﴿الشعراء، ٤٨﴾ ﴿الشعراء، ٥٢﴾ ﴿الشعراء، ٦١﴾ ﴿الشعراء، ٦٣﴾ ﴿الشعراء، ٦٥﴾ ﴿البقرة، ٤٩﴾ ﴿البقرة، ٥٠﴾ ﴿آل عمران، ١١﴾ ﴿الأعراف، ١٠٣﴾ ﴿الأعراف، ١٢٧﴾ ﴿الأعراف، ١٣٠﴾ ﴿الأعراف، ١٣٧﴾ ﴿الأعراف، ١٤١﴾ ﴿الأنفال، ٥٢﴾ ﴿الأنفال، ٥٤﴾ ﴿يونس، ٧٥﴾ (يونس، ٧٩﴾ ﴿الأعراف، ١٣٧﴾ ﴿الأعراف، ١٣٨﴾ ﴿يونس، ٩٠﴾) يونس، ٩٠﴾ ﴿يونس، ٩٣﴾.

المتعلّقة بخروج سيّدنا موسى من مصر، وهو موضوع الدراسة التي اهتمّ بها بوكاي وجعلها محورًا لقراءته النقديّة التاريخيّة في مشروعه حول القرآن الكريم والعلم.

وأوّل ما لفت نظر بوكاي في دراسته للرواية القرآنيّة حول قضيّة الخروج هو تشابهها مع الرواية التوراتيّة في خطوطها العريضة واختلافها في كثير من جزئيّاتها[1]، إلّا أنّه كان يدرك أنّ تكوين تصوّر حول هذه القضيّة في القرآن يقتضي تقفّي أثرها وجمع عناصرها المتناثرة في العديد من السور والآيات القرآنيّة[2].

استنتج بوكاي أنّ القرآن الكريم لا يذكر هويّة فرعون ولا يسمح بتحديد من هو فرعون الحاكم في فترة الخروج من مصر[3]، وهذا هو التشابه الثاني بين الروايتين، إلّا أنّ هذا لم يمنعه من التأكيد على شيء من الأهمّيّة بمكان، وهو أنّ القرآن تفرّد بذكر هامان كبير البنّائين في زمن فرعون[4].

ومن جانبنا يمكننا القول إنّ هامان ذُكر في القرآن ستّ مرّات، يقول الله تعالى:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾، سورة غافر، الآيتان ٣٦-٣٧.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ سورة القصص، الآية ٣٨.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ سورة غافر، وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ

[١]- أنظر: حول الاختلافات بين الروايتين منصور العبادي، قصّة موسى عليه السلام بين التوراة والقرآن، على الموقع التالي:
https://quran-m.com

[٢]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٦١.

[٣]- فضلاً عن أن القرآن لا يذكر شيئًا عن مكان وزمن الخروج، انظر: رواب بولفعة، خروج بني إسرائيل من مصر بين روايات التوراة والقرآن الكريم، مجلّة إضاءات علميّة، المجلد الثاني، العدد السنة، ربيع الآخر، ١٤٤٣هـ - ديسمبر ٢٠٢١م، ص٢٨.

[٤]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٦١.

فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ، سورة العنكبوت، الآية ٣٩.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ سورة القصص، الآيات ٤-٦.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ سورة القصص، الآية ٨.

١- ابتلاءات بني إسرائيل بين القرآن والتوراة

وقف بوكاي على العديد من الاختلافات بين الرواية القرآنيّة والرواية التوراتيّة، منها أنّ القرآن سرد قصّة هروب بني إسرائيل من مصر دون ذكر التفاصيل الجغرافيّة والعدديّة التي وردت في الرواية التوراتيّة المشكوك فيها، إذ كان من الصعب عليه أن يتصوّر كيف يمكن أن يكون لستمئة ألف مع عائلاتهم كما تدّعي التوراة الإقامة فترة طويلة كهذه في الصحراء[1].

ومن ضمن هذه الاختلافات بين الروايتين ما يشير إليه قائلًا: «غير أنّ القرآن لم يذكر الآفات العشر التي ابتلى الله بها مصر على أنّها القصاص الإلهيّ كما ذكرتها التوراة طويلًا، بل ذكر منها خمسًا باختصار شديد في السورة ٧ آية ١٣٣، وهي الطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم»[2].

لكنّنا في حاجة إلى أن نقف عند هذا النصّ بعض الشيء لنعرف أوّلًا ما الابتلاءات العشر التي ابتلي بها آل فرعون[3]؟ وثانيًا هل حقًّا ذكر منها القرآن خمسًا فقط؟! هل كان لهذه القضيّة دور في المقارنة بين القرآن والتوراة في ضوء المعارف العلميّة الحديثة؟!

---

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٦٢.

[٢]- م.ن، ص٢٦٢.

[٣]- هذا فضلاً عن الابتلاء بالنعم الذي أُبتلي به بنو إسرائيل، انظر: في هذا النوع من الابتلاء رجب نصر موسى الأنس، سنّة الابتلاء في القرآن الكريم، رسالة ماجستير منشورة بكلية الدراسات العليا - جامعة النجاح الوطنيّة، نابلس - فلسطين، ٢٠٠٧م، ص١١٠.

يمكن القول إنّ التوراة ذكرت الآفات أو الابتلاءات العشرة، فحصرتها في: تحويل الماء إلى دم، والضفادع، والبعوض، والذبان، الوباء في المواشي، الدمامل، والبرد، والجراد، والظلام الدامس، موت الأبكار في الإنسان والحيوان. لكن في القرآن ما يسمّى بالآيات التسع التي جاء بها سيدنا موسى لآل فرعون والتي ذُكرت إجمالًا في قول الله تعالى: ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ سورة النمل، الآية ١٢. وهي آيات العصا واليد والسنين ونقص الثمرات والطوفان والضفادع والجراد والقمّل والدم.

غير أنّ هذا يقودنا إلى شيء من الأهمّيّة بمكان، وهو أنّ القول إنّ آفات آل فرعون كانت خمسًا هو قول يفتقر إلى الدليل من جهة بوكاي؛ لأنّنا نستطيع أن نجد في القرآن العديد من الضربات والابتلاءات التي ساقها الله تعالى زمن موسى لآل فرعون، ومن ثمّ فإنّ اعتماد بوكاي على آية واحدة من القرآن للقول بذلك يتنافى مع البحث العلميّ، إذ كان عليه أن يتأمّل في القرآن -خاصّة أنّ قصّة بني إسرائيل مع آل فرعون استحوذت على عدد كبير من الآيات القرآنيّة- ليبحث عن ابتلاءات أخرى ذكرها القرآن في مواضع أخرى.

ولنا أن نؤكّد أنّ أنواع الابتلاءات والضربات مأخوذة من الآيات القرآنيّة وليست من شيء خارجها، وهي كانت على النحو التالي:

الطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم، وهي خمس ابتلاءات مستفادة من قول الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ سورة الأعراف، الآية ١٣٣.

السنين ونقص الثمرات، وهما اثنتان مأخوذتان من قول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ سورة الأعراف، الآية ١٣٠.

التدمير وهو مأخوذ من قول الله تعالى:

﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ سورة الأعراف، الآية ١٣٧.

الإهلاك والإغراق: مأخوذتان من قول الله تعالى:

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ سورة الأنفال، الآية ٥٤.

الإضلال والطمس على الأموال والشدّة على القلوب، وثلاثتها مأخوذة من قول الله تعالى:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ سورة يونس، الآية ٨٨.

الصد عن السبيل، مأخوذة من قول الله تعالى:

﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ سورة غافر، الآية ٣٧.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ سورة غافر، الآية ٣٧.

وهذه ابتلاءات وضربات تتعدّى العشرة، والأمر في حاجة إلى بحث مطوّل، ربما نخرج عندها منه بما أكثر من ذلك من الابتلاءات التي تعرّض لها فرعون وقومه. وهذا دليل على أنّ ما ذهب إليه بوكاي في هذا الشأن في حاجة إلى مراجعة من قبل القارئين والدراسين.

ومن الأكيد أنّ الروايتين التوراتيّة والقرآنيّة قد أكّدتا من خلال نصوص سابقة موت فرعون غرقًا في اليمّ عند ملاحقته لسيدنا موسى وبني إسرائيل[1]، إلاّ أنّ ما لفت انتباه بوكاي ما ورد في القرآن من تفصيل لم يرِد في التوراة وهي نجاة فرعون

[١]- أنظر: سفر الخروج، الإصحاح ١٤، وسفر المزامير، ١٣٦/ ١٥.

ببدنه لا روحه، مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ﴾ سورة يونس، الآيات ٩٠-٩٢.

وقد اتّخذ بوكاي من هذا النصّ القرآنيّ منطلقًا له إلى التأكيد على حقيقتين: الأولى: البغي والعدوان الذي مارسه فرعون وقومه على الرغم من نداءات موسى المتكرّرة للإيمان بالله تعالى؛ والثانية: نجاه فرعون ببدنه. «وهكذا فإنّه يتبنّى القول بأنّ رواية القرآن بالنسبة للأعمال القابلة للمواجهة مع المعطيات التاريخيّة والجغرافيّة والأثريّة تختلف عن الرواية التوراتيّة»[1].

ونحن نفهم من الاستقراء العام لفكر بوكاي ومن واقع المقارنة بين الرواية القرآنيّة والرواية التوراتيّة أنّه توجد عدّة اختلافات، منها:

أوّلًا: أنّ الرواية القرآنيّة لم تهتمّ بذكر الشخوص والأماكن والمدن التي أقامها اليهود أو طريق الخروج.

ثانيًا: أنّ الرواية القرآنيّة لم تعط معلومات عن عمر موسى عند مواجهته لفرعون بالدعوة.

ثالثًا: أنّ الرواية القرآنيّة لم تهتمّ بذكر عدد قوم موسى، بينما اتّسمت الرواية التوراتيّة بالمبالغة القصوى في عددهم، حتى أوصلتهم الأخيرة إلى ستمئة ألف دون عائلاتهم.

رابعًا: أنّ الرواية القرآنيّة أكدت على إيجاد بدن فرعون ونجاته، في الوقت الذي أغفلت فيه الرواية التوراتيّة ذكر هذا الأمر.

خامسًا: أنّ الرواية القرآنيّة أثبتت ظلم فرعون لموسى وقومه.

---

[١]- أنظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص٢٦٣.

واتفقت الروايتان في أمور منها:

أولًا: كلتا الروايتين أغفلتا ذكر اسم فرعون.

ثانيًا: كلتا الروايتين قالتا بوفاة فرعون غرقًا أثناء الخروج.

٢- تاريخ الخروج

كان على بوكاي وهو في سبيل الوقوف على تاريخ الخروج أن يعرج أولًا على تاريخ دخول اليهود مصر أوّلًا؛ حتى يتسنّى له حساب الفرق بين تاريخ الدخول وتاريخ الخروج، ومن ثمّ المدّة الحقيقيّة التي مكثها اليهود في مصر، ما يعني أنّ تاريخ دخول اليهود مصر لم يكن يهّمه بقدر ما كان يهمّه تاريخ الخروج وعرضه على المعارف الحديثة؛ ليحكم بمدى صحّته من عدمه.

وإذا ما نظرنا إلى سفر التكوين وسفر الخروج، فإنّنا نستطيع بسهولة أن نستخلص منه أنّه يذكر بأنّهم أقاموا في مصر طيلة أربعمئة أو أربعمئة وثلاثين سنة[1]. على الرغم من اختلاف رواية سفر الخروج عن رواية سفر التكوين، لكن بوكاي يعلّق على هذا الاختلاف قائلًا: «وأيًّا ما كان هذا الخلاف بين سفري التكوين والخروج، وهو ليس بذي أهمّيّة، فإنّ إقامتهم بدأت بعد إبراهيم، مع استيطان يوسف بن يعقوب وأخوته مصر. نحن لا نملك أيّ وثيقة غير التوراة يمكن أن تنوّرنا في هذه النقطة، وتقدّم لنا المعلومات التي روتها، وغير القرآن الذي يذكر هذا الاستيطان دون أن يشير إلى أقلّ إشارة تاريخيّة»[2].

وإذا كان سفر الملوك يشير إلى أنّ الخروج من مصر كان سنة ٤٨٠ قبل بناء هيكل سليمان[3]، أي في سنة ٩٧١ قبل المسيح، فإنّ بوكاي يرفض هذه الرواية التوراتيّة، مرجّحًا أن يكون الخروج كان سنة ١٤٥٠ قبل المسيح، وبالتالي يكون الدخول نحو (١٨٥٠-١٨٨٠)، فهذا هو العصر الذي عاش فيه -كما يظن- إبراهيم

[١]- سفر التكوين ١٥/ ١٣، سفر الخروج ١٢/ ٤٠.

[٢]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٦٤.

[٣]- سفر الملوك ٦/ ١.

الذي كان بينه وبين يوسف -حسب حساباته- قريب من مئتين وخمسين سنة، ومن ثم فقد رفض التاريخ الذي ذكره سفر الملوك رفضًا تامًّا[1].

وليس هناك ما يعارض هذا الرأي الذي يتبنّاه بوكاي إلّا ما جاء في سفر الملوك؛ لأنّ ما جاء في الأخير لا تؤيّده المعطيات التاريخيّة عند بوكاي، في الوقت الذي كان يدرك فيه جيّدًا أنّ ما تركه اليهود كأثر لإقامتهم في مصر مبهم جدًّا إذا استثنينا الكتابات المقدّسة[2]. إلاّ أنّه من جانب آخر يؤكّد على «أنّه يوجد بعض الوثائق الهيروغليفيّة تذكر وجود مجموعة من العمّال يدعون الآبيروس أو الهابيرو أو الهابيريّ حدّد هوياتهم صوّابا أو خطأ بأنّهم اليهود، ولقد أطلقت هذه العبارة على عمّال البناء أو فلاحين أو قاطفي العنب، فمن أين جاؤوا؟»[3].

لقد كان يدرك أنّ الإجابة على هذا السؤال من الصعوبة بمكان، مستندًا في ذلك إلى ما ذكره الأب دوفو بأنّ الآبيروس ليسوا من المواطنين المحليّين[4]، ولا ينتمون إلى إحدى طبقات المجتمع، وليس لهم جميعًا العمل نفسه والنظام نفسه[5]. وقد تتبّع بوكاي عددًا من المخطوطات المتعلّقة بهم؛ ليصل إلى حقيقتهم، فيشير إلى أنّ مخطوطًا من البردي يذكرهم على أنّهم أناسُ أسطبل على أيّام تحتمس الثالث. «ونحن نعلم بأنّ أمينوفيس الثاني حوالي القرن الخامس عشر قبل الميلاد اقتاد منهم ٣٦٠٠ ثلاثة آلاف وستمئة كمساجين آتين من أرض كنعان. وكانوا يؤلّفون كما كتب الأب دوفو جزءًا بارزًا من شعب سوريا-فلسطين. وحوالي ١٣٠٠ قبل المسيح وفي عهد سيتي الأوّل أثار هؤلاء الآبيروس أنفسهم قلاقل في أرض كنعان في منطقة بيت شان. وفي عهد رمسيس الثاني استعمل منهم كمقالعين للحجارة، أو في نقل

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٦٤-٢٦٥.

[٢]- م.ن، ص٢٦٥.

[٣]- م.ن، ص٢٦٥.

[٤]- هذا يعني أنهم ليسوا العبرانيين، انظر في ذلك: مصطفى أنشاصي، العبيرو ليسوا العبرانيّين، على الرابط التالي: https://www.amad.ps/ar/post/324708

[٥]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٦٥.

الأوتاد لأشغال فرعونعمود كبير لرمسيس ميامون»[1].

ولكن هل كلمة الأبيروس هذه تدلّ على طائفة ذات منشأ معيّن أم تدلّ على وصف مهنيّ[2]؟ يجيب بوكاي على ذلك ذاته قائلاً: «بيد أنّ الأبيرو قد ذكروا في غير مصر، فهل تنطبق هذه التعابير على اليهود وحدهم؟ ولعلّ ثمّة ما يذكر بأنّ الكلمة يمكن أن تعني ابتداءً عمّالًا مسخّرين دون معرفة منشئهم، وبالتالي يكون قد استعمل هذا التعبير كوصف مهنيّ»[3].

لكن لماذا ساق بوكاي كلّ هذا الأمر عن الأبيروس وتاريخهم وعملهم؟! لعلّ المتأمّل في هذه الأمر يجد أنّ بوكاي يحاول أن يستدلّ بشتّى الطرق الممكنة على فرعون مصر في تلك الفتر الزمنيّة من تاريخ الفرعون، وصولًا إلى دليل مقنع عن تاريخ خروج بني إسرائيل من مصر وحقيقة شخصيّة الفرعون في تلك الفترة، وذلك وصولًا إلى الإجابة على سؤالين: الأوّل، مَن فرعون مصر المذكور في القرآن والتوراة؟ والثاني، متى كان تاريخ الخروج تحديدًا؟ ومن ثمّ نفهم أنّ الحديث عن الآبيروس أو البحث عن شخصيّة فرعون موسى المذكورة في الروايتين ليس مقصودًا بذاته، وإنّما من أجل الوصول إلى تاريخ ولو تقريبيٍّ -بحيث يكون مقبولًا- لخروج بني إسرائيل من مصر. وهذا ما يتأكّد لنا عندما نعلم أنّ بوكاي أراد أن يرسم لنا صورة عن الظروف التي وُلد فيها سيّدنا موسى، «وقد رأينا قبل نجاته من مياه النهر، واسمه مصريّ، أبرز هذا بيير مونتي في كتابه مصر والتوراة، ميزو أو ميزي هما في لائحة معجم أسماء الأشخاص في اللغة

---

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٦٥.

[٢]- لكن هناك من يرى أنّ هناك شبه إجماع بين علماء الآثار على أنّ الخابيرو تسمية تطلق على فئة من الناس كانت خليطًا من قبائل مختلفة أشهرها الآراميّين، ليس لها موطن، وكانت تعتمد في حياتها على الإغارة وقطع الطريق، وكانت مرتزقة بالمعنى الحديث للكلمة، أي ممكن أن تقاتل مع من يدفع لها. وكان الفراعنة وأمراء بلاد الشام يدفعون لهم ليأمنوا شرهم، وكانوا يجوبون الأرض بين بلاد الشام ومصر، وأنّهم مذكورون في أكثر من مكان غير مصر، وخاصّة بلاد الشام في التاريخ القديم قبل تشكّل بني إسرائيل في جماعة واحدة تُعرف باسمهم، وتذكر التوراة المحرفة أن داود عندما فر من جيش طالوت استعان بهم في قتاله.هذا يعني أنّهم ليسوا العبرانيّين، انظر في ذلك: مصطفى أنشاصي، العبيرو ليسوا العبرانيّين، على الرابط التالي:
https://www.amad.ps/ar/post/324708

[٣]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٦٦.

الهيروغليفيّة، وموسى هي الكلمة التي تحوّلت إلى العربية كما ذكرها القرآن»[1].

حتّى أنّ ما أسماه بوكاي سيراً وراء التوراة الابتلاءات العشرة أو الضربات العشر اعتبرها وسيلة لفهم تلك الفترة التاريخيّة للوصول منها إلى الفترة التي عاش فيها سيّدنا موسى، ومن ثمّ تاريخ الخروج من مصر.

فقد كان تاريخ الخروج إذن هو الأمر الذي جعله بوكاي محورًا من محاور دراسته للنصوص القرآنيّة التي تتحدّث عن قضايا تاريخيّة، لكن مما لفت نظر بوكاي هنا أنّ القرآن لم يذكر طريقًا للخروج[2]، في الوقت الذي يشير فيه إلى ذكر التوراة بكثير من الجزم على حد وصفه، مستفيدًا في ذلك من جهد كلّ من الأب دوفو ومونتيه -وكذلك تنيس كانتير- «بيد أنّهما لم يجدا لبقيّة الطريق آثارًا توافق الرواية التوراتيّة، ولم يكن بالإمكان معرفة الموضع الذي انفرق فيه البحر؛ ليسهل على موسى وأصحابه تجاوزه»[3].

أ- الفرضيّات غير المقبولة

هناك عدد من الفرضيّات التي لم تكن محلّ قبول بوكاي في سبيل تفسير عمليّة الخروج والبحث عن تاريخ وقوعها، وقد كان رفض بوكاي هنا ناتجًا عن أحد أمرين: الأوّل: غرابة الفرضيّة التي يقدّمها صاحبها تفسيرًا للقضيّة، الثاني: تناقضها مع ما هو معلوم من المعارف التاريخيّة والأثرية يقينًا، أو حتّى مع ما هو معلوم من بعض النصوص المقدّسة.

ومن أكثر الفرضيّات طرافة عنده تلك التي قال بها (j. de Miceli)، ومصدر غرابة بوكاي هنا هو أن هذا الرجل ادّعى تحديد زمن الخروج باليوم والشهر والسنة، فقال إنّه كان في التاسع من إبريل عام ١٩٤٥ قبل ميلاد المسيح، وذلك من

[١]- م.ن، ص٢٦٦.

[٢]- أنظر: رواب بولفعة، خروج بني إسرائيل من مصر بين روايات التوراة والقرآن الكريم، ص٢٨.

[٣]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٦٦.

خلال حساب الرزنامة فقط[1]. ومن ثمّ تذهب هذه الفرضيّة إلى أنّ تحتمس الثاني الذي حكم مصر آنذاك هو فرعون الخروج، مستندًا إلى أنّ مومياءه قد وصفت بأنّها ذات قروح جلدية وصفها بالجذام، ومن ثمّ يعلّق بوكاي على هذه الفرضيّة ناقدًا: «لا ندري لماذا بالجذام؟ وإنّ أحد الابتلاءات المصرية التي روتها التوراة كانت الدمّل. هذا التركيب المدهش لا يعير أيّ حساب للوقائع الأخرى للرواية التوراتيّة، وخاصّة ذكر مدينة رمسيس التي تجعل كلّ افتراض في توقيت الخروج من مصر قبل حكم رمسيس متقادمًا أو باليًا»[2].

وإذا كان بوكاي قد انتقد هذه الفرضية مستندًا إلى نص التوراة ذاته، فإنّه قد انتقدها أيضًا مستندًا إلى بعدٍ تاريخيّ، فالطفح الجلديّ الظاهر على تحتمس الثاني لا يُتخذ دليلًا عند بوكاي على أنّه فرعون الخروج؛ مستندًا إلى أنّ هذا الطفح الجلديّ يظهر أيضًا على ابنه تحتمس الثالث، وحفيده أمينوفيس الثاني. «ومن أجل هذا أثار بعض الكتاب فرضية وجود مرض عائليّ، الأمر الذي يجعل فرضيّة تحوتمس الثاني غير جديرة بأن يُدافع عنها»[3].

كذلك من الفرضيّات غير المقبولة من وجهة نظر بوكاي -وكذلك من وجهة النظر التاريخيّة العلميّة- فرضيّة دانييل روبس في كتابه: شعب التوراة، والذي ذهب إلى أنّ فرعون الخروج هو أمنحتب الثاني[4]، حيث نظر إليها بوكاي على أنّها ليست أكثر حظًّا من سابقتها؛ إذ لم يعجبه أن يستند صاحب هذه الفرضيّة على حجّة أنّ أباه تحتمس الثالث شديد الوطنيّة، ومن ثمّ عدّ أمينوفيس مضطهدًا لليهود وأنّ زوجة أبيه حتشبسوت هي التي استقبلت موسى، وقد عبّر بوكاي عن امتعاضه من هذه الفرضيّة قائلًا: «دون أن ندري لماذا»[5].

[١]- انظر: رشدي البدراوي، موسى وهارون عليهما السلام.. من هو فرعون موسى؟ سلسلة قصص الأنبياء والتاريخ، القاهرة، انترتاشيونال بريس، ١٩٩٨م، الجزء الرابع، ص٦٦٢.

[٢]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٦٨.

[٣]- م.ن، ص٢٦٨.

[٤]- أنظر: رشدي البدراوي، موسى وهارون عليهما السلام.. من هو فرعون موسى؟ ج٤، ص٦٦٢.

[٥]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٦٩.

ومثار امتعاضه ناتج عن افتقار هذه الفرضيّة للدليل المنطقيّ الذي يتوافق مع ما تقدّمه لنا المعطيات التاريخيّة، أو بسبب افتقار الدليل من الأساس، فهل من المنطقيّ أن يُتّخذ من وطنيّة الوالد تحتمس الثالث دليلًا على اضطهاد الابن لليهود، من قال بذلك؟ وهل تعني الوطنيّة اضطهاد الآخر؟! ثمّ هل تعني وطنيّة شخص ما دليلًا على ارتكاب شخص ما فعل ما مخالف؟! بالطبع لا. ثمّ ما الدليل على أن حتشبسوت هي التي احتضنت يوسف واستقبلته في بلاط فرعون؟! هل هناك من وثائق تاريخيّة أو نقوش هنا وهناك تدلّ على ذلك؟! لا أظن. ومن هنا كان موقف بوكاي من هذه الفرضيّة موقفًا سلبيًّا بسبب افتقارها إلى الدليل المقنع.

ب- الفرضيّات المقبولة

يؤمن بوكاي إيمانًا جازمًا بأنّ رمسيس الثاني هو فرعون الاضطهاد، أي الفرعون الذي كان يذبح الأبناء ويستحي النساء، وأنّ خليفته مرنبتاح هو فرعون الخروج، أي الذي كان في عهده خروج بني إسرائيل من مصر. وعلى الرغم من أنّ بوكاي قد أرجع هذه الفرضيّة إلى المؤرّخ ماسبيرو في كتابه: دليل زائر متحف الآثار في القاهرة عام ١٩٠٠م، إلّا أنّه يؤكّد على أنّه لم يستطع العثور على الوثائق التي اعتمد عليها ماسبيرو في فرضيّته هذه، إلّا أنّه من جانب آخر يؤكّد على أنّ جدّيّته تفرض بأن نعلّق على ما أكّده أهمّيّة كبيرة[1].

وفي هذا الباب نجد أنّ بوكاي قد امتدح فرضيّة الأب دوفو في بعض جوانبها؛ لأنّه وجد فيها أنّها تقوم على قاعدة أقوى، على الرغم من إدراكه أنّها لا تتوافق مع الرواية التوراتيّة في كلّ نقاطها. تلك الفرضيّة القائمة على أنّ طرح نظريّة أساسيّة قوامها بناء مدينتي رمسيس وبيتوم المذكورتين في التوراة في عهد رمسيس الثاني؛ الأمر الذي يعني رفض أيّ فرضيّة تفترض زمن الخروج قبل جلوس رمسيس الثاني على عرش الحكم. «هذا الجلوس الذي تحدّد موقعه حسب تاريخ دريوتون وفانديه سنة ١٣٠١ قبل المسيح، وحسب تاريخ راوتون في سنة ١٢٩٠ قبل المسيح.

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٦٨.

وهكذا فإنّ النظريّتين الأخريين المذكورتين سابقًا هما غير مقبولتين بسبب هذا الأمر الحتميّ: رمسيس الثاني هو فرعون الاضطهاد الذي تتكلّم عنه التوراة»[1].

وهو وإن كان يتفق مع الأب دوفو في هذا القاعدة، إلّا أنّه رفض النتيجة المترتبة عليها بأن الخروج كان في النصف الأوّل -ونحو الوسط على حدّ تعبيره- من حكم رمسيس الثاني[2]. هذا التحديد عند بوكاي ليس دقيقًا؛ «لأنّه على حدّ قوله يريد أن يمنح جماعة موسى الوقت الذي به يستطيعون استيطان أرض كنعان، ولفرعون منفتاح خليفة رمسيس الثاني الذي اضطر به أن يضع أنظمة للحدود عند موت والده؛ ليجعل بني إسرائيل يقفون على أقدامهم، كما تشهد بذلك المسلة من السنة الخامسة من حكمه»[3].

ولكن إذا كان بوكاي قد امتدح فرضيّة الأبو دوفو في بعض جوانبها، خاصّة في التأكيد على أنّه لا خروج قبل رمسيس الثاني[4]، فإنّه انتقدها في الانتهاء إلى أنّ رمسيس هو فرعون الخروج. ولكن السؤال الملحّ هنا هو: من يكون إذن فرعون الخروج عند بوكاي من وجهة نظره؟ يمكن القول إنّ بوكاي كان يرتضي الفرضيّة التي تقوم على أنّ فرعون الاضطهاد هو رمسيس الثاني، وفرعون الخروج هو مرنبتاح.

وبوكاي استفاد كثيرًا مما ذكره بيير مونتي وماسبيرو، وقد أقرّ بذلك في نصّ يقول فيه: «وقد تناول بيير مونتي بكثير من الذكاء العرف البدائيّ الإسكندريّ المذكور من ماسبيرو، والذي سنلمحه كثيرًا فيما بعد في العرف الإسلاميّ كما نجده في العرف المسيحيّ الكلاسيكيّ، وعزّزه في كتابه: مصر والتوراة بأدلّة مكملة خاصّة ما حملته الرواية القرآنيّة التي لم يشر إليها هذا العالم الأثريّ الشهير بأيّة إشارة»[5]. فما هذا

---

[١]- م.ن، ص٢٦٩.

[٢]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٦٩.

[٣]- م.ن، ص٢٦٩.

[٤]- أنظر: رشدي البدراوي، مرجع سابق، ص٦٦٤-٦٦٥.
انظر: فيصل الكاملي، خروج بني إسرائيل من مصر بين تحريف التوراة وعصمة القرآن، على الرابط التالي:
https://ar.islamway.net/article/82967/

[٥]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٧٠.

العرف الإسلاميّ المسيحيّ؟ وما الأدلّة المكملة التي ساقها هذا المؤرّخ؟ يمكن القول إنّ هذه العرف وهذه الأدلّة ليست شيئًا أكثر من أنّ كلمة رمسيس ذكرت في سفر الخروج دون أن تُسبق بلقب فرعون، كما أنّ رمسيس في التوراة اسم لإحدى مدينين ذُكر في التوراة أنّ اليهود بنوهما سخرة[1]. يقول بوكاي: «ونحن نعلم اليوم بأنّ هاتين المدينتين تابعتان لمنطقة تنيس كانتر في الجهة الشرقيّة من دلتا النيل، حيث بنى رمسيس الثاني عاصمته في الشمال، وقد كانت توجد بالتأكيد في هذه المنطقة أبنية سابقة على رمسيس الثاني. غير أنّه يعود إليه أنّه جعل لها موقعًا مهمًّا، وقد حملت الحفريّات المباشرة في العشرات السنين الأخيرة عنها البرهان الواضح بأنّه سخّر لبنائها اليهود المستعبدين»[2].

ومن جانب آخر يعوّل بوكاي على فكرة أنّ رمسيس مذكور في التوراة[3]. ونحن نعلم أنّ هذا الاسم بدأ يتردّد في الأوساط الثقافيّة والتاريخيّة بفضل فكّ شامبليون للغز حجر رشيد الذي كان مكتوبًا باللغة الهيروغليفيّة، وهي لغة كانت مجهولة حتى استطاع شامبليون التعرّف عليها. لكن بوكاي يؤكّد على أنّه يجب أن نعي بأنّ المعنى الهيروغليفيّ قد فُقد تقريبًا في القرن الثالث من العهد المسيحيّ، وأن اسم رمسيس لم يكن محفوظًا مطلقًا إلّا في التوراة وبعض الكتب اليونانيّة واللاتينيّة التي حرّفته بعض الشيء. ومن ثم يقول: «أمّا التوراة فقد احتفظت بالاسم صحيحًا وذكرته أربع مرات في الأسفار والتوراة: سفر التكوين ٤٧/ ١١، وسفر الخروج ١، ١١، ١٢، ٣٧ عدد ٣٣، ٣، ٣٣، ٥»[4].

وبوكاي يستند في ذلك إلى أنّ التوراة العبريّة كتبت كلمة رمسيس بطريقتين: RAeamss, RAemss. كما أنّ التوراة المسماة السبعيّة في طبعتها اليونانيّة تكتب راعمسيس RAmsse والتوراة اللاتينية تكتب رعمسيس، وفي طبعة التوراة

[١]- أنظر: رشدي البدراوي، مرجع سابق، ص٦٦٧.

[٢]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٧٠.

[٣]- انظر: رشدي البدراوي، مرجع سابق، ص٦٦٧.

[٤]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٧٠.

الكليمانتيّة بالفرنسيّة كتبت أيضًا رعمسيس[1]. بالرغم من أنّ المطّلعين على الترجمة الفرنسيّة هذه يلاحظون أنّ الشرّاح لنسخ التوراة القديمة لم يكونوا ملمّين بمعنى الكلمة أو بمدلولها الذي تدلّ عليه، فالتوراة الكليمانتيّة في طبعتها الفرنسيّة ١٩٦١م تترجم كلمة رعمسيس على أنّها التي تؤلف ما لا معنى له، أو بالزوبعة الضارّة[2].

وأيًّا ما كان الأمر، فإنّ بوكاي كان يظهر الدهشة والإعجاب في الوقت ذاته من احتفاظ التوراة بالكلمة في نصوصها العبريّة واللاتينيّة واليونانية، الأمر الذي سمح له بأن يتّخذ من ذلك منطلقًا لإثبات الآتي:

أنّه لا يمكن تصوّر الخروج قبل استلام رمسيس الحكم، أيًّا كانت السلطة في مصر من وجهة نظره[3].

أنّ موسى قد وُلد في عهد باني المدينين رمسيس وبيتوم، وهذا يعني أنّه في عهد رمسيس الثاني[4].

أنّ رمسيس الثاني مات عندما كان سيّدنا موسى في مدين، وعليه فإنّ القسم الثاني من تاريخ موسى في مصر تتابع في عهد خلف رمسيس الثاني، أي منفتاح.

لكن من الملاحظ هنا في مجال النقد التاريخيّ أنّ بوكاي يستند كثيرًا على نصوص التوراة كدليل على الحدث التاريخيّ[5]، رغم ما وصفت به التوراة من تدخّلات بشريّة تبعد بها عن أن تكون مستندًا في التدليل على الحدث التاريخيّ، وهذا بخلاف ما كان يقوم به من قبل -خاصّة في القضايا العلميّة في خلق السماوات والأرض وعالم النبات والحيوان وغيرهما- من الاستناد إلى الدليل العلميّ للتأكّد من

---

[١]- م.ن، ص٢٧٠-٢٧١.

[٢]- مقدمة ترجمة كتاب موريس بوكاي، مرجع سابق، هامش ص٢٧١.

[٣]- للمزيد حول هذه القضيّة انظر: بولس الفغالي، المدخل إلى الكتاب المقدّس، لبنان – بيروت، المكتبة البولسيّة، ١٩٩٥م، ج٢، ص٦٧.

[٤]- أنظر: بولس الفغالي، المدخل إلى الكتاب المقدّس، ج٢، ص٦٩.

[٥]- وهذه المنهجيّة اتبعها كلّ من:
قليني نجيب، فرعون موسى، مركز المطبوعات المسيحيّة، بدون تاريخ، ص٢٥.
بولس الفغالي، المدخل إلى الكتاب المقدّس، ج٢، ص٦٧.

صدق هذا المحتوى من عدمه؛ حيث إنّ الدليل العلميّ كان على الدوام حاكمًا على النصّ؛ وهذا لا مشكلة فيه ما دام هذا الدليل يخدم النصّ، ولا يُتّخذ مطيّة لهدمه، ومن ثمّ كانت المقارنة تقه دائمًا على ما قاله العلم اليقينيّ في هذه القضيّة؟ أو بعبارة أخرى: هل العلم يناقض ما في النصّ الدينيّ أم لا؟ فإن كانت الإجابة بنعم، فليس هناك توافق، وإن كانت الإجابة بلا، فثمّة توافق. في حين في مجال النقد التاريخيّ، خاصّة في قضيّة الخروج، فإنّ الأمر مختلف؛ لأنّه يستخدم النصّ التوراتيّ، مستندًا على ما يفترضه من افتراضات، فجعل النصّ الدينيّ التوراتيّ -في الغالب- مادّته التي ينهل منها آراءه.

وهو لا يجد غضاضة في الاستناد إلى التوراة كعنصر أساسيّ في معالجته لهذا الجانب، حتى أنّه اعتمد عليها اعتمادًا رئيسًا في تحديد زمن الخروج، مستندًا في ذلك إلى ما أخبرت به التوراة من أنّ عمر موسى عليه السلام عندما جاهر فرعون بالدعوة كان ثمانين عامًا، وأنّ عمر هارون كان ثلاثة وثمانون عامًا، «لقد كان عمر موسى ثمانين سنة وهرون ثلاثًا وثمانين سنة عندما كَلَّمَا فرعون»[1]. ومستندًا في ذلك أيضًا إلى ما جاء في التوراة من أنّ الفرعون الذي وُلد موسى في عهده مات أثناء إقامة موسى في مدين[2]. فقد كان يدرك أنّ الرواية التوراتيّة تتابع دون ذكر تغيير لاسم الحاكم، ومن ثمّ فقد اتّخذ مما يتضمّنه هذان النصّان متكأً للقول بأنّ مدّة حكم الفرعونين اللذين عاش موسى في عهدهما في مصر لا بدّ من أن يكون ثمانين سنة على أقلّ تقدير[3].

وهذا تأكيد على أنّ الرواية التوراتيّة كانت ملاذه في هذا الباب من الحوادث التاريخيّة، على الرغم من أنّ ذلك لم يكن لا منهجه ولا سبيله في مشروعه العام حول علاقة الكتب السماويّة بالمعارف الحديثة. ومن ثم كانت هذه الجزئيّة من الجزئيّات التي تؤخذ عليه في هذا الصدد.

---

[١]- سفر الخروج، ٧/ ٧.

[٢]- م.ن، ٢/ ٢٣.

[٣]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٧١.

حتى أنّ بوكاي عندما استند إلى ما قاله المؤرّخون، فإنّه لم يستند إلّا لما فيه تأرجح بين الرأي والرأي الآخر، أو بين فرضيّة وأخرى، فقضيّة مدّة حكم رمسيس التي اتخذها بوكاي دليلًا اختلف حولها المؤرّخون، فحسب المؤرّخين استغرق حكم رمسيس الثاني ٦٧ عامًا، من عام (١٣٠١-١٢٣٥) قبل الميلاد، وهذا ما ذهب إليه تاريخ دريوتون وفانديه، في حين ذهب تاريخ راوتون إلى أنّه ما بين (١٢٩٠-١٢٢٤) قبل الميلاد[1]. وهذا كلام متأرجح، ولا دليل عليه في ظنّي؛ لأنّه يتردّد بين تاريخين، فضلًا عن أنّه يتّخذ مما ورد في التوراة منطلقًا وأساسًا، وهذه نقطة خلاف جوهريّ. خاصّة أنّ بوكاي ذاته اعترف أنّ علماء التاريخ المصريّ لم يستطيعوا أن يحصلوا بالنسبة لفترة ملك خلف رمسيس وهو منفتاح على مدّة محددة، ويعلّق على ذلك قائلًا: «لكنّهم يرون بأنّها على الأقلّ عشر سنوات؛ لأنّ السنة العاشرة من حكمه مثبتة بوثائق كما يثبته الأب دوفو، بينما يرى مانثون أنّ فترة حكمه كانت عشرين سنة، ويقدّر دريوتون وفانديه لمنفتاح إمكانيّتين: إمّا أن تكون فترة حكمه قد امتدّت عشر سنوات من (١٢٣٤-١٢٢٤)، وإمّا أنّها كما ذهب راوتون امتدّت عشرين سنة من (١٢٢٤-١٢٠٤)»[2].

ونحن كما نرى نجد أنّه يعتمد هنا على تواريخ متأرجحة الحقيقة، بمعنى أنّنا لا نستطيع أن نقف فيها على تأريخ محدّد نستطيع أن نبني عليه حكمًا، وإن فعلنا فلن يتجاوز هذا الحكم دائرة التوقّع أو التنبّؤ، فمدّة حكم رمسيس الثاني متأرجحة، ومدّة حكم منفتاح خلفه متأرجحة أيضًا، الأمر الذي يقودنا إلى أنّ الانطلاق منها لبيان تاريخ الخروج هو أمر محفوف بالمخاطر، وغير قابل لليقين بنسبة كبيرة.

بل تكاد بعض آراء بوكاي نفسه توحي بذلك، خلافًا لما يحاول أن يقنعنا به، بدليل أنّه يؤكّد أنّه ليس لدى علماء التاريخ المصريّ شيء أكيد فيما كان عليه نهاية حكم منفتاح خلف رمسيس الثاني، وأنّ كلّ ما يعرفونه هو أنّه مصر مرّت بعده

---

[١]- بوكاي، المرجع السابق، ص٢٧٢.

[٢]- م.ن، ص٢٧٢.

بضائقة داخليّة خطيرة دامت قرابة الربع قرن. ليس هذا فحسب، بل اعترافه أيضًا بأنّ عناصر تاريخ عهود الحكم غير دقيقة[1]. وهذا يقودنا إلى أنّنا نتّجه إلى أحكام غير يقينيّة.

وإذا كان يشير إلى أنّه لم يكن للإمبراطوريّة الجديدة فترات أخرى أو عهدان متتابعان طالا أو تجاوزا مدّة الثمانين عامًا، إلّا عهدي رمسيس الثاني – منفتاح[2]. فهذا لا يشير إلى أيّ حكم يقينيّ يجبر على الأخذ به والاطمئنان إليه. حتى إذا كان قد اعتمد على معطيات التوراة المتعلّقة بعمر موسى عندما دعا فرعون[3] إلى الامتثال والطاعة لأمر الله تعالى، فإنّ ذلك يشير إلى فترة تتابع حكمي رمسيس الثاني ومنفتاح، وهذا يعني أنّنا أمام مجرّد فرضيّة لا ترقى إلى درجة الدليل اليقينيّ. لكن بوكاي ظلّ يستند إلى هذه الفرضيّة، وبل أخذ يرقى بها إلى مستوى الدليل اليقينيّ، رغم أنّ الأمر ليس كذلك، فهو يقول: «وكل شيء يتيح القول بأنّ موسى قد ولد في أوّل عهد رمسيس الثاني، ووجد في مديَن عند موته بعد سبع وستين سنة من حكمه، وكان قريبًا بالتالي من منفتاح، من رمسيس الثاني وخلفه محاميًا عن يهود مصر، هذا الحادث يمكن أن يمرّ في الجزء الثاني من عهد منفتاح إذا حكم عشرين سنة كما هو ممكن، وكما يفكّر فيه دراوتون»[4].

ومن ثمّ فإنّ موسى قاد الخروج في آخر زمن منفتاح عند موريس بوكاي، وليس في ذلك شكّ عنده في كلّ الأحوال، وأنّه هو الفرعون الذي فقد حياته غرقًا أثناء ملاحقته لليهود. وهذه الصورة تتّفق عنده مع ما تنقله الكتب المقدّسة عن طفولة سيّدنا موسى واستقبال آل فرعون له[5]. وهو يؤسّس حكمه هنا على أساس افتراضه أنّ سن رمسيس الثاني كانت عند موته قد تقدّمت به كثيرًا، والتي افترض أن تكون

---

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٧٢.

[٢]- م.ن، ص٢٧٢.

[٣]- سفر الخروج، ٧/ ٧، ٢/ ٢٣.

[٤]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٧٢.

[٥]- وقد انتقد هذه النظريّة عدد من الدارسين، انظر: رشدي البدراوي، موسى وهارون عليهما السلام، من هو فرعون، موسى؟ ص٦٦٩ وما بعدها.

أنظر: عبد العزيز الصالح، الشرق الأدنى القديم في مصر والعراق، القاهرة، مطبعة الأنجلو المصريّة، ٢٠١٢م، ج١، ص٢٥٥.

تسعين أو مئة، ومن ثمّ يؤسّس على هذه الفرضيّة افتراضًا آخر، وهو أنّ رمسيس الثاني كان له من العمر عند بداية حكمه الذي دام سبعًا وستين سنة ثلاث وعشرون سنة أو ثلاث وثلاثون سنة...، ثمّ يؤسّس على هذه الفرضيّة الثانية فرضيّة ثالثة، وهي أنّه كان يمكنه في هذه السن أن يتزوّج[1]. هكذا كما نرى فرضيّات يتبعها فرضيّات دون أن نكون أمام دليل يقينيّ على قضيّة الخروج. الأمر الذي يدعونا إلى التساؤل: لماذا حاول بوكاي أن يزجّ بالعلم والدين معًا في قضيّة كقضيّة الخروج، يبدو الوصول إلى تحديد زمن حدوثها وتحديد شخصيّة الفرعون فيها أمرًا افتراضيًّا لا يرقى إلى مرتبة الدليل اليقينيّ؟!!

ولكن ماذا عن التوراة التي تقول إنّ الذي التقط موسى كان بنتًا في الوقت الذي لم يذكر القرآن بنتًا، وإنّما ذكر آل فرعون؟ يرى بوكاي أنّه لا تناقض هنا بين الرواية التوراتيّة والرواية القرآنيّة في شيء؛ لأنّه بما أنّه كان لفرعون من العمر ما سبق، فليس هناك ما يمنع من أن يكون له بنت قادرة على اكتشاف الولد الملقى في اليمّ[2].

وينتهي بوكاي من كلّ هذا إلى أنّ الافتراض الذي صاغه هنا يتّفق في صورته المطلقة مع القرآن، ولا أدري كيف أقحم القرآن هنا على الرغم من أنّ القرآن لم يذكر زمنًا للخروج؟! كما أنّه انتهى بالمقابل إلى أنّ هذا الافتراض كذلك لا يتناقض مع التوراة عنده إلّا في نصّ واحد، وهو يعني ذلك النصّ الموجود في سفر الملوك، والذي يحدّد زمن خروج موسى من مصر بالنسبة إلى وقت بناء هيكل سليمان[3]. وقد رفض المستشرق موريس بوكاي هذا النصّ بناء على عدّة معطيات يمكن فهمها من ثنايا حديثه، وهي:

ـ أنّه لا يؤلّف جزءًا من التوراة.

ـ أنّه محلّ نقاش كبير، خاصّة مع النصوص الأخرى.

---

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٧٣.

[٢]- م.ن، ص٢٧٣.

[٣]- سفر الملوك، ١/ ٦.

ـ رفض المؤرّخ الأب دوفو المعطيات التاريخيّة التي يسوقها.

ـ إنّ كونه موضع شكّ يحول دون منحه قوّة دليل يحدّد بالمقابل نظرة مؤسِّسة في هذا الصدد[1].

ولكن هل هناك من أدلّة على أنّ منفتاح هو فرعون الخروج؟

يعرض لنا بوكاي موقف بعض العلماء في هذه القضيّة الذين ربطوا بين مسألة المسلة[2] في السنة الخامسة من عهد منفتاح وبين زمن الخروج، ولكن على نحو نوع من المعارضة للفرضيّة التي قال بها بوكاي متأثّرًا بعدد من المؤرّخين الذين سبق أن ذكرناهم وذكرنا أسماءهم. وقد عدّ بوكاي هذه المسلة ذات فائدة عظيمة؛ لأنّها تمثّل الوثيقة الهيروغليفيّة الوحيدة المعروفة التي ذُكرت فيها كلمة إسرائيل، والمسلة -حسب بوكاي- وثيقة تعود إلى الجزء الأوّل من حكم منفتاح، اكتشفت في طيبا في معبد مأتميّ مظلم لفرعون؛ حيث تذكر مجموعة انتصارات أحرزها على جواره في مصر، وخاصّة في آخرها الذي يرد فيه ذكر انتصار على إسرائيل المدمَّرة والمسحوقة، والتي لم يعد لها بذر تزرعه. ولكن بوكاي رفض رأي بعض الباحثين من أن وجود كلمة إسرائيل يعني أنّه ينبغي أن يكون اليهود قد استوطنوا أرض كنعان في سنة منفتاح الخامسة، كما رفض أن يكون خروجهم قد تمّ في هذه الفترة[3].

فهذه الفرضيّة لا تبدو مقبولة عند بوكاي؛ وذلك لأنّ هذا يعني عنده أنّه لم يبق هناك يهود في كنعان، وهذا عنده مما لا دليل عليه[4]. فضلاً عن أنّه من أنصار الفرضيّة القائلة إنّ الخروج كان في زمن رمسيس الثاني، مستندًا في ذلك -باعترافه- إلى الأب دوفو الذي أيّد هذه الفرضيّة، وقد كتب ذلك في كتابه: تاريخ إسرائيل القديم في معرض الحديث عن استيطانهم أرض كنعان: «وبصدد الجنوب فإنّ

---

[1]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٧٣.

[2]- والمسلة هذه هي التي تسمّى لوح مرنبتاح أو لوح إسرائبل، وتبدو أهمّيّته في القصيدة المنقوشة عليه والتي تحكي عن انتصارات مرنبتاح، وذكرت فيها كلمة إسرائيل. انظر: سليم حسن، مصر القديمة، القاهرة، مطبعة جامعة فؤاد الأوّل، ١٩٥٢م، ج٧، ص٩٦.

[3]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٧٤.

[4]- م.ن، ص٢٧٤.

تاريخ استيطان مجموعات منتسبة إلى الإسرائيليّين في منطقة قادس غير محدّد، وهو قبل الخروج»[1]. وقد استنتج بوكاي من ذلك أنّه يشير إذن إلى صحّة استيطان بعض مجموعات خارجة من مصر في فترة أخرى غير فترة خروج جماعة موسى، مستدلًا على ذلك بأنّ الأبيرو أو الهابيرو الذين يمثّلون وحدة مع الإسرائيليّين والذين كانوا يقيمون في سوريا -فلسطين قبل رمسيس الثاني، أي قبل الخروج؛ حيث جلب منهم أمينوفيس الثاني مساجين منهم- مستدلًّا على ذلك بوثيقة -يقدّر عددهم بثلاثة آلاف وستمئة؛ حيث استخدمهم كعمّال مسخّرين في مصر، كما أنّ أمينوفيس ذاته أسكن بعضهم في أرض كنعان في عهد سيتي الأوّل؛ وقد أثاروا القلائل في منطقة بيت- شان ذكرها الأب مونتيه في كتابه: مصر والتوراة. ويعلّق بوكاي على ذلك قائلًا: « ويحتمل أنّ منفتاح عاقب هذه المجموعة على حدودها، بينما كان داخل بلاده أولئك الذين تجمّعوا فيما بعد على حدوده حول موسى للهرب. إنّ وجود المسلة في سنة منفتاح الخامسة لا يعارض أبدًا النظريّة المطروحة هنا»[2].

لكن بوكاي يسقط هنا سنوات التيه من حساباته، ولعلّه لو لم يسقطها لانتبه إلى رأي مخالف لما انتهى إليه، إذ إنّ بني إسرائيل لم يتوجّهوا إلى فلسطين بعد خروجهم من مصر آخر حكم رمسيس الثاني؛ لأنّهم مكثوا في التيه في صحراء سيناء أربعين سنة قبل دخول أرض كنعان فلسطين، وهذه السنوات ثابتة بنصّ القرآن الكريم[3]. إضافة إلى أنّ السيادة المصريّة على فلسطين آنذاك كانت من القوّة بحيث لا تترك الفرصة لبني إسرائيل لدخول أرض فلسطين من الأساس، ومن ثمّ فلا مجال للقول إنّ بني إسرائيل كانوا قد استقرّوا في فلسطين لبعض الوقت ثمّ ذهب مرنبتاح ليزيل بذرتهم ويعيد النفوذ المصريّ إلى فلسطين!![4]

ولئن كان بوكاي قد استند إلى أقوال بعض المؤرّخين في التدليل على ما ذهب إليه من القول بالخروج في فترة رمسيس الثاني، فإنّه من جانب آخر استند إلى التوراة

---

[١]- الأب دوفو، تاريخ إسرائيل القديم، نقلاً عن موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٧٤.

[٢]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٧٤-٢٧٥.

[٣]- انظر: رشدي البدراوي، مرجع سابق، ص٦٧٤.

[٤]- انظر: محمّد بيومي مهران، مصر والشرق الأدنى القديم، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعيّة، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، ج٣، ص٥٠٠.

وبعض الشواهد التاريخيّة التي تثبت خطأ من اتخذ من المسلة في السنة الخامسة لمنفتاح دليلًا على أنّ الخروج كان في عهده. فهو يقف عند كلمة إسرائيل وأصلها، محاولًا الاستدلال على أنّ ظهور كلمة إسرائيل في تاريخ الشعب اليهوديّ لا صلة له مطلقًا باستيطان مجموعة موسى في أرض كنعان[1].

وفي سبيل التأكيد على أصل الكلمة اتّجه بوكاي إلى التوراة، فالتوراة تخبر بأنّ يعقوب هو من أطلق عليه إسرائيل، سيّدنا يعقوب هو نبيّ الله تعالى، وهو ابن إسحاق بن إبراهيم[2]، وفي الإسلام أنّ معنى إسرائيل هو عبد الله أو صفوة الله، وأنّ بني إسرائيل ينسبون إليه نسبة الأحياء إلى أحد الأجداد. هذا يعني أنّ كلمة إسرائيل ظهرت قبل موسى بقرون، الأمر الذي يعني معه أنّ ذكره في المسلة لا يرقى كدليل على الخروج زمن منفتاح. وهذا ما يؤكّده بوكاي بقوله: «فقد ظهر اسم إسرائيل قبل موسى ببضع مئات السنين، وليس بمدهش أن يرى مذكورًا في مسلة تعود إلى عهد فرعون - منفتاح، كما لا يمثّل هذا الذكر بأيّ طريقة دليلًا لمصلحة تاريخ خروج موسى قبل سنة فرعون منفتاح الخامسة»[3].

لكن الرأي الذي يتمسّك بأنّ فرعون موسى هو رمسيس الثاني -مخالفًا في ذلك ما ذهب إليه بوكاي- يتكئ على موضوع السنة الخامسة في نفي فرضية مرنبتاح، فكيف يحدّد الدراسون لوح مرنبتاح بالسنة الخامسة لحكمه، في حين كانت حملته على سوريا في العام الثالث لحكمه؟! والثابت أنّ فرعون قد غرق أثناء مطاردته لبني إسرائيل، وهذا يعني أنّ اللوح قد كُتب بعد غرق الفرعون، وكَتَبَهُ اللاحقون تخليدًا لذكرى انتصاره على الليبيّين، وأضاف إليه أنّ بذرة بني إسرائيل قد أُبيدت، فكيف يتأتى للفرعون وقد غرق أثناء المطاردة أن يدّعي أنّه قد أبادهم[4].

ومن جانب آخر فإنّ ذكر إسرائيل في المسلة لا يعني أنّها تشير إلى مجموعة مركّزة سياسيًّا؛ لأنّ الكتابة تعود إلى آخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد، والمملكة

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٧٥.

[٢]- سفر التكوين، ٣٢/ ٢٩.

[٣]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٧٥.

[٤]- أنظر: محمّد بيومي مهران، مصر والشرق الأدنى القديم، ج٣، ص٥٠٠.

الإسرائيليّة لم تتشكّل إلّا في القرن العاشر قبل الميلاد، ومن ثمّ فهي تشير عند بوكاي إلى مجموعة أكثر ضآلة[1]. هذا يعني أنّ عمليّة تكوين بني إسرائيل استغرقت مئات السنين سبقت دخول بني إسرائيل في التاريخ، وقد انحدر الجدود من الساميّين الرحّل ومنهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب، هذا ما أدلى به بوكاي، لكنّه يزعم أنّ إسرائيل يعقوب يعني المجموعة البدائيّة التي كانت النواة للكيان السياسيّ المستقبليّ الذي سيظهر بعد حكم منفتاح بكثير؛ لأنّ المملكة الإسرائيليّة دامت عنده من (٩٣٠-٩٣١) إلى ٧٢١ قبل الميلاد[2].

ويبقى السؤال المهم هنا ما الذي قدّمته النصوص المقدّسة عن موت فرعون زمن الخروج؟ يرى بوكاي أنّ موت فرعون زمن الخروج يشكّل نقطّة مهمّة جدًا في روايات القرآن والتوراة، وهو يرى أنّ هذه الروايات منبثقة من نصوص شديدة الوضوح غير مذكورة فقط في الأسفار الخمسة والتوراة، بل في مزامير داوود أيضًا[3]. ولكن مما كان يعجب له بوكاي أنّ الكتّاب المسيحيّين يمرّون بصمت على ذلك. فالأب دوفو كان يناصر الفرضيّة التي تقول إنّ زمن الخروج كان في عهد رمسيس الثاني وليس منفتاح[4]، وبوكاي كان من أنصار أنّ فرعون الخروج كان منفتاح، في حين كان فرعون الاضطهاد هو رمسيس الثاني. ومن ثمّ يلوم دوفو على أنّه يتبنّى فرضّية مخالفة لفرضيّته التي آمن بها، بل إنّه يتّهمه بعدم التأكّد فيما إذا كان فرعون قد هلك في هذا الخروج، «وهو ما لم يسمح به في كلّ الافتراضات بأن يحدّد وقوع الحادث إلّا في آخر فترة الحكم، ولا يبدو مدير مدرسة التوراة في القدس في كتابه تاريخ إسرائيل القديم -يقصد الأب دوفو- مهتمًّا بأيّ نوع من التعارض بين النظريّة التي يسندها ويدافع عنها وبين معطيات كتابي التوراة»[5]. ومن ثمّ نفهم أنّ لوم بوكاي هنا منصبٌّ على دوفو؛ كونه يعارض الفرضيّة التي افترضها ويلومه على ذلك، علمًا بأنّ ما آمن به بوكاي ذاته لا يخرج عن إطار الفرضيّة أيضًا، فلا شيء

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٧٥.

[٢]- م.ن، ص٢٧٦.

[٣]- م.ن، ص٢٧٦.

[٤]- م.ن، ص٢٧٦.

[٥]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٧٦.

يقينيّ في الفرضيّتين، فالكلّ يستدلّ بما لديه من شواهد، لكن الأمر في النهاية ليس فيه دليل ملموس يقضي يقينًا بإحداهما.

وفي هذا الشأن ينتقد بوكاي مونتيه في عدم ذكره لموت فرعون الخروج كما أخبر بذلك التوراة والقرآن الكريم، ومن ثمّ فإنّ عدم ذكره لذلك كان محلّ استغراب بوكاي واندهاشه؛ كونه يتناقض مع ما جاء في التوراة ذاتها. وهو يفسّر ذلك بتعصّب الشرّاح المسيحيّين الذين اتهمهم بأنّهم يبعدون عمدًا عن موت فرعون، وبأنّهم يثيرون ذكر ما هو وارد في القرآن ويحرّضون قرّاءهم على إجراء مقارنات عجيبة، «وهكذا يمكننا أن نقرأ في ترجمة القرآن التي تمّت بإشراف المدرسة التوراتيّة في القدس الشرح التالي المتعلّق بموت فرعون للأب كوروابيه الأستاذ في المدرسة المذكورة أشار القرآن السورة ١٠ آية ٩٠-٩١ إلى ذلك، فرعون مع جيشه قد غرق حسب الأعراف الشعبيّة -وهو ما لم يقله النصّ المقدّس- واستقرّ في البحر وتحت سلطة أركان بحريّته الفقمة»[1].

ولا شكّ في أنّ ما ذهب إليه هذا المفسّر بعيد كلّ البعد عما ذُكر في القرآن الكريم، بل يناقضه بكلّ تأكيد، لكن من المؤسف أنّ من ليس لديه أيّ مخزون معرفيّ عن القرآن قد يؤثّر فيه هذا الكلام المخالف للحقيقة ويعتقد أنّه صواب، ومن هنا تأتي الإشكاليّة؛ إذ كيف يتّهم القرآن بأنّه يتبع الأعراف الشعبيّة والأساطير الخرافيّة؟! مع أنّ النصّ القرآنيّ واضح وضوح الشمس في أنّ فرعون مات غرقًا في البحر ونجاه الله تعالى ببدنه ليكون من خلفه آية. يقول الله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَاءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَاءِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ سورة يونس، الآيات ٩٠-٩٢.

فهذا هو ما جاء بالنصّ القرآنيّ، وهو ما يدلّ في الوقت نفسه على تعصّب الشارح المسيحيّ الذي اتّخذ من هذه الآيات عدوًا وظلمًا مدعاة للقول بما يخالف

---

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٧٧.

ما جاء فيها. وهذا ما استند إليه بوكاي في نقده لهذا الشارح، ومن ثمّ فليس لأوهام شارح التوراة عنده مجال للصدق؛ لوجود قاعدة أساسيّة نصّ عليها القرآن، وهي أنّ فرعون مات غرقًا ولكن الله نجّاه ببدنه.

لكن بوكاي أكّد على فكرة جوهريّة كدليل على صدق القرآن وأنّه لا يخالف المعارف التاريخيّة، وهي أنّه في الوقت الذي كان الرسول يضع القرآن في متناول الناس في أيّام بعثته، كانت أبدان الفراعنة الذين شكّ الناس في هذا العصر الحديث خطأً أو صوابًا بأنّهم اهتموا بالخروج موجودة في قبور وادي الملوك في طيبا في الضفّة المقابلة للأقصر من النيل، في الوقت الذي كان فيه كلّ الناس يجهلون هذا الواقع، ولم يكتشفوه إلّا في أواخر القرن التاسع عشر، وما تمّ اكتشافه يثبت ما يقوله القرآن بشأن نجاة بدن فرعون الخروج. وأيًّا كان من هو فرعون الناجي؛ حيث إنّه استقر في صالة المومياءات الملكيّة بالمتحف المصريّ، فإنّ الحقيقة عند بوكاي -وعندنا بالطبع- مختلفة جدًّا عن تلك الخرافة المضحكة المنسوبة خطأً إلى القرآن والتي زعمها كوروابيه[1].

فبوكاي يقف بالمرصاد في وجه أيّ تشويه متعمّد ضدّ القرآن، في الوقت الذي يقف فيه ضدّ أيّ فرضيّة لا تفترض في منفتاح فرعون الخروج، ومن ثمّ فقد اهتمّ كثيرًا باكتشاف لوريت لمنفتاح ابن رمسيس الثاني الذي يتضافر كلّ شيء عنده على إقناع الفكر بأنّه فرعون الخروج. وعلى الرغم من أنّ بوكاي قام بدراسة المومياء دراسة مباشرة، إلّا أنّ مما استنتجه من خلال بحثه هو أنّ هناك أضرارًا عظيمة لحقت بالمومياء، مع أضرار ماديّة كبيرة، بل يؤكّد على أنّ جزءًا منها كان مميتًا، في الوقت الذي يؤكّد أيضًا أنه ليس بالإمكان إثبات ما إذا كان بعضها قد حصل قبل موت فرعون أو بعده[2].

لكن بوكاي الذي لطالما كان يدافع عن القرآن نجده يشير إلى ما يشبه التشكيك في قضيّة غرق فرعون، حين يقول: «فرعون الذي مات حقيقة، إمّا غرقًا حسب روايات الكتب المقدّسة، أو باهتزازات شديدة جدًّا ناتجة عن جروح سبقت غرقه

---

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٧٧-٢٧٨.

[٢]- م.ن، ص٢٧٩.

في البحر أو الاثنين معًا»[1]. وما كان لبوكاي الذي كان يدرك التوافق التام بين القرآن والعلم أن يقول مثل هذا الكلام؛ لأنّ قول بوكاي هنا يقتضي التشكيك وما كان له أن يشكّك في القرآن، وهو يعلم جيّدًا صدق الآيات التي جاء بها وعدم تناقضها مع المعطيات العلميّة أو المعارف التاريخيّة. ولا أدري كيف طاوعته نفسه للقول بهذا على الرغم من إلمامه الكبير بالنصّ القرآنيّ؟! فالأمر ليس محلًّا للشك، فالقرآن لم يخبر إلّا بغرق فرعون حتى إذا أدركه الغرق، ومن ثمّ فإنّ أيّ قول آخر هو قول مردود لا قيمة له.

وأيًّا ما كان الأمر، فإنّ تضافر كلّ الأضرار المحيطة بالمومياء عند بوكاي، تجعل المحافظة الجيّدة على بدن مومياء فرعون أمرًا مشكوكًا فيه إذا لم تتّخذ لها وسائل الحفظ والترميم على المستقبل القريب. «هذه الوسائل مفروض فيها أن تحذر احتفاء الشاهد المادي الوحيد الذي لا يزال موجودًا في أيّامنا عن موت فرعون الخروج ونجاة بدنه بإذن الله»[2].

لقد كانت مومياء الفرعون الذي جاهر موسى العداء ولاحقه وعذب أهله من بني إسرائيل، وحاول قتله وقومه، فنجى الله تعالى موسى وأهلك فرعون غرقًا في اليمّ، ونجاه الله ببدنه؛ ليكون في العالمين آية وعلامة، وقد حدّد الله تعالى ذلك في القرآن بكلّ وضوح. يقول بوكاي معلقًا: «يا لها من التماعة عجيبة للآيات القرآنيّة/ تلك المختصّة بجسد فرعون المعروض في صالة المومياءات الملكيّة للمتحف المصريّ في القاهرة، والتي تقدّم لكلّ باحث في معطيات الاكتشافات الحديثة براهين صحّة الكتابات المقدّسة»[3]. لكن كان على بوكاي أن يكون أكثر تحديدًا، فيقول إنّها تقدم براهين صحّة القرآن الكريم لا الكتب المقدّسة بذلك المعنى العامّ الذي أراده بوكاي؛ بدليل أنّه وقف عند المقارنة بين الروايات القرآنيّة والروايات التوراتيّة على صحّة الأولى علميًّا وخطأ الثانية، من خلال ما تقدّمه لنا معطيات العلم الحديث والمعارف التاريخيّة، أفلا يعدّ قوله في النصّ السابق تناقضًا؟!

---

[1]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٧٩.

[2]- م.ن، ص٢٧٩-٢٨٠.

[3]- م.ن، ص٢٨٠.

الباب الرابع

قراءة بوكاي وأصل الإنسان

الفَصْلُ الأَوَّلُ

بين التطوّر الطبيعيّ الداروينيّ والتطوّر الخلّاق البوكابيّ

الفصل الأوّل

بين التطوّر الطبيعيّ الداروينيّ والتطوّر الخلّاق البوكايّ

تعدّ قضيّة أصل الإنسان من القضايا التي شغلت حيّزًا مهمًّا في مشروع بوكاي حول القراءة العلميّة للقرآن، وتنبع أهمّيّة هذه القضيّة من أنّها تحاول أن تبيّن أصل الإنسان وتضع مقارنة بينها في القرآن وبين القضيّة ذاتها كما طرحها بعض العلماء المحدثين، خاصّة قضيّة التطوّر الداروينيّة.

ويمكن القول إنّ بوكاي اتّخذ من إحدى أفكار كتابه البالغ الصيت: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم الحديث، وهي قضيّة الخلق والتكاثر البشريّ سبيلًا إلى تناولها بصورة أوسع وبشكل مستقلّ في كتاب أسماه: أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة. فقد «انكبّ المؤلف على بحث أحد مواضيع كتابه السابق، في كتاب مستقلّ.. بحيث إنّه توسّع في بحثه هذا ليتطرّق إلى موضوع شغل العالم فترة من الزمن على إثر انتشار نظريّة دارون القائلة إنّ الإنسان [والقرد] قد انحدرا من بعض سلالة القردة»[1].

ولا شكّ في أنّ هذه النظريّة التي قال بها دارون في النشوء والارتقاء ليس لها أيّ سند علميّ[2]، فلا يستطيع كائن من كان أن يأتي عليها بدليل، مما يعني في التحليل الأخير أنّها مجرّد ترّهات، بدليل أن العلم الحديث أنكرها، ومعطياته الحديثة

---

[١]- فوزي شعبان، مقدمة ترجمة كتاب أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، لموريس بوكاي، المكتبة العلميّة، بدون تاريخ، ص٣.

[٢]- أنظر: محمّد فريد وجدي، الإسلام في عصر العلم، بيرت – لبنان، دار الكتاب العربيّ، الطبعة الثالثة، ٨٠٥.
أنظر: شمس الدين آل بلوت، داروين ونظرية التطوّر، ترجمة: أورخان محمّد علي، القاهرة، دار الصحوة، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ص١٠١.

رفضتها رفضًا باتًّا[1]. ولنا في قول الله تعالى نبراسًا وعلماً وحكماً؛ حيث يقول جلّ شأنه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ سورة التين، الآية ٤.

والحقيقة التي لا جدال فيها أنّ هذه النظريّة تقف في الاتجاه المعاكس للقرآن الكريم وتخالفه وتصنع حدًّا فاصلًا بين الإنسان وكرامته[2]؛ فإذا ما وُصِف فيها بأنّ أصله قرد على تفصيل في هذه المسألة...، فهل نحمل له حينها قدرًا من التكريم؟! أم ننزعه عنه في مخالفة واضحة للمبدأ الإسلاميّ القائم على تكريم الإنسان[3]. فالمبدأ الإسلاميّ الذي تضمّنته آية التين في تكريم الإنسان يلخّص موقف الإسلام من الإنسان، فقد جعله الله تعالى في أحسن تقويم حين زيّنه بالعقل، وميّزه حتى يكون أهلًا لتطبيق أوامر الله تعالى والتزام فرائضه، وحين خلقه مستويًا بخلاف الكائنات الأخرى التي تهيم على وجهها أو على أربع، وحين جعل له اليد التي يمسك بها الأشياء، وبها يصنع وينتج، وبها يدافع عن نفسه بما وُهب من مرونة في الأصابع، وديناميكيّة في الحركة، وحين وهبه لسانًا به يفصح عن نفسه ويتواصل مع غيره في غير بهيميّة ولا إعجام.

ومن ثمّ فقد شغلت هذه القضيّة الكثير من تفكير بوكاي، وقد بدأها قائلًا: «إنّ الإنسان بتساؤله عن أصله منذ آلاف السنين، لم يكن في متناول تفكيره إلّا مبادئ مأخوذة من تعاليم دينيّة ومن مناهج فلسفيّة مختلفة، وكان عليه أن ينتظر العصر الحديث؛ لكي تتوافر لديه معطيات ذات طابع مختلف مرتكزة على مصادر أخرى تتيح له التأمّل في بداية البشرية»[4].

[١]- أنظر للمزيد: أبو الأعلى المودودي، الإسلام في مواجهة التحدّيات المعاصرة، تعريب خليل أحمد الحامدي، الكويت، دار القلم، الطبعة الرابعة، ١٩٨٠م.

[٢]- وهذا ما تودّي إليه مبادئ التطوّر والانتقاء الطبيعيّ والطفرة، التي قال بها داروين في امتهان حقيقيّ لكرامة الإنسان، انظر: تشارلز داروين، أصل الأنواع، ترجمة مجدي محمود المليجي، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القوميّ للترجمة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م، العدد ٦٢٨، ص٥٠-٥٢.

[٣]- أنظر: تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ التين/ ٤، ابن كثير، تفسير ابن كثير، التين/ ٤، جلال الدين السيوطي وجلال الدين المحلي، تفسير الجلالين، التين/ ٤، الطبري، تفسير الطبري، التين/ ٤، القرطبي، تفسير القرطبي، التين/ ٤.

[٤]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، المكتبة العلميّة، بدون تاريخ، ص٧.

إنّنا نفهم من خلال اهتمام بوكاي بهذه القضيّة أنّه يعدها من القضايا الكبرى -وهي كذلك بالفعل- التي يتعرّض لها الفكر البشريّ، في الوقت الذي نلاحظ فيه أنّ هذا المستشرق لا يعوّل على العقل الداروينيّ ولا على المكتسبات المعرفيّة التي يزعم أصحابها بأنّ ما في جعبتهم منطقيّ لتناقضها مع الدين من جانب وتنافرها مع المعطى العلميّ من جانب ثانٍ[1].

ومن المعروف أنّ داروين أصدر كتابه: أصل الأنواع عام ١٨٥٩م في إنجلترا، ولاقى شهرة عالميّة وقبولًا عند قطاع كبير من العلماء في ذلك الوقت على الرغم من العوار الذي يقوم عليه.

ولعل انتقاد بوكاي لهذه النظريّة كان مبنيًّا على ثلاثة جوانب: الجانب الدينيّ، والجانب العلميّ، والجانب العقليّ[2]، فالجوانب الثلاثة مجتمعة هي ما أدّت به إلى رفض هذه النظريّة؛ فالأوّل يتحدّث عن الإنسان المكتمل الخلقة، المستوي في أحسن صورة، والثاني لا يقدّم لنا دليلًا وحيدًا على صحّة ما ذهب إليه داروين، والثالث يرفضها لأنّه لو كانت النظريّة صحيحة، لكانت كلّ الكائنات تنحدر من أنواع مختلفة موجودة قبلها، وهذا مستحيل؛ ولذا يؤكّد بوكاي على الجانب الأخير قائلًا: «لكنّنا من خلال تتبّعنا كنّا قد توصّلنا إلى الادّعاء بأنّه -بالطريقة ذاتها- ثمّة أنواع أخرى كان عليها أن تنحدر من أنواع مختلفة موجودة سابقًا، وكان على الإنسان أن يظهر على سطح الأرض على إثر تطوّر، بدءًا بسلالة حيوانيّة قريبة»[3].

كان بوكاي ينظر إلى قضيّة أصل الإنسان وتطوّره على أنّها قضيّة شديدة التعقيد، وهو يعمّ أنظمة كثيرة لدرجة كبيرة، ومن ثمّ يتساءل «عمّا إذا كان ثمّة دماغ

---

[١]- أنظر في مناقضة طريقة هذه النظريّة للعلم: وليان ديمبسكي وجوناثان ويلز، تصميم الحياة، ترجمة: مؤمن الحسن، بالاشتراك، القاهرة، دار الكاتب، ص٢٢٦.

[٢]- ونحن نستطيع أن نجد هذه الثلاثة مجتمعة في نقد النظريّة الداروينيّة عند بعض المعاصرين، انظر:
عمر شريف، الإلحاد مشكلة نفسيّة، القاهرة، نيو بوك للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠١٦م.
عمرو شريف، رحلة عقل، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، ٢٠١١م.
هيثم طلعت، ٤٠ خطأ في نظريّة التطوّر.. أخطاء لا يريدونك أن تعرفها!! القاهرة، بدون تاريخ ورقم طبعة.

[٣]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص٧.

بشريّ قابل وحده على المواجهة بالتفصيل لعدد هائل من المعطيات والفرضيّات والأحكام المصوغة، وفي ظروف كهذه، كيف لا نشكّك عندما يوحون إلينا بأن عنصرًا كهذا، نتيجة لدراسة محدّدة في نظام وحيد، قد حمل إلينا ردًّا جازمًا على السؤال المطروح، ومن الواضح أنّ حماسًا كهذا تأييدًا لما لم يكن في الغالب إلّا افتراضًا أو تأكيدًا مسبقًا، مضرّ في نهاية الأمر للمعرفة الشاملة للموضوع»[1].

وهذا يفسّر لنا أحد الأسباب التي دعت بوكاي إلى نقد نظريّة التطوّر عند دراوين، كما أنّ من ضمن تلك الأسباب أنّ الدفاع عن هذه النظريّة يعدّ صورة من صور الأيديولوجيّات التي لا ترتكز على العلم[2]، وهذه الغاية هي المحرّك الكبير لحماسهم، مستدلًّا على ذلك بالكاتب (بـ بـ غراسيه P P Grasse) في كتابه: الإنسان موضع اتّهام؛ حيث انتقد داروين والداروينيّة بشدة[3].

وقد استعان بوكاي ببعض أفكار غراسيه في علم الحيوان، باعتباره أستاذ علم التطوّر في جامعة السوربون، ويؤكّد بوكاي على موقف هذا الرجل قائلًا: «وقد استنتج بأنّه إذا كان التطوّر غير قابل للجدل، فإنّ ثمّة أمورًا كثيرة مجهولة عن طرقه، وأنّ حتميّتها لا يسعها أن تقبل تفسيرًا مقبولًا: إذ إنّ التبدّلات الصدفويّة على مستوى الجينات، وهي دعامة الوراثة غير كافية لتحديد التطوّر نفسه»[4]. وفيما يخصّ الإنسان «فإنّ وقائع كتطوّر الدماغ من عصر إنسان أستراليا القديم -في زمن كان بوسعه أن يفيد ثمانين ألفًا من الأجيال على الأكثر- لا يمكن تصوّرها وفقًا لفرضيّات الداروينيّين الجدد، وأنّ أحد الأسرار العامّة للتطوّر البشريّ، هو خسارة -بشكل كامل- لما هو فطريّ عند الإنسان، في حين أنّه بقي موجودًا وفاعلًا

[١]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص٧.

[٢]- انظر في علاقة هذه النظريّة بالعلم والأيديولوجيا: عرفان بلماز، التطوّر نظرية علميّة أم أيديولوجيّة؟ القاهرة، شركة دار النيل للطباعة والنشر، ص٣.

[٣]- ب. ب غراسيه، الإنسان موضع اتهام، نقلاً عن محمّد الرمادي، نظرية داروين تتحطم على صخرة العلم الحديث، على الرابط التالي:

https://www.turess.com/alhiwar/996

[٤]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص١٠.

عند القرود، وأنّ التطوّر عند الإنسان لا يمكن بأيّ شكل مقارنته بالتطوّر في عالم الحيوان»[1].

لقد كانت المعطيات الخاطئة التي يقدّمها أصحاب نظريّة التطوّر سبيلًا إلى موقف بوكاي الرافض تجاهها، وكذلك التمسّك بالاتجاه المعاكس الذي ينتقد تلك النظريّة. لقد رفض بوكاي الزعم القائل بأنّ العلاقة بين الإنسان والقرد ثابتة، كما رفض الزعم القائل بأنّ اختبارًا قد أتاح خلق جينة خلاسية، أي تكوين مركّب كيميائيّ على مستوى الجزيئة تنقل عناصر من مصدر بشريّ وأخرى من القرد، ومن ثمّ يردّ على هذا الزعم قائلًا: «بالواقع إنّ هذا الشيء يبدو مقبولًا تمامًا من الناحية النظريّة ولا يفيد بشيء، لكن التأكيد الخاطئ كان في أنّ هذه الجينة كانت معروضة على أنّها رسول فعّال للمعلومات، وهي في هذه الحالة قادرة على أن تكون سببًا في خلق نسيج حيويّ جديد، وهو ما يتوجب إثباته كلّيًا، ونحن نعيش للأسف في عصر حيث إنّ الإعلام المثير -ولكن الخاطئ- يستهوي اهتمام العامّة من الناس أكثر بكثير من التمييز المدرك، وهو يعرب عن تحفّظات ويشير إلى أمور مجهولة»[2].

كان بوكاي يرتجي على الدوام أن يتوقّف أصحاب هذه النظريّة عن ترّهاتهم، والاكتفاء بما تسمح به المعارف العلميّة، فقد كان يؤمن بقانون التمييز بين ما هو ثابت، وما هو افتراضيّ عند الحديث عن قضيّة أصل الإنسان -وإن كان قد وقع في شيء مشابه مما سنتبيّنه في السطور القادمة-؛ ومن ثمّ فقد انتقد بشدّة ما عرضه التطوّريّون من أفكار ظاهريّة باطنها العوار ودحضها بشدة، بل إنّ مما استرعى استنكاره إقحام الكتب السماويّة في هذا الأمر[3]!

ويمكن القول إنّ بوكاي كان ينتقد اتجاهين في تفسيرهم لأصل الإنسان، الاتجاه الأوّل اتجاه أولئك النفر الذين يظنّون بأنّ ثقافتهم العلميّة شيء والمعتقدات

[1]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص١٠.

[2]- م.ن، ص١١.

[3]- م.ن، ص١١.

الدينيّة شيء آخر، وينضمّ إلى هذا الاتجاه الملحدون الذين ينظرون إلى كلّ ما هو فوق الطبيعة على أنّه خطأ تاريخيّ. والاتجاه الثاني هو الاتجاه الدينيّ الذي يرى في العلم خطرًا على الدين، بدافع الخوف من رؤية دينهم معرضًا للطعن من قبل العلم، وهي المواجهة التي صرّح بوكاي من قبل أنّها خطيرة[1].

لكن الاتجاه الأوّل هو موضع نقاش بوكاي وتساؤلاته واستنكاراته، خاصّة أنّ نظريّة هذا الاتجاه تعد متناقضة كلّ التناقض مع الأديان، ويفسّر بوكاي ذلك بعدم إدراك الأديان والجهل بها والجهل بالكتب السماويّة، وهذا كان محلّ انتقاد بوكاي الذي يقول: «ويجب أن لا يغرب عن بالنا بأنّ الديانات التوحيديّة، وهي بحسب الترتيب الزمنيّ: اليهوديّة ثمّ المسيحيّة ثمّ الإسلام، تمثّل معتقدات أكثر من ثلثي سكان العالم، ولا يمكننا إهمالها، ومن المهمّ أن نطّلع على كيفيّة نظرة كلّ دين منها إلى أصل الإنسان، ومن المفيد كذلك أن ندرس تصوّرات الأديان على ضوء ما نعرف اليوم عن مصدر الكتب السماويّة، وهذا ما يجعل مبادئ جديدة تبرز لنستخلص منها بعض التعاليم التي لم يزل يجهلها كثير من الناس»[2].

والحقيقة أنّ بوكاي ألزم نفسه بالاطلاع على موقف الأديان من قضيّة أصل الإنسان، والتصوّرات التي تقدّمها حولها، الأمر الذي قاده إلى التأكيد على أنّ هذه القضيّة تتمّ معالجتها وتصوّرها بصورة مختلفة كلّيًّا عن تلك المعالجة والتصوّرات التي تتبنّاها الداروينيّة وأتباعها.

لكن على الرغم من أنّ موقف الكتاب المقدّس من هذه القضيّة يختلف بالكلّيّة عن موقف تلك النظريّة وأصحاب فكرة التطوّر، فإنّه انتقد عدم دقّة القضيّة ؛ نتيجة تعدّد هويات كتبة الكتاب المقدّس، وقد توفّر له ذلك نتيجة الدراسات العصريّة للنصوص، الأمر الذي أدّى إلى تغيير الأفكار التاريخيّة والخفيّة وتمييز دور العمل البشريّ في كتابته، «إذ إنّ نصًّا ما كان يعتبر في السابق مجتزأً بسبب

[١]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص١١.

[٢]- م.ن، ص١٢.

اختصاره الفعليّ، ويطلعنا عما كان عليه الاعتقاد في القرنين التاسع والعاشر قبل الميلاد عن أصل الإنسان الرواية اليهوديّة لسفر التكوين. وثمّة شيء آخر وهو عمل الرسل في القرن السادس قبل الميلاد، أي الرواية الكلاسيكيّة عن الخلق الواردة في أوّل سفر التكوين؛ إذ إنّه يبيّن مآثر ذلك العصر: وهو الرواية الكهنوتيّة الأكثر شهرة، واحتفظت المسيحيّة مؤخّرًا بهذا التقليد التوراتيّ، وأوردت مجدّدًا في العهد الجديد معلومات تتعلّق بقدم الإنسان على الأرض»[1].

وقد رفض بوكاي مرارًا التأريخ التوراتيّ الإنجيليّ لبداية ظهور الإنسان على الأرض، أو ما يُسمى بقضيّة خلق الإنسان، ومن المعروف أنّ هذا التاريخ يذهب إلى وجود الإنسان قبل ميلاد المسيح بأربعين قرنًا، منبّهًا إلى الأخطاء العلميّة التي يقوم عليها وخطورة تعليمها للشباب والأطفال منذ الصغر.

في حين نجد بوكاي الذي انتقد العهدين القديم والجديد في تناولهما لقضيّة أصل الإنسان[2] -على الرغم من اختلافهم الجذريّ مع مذهب التطوّر- يمجّد القرآن الكريم -وهو أهل لذلك- وفي تناوله لهذه القضيّة التي جعل منها الداروينيّون قضيّة شائكة. وقد كان هذا الموقف منه ذا جانبين: الأوّل، الدفاع عن القرآن ضدّ موجات التشكيك الغربيّ، وهو الجانب ذاته الذي اهتمّ به بوكاي في كتابه الرئيس: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، وفي كتابه المخصّص لقضيّة أصل الإنسان: أصل الإنسان بين العلم والكتب السماويّة. فقد وجد أفكارًا مغلوطة وخاطئة كانت تُتداول في الغرب لمدّة طويلة بصدد مضمون القرآن وتاريخه. والثاني التحليل الداخليّ للنصوص القرآنيّة والتأمّل فيها، وبيان موقفها المدهش من قضيّة أصل الإنسان. وهو الجانب الذي كان يعوّل عليه بوكاي في إظهار التوافق بين القرآن والمعطيات العلميّة الحديثة.

---

[١]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص١٢.

[٢]- وقد سار بعض المعاصرين على هذه النهج البوكابي في هذه القضيّة، منتقدًا موقف رجال الكنيسة من معطيات التوراة المضطربة، خاصّة فيما يتعلق بالمادّة الواحدة التي جمعت بين الخلق النباتيّ والحيوانيّ والآدميّ، وعدم تمييز التوراة الإنسان عن باقي الحيوانات الأرضيّة. انظر: سامي عابدين، أصل الإنسان في التوراة والإنجيل والقرآن، دار الحرف العربيّ للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥م، ص٣-٦.

ومن ثمّ فإنّ بوكاي كان يؤمن أنّه من الضروريّ جدًّا أن يستبق الأمور بعرض المعطيات التي يعبّر بها عن الإنسان عن طريق ترابط ظروف إبلاغه للبشر؛ «إذ لا جرم بأنّ الثوابت المتعلّقة بالإنسان والمستخرجة من آياته ستدهش غيري كما أدهشتني عندما اكتشفتها، بالإضافة إلى أنّ مقابلة النصّين التوراتيّ والقرآنيّ مثيرة جدًّا، إذ إنّ كلًّا منهما يذكر بالإله الخالق، غير أنّنا ندرك من خلال هذه المقابلة بأنّ التفاصيل الوصفيّة عن الخلق الواردة في التوراة -وهي غير مقبولة علميًّا- لا نجدها في القرآن الكريم، بل على العكس فإنّ القرآن الكريم يتضمّن في آياته المتعلّقة بالإنسان أشياء مذهلة، وبالتالي يصعب على الفكر البشريّ تفسير وجودها في العصر الذي أُبلغ فيه للناس»[1].

ومن ثمّ فإنّ بوكاي يعمد إلى الإعلاء من التصوّر القرآنيّ لأصل الخلق على ما عداه من التصوّرات الأخرى سواء أكان في المجال الدينيّ أو في المجال الفكريّ، حتّى أنّ التصوّر التوراتيّ الإنجيليّ في خلق الإنسان جعله بوكاي في مرحلة متأخّرة عن التصوّر الإسلاميّ ومتقدّمًا على التصوّر الدراوينيّ على حدّ تصوّري واستنتاجي. وسوف تتبيّن حقيقة الركائز التي ارتكز عليها بوكاي هنا من خلال السطور القادمة.

لكن كانت تستحوذ على بوكاي فكرة الردّ على التشويه الغربيّ المتعمّد للقرآن حتّى في تلك القضيّة، وكأنّه قد آل على نفسه الوقوف مدافعًا عنه ضدّ هذا المدّ الهجوميّ، ومن ثمّ يقول: «وعندما نلاحظ بأنّ تطابقات ذات معنى كبير بيّنت معطيات علميّة مثبتة حكمًا وبين كتاب سماويّ يصبح من الضروري تمحيص الأحكام المتسرّعة التي أخذت بعين الاعتبار تصوّرات مجرّدة أكثر منها وقائع»[2]. لكن دفاعه هنا هو دفاع المستنير، دفاع من يتمسّك بالدليل العلميّ والبرهان العقليّ في نقده لنظريّة التطوّر، دفاع يقوم على ما بين يديه من أفكار ورؤى واستنتاجات تقود إليها طبائع الأمور.

---

[١]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص١٣.

[٢]- م.ن، ص١٣.

بل إنه استنتج من خلال نصوص القرآن وتفسيراته وجود نقاش عال بين الدين والعلم في قضيّة أصل الإنسان، وهذا ما كان يسعى إليه بكلّ قوة، فقد أراد هنا أن يصطنع كما كان يعمد في القضايا السابقة، نوعًا من المقارنة هي في حقيقتها نقاش من نوع راق بين الدين والعلم، يحاول أن يثبت بوكاي من خلاله مقدار التوافق بينهما بصورة تستدعي الدهشة؛ إذ كيف لكتاب منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا أن يأتي بحقائق لم يكتشفها العلم الحديث إلّا مؤخرًا، إلّا أن يكون هذا الكتاب من عند الله تعالى.

ومن ثمّ فإنّ النقاش هنا كان امتدادًا للنقاشات التي أفرزتها التأمّلات الخاصّة بالظواهر الطبيعيّة في النصوص القرآنيّة وعلاقتها بالعلم الحديث، «فإنّ هذه التأمّلات عن الإنسان تقدّم عناصر مهمّة لنقاش بين العلم والدين لا يعود تاريخه للأمس القريب فحسب، بل إنّها تفتح بابًا لهذه المناقشة من جديد معزّزة ببراهين جديدة»[1].

وفي المقابل نجد أنّ بوكاي الذي كانت تعتريه الدهشة والإعجاب من التوافق بين القرآن والعلم في قضيّة أصل الإنسان، هو ذاته الذي ينتقد التصوّر اليهوديّ والتصوّر المسيحيّ الذي ينبني عليه مستدلًّا على صحّة موقفه بوثيقة المجمع المسكونيّ الثاني في الفاتيكان (١٩٦٢-١٩٦٥م)، والتي جاء فيها أنّ أسفار العهد القديم تتضمّن أمورًا باطلة وغير كاملة، وأنّ نصّ المجمع المسكونيّ لا يحدّد المقاطع موضوع البحث، ومن ثمّ فإنّ هذا أفضل تأكيد عنده على شرعيّة الفرضيّة التي يدافع عنها[2].

كما أنّه وجد في الأوساط اليهوديّة الأكثر استنارة مواقف مماثلة، من خلال محادثات أجراها هو مع شخصيّات يهوديّة يقول إنّها مرموقة، حيث كانت الرواية اليهوديّة لسفر التكوين[3] تشكّل الموضوع الرئيس في هذه المحادثات، ومن ثمّ

---

[١]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص١٣.

[٢]- م.ن، ص١٤.

[٣]- انظر: على سبيل المثال الإصحاح الأول/ ٢٧، الإصحاح الثاني/ ٧.

فقد رسخ في ذهن بوكاي باعترافه شيء واحد، وهو أنّهم كانوا يعمدون إلى تبرير الأخطاء العلميّة من واقع أنّ الشغل الشاغل لرجال الدين في القرن السادس قبل الميلاد كان القيام بتعليم التلاميذ قضيّة القدرة الإلهيّة الشاملة من خلال الرجوع إلى قصة تقليديّة سائدة في هذا الزمن، وقضيّة أصل السماء والأرض والكائنات الحيّة والإنسان، كلّ ذلك في إطار تصويريّ يجمل عبارات قابلة لأن يستوعبها الناس آنذاك، كما رسخ في ذهنه أيضًا نتيجة مفادها: أنّ الرواية التوراتيّة كانت تفسّر أقدميّة الإنسان على وجه الأرض المحدّدة بموجب التقويم العبريّ بالمعنى ذاته. «والحال فإنّ غرض التعليم التوراتيّ الأكثر تعارضًا مع العلم، هو الذي يحدّد تاريخ ظهور الإنسان على الأرض منذ ٥٧٤٢ سنة حتى نهاية عام ١٩٨١كما نستنتجه من هذا التقويم. ومن ذلك الحين فإنّ ثمة براهين تدعو لعدم الأخذ حرفيًّا بهذا الأمر؛ إذ ليس من العدل أن نأخذه حجّة ضد الكتاب المقدّس في مواجهة بين العلم والكتاب السماويّ، وعلينا أن نردّه إلى دور الإنسان في كتابة محتواه»[1].

ولكن لماذا لا يحبّذ بوكاي أن يتخذ من ذلك حجّة ضدّ الكتاب المقدّس أو أنّه في مواجهة مع العلم؟! السبب في نظري هو أنّ التناقض هنا ليس في قضيّة أصل الإنسان، وإنما التناقض في التواريخ وبعض التفصيلات المتعلّقة بالإنسان وهي ليست محلًّا للنقاش في هذه القضيّة قضيّة أصل الإنسان. وهذا هو ما يفسّر لنا لماذا كان بوكاي يضع الأديان السماويّة في جانب ونظريّة التطوّر في جانب ثان في موقفها من هذه القضيّة الأخيرة؟! فقد انتهى من خلال المقارنة بين نصوص الكتب السماويّة وبين المعارف الحديثة إلى أنّها لا تتعارض، مستدلًّا في ذلك على ما جاء بسفر التكوين[2]؛ إذ إنّ معطياته المشار إليها سابقًا لا يوجد بينها تعارض في نظره، لا من حيث المبدأ العام ولا من حيث مظاهر أخرى تتعلّق به وردت في الكتب وبين الاكتشافات العلميّة. ومن ثمّ نجده يؤكّد على ذلك قائلًا: «وببقائنا منطقيّين مع أنفسنا كليًّا، وبإدراكنا لاستنتاجات العلم الحديث عندما لا يرتكز على افتراضات،

---

[١]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص١٤.

[٢]- انظر: سفر التكوين، من الإصحاح الأول: الإصحاح السادس.

بل على وقائع مثبتة، فأنا لا أجد تعارضًا بين جميع المعطيات الحاصلة من العلم وبين تعاليم الكتب السماويّة، ولكن علينا أنّ نوسّط المعلومات التي نملكها اليوم عن أهل النصوص وتاريخها، وإذا كانت اعتبارات كهذه غير مستوعبة آخذين بعين الاعتبار الخطأ البشريّ أو التفسيرات البشريّة، فإنّنا نتوصّل إلى إصدار أحكام على الكتب السماويّة ليست في محلّها، وأنا مقتنع بأنّ أيّ نقص في المعلومات بوسعه أن يشرح هذه التقديرات الخاطئة»[1].

ومن ثمّ فإنّه يؤكّد على اختلاف القرآن عن الكتب السماويّة في بعض التفصيلات المتعلّقة بقضيّة الخلق، خلق الإنسان -على الرغم من الاتفاق بينها في قضيّة أصل الإنسان؛ إذ لا تسمح الكتب السماويّة بفرضيّة كتلك التي أتى بها داروين وأنصار نظريّة التطوّر- وهي التفصيلات التي تتوافق مع معطيات العلم الحديث.

ولقد فطن بوكاي إلى أنّه لا يمكن إخضاع كلّ إثباتاته القرآن الكريم إلى العلم الحديث، ليست لأنّها منافية للعلم، بل لإيمانه بأنّها فوق مستوى العلم، ومن ثمّ فلا يسع العلم إلّا الإذعان والخضوع لها، وعدم التشكيك أو مجرّد الاعتراض، وهذا ما أكّده في النصّ التالي: «علينا ألا نعتقد لهذا بأنّ القرآن لا يتضمّن إثباتات -عن الإنسان بصورة خاصّة- بوسعها أن تكون جميعها مبحوثة بفعل ما أتاح العلم اكتشافه»[2]. وهو يستند في حكمه هنا تحديدًا على قضيّة خلق الإنسان؛ إذ إنّها في الكتاب المقدّس أو في القرآن الكريم ليست مجالًا للبحث العلميّ؛ إذ كيف للعلم أن يثبت ما جاء في القرآن من خلق عيسى عليه السلام من دون أب بالمعنى البيولوجيّ للكلمة، ويعلّل بوكاي ذلك بأنّه لا توجد حالات مماثلة لحالة سيّدنا عيسى، فلا يوجد إنسان نشأ دون أن يأخذ صبغيّات من ذويه، وهي نصف إرثه للمستقبل عنده، «والعلم لا يفسّر المعجزات؛ إذ إنّها من حيث المبدأ تخرج عن تفسيره»[3]. وما يقال على عيسى في هذا الصدد يقال أيضًا على آدم الذي خُلق

[١]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص١٥.

[٢]- م.ن، ص١٧٧.

[٣]- م.ن، ص١٧٧.

من صلصال من طين الأرض، وهو الأمر الذي أخبرت به الكتب السماويّة جميعًا؛ تحقيقًا لمبدأ دينيّ قوامه: منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى.

لكن بوكاي كان فطنًا إلى أنّه إلى جانب هذه المظاهر الدينيّة -وهي تعدّ منطلقات لتحقيقات دينيّة أساسيّة- لتأمّلات تتعلّق بالإنسان، هناك معلومات لوقائع مادّيّة بحتة في القرآن الكريم تحديدًا تصيب المتأمّل عنده بالدهشة عند مطالعتها للوهلة الأولى. «فإنّ القرآن الكريم يذكر أصل الحياة بشكل عامّ، وهو يتوسّع كثيرًا في التحوّلات التشكيليّة التي تطرأ على الإنسان، ويشدّد في إعادات عدّة بأنّ الله خلقه كما أراد، ونجد أيضًا عن التوالد البشريّ أقوالًا معبّرًا عنها بعبارات دقيقة يمكن مطابقتها مع المعلومات الدنيويّة المكتسبة في أيّامنا هذه عن ذات الموضوع»[1].

ومن ثمّ فقد كان مؤمنًا ومدركًا في الوقت ذاته أنّ هذه الأقوال القرآنيّة تقدّم مادّة تطابق المعارف العلميّة الحديثة، غير أنّها لا يمكن اكتشافها بسهولة، فهي بحاجة دائمة إلى المطّلع على الجانبين الدينيّ والعلميّ. لكن بوكاي كان يواجه صعوبتين في اكتشاف ذلك -والصعوبة لا تعني أنّه فشل في مهمّته؛ إذ الصعوبة لا تعني الاستحالة- وهاتان الصعوبتان هما:

الصعوبة الأولى: عدم اكتشاف المادة العلميّة في القرآن التي يمكن مواجهتها بالعلم بسهولة، فضلًا عن جدة الموضوع، إضافة إلى كمّيّة التشويه التي لحقت بالقرآن الكريم في الغرب، الأمر الذي جعل بوكاي يعرض صفحًا عن أيّ عمل سابق في العالم الغربيّ. وتكتمل هذه الصعوبة عندما ندرك افتقار البحوث العربيّة لهذا النوع من الدراسات في الغالب، إذ إنّ بحوثًا من هذا النوع تستتبع امتلاك معلومات علميّة متعدّدة التخصّصات، وهو الأمر الصعب على الدارسين بسبب الثقافة، وبسبب طبيعة الموضوع العلميّة التي لم يكن لها أن تكون قادرة على الدخول في عمق الدراسات الدينيّة، كلّ هذا جعل بوكاي يعمد إلى تعلّم اللغة

[١]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص١٧٧-١٧٨.

العربيّة وإتقانها؛ حتى يكون قريبًا من المصدر الأصليّ، فيكون قد جمع بين متطلَّبين: قراءة القرآن في مصدره الأصليّ، والإلمام بالمعطيات العلميّة الحديثة.

الصعوبة الثانية: تعود إلى أنّ الموضوع كان في حاجة دائمة إلى خاصّيّة التتبّع، تتبّع الآيات ذات الصلة على طول كتاب الله تعالى، خاصّة إذا علمنا أنّ النتائج لا تظهر من القراءة الأولى في مثل هذه القضايا العلميّة، ونخصّ هنا قضيّة أصل الإنسان، نتيجة انتشار الآيات القرآنيّ ذات الصلة في سور القرآن الكريم. «والكتاب هو بالأحرى تجميع للأفكار عن الموضوعات الأكثر تنوّعًا مبحوثة الواحدة تلو الأخرى، ومعادة في مكان آخر أكثر من مرّة على الغالب، ويتوجّب بالنتيجة إعادة جمع هذه المعلومات المتناثرة في الكتاب عن موضوع معيّن، مما يستلزم عمليّة تجميع للآيات ولا سيّما الطويلة منها، على الرغم من وجود لوائح موضوعيّة مقامة من قبل مترجمين متنوّعين، ولكن بوسعها أن تكون غير كاملة، وهي على الأغلب كذلك»[1].

ويمكن القول إنّ بوكاي عالج قضيّة أصل الإنسان من خلال خمسة محاور رئيسة على النحو التالي:

الأوّل: أصل الحياة واستمراريّتها.

الثاني: أصل الإنسان وتغيّرات الشكل الإنسانيّ عبر التاريخ.

الثالث: التناسل البشريّ.

الرابع: عمليّة الإخصاب.

الخامس: التوافق بين الدين والعلم

[١]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص١٧٨.

الفَصْلُ الثَّانِي

من أصل الحياة إلى أصل الإنسان

الفصل الثاني

من أصل الحياة إلى أصل الإنسان

أوّلًا: أصل الحياة

لا شكّ في أنّ قراءة بوكاي للقرآن الكريم في نصّه العربي قد أتاحت له التواصل دون وسيط، وهذا ما مكّنه من القراءة المتأنّية وذات الأبعاد التأمّليّة التي أضفت به إلى النتائج التي انتهى إليها، خاصّة إذا علمنا أنّ الوسيط كان واحدًا من اثنين: الشرّاح والمفسّرون العرب الذي لم يتح لهم الاطلاع على المعطيات العلميّة نتيجة طبيعة العصر الذي عاشوه والذي نزل فيه القرآن، والمفكّرون الغربيّون الذي كانوا يعمدون إلى تشويه كلّ ما يتعلّق بالقرآن الكريم خاصّة والإسلام عامّة.

وهذا ما وجده فعليًّا في قضيّة أصل الإنسان في القرآن، ومدى ما تعرّضت له من تشويه على يد الغرب، مع صعوبتها العلميّة على مفسّري القرآن القدامي، فإذا أضفنا إلى ذلك المواقف التفصيليّة للرواية التوراتيّة والإنجيليّة حول هذا الموضوع، لعلمنا كم كان الكشف الذي سيطرحه علينا بوكاي جديدًا. يقول بوكاي: «إنّ الجديد الذي يتميّز به القرآن الكريم عن الكتاب المقدّس، هو الحدث التالي المشار إليه سابقًا: من أجل بيان الإثباتات المتكرّرة على القدرة الإلهيّة، فإنّ القرآن يذكر ظاهرات طبيعيّة متعدّدة، ويعطي بصدد عدد كبير منها تفصيلًا عن تتابعها وأسبابها أو آثارها التي تستحقّ التفكير، وكانت الأقوال عن الإنسان من بين تلك التي كان لها التأثير الأكبر منذ قراءتي الأولى للكتاب في نصّه الأصليّ العربيّ، ووحدها القادرة على تسليط النور على معانيها الحقيقيّة، والتي لم تحسن ترجمتها للأسباب التي ذكرناها آنفًا»[1].

---

[1]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص١٨٠.

من تلك الإثباتات أو الأقوال في القرآن الكريم أصل الحياة، فعندما طرح بوكاي سؤالًا على نفسه عن أصل الحياة وأين نجده؟! وجد الإجابة ماثلة بوضوح أمامه في آيات الله تعالى المحكمات، وقد أكّد هذا المستشرق على هذه القضيّة تفصيلًا في كتابه: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، وقد عرضنا لموقفه تفصيلًا في هذه القضيّة في سطور سابقة.

أصل الحياة هو الماء كما في قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ سورة الأنبياء، الآية ٣٠. وهذا المبدأ لا يرقى إليه أدنى شكّ، «ويمكن للجملة أن تعني أنّ كلّ شيء حيٌّ قد جعل من الماء مادّة أساسيّة، وأنّ كلّ شيء حيّ قد نشأ من الماء، والمعنيان المحتملان مطابقان بكلّ دقّة للمعطيات العلميّة»[1].

ومن ثمّ نفهم أهمّيّة الماء في إنشاء الحياة وتشكيلها على سطح كوكب الأرض، والعلماء الفلكيّون ممّن يدرسون الكواكب وغيرها مما في الفضاء قبل طرح فرضيّة إمكانيّة وجود حياة على أيّ كوكب يتساءلون: هل يوجد فيه ماء أم لا؟! وإذا كانت الإجابة بالإثبات فهل يوجد بصورة كافية أم لا؟! هذا يعني أنّ الماء هو شرط رئيس لوجود الحياة.

لقد استند بوكاي إلى المعطيات العلميّة الحديثة التي تسمح بالاعتقاد بأنّ الكائنات الحيّة القديمة كانت من عالم النبات؛ «إذ إنّنا وجدنا طحالب تعود لعصر ما قبل العصر الكمبريّ في أقدم الأراضي التي نعرفها، وثمّة مواد من عالم الحيوان كانت قد ظهرت أيضًا بعد ذلك ومنشؤها المحيطات»[2]. والعصر الكمبريّ هو ذلك العصر الذي يرجع إلى ما قبل ٤٠٠ أو ٥٠٠ مليون سنة، ويعد أو مرحلة من العصور البدائيّة؛ حيث ظهرت النباتات البرّيّة والحيوانات اللافقاريّة[3].

---

[١]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص١٨١.

[٢]- م.ن، ص١٨١.

[٣]- م.ن، ص١٨١.

ويذهب بوكاي إلى أنّ الماء في القرآن يحمل معنيين[1]:

الأول: الماء الذي يعني مياه الأمطار والمحيطات، وهذا الماء هو سرّ الحياة وأساسها على الأرض[2]، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ سورة طه، الآية ٥٣.

الثاني: أيّ سائل بدون تخصيص، فالكلمة على المعنى الثاني مستعملة عند بوكاي بشكل غير محدّد؛ لنعني به أساس خلق كلّ إنسان[3]، يقول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ سورة النور، الآية ٤٥. ويقرّ بوكاي أيضًا بأنّ الكلمة في الآية تنطبق على السائل المنويّ.

ويهمّنا أن نعلم أنه سواء أكان الماء على المعنى الأوّل الذي يحمل إنبات الزرع، أو على المعنى الثاني الذي يشير إلى نطفة الحيوان، فإنّ بوكاي يؤكّد على أنّ كلّ ما يقدّمه القرآن في هذا الشأن يتطابق بشكل دقيق مع المعطيات العلميّة الحديثة، «ولا مكان في القرآن الكريم لأيّة أسطورة كانت تغزو ذلك العصر عن أصل الحياة»[4].

ومن جانب آخر فإنّ بوكاي اكتشف بسهولة ما ينطوي عليه النصّ القرآنيّ من الإشارة إلى استمراريّة الحياة، ومن المعلوم أنّ هذه الاستمراريّة لا تتحقّق إلّا من خلال التناسل. «والتناسل عند النباتات هو موضوع تعليقات أطول من الموضوع ذاته المتعلّق بعالم الحيوان بصورة عامّة، غير أنّ الأقوال الخاصّة بالتناسل عند الإنسان عديدة لدرجة كبيرة»[5].

---

[١]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص١٨٢.

[٢]- أنظر: توحيد الزهيري، الماء في القرآن والسنة والعلوم الحديثة مقالات للتفسير، القاهرة، مكتبة الدار العربيّة للكتاب، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ص٩٣ وما بعدها.

[٣]- أنظر: تفسير ابن كثير، النور/ ٤٥. وانظر: تفسير السعدي، النور/ ٤٥.

[٤]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص١٨٢.

[٥]- م.ن، ص١٨٣.

وقد حدّد بوكاي طريقين للتناسل في القرآن أكّد عليهما العلم الحديث، وهما: التناسل الشقّيّ والتناسل اللاشقّيّ[1]، وقد سبقت الإشارة إليهما في الموضوع الخاصّ بعالم النبات في القراءة العلميّة للقرآن الكريم.

وقضيّة التناسل تقتضي وجود عناصر الذكورة وعناصر الأنوثة في النبات[2]، كما هو الحال في ضرورة وجودها في الحيوان والإنسان. وقد وقف عند قول الله تعالى: ﴿**وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ**﴾ (سورة الرعد، الآية ٣) للتأكيد على إقرار القرآن بوجود هذه العناصر كمحور رئيس تدور حوله عمليّة التناسل في النبات. «هذا هو الإثبات بأنّ كلّ ثمرة تستلزم وجود عناصر ذكورة وعناصر أنوثة، هذا القول هو بتطابق تام مع ما سنعرفه كثيرًا، وفيما بعد في إنتاج الأثمار المتأتّية جميعها من نباتات شقّيّة، حتى أنّ بعضها كالموز مثلًا ينتج أزهارًا غير مخصّبة»[3].

ثانيًا: أصل الإنسان

لا شكّ في أنّ بوكاي أبدى اهتمامًا كبيرًا بقضيّة أصل الإنسان وتغيرات الشكل الإنسانيّ عبر التاريخ، وحاول أن يجد صلة ما بين المعطى العلميّ -بعيدًا عن نظريّة التطوّر الداروينيّة- وبين النصّ القرآنيّ[4]. ومن ثمّ فقد عمد الرجل إلى البحث في النصوص القرآنيّة ذات الصلة وصولًا إلى نتيجة تحقّق له ما يصبو إليه في هذه الجزئيّة من قراءته العلميّة للقرآن الكريم، لكن بوكاي قسّم هذه النصوص أو الآيات القرآنيّة قسمين: الأوّل يبرز معنًى روحيًّا فقط في غاية الكمال، والقسم الثاني بدا له -من وجهة نظره- أنّه يوحي بتغيرات تتعلّق ظاهرًا بتشكّل الإنسان، مؤكّدًا على أنّ هذا القسم يذكر بظواهر مادّيّة بحتة قد حصلت بانتظام في مختلف المراحل.

---

[١]- أنظر: نظمي خليل أبو العطا، تسع معان للزوجيّة في القرآن الكريم وعالم النبات، على الموقع التالي: https://quran-m.com

[٢]- أنظر: نظمي خليل أبو العطا، تسع معان للزوجيّة في القرآن الكريم وعالم النبات، على الموقع التالي: https://quran-m.com

[٣]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص١٨٣.

[٤]- وقد تبع بعض المعاصرين بوكاي في البحث حول هذه القضيّة، انظر: حمد الرقعي، خلق الإنسان بين العلم والقرآن، بنغازي – ليبيا، الدار الجماهيريّة للنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، ص٢٤، ٣٧.

هذا يعني أنّ بوكاي يرى تطورًا من نوع ما حدث للإنسان عبر التاريخ، يقول عنه: «وإنّ التدخّل السامي للقدرة الإلهيّة الذي ورد في هذه الآيات مرّات عدّة، يقود التغيّرات في مسار يجب أن نطلق عليه اسم تطوّر؛ إذ إنّ الكلمة مستعملة بمعنى سلسلة من التحوّلات الهدف منها إنجاز الشكل النهائيّ، ومن ناحية أخرى فالتشديد على الواقع بأنّ القدرة الإلهيّة قد ظهرت أيضًا بإبادة مجموعات بشريّة لاستبدالها بأخرى»[1]. ثمّ يعقّب قائلاً: «هذه هي الموضوعات التي تبدو لي أساسيّة، وتنجم عن تجميع الآيات القرآنيّة»[2].

ومن ثمّ فإنّنا نفهم أنّ بوكاي يتبنّى نتيجتين خطيرتين سوف يكونان محورًا للأخذ والردّ، وهما:

الأولى، أنّه يتبنّى فرضيّة وجود تطوّر من نوع ما في الشكل الإنسانيّ، وقد مرّ هذا التطوّر عنده بمجموعة من المراحل حتى وصل إلى الشكل الحاليّ.

الثانية، أنّه يتبنّى الفرضيّة القائلة بأنّ هناك مجموعات بشريّة أُبيدت تحت مظلّة القدرة الإلهيّة، وأنّ هذه المجموعات أُستبدل بها مجموعات بشريّة أخرى بتشكّل آخر.

ولنا هنا أن نتساءل هل التطوّر الذي يذهب إليه بوكاي هنا من قبيل التطوّر الداروينيّ؟ أم أنّه يقصد تطوّرًا شكليًّا؟

وهل عند بوكاي ما يستدلّ به على فرضيّة إبادة مجموعات بشريّة لصالح مجموعات أخرى أكثر تطوّرًا من حيث الشكل النهائيّ؟

هذان السؤالان مهمّان جدًّا؛ لأنّهما يكشفان عن الرأي الذي يتبنّاه بوكاي حول قضيّة التطوّر الإنسانيّ، وحقيقة هذه التطوّر وطبيعته.

لكن قبل الإجابة على هذين السؤالين نعمد إلى بعض المرتكزات التي اتخذ منها

[١]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص١٨٤.

[٢]- م.ن، ص١٨٤.

بوكاي منطلقًا للقول بتغيّر شكليٍّ في الإنسان - بغضّ النظر عمّا إذا كانت هذه المرتكزات مقبولة أم لا.

وأوّل هذه المرتكزات هو التطوّر الجينيّ في الرحم الذي تحدّث عنه القرآن الكريم في أكثر من آية من آياته القرآنيّة، ودورها في التشكّل الإنسانيّ، ويؤكّد بوكاي على هذه القضيّة في معرض حديثه عن موقف المفسّرين منها قائلًا: «مما لا شكّ فيه بأنّه لم يكن بوسع المفسّرين القدامى تصوّر مبدأ التحوّل للشكل الإنسانيّ، لكنّهم كانوا ينزعون إلى القبول بوجود التغيّرات، أو بمراحل الحياة الجينيّة، وإلى المراقبة المشتركة في كلّ وقت، وفي الواقع فإنّه لا يسعنا إلّا في أيّامنا هذه أن نقدّر وبلا تحفّظ -على ضوء المعارف الحديثة- آيات قرآنيّة عائدة للمراحل المختلفة المتتالية لتطوّر الجنين في رحم الأم»[1].

يحاول بوكاي أن ينطلق من هذه القضيّة، قضيّة التطوّر الجينيّ، إلى قضيّة التغيّر الشكليّ في الإنسان الذي يعتقد أنّه حدث عبر المراحل الزمنيّة المختلفة، بل إنّه يحاول أن يربط بين التطوّرين متسائلًا عما إذا كان ذكر القرآن لمراحل التطوّر البشريّ الموجودة في بعض الآيات لا يحيط بإطار التطوّر الجنينيّ ليطبّقها على التحوّلات التي حدثت في الماضي للتشكّل الإنسانيّ؛ «إذ إنّ علم الإحاثة دلّ على وجود المادّة الشكليّة، وسيكون باطلًا أن ننكرها اليوم طالما إنّ التحقّق منه يلزم نفسه»[2].

هذا يعني أنّ بوكاي يحاول أن يتّخذ من قضيّة تطوّر الجنين في الرحم المذكورة في القرآن معبرًا للقول بقضيّة التشكّل الإنسانيّ، كما أنّه يتّخذ من علم الإحاثة[3] معبرًا لذلك أيضًا.

ومن المهمّ أن ندرك أنّ بوكاي كان يحاول التغلّب على فكرة التطوّر الداروينيّ

[١]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص١٨٤.

[٢]- م.ن، ص١٨٤.

[٣]- علم الإحاثة هو علم المتحجّرات أو الحفريّات أو الأحياء القديمة، يدرس حياة ما قبل التاريخ، انظر: كيث طومسون، الحفريّات، ترجمة: أسامة فاروق حسن، القاهرة، مؤسّسة هنداوي، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م، ص٩-١١.

بفكرة أخرى مغايرة؛ لأنّ هذه الفكرة الداروينيّة تنطلق إلى القول بانحدار الإنسان من سلالة القرود[1]، على الرغم من عدم قدرتهم على الإتيان بالأدلّة الدالّة على ذلك، لا من جهة الحيوان ولا من جهة الإنسان[2]. هم زعموا امتلاك الدليل، لكن «هذا الدليل الذي لا يقدّمه أيّ علم صادق للإحاثة، حتى ولو في أيّامنا هذه، لا شكّ بأنّ ثمّة فارقًا كبيرًا بين تصوّر أصل الإنسان من القرد غير المدعوم كلّيًّا، وبين تحوّلات الشكل البشريّ عبر التاريخ المثبتة بكلّ دقّة»[3].

ومن ثمّ يفرّق بوكاي بين معنيين من التطوّر: الأوّل التطوّر الدارويني، وهو مرفوض من ناحيته، والثاني التطوّر على معنى التغيّر في شكل الإنسان عبر المراحل التاريخيّة، وهذا هو المعنى الجديد الذي جاء به بوكاي، وهو يؤكّد ذلك بقوله: «وقد بلغ الغموض ذروته عندما نضع بحماقة كبيرة مزيجًا من تصوّرين لكلمة واحدة وهي التطوّر، هذا الغموض المؤسف حمل البعض على التصوّر -وهو خطأ بالتأكيد- بأنّه إذا كانت الكلمة الملفوظة تتعلّق بالإنسان، فذلك يعني حكمًا بأنّنا ننسب أصله إلى السلالة القرديّة»[4]. ما يعني أنّه ينفي عن نفسه تهمة القول بالتطوّر على المعنى الدارويني. وإنّما يؤكّد على أنّه يؤمن بتطوّر من نوع جديد يخصّ الشكل الإنسانيّ لا الأصل الإنسانيّ.

وقد أراد بوكاي أن يحدّد نوعيّة التطوّر المراد البحث عنه والتمييز بينه وبين غيره من البداية، حتى لا يُفهم خطأً، وكي لا يكون ثمّة أيّ نوع من سوء الفهم للمعنى الذي سوف يعطيه للآيات القرآنيّة التي سيذكرها أو يستدلّ بها، مؤكّدًا على أنّ «هذه الآيات لا توحي بأيّة طريقة بدعم الفرضيّة المادّيّة عن أصول الإنسان، والتي تصدم المسلمين بقدر ما تصدم اليهود والمسيحيّين»[5].

---

[١]- أنظر: تشارلس داروين، أصل الأنواع، ص٤٩.

[٢]- أنظر: محمّد فريد وجدي، الإسلام في عصر العلم، ص٨٠٤.

[٣]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص١٨٥.

[٤]- م.ن، ص١٨٥.

[٥]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص١٨٥.

ويمكن القول إنّ بوكاي عالج قضيّة أصل الإنسان من جهة ثلاثة محاور:

الأوّل: الجانب الروحيّ في خلق الإنسان من تراب.

الثاني: الجانب المادّيّ.

الثالث: التغيّرات الشكليّة على الإنسان.

١- الجانب الروحيّ والمادي

وقف بوكاي على آيتين كريمتين استنتج منهما معنى روحيًّا في خلق الإنسان من تراب، وهما قوله الله تعالى:

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ سورة طه، الآية ٥٥.

﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ سورة نوح، الآيتان ١٧-١٨.

فهاتان الآيتان تعنيان أنّ هناك ارتباطًا شديدًا بين الإنسان والأرض، ومن ثمّ فإنّ الطابع الروحانيّ هنا يعود إلى أنّ الأرض هي الأصل، ويتأكّد هذا الارتباط عندما يدرك الإنسان أنّه سيعود إليها بعد الموت، ثّم يُبعث منها مرّة أخرى، وهذا المعنى الروحانيّ لا تختلف عليه الأديان السماويّة الثلاثة[1].

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه بقوّة هنا مؤدّاه: هل المعنى الروحانيّ الأوّليّ لأصل الإنسان من التراب ينفي المبدأ المذكور في القرآن لما يسمّى علميًّا بالعناصر المكوّنة لجسم الإنسان من وجهة النظر الكيميائيّة؟ الإجابة عند بوكاي هي النفي، فهذا لا يخالف ذلك؛ لأنّ هذه العناصر موجودة على الأرض، «ومن أجل إدراك هذا المبدأ -المعترف به علميًّا في أيّامنا هذه على أنّه صحيح- من قبل الناس في العصور

---

[١]- وهذا المعنى هو ما استقاه المفسرون المسلمون من هاتين الآيتين، انظر: على سبيل المثال:
ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، طه/ ٥٥، نوح/ ١٧-١٨.
جلال الدين السيوطي، وجلال الدين المحلي، تفسير الجلالين، طه/ ٥٥، نوح/ ١٧-١٨.

الغابرة كان على القرآن استخدام هذه التعابير التي تتناسب ودرجة المعرفة؛ إذ الإنسان قد كُوّن من المواد الموجودة في الأرض»[1].

وقد وقف بوكاي على العديد من الآيات القرآنيّة التي ينبثق منها هذا المبدأ بجلاء تامّ، مؤكّدًا على أنّ المواد المكوِّنة قد جرى التعبير عنها بأسماء مختلفة، من ذلك قوله تعالى:

﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ سورة هود، الآية ٦١.

﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ سورة الحج، الآية ٥.

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ سورة الأنعام، الآية ٢.

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ سورة السجدة، الآية ٧.

﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ سورة الصافات، الآية ١١.

﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ سورة الرحمن، الآية ١٤.

﴿خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ سورة الحجر، الآية ٢٦.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ سورة المؤمنون، الآية ١٢.

ويعلّق بوكاي على الآية الأخيرة قائلًا: «والسلالة هنا إخراج شيء من شيء آخر، وسنرى أنّ هذه الكلمة وردت في مكان آخر من القرآن الكريم، حيث إنّها تشير إلى أنّ سلالة الإنسان تنشأ مما استخرج من السائل المنويّ»[2]. ويتحدّث بوكاي عن هذا السائل المنويّ حديث الخبير عندما يشخّصه علميًّا: «ونحن نعلم اليوم بأنّ العنصر الفعّال في هذا السائل هو جسم ذو خليّة واحدة، وأعني به المنيّ»[3].

[١]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص١٨٦.

[٢]- م.ن، ص١٨٨.

[٣]- م.ن، ص١٨٨.

ويذهب بوكاي إلى أنّ السلالة من طين يجب أن تعني العناصر الكيميائيّة المختلفة التي تكوّنها والمستخرجة من الماء[1]، وهو يصفه بالعنصر الغالب بكلّ ثقله[2]. وقد ذكر القرآن الماء بوصفه أساس كلّ حياة وأصله، ونستطيع أن نجد ذلك في أكثر من آية، منها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ سورة الفرقان، الآية ٥٤.

وقد وقف بوكاي على اثني عشر موضعًا في القرآن استنتج منها المعنى الروحيّ المشار إليه، سمّى كلّ موطن منها مرجعًا، وقد أشرنا إلى بعض هذه المواضع القرآنيّة كما رأينا. هذه المواطن أو المراجع تحمل إشارات إلى أصل الإنسان مع بيان للمصير الأخير الذي سيؤول إليه الإنسان وهو الأرض، ثمّ بعْثِه منها مجدّدًا للحساب. فضلًا عن أنّ بوكاي استنتج من بعض هذه المواضع وفي جزء منها تلميحًا إلى التكوين الكيميائيّ لجسم الإنسان.

٢- التغيّرات الشكليّة على الإنسان

ويبقى السؤال ما التغيّرات الطارئة التي طرأت على الإنسان عبر التاريخ من وجهة النظر البوكابيّة؟ وما طبيعة هذا التغيير؟ وما نوعيّته؟

بادئ ذي بدء يمكن القول إنّ بوكاي وقف على مجموعة من الآيات القرآنيّة التي حاول أن يستنتج منها التغيّرات الشكليّة التي دخلت على الإنسان منذ بدء خلقه، وقد اتكأ بدءًا على مرحلتي التكوين والبنية الشكليّة للإنسان. ومن المعلوم أنّنا نقف على هاتين المرحلتين في عدد من الآيات القرآنيّة، منها قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ سورة الأعراف، الآية ١١. ففي الآية ثلاث مراحل: مرحلة الخلق، مرحلة التصوير، مرحلة السجود لآدم، ومنها قوله تعالى تأكيدًا على هذه المراحل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي

---

[١]- ويميل بعض الدارسين إلى أنّ السلالة هنا ليست شيئًا أكثر من شريط DNA انظر: منصور العبادي، ثمّ جعل نسله سلالة من ماء مهين، على الموقع التالي: https://quran-m.com

[٢]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص١٨٨.

خَالِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَاجِدِينَ﴾ سورة الحجر، الآيتان ٢٨-٢٩. فالخلق من الصلصال مرحلة الخلق، والتسوية والنفخ من الروح العليّة مرحلة ثانية التكوين، والوقوع ساجدين مرحلة ثالثة السجود. وكان من الطبيعيّ أن يهتمّ بوكاي بالمرحلتين: الأولى والثانية؛ كونهما داخلتين في صلب موضوع قراءته، وهذا ما أكّده بقوله: «هناك ثلاثة أحداث متتالية، يهمّنا منها الاثنان الأوّلان: الخلق ثمّ التصوير»[1].

ومن ثمّ كان من الطبيعيّ وبوكاي بصدد قضيّة أصل الإنسان أن يبرز هاتين المرحلتين باعتبارهما أساسين يبني عليهما موقفه في هذه القضيّة. فالنصوص القرآنيّة وإن كان يتصدّرها الخلق، فإنّه يتلوها في تتابع الشكل الذي منح الله تعالى للإنسان، وقد اتّضح من الآيتين السابقتين أنّ عمليّة التكوين الخلق وعمليّة التصوير أو البنية الشكليّة عمليّتان متتابعتان.

وقد أكّد بوكاي على قضيّة دقّة صنع الله تعالى للإنسان في أكثر من موضع، منها قوله: «الأمر يتعلّق هنا حقيقةً بالتغيّرات التشكّليّة التي تحصل في الانسجام والتوازن، بفضل بنية مصمّمة بدقّة، وبالظاهرات التي تتابع في مراحل متوالية، وتشاء القدرة العليا للخالق الذي بيده مصير المجموعات البشريّة أن تظهر هكذا بجلاء تامّ في هذه الأحداث»[2]. وقوله: «وقد اكتمل إنجاز الإنسان بالشكل الذي أراده الله، ومن المفيد جدًّا أن نشدّد على هذا الواقع»[3].

والحقيقة التي لا خلاف عليها ولا غبار فيها أنّ سورة التين قد أوضحت هذا الأمر بجلاء تامّ، وذلك في قوله الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ سورة التين، الآية ٤. كذلك أوضحته بجلاء تامّ أيضًا سورة الانفطار في قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ سورة الانفطار، الآيتان ٧-٨.

---

[١]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص١٨٩.

[٢]- م.ن، ص١٨٩.

[٣]- م.ن، ص١٨٩.

وحكمة اختيار كلمة تقويم تعني عند بوكاي القيام بتصميم أشياء بتنظيم، بما يعني أنّه بترتيب دقيق محدّد سلفًا، لكنّ بوكاي يستنتج من الآية استنتاجًا عامًّا، ففضلًا عن كونه غير واضح المراد منه، فإنّ الآية لم تقل به، وهذا ما نجده في قوله: «ويحصل أن يكون ثمّة اختصاصيّين بالتطوّر الذين يحدّدون التغيّرات الطارئة عبر التاريخ لا يجدون تعبيرًا آخر لبيان وصفها: إذ إنّ المخطّط التنظيميّ واضح في الدراسة العلميّة للسؤال»[1]. ثمّ يردف قائلاً: «إنّ النصّ الكامل لسورة التين التي ذكرنا منها الآية تذكر خلق الإنسان بشكل عامّ، وتشير بعد أن كان الإنسان قد صُوّر بالإرادة الإلهيّة سيبلغ أسفل السافلين يفهم من هذا عجزه في شيخوخته، ولا تذكر السورة بأيّ حال التطوّر الجنينيّ، بل خلق الكائن البشريّ بوجه عامّ، ويتعلّق المخطط التنظيميّ البنيويّ بالنوع البشريّ بكلّ وضوح»[2].

يقصد بوكاي من تفسيره أنّ النوع البشريّ طرأت عليه مجموعة من المراحل التي لم يحدّد لنا طبيعتها حتّى الآن، هذه المراحل استقاها حسب تأكيده من قوله الله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ سورة نوح، الآية ١٤. فبوكاي يؤكّد على أنّ الأطوار تعني المراحل؛ مستندًا في ذلك إلى أنّ الكلمة لم تُذكر بالجمع إلّا مرّة واحدة في هذا الموضع من القرآن الكريم، «ولا يسعنا بالتالي أن نبحث في مكان آخر في نصّ الكتاب إذا كانت أطوارًا أو مراحل متعلّقة بالإنسان بكلّ وضوح ستكون مرتبطة بتطوّره في رحم الأمّ، كما كان يعتقد بذلك المفسّرون القدامى[3] وكما افترضته في كتابي السابق، أو بالتغيّرات التي تطرأ على النوع البشريّ عبر سنيّ عمره، ويجدر بهذا السؤال أن يطرح»[4].

وكأنّ بوكاي يقصد من تساؤله هنا الاعتراض على تفسير الأطوار على أنّها مراحل

---

[١]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص١٩٠.

[٢]- م.ن، ص١٩٠.

[٣]- وهذا ما تذهب إليه التفسيرات القديمة خلافًا لما يذهب إليه بوكاي. انظر: على سبيل المثال لا الحصر:
الطبريّ، تفسير الطبري، نوح/ ١٤.
الرازي، التفسير الكبير، نوح/ ١٤.

[٤]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص١٩٠.

التطوّر الجنينيّ في رحم الأمّ -في صورة من صور التطوّر الفكريّ التي انتابته- والتمسّك بفرضيّة وجود تغيّرات على النوع البشريّ من الناحية التشكّليّة. ويستند بوكاي في تفسيره هذا على ثلاثة أمور:

الأول: يرى بوكاي -وهو محقٌّ في ذلك- أنّ سورة نوح المأخوذ منها آية لقد خلقكم أطوارًا، تشير إلى دلالات القدرة الإلهيّة الخلّاقة بوجه عام، كما أنّ المقطع ذاته يشير إلى رحمة الله تعالى وكرمه بما أنعم على الإنسان، وإلى قدرته على خلق الإنسان في أطوار متدرّجة والسموات والأرض والشمس والقمر[1]، معوّلاً على أنّ الخلق يشير إلى المعنى الروحانيّ القائم على الارتباط بين الإنسان والأرض التي خُلق منها.

الثاني: أنّه لا يوجد في سورة نوح ما يشير إلى تفصيل الحديث عن مراحل تطوّر الجنين في رحم الأمّ[2]، ولا ينفي بوكاي من جانبه أن تكون هناك أطوار للتطوّر الجنينيّ؛ فالقرآن أكّد على ذلك، فضلًا عن أنّه أمرٌ اعترف به بوكاي من قبل، لكنّه ينفي أن يكون هذا هو المعنى المقصود في سورة نوح.

الثالث: أنّ موضوع الأطوار هنا يتوافق عند بوكاي مع معطيات المعرفة الدنيويّة[3].

لكن ما حقيقة التطوّر أو الأطوار عند بوكاي وعلاقتها بالتغيّرات التشكّليّة التي يتبنّى فرضيّتها؟ يمكن أن نلتمس الإجابة في النصّ التالي: «بالواقع إنّ تطوّر الفرد وتطوّر النوع الذي ينتمي إليه عبر السنين يخضعان لعوامل محدّدة وهي الجينات، إبان التجمع في المرحلة الأوّليّة للتناسل، لإسهامات الأب والأمّ، ولنربط هذه الأطوار

[١]- أنظر: تفسير السعدي، الآيات من ١٤: ٢٠.

[٢]- لكن آية وقد خلقكم أطوارًا تفهم في ضوء الآيات الأخرى التي تتحدّث عن مراحل تطوّر خلق الإنسان في الرحم، ومن ثمّ كان تفسير المفسّرين لهذه الآية منطلقًا من فهمهم لهذه الآيات الأخرى، انظر: التفسير الميسّر، نوح/ ١٤، تفسير الجلالين، نوح/ ١٤، تفسير البغوي، نوح/ ١٤، تفسير الوسيط، نوح/ ١٤، تفسير ابن كثير، نوح/ ١٤، تفسير الطباطبائيّ، نوح/ ١٤، تفسير الطبري، نوح/ ١٤

[٣]- تعد قضيّة مراحل تطوّر الجنين في الرحم من أوجه الإعجاز، حيث إنّها تتوافق مع المعطى العلميّ الحديث، انظر: انظر: حمد الرقعي، خلق الإنسان بين العلم والقرآن، ص٣٧، ص٤٤.

بأيٍّ منها، فإنّ التوافق مع معطيات المعرفة الدنيويّة تبقى كاملة في كِلا الحالين»[1].

هذا يعني أنّ بوكاي يشير إلى نوع من تطوّر النوع الإنسانيّ -إلى جانب تطوّر الفرد من الناحية الجنينيّة- وهذا التطوّر أصاب الإنسان ليس على المستوى الفرديّ كما قد يتبادر في الذهن، ولكن على مستوى النوع الإنسانيّ، وأنّ هذا التطوّر الأخير -مثل الأوّل- يخضع عند بوكاي لعدّة عوامل محدّدة بدقّة وهي الجينات. لكنّنا وإن كنّا نفهم هذه العوامل في تطوّر الفرد جينيًّا؛ حيث يتوارث الأبناء من الآباء نتيجة هذه الجينات[2]، وهو ما يثبت من الناحية العلميّة، لكن تثور هنا مجموعة من التساؤلات مؤدّاها: إذا نحن كنّا بصدد قراءة علميّة للقرآن الكريم، وإذا كنّا بصدد بحث بوكاي عن التوافق بين القرآن والعلم في قضيّة أصل الإنسان، فما الأدلّة التي أمكن لبوكاي أن يستقيها من القرآن والتي تقوّي عنده هذا الزعم؟! وهل هذه الأدلّة مقبولة من الناحية الدينيّة على الأقلّ؟! ومن جانب ثانٍ كيف نثبت تطوّر النوع من الناحية العلميّة؟! فهل يقدّم لنا العلم أدلّة على تطوّر النوع الإنسانيّ بصورة تمكّن من إصدار حكم بإثباته؟! وإذا كان الأمر كذلك، فما هي الأدلّة على ذلك؟

يمكن القول إنّ بوكاي وقف على آيتين من آيات القرآن الكريم؛ حيث فهمهما فهمًا خاصًّا في حاجة إلى دراسة، حيث اتّخذ منهما دليلًا على وجود تغيّرات طارئة على الشكل الإنسانيّ، والتي تسير من وجهة نظره في طريق تطوّر النوع الإنسانيّ، وهاتان الآيتان هما قوله تعالى:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ سورة الإنسان، الآية ٢٨.

وشدّ الأسر له علاقة عند بوكاي بمرحلة التكوين الجسديّ.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ

---

[1]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص١٩١.

[2]- أنظر: حمد الرقعي، خلق الإنسان بين العلم والقرآن، ص٢٢-٢٣.

آخَرِينَ﴾ سورة الأنعام، الآية ١٣٣.

ويعتقد بوكاي أنّ هاتين الآيتين تشيران إلى زوال بعض المجموعات البشريّة، واستبدال أخرى بها، وهذا يسير في الاتجاه الذي يرتئيه حول قضيّة تطوّر النوع الإنسانيّ.

ولئن كان المفسّرون القدامى ينظرون إلى مضمون الآيتين على أنّه نوع من التحذير والعقاب الإلهيّ[1]، فإنّ بوكاي يفسرّ توجّههم هنا على أنّه يسير في إطار المظهر الدينيّ، «غير أنّ الواقع المادّيّ ها هنا، المعبّر عنه بوضوح تامّ، والذي يُحقّق بزوال مجموعات؛ حيث إنّ أهمّيّة ذلك لم تحدّد، واستبدالها في زمن معيّن بمجموعات بشريّة أخرى بانحدارها من أحد الشعوب»[2].

لكن التطوّر النوعيّ في الإنسان أو التغيّرات في تشكّلات الإنسان -وهما عند بوكاي يحملان المعنى ذاته- لا يحدثان اعتباطًا أو بشكل فوضويّ[3]، وإنّما وفق مخطّط تنظيميّ منسّق من قِبل الله تعالى. ويشير بوكاي إلى هذا التنظيم الدقيق ويشير إلى أنّ تطوّر الإنسان تطوّر ذاتيّ نوعيّ، وليس من شيء خارج عنه كما ادّعى الداروينيّون. يقول بوكاي: «وبالخلاصة فإنّ التجمّعات البشريّة عبر التاريخ كان يمكن أن تتبدّل بتشكّلها، لكن التغيّرات ستكون حاصلة وفقًا لمخطّط تنظيميّ منسّق من قبل الله، وأنّ مجموعات يمكن لها أن تزول وأن تُستبدل بأخرى؛ إذ إنّ هذا ما يعبر عنه القرآن بكلّ صراحة، وإنّنا نبحث عبثًا عن تناقض مع ما أطلعنا

---

[١]- أنظر على سبيل المثال لا الحصر: الطبري، تفسير الطبري، الأنعام/ ١٣٣؛ الرازي، التفسير الكبير، الإنسان/ ٢٨.

[٢]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص١٩٢.

[٣]- خلافًا لما تذهب إليه نظريّة داروين في النشوء والارتقاء من الصدفة والعشوائيّة العمياء.
أنظر: مايكل دنتون، التطور نظريّة في أزمة، ترجمة: آلاء حسكي بالاشتراك، مركز براهين للدراسات والأبحاث، الطبعة الأولى، ٢٠١٧م، ص١٦.
أنظر: مايكل بيهي، صندوق داروين الأسود، ترجمة: مؤمن الحسن بالاشتراك، مركز براهين للدراسات والأبحاث، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م، ص٣.

عليه علم الإحاثة، ومع ما يتيحه لنا التطوّر الخلّاق أن نتصوّره»[1].

٣- التناسل البشريّ وعمليّة الإخصاب

إنّ المتأمّل في قضيّة أصل القرآن في مشروع القراءة العلميّة عند بوكاي يجده لا يقنع بما سبق من بحث الموضوع، فلم يكن يؤمن بأنّه قد استنفد بعد، على الرغم من كمّ الآيات التي ذكرها والتي فهمها فهمًا خاصًّا يُؤخذ منه فيه ويُردّ. «ألم نقم بصدد إحدى هذه الآيات بذكر الفائدة التي سينشأ عنها إعادة التدبّر بالمضمون الكامل لما نصّ عليه القرآن الكريم عن الموضوع المحدّد للتناسل البشريّ؟»[2]

كان بوكاي مؤمنًا بأنّ المعلومات المنبثقة من الآيات القرآنيّة لها علاقة وطيدة بالإجابة على هذا السؤال، بل إنّه عنده ليس ببعيد عن قضيّة التغيّرات التشكّليّة للإنسان عبر الأجيال، استنادًا إلى أنّ هذه التغيّرات يقودها قانون الوراثة المكوّن من مجموعة عناصر صبغيّة حاصلة من خلايا الأب والأمّ المنتجة[3]. ومن ثمّ فإنّ الإرث المكوّن عنده يحدّد -عند المضغة ثمّ عند الجنين- الظهور المحتمل للتغيّرات التشكّليّة بالنسبة للأب والأمّ، تلك التي ستكون ثابتة بصورة نهائيّة بعد الولادة وفي غضون نموّ الطفل، وهذه التغيرات بناءً على وجهة نظره ستعطي الطفل شخصيّة بنيويّة خاصّة به، «فإنّ أيّ إنسان حيّ لا يشبه الآخر، وعلى الأكثر سيتعلّق الأمر بفوارق تكوينيّة ستحملها من أجل النوع ذاته. وهذه بالنتيجة مجموعة تغيّرات تحصل عبر الأجيال التي تتوالى، وتُحدّد في زمن معيّن التحوّلات التشكيليّة المسجّلة من قِبل علم الإحاثة لمختلف الفئات البشريّة في العصور السابقة»[4].

لقد تناول بوكاي قضيّة التناسل البشريّ في كتابه: التوراة والإنجيل والقرآن

---

[١]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص١٩٢.

[٢]- م.س، موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ص١٩٣.

[٣]- م.ن، ص١٩٣.

[٤]- م.ن، ص١٩٣.

والعلم في معرض حديثه عن علم الأجنّة والتوافق بين الآيات القرآنيّة وبينه[1]، على الرغم من أنّ طبيعة العصر غير العلميّ كانت تنبئ منطقيًّا بخلاف ذلك مع أيّ عمل بشريّ؛ إذ إنّه كان من المحتوم عند بوكاي لنقص في التطوّر العلميّ الخاصّ بهذا العصر أنّ أيّ ذِكْرٍ للتناسل البشريّ كان مغلّفًا بأساطير ومعتقدات باطلة، مؤكّدًا على أنّه لا يمكنه غير ذلك؛ لأنّه من أجل فهم الأعمال الآليّة المعقّدة للنموّ كان من الضروريّ أن يكون على دراية بعلم التشريح، وأن يستعمل المجهر، وأن تنشأ علوم أساسيّة مختلفة ترسي قواعد علم الفيزيولوجيا وعلم الأجنّة والتوليد[2]. إلّا أنّ كتاب ربّ العالمين -الذي لا ينطق عن الهوى- أعطى معطيات تتوافق مع العلم في قضيّة التناسل بما يشبه المعجزة العلميّة في عصر يفتقر إلى أدواتها.

ويمكن القول إنّ بوكاي قد حدّد أربع مراحل أساسيّة للتناسل البشريّ أو التطوّر الجنينيّ داخل الرحم، والتي ذكرها القرآن، وأكّد عليها العلم الحديث من خلال المعطيات التي يقدّمها، وهي:

- مرحلة الإخصاب.
- طبيعة السائل المخصّب المركبة.
- مرحلة تعشيش البويضة المخصّبة.
- مرحلة تطوّر الجنين.

والسؤال هنا هل لهذه المراحل الأربع الأساسيّة علاقة بالتغيّرات الشكليّة التي يلحّ عليها بوكاي إلحاحًا كبيرًا؟ نعتقد أنّ بوكاي ينظر إلى هذه المراحل على أنّها أساس التغيّرات التشكّليّة التي تنتاب الإنسان والتي تؤثّر في عدّة أجيال متعاقبة[3]، فالجينات الممنوحة من الأب تتّحد مع جينات الأمّ، ليشكّل الإرث الجنينيّ لإنسان المستقبل[4].

---

[١]- للمزيد حول التوافق بين القرآن والعلم في هذه القضيّة، انظر: حمد الرقعي، خلق الإنسان بين العلم والقرآن، ص٣٧.

[٢]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص١٩٣.

[٣]- م.ن، ص١٩٦.

[٤]- أنظر: حمد الرقعي، خلق الإنسان بين العلم والقرآن، ص٢٢-٢٣.

لكن لكي ندرك هذه الحقيقة كان من اللازم العلم بأنّ الإخصاب يتمّ بكمّيّة قليلة جدًّا من سائل المنيّ، وهذا تفسير قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ سورة القيامة، الآية ٣٧. وقد انطلق بوكاي من هذه الآية إلى التأكيد على أنّ القدرة المخصّبة للمنيّ لا تتعلّق بكمّيّة السائل المراق، فالأساس العلميّ عنده أنّ كمّيّة قليلة منه فعّالة كلّيًّا، على الرغم مما قد يتبادر إلى الذهن من خلاف ذلك. «والإنسان الجاهل بحقيقة ظاهرات التناسل سيكون بالأحرى مدفوعًا إلى تصوّر العكس، والحال أنّ القرآن الكريم منذ أكثر من ألف سنة مرّت على اكتشاف وجود الحيوان المنويّ في القرن السابع عشر، يعبّر عن هذا الحقيقة؛ حيث إنّ صحّته جرى البرهان عليها باكتشاف العامل المخصّب في ضآلته اللامتناهية، بقدر جزء من ألف من المليمتر الواحد»[1].

فالجينات التي تحتويها الخليّة التناسليّة للذكر هي عند بوكاي التي تحدّد تعدّديّة الخصائص التي سيكون عليها الكائن الجديد بالإضافة إلى الخصائص المكتسبة من جينات الأمّ. ويُحسب لبوكاي هنا أنّه يتحدّث حديثًا علميًّا، وهذا يظهر =فضلًا عما سبق- في حديثه عن الحيوانات المنويّة ونوع الجنين، فالحيوانات المنويّة هي الحاملة للجينات التي تكيّف الذكورة نصف الصبغيّة Y والأخرى الحاملة للجينات التي تكيّف الأنوثة X. «وإذا كان من بين حشد طالبي إخصاب البويضة التي تستشعر على السطح الخارجيّ حيوان منويّ من نصف الصبغيّة Y فالمولود الجديد سيكون ذكرًا، وإذا كان ذلك الذي يدخل إلى البويضة هو من نصف الصبغيّة X فالمولود الجديد سيكون أنثى»[2]. وهذا يعني أنّ جنس الإنسان محدّد من الناحية الوراثيّة أثناء عمليّة الإخصاب[3]، وأنّ هذه العمليّة تتمّ بأقلّ قدر من العنصر المخصّب. وهذا التحديد يعني عند بوكاي التقدير الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ عبس: ١٩. ما يعني أنّ هناك اتفاقًا بين

[١]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص١٩٦.

[٢]- م.ن، ص١٩٧.

[٣]- أنظر: حمد الرقعي، خلق الإنسان بين العلم والقرآن، ص٤٠-٤٤.

العلم والقرآن في هذه القضيّة، الأمر الذي عبّر عنه بوكاي قائلًا: «أليس في هذا تطابق مذهل بين ما يؤكّده القرآن الكريم من القدر المحدّد ابتداءً بهذه المرحلة، وبين ما نعرفه عن الخاصّة المحدّدة للجنس من الإرث الجنينيّ المتأتّي من الأب»[1].

أمّا فيما يتعلّق بمرحلة الطبيعة المركّبة للسائل المخصّب، فقد تحدّث عنها بوكاي تفصيلًا في كتاب: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، وتطرّق إليها بعض الشيء القليل في كتاب أصل الإنسان، وقد وقف بوكاي عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ﴾ سورة الإنسان، الآية ٢.

ومن المهمّ الوقوف على توضيح هذه المسألة عند المفسّرين على النحو التالي:

تبيّن هذه الآية كيفيّة خلق الإنسان من نطفة التناسل؛ لما في تلك الكيفيّة من دقائق العلم الإلهيّ والقدرة والحكمة[2].

وفي تفسير الطبريّ يقول: «من نطفة، يعني من ماء الرجل وماء المرأة، والنطفة كلّ ماء قليل في وعاء كان ذلك ركية أو قربة أو غير ذلك.. وقوله أمشاج يعني أخلاط.. يُقال منه مشجت هذا بهذا أي خلطَه به وهو ممشوج به[3].

واختلف أهل التأويل في معنى الأمشاج.. فقال بعضهم هو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة.. ماء الرجل وماء المرأة يمشج أحدهما بالآخر»[4].

وهذا يعني أنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ يشير إلى أنّ النطفة في الأصل بمعنى الماء القليل غلب استعماله في ماء الذكور من الحيوان الذي يتكوّن منه مثله، وأمشاج جمع مشيج أو المشج بفتحتين، أو بفتحٍ فكسرٍ بمعنى المختلط الممتزج، ووُصفت بها النطفة باعتبار

[١]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة فوزي شعبان، ص١٩٧.

[٢]- أنظر: التحرير والتنوير، الإنسان، الآية ٢.

[٣]- م.ن، الآية ٢.

[٤]- انظر: تفسيري الطبري، الإنسان، آية ٢ وهذا المعنى هو ما نجده عن المفسّرين انظر: التفسير الميسر، الإنسان، ٢، تفسير الجلالين، الإنسان، ٢، تفسير البغوي، الإنسان، ٢، تفسير الوسيط، الإنسان، ٢، تفسير ابن كثير، الإنسان، ٢، تفسير الطباطبائي، الإنسان، ٢.

أجزائها المختلفة أو اختلاط ماء الذكور والإناث.

لكن بوكاي انتقد التفسير الذي ساقه المفسّرون القدامى حول كلمة أمشاج؛ حيث رفض أن يكون المقصود من كلمة أمشاج في الآية مزيجًا من سائل الرجل وسائل المرأة؛ بدعوى أنّ المرأة ليس لها سوائل ذات وظيفة تناسليّة عنده حسب ما أدّاه إليه العلم الحديث الذي يتمسّك به، ومن ثمّ فلم يركن إلى هذا التفسير الذي عدّه تعبيرًا عن ثقافة العصر السائدة والتي كانت تجهل علم الأجنّة وفسيولوجيّة المرأة[1]. «إنّ آراء كهذه تصدر عن مفسّرين مأذون لهم بدون أدنى ريب لدرجة كبيرة بما له علاقة بالمسائل الدينيّة مستمرّة للأسف بالتأثير على تفسيرات معطاة من قبل معاصرين عن موضوعات من طبيعة أخرى كتلك المتعلّقة بالظاهرات الطبيعيّة»[2].

ومن ثمّ نفهم أنّ بوكاي يرفض وجود سائل أنثويّ يتدخّل في عمليّة الإخصاب، كما قال المفسّرون القدامى الذي فسّروا قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ (سورة الطارق، الآية ٧) على أنّ الإنسان يُخلق من اجتماع ماء الرجل من الصلب وماء المرأة من الترائب. في حين يؤكّد بوكاي على أنّ المقصود علميًّا من الصلب الظهر، ومن الترائب الأضلاع. ومن ثمّ انتقد التفسير القديم قائلًا: «علينا إذن أن نشدّد على واقع هو أنّ بويضة المرأة غير موجودة داخل سائل كالسائل المنويّ؛ ولأن الإفرازات المختلفة الموجودة عند المرأة بشكل طبيعيّ، على مستوى المهبل أو السائل المخاطيّ الموجود في الرحم لا تسهم بشيء بنوعيّتها المادّيّة على تكوين المخلوق الجديد»[3].

لكن بوكاي لم يستطع أن يبيّن لنا التوافق بين العلم والقرآن في هذه القضيّة، ربما لعدم كفاية المعطيات العلميّة حول هذه القضيّة آنذاك، حتّى تبيّن منذ فترة وجه الإعجاز الحقيقيّ هنا.

---

[١]- أنظر: حمد الرقعي، خلق الإنسان بين العلم والقرآن، ص٥١.

[٢]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص١٩٨.

[٣]- م.ن، ص١٩٨.

فالآية تتضمّن حقائق علميّة تأخّر العلم في معرفتها والكشف عنها وإثباتها ثلاثة عشر قرنًا؛ حيث إن صلب الإنسان هو عموده الفقريّ سلسلة ظهره وترائبه هي عظام صدره.. وبالرجوع إلى علم الأجنّة يتبيّن أنّ في منشأ خصية الرجل ومبيض المرأة ما يفسّر لنا هذه الآيات التي حيّرت الألباب.. فكلٌّ من الخصية والمبيض في بدء تكوينهما يجاور الكلى ويقع بين الصلب والترائب أي ما بين منتصف العمود الفقريّ تقريبًا ومقابل أسفل الضلوع[1].

وهذا يعني أنهما في نشأتهما وفي إمدادهما بالدم الشريانيّ وفي ضبط شؤونهما بالأعصاب قد اعتمدتا في ذلك تمامًا على مكان في الجسم يقع بين الصلب والترائب، ومن ثمّ فقد استبان صدق ما نطق به القرآن الكريم وجاء به ربّ العالمين ولم يكشفه العلم إلّا حديثًا بعد ثلاثة عشر قرنًا من نزول ذلك الكتاب[2].

فبوكاي يؤكّد مرارًا على أنّ العنصر المخصّب هو الذكر، ومن ثمّ كانت الأمشاج عنده تتعلّق بالسائل النطفيّ، وهو مزيج من غدد الخصيتين والحويصلات المنويّة والبروستات والغدد الملحقة للمسالك البوليّة السفلى[3]. ليس هذا فحسب، بل إنّه ليستدلّ على العنصر المخصِّب الذكريّ بقوله تعالى: ﴿**ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ**﴾ سورة السجدة، الآية ٨. باعتبار أنّ كلمة مهين يجب ألّا تفسّر على أنّها من ناحية خاصّيّة السائل ذاته، «بل بالأحرى بفعل واقع هو أنّه مقذوف من قبل طرف الجهاز البوليّ، مستخدمًا المسلك الذي يخرج من البول»[4].

ولعل مرحلة تعشيش البويضة المخصَّبة على مستوى الرحم كانت تشغل اهتمام بوكاي باعتبارها التعبير العلميّ عن كلمة علق القرآنيّة، «نحن نعلم أنّ البويضة المخصَّبة تستقرّ داخل السائل المخاطيّ الرحميّ حوالي اليوم السادس الذي يلي

---

[١]- أنظر: محمّد إبراهيم دودح، نشأة الذرّيّة معجزة علميّة، على الموقع التالي: https://quran-m.com

[٢]- أنظر: محمّد إبراهيم دودح، نشأة الذرّيّة معجزة علميّة، على الموقع التالي: https://quran-m.com

[٣]- ويؤيده في ذلك عبد الحميد دياب، أحمد قرقور، الطبّ في القرآن الكريم، دمشق، مؤسّسة علوم القرآن، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، ص٣٣-٣٤.

[٤]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص١٩٨.

الإخصاب، ومن الناحية التشريحيّة فالأمر يعود إلى تعلّق حقيقيّ»[1].

وينطلق بوكاي هنا من المعطى العلميّ الذي تتضمّنه الآية الكريمة التي يقول الله تعالى فيها: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى﴾ سورة القيامة، الآيتان ٣٧-٣٨.

كما كانت مرحلة تطور الجنين داخل الرحم واحدة من المراحل التي استحوذت على اهتمام بوكاي، وقد تناولنا هذه القضيّة تفصيلًا وموقف بوكاي منها، كما تطرقنا إلى الآيات القرآنيّة التي تذكر تطوّر الجنين في رحم الأم حتّى يصل إلى الصورة النهائيّة قبل الولادة.

لكنّ السؤال هنا: ما علاقة مراحل التناسل البشريّ الأربع سابقة الذكر وقضيّة التطوّر الإنسانيّ التي عارض بها بوكاي نظريّة التطوّر عند داروين؟ وبعبارة أخرى: هل هناك علاقة ما بين تحوّلات الشكل البشريّ عبر الزمان وبين التطوّر الجنينيّ في الرحم؟!

الحقيقة التي لا مناص منها أنّ بوكاي يؤمن بهذا، فهو يتّخذ من هذه المراحل الأربع أساسًا لفكرته في التطوّر، كما أنّه يتّخذ من التطوّر الجنينيّ في الرحم عاملًا رئيسًا في تحوّلات الشكل البشريّ. لقد «كان بديهيًّا في ذهن غير المطّلع على علمي الأجنّة والوراثة بأنّ كلّ تحوّل ظاهر عند الإنسان يصدر عن تغيّرات لا تحصل على مستوى الجينات المعطاة إلى المولود الجديد من قبل صبغيّات الأب والأمّ»[2]. هذا يعني أنّ بوكاي يشير إلى أنّ علم الأجنّة وعلم الوراثة يقرّان بوجود تحوّلات شكليّة في الإنسان تحصل ابتداءً على مستوى الجينات الموجودة في صبغيّات الأب والأمّ، «ونحن نعلم بأنّه على مستوى كلّ إرث وراثيّ انقسام ثمّ اتحاد لعناصر النصف من كلّ واحد منهما، وهذا يقود أثناء فترة الحمل إلى بداية تحوّل تشكّليّ، وبطريق الاستنتاج فيما بعد إلى تحوّل وظائفيّ، وهكذا كان

[1]- م.ن، ص١٩٩.

[2]- م.س، موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ص٢٠١.

التحوّل يمتدّ بعد الولادة خلال مرحلة النموّ لينجز كاملًا في سنّ الرشد»[1].

هذا يعني أنّ بوكاي ينطلق في فهمه للآيات القرآنيّة المتعلّقة بالتناسل، بصورة أبعد من تلك الصورة المعتادة التي ترى أنّ الآيات القرآنيّة لا تتعلّق إلّا بتطوّر الجنين داخل الرحم. فقد كانت هذه الآيات فضلًا عن ذلك تتعلّق بما سيكون في المستقبل من الوجهة التشكّليّة للإنسان. وهذا هو السبب الذي أدرج فيه بوكاي كلّ الآيات القرآنيّة المتعلّقة بالتناسل البشريّ في دراسته للنصّ القرآنيّ، والتي تعود فيما يعتقد إلى تحوّلات للشكل البشريّ خلال الزمن[2].

وعلى الرغم من صعوبة فهم صورة التشكّلات الإنسانيّة التي يتحدّث عنها بوكاي وطبيعة التغيّرات الشكليّة التي تطرأ على الإنسان ومقدراها، فإنّه ضرب مثالًا تقريبيًّا لإيضاح الأمر، هذا المثال «له علاقة بالتحوّل المرضيّ إلى عاهة توجد لدى الأطفال، مصدرها خلقيّ، ومعروفة بسبب حصولها من بين التشوّهات: ألا وهي المنغوليّة، وقد اكتشف العلماء بأنّها ناتجة عن تثليث الصبغيّة التي تحمل الرقم ٢١، هذا ما حملهم على تسمية المرض بالتشوه رقم (Trisomie 21 21)، ونعلم اليوم بأنّ الجينات المحمولة بهذه الصبغيّة هي من الأسباب، ويطرأ الإخلال بكثرة عندما تكون الأم قد تخطّت سنّ الأربعين»[3].

والمغوليّة أو المنغوليّة هي مرض خلقيّ يتميّز صاحبه بالبلاهة، كما أنّها تطبع الإنسان بصفات شكليّة على مستوى العينين والجمجمة واليدين والأصابع، وهو ناتج عن تشوّه حدث بسبب الصبغيّات الجينيّة في الرحم، حيث دخلت صبغيّة ثالثة على صبغتي الأمّ والأب فأحدثت هذا التشوّه[4]. إضافة إلى ما يتميّز به هذا المرض من توقف النموّ على المستوى الجسديّ،

---

[١]- م.ن، ص٢٠١.

[٢]- م.س، موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ص٢٠١.

[٣]- م.ن، ص٢٠١.

[٤]- ويسمى متلازمة داون، انظر: آمنة عودة، دراسة مرجعيّة عن متلازمة داون، أطروحة حلقة بحث وتصميم تجارب، إشراف: شادية حسن محمّد، كلّيّة العلوم، جامعة الطائف، ١٤٢٨- ١٤٢٩هـ ص٤.

فهناك توقّف من نوع آخر، وهو توقّف النمو عقليًّا، الأمر الذي يقود إلى خصائص تشكّليّة تظهر مبدئيًّا عند الولادة، ثمّ يتطوّر شيئًا فشيئًا. هذا المرض عند بوكاي يُكسب الطفل في مرحلة الطفولة المبكرة الخصائص الأساسيّة[1].

إنّ هذا المرض تصوّر مبسّط من بوكاي لكلّ تحوّل أو تغيّر تشكّليّ عند الإنسان، بيد أنّ هذا التحوّل يبدأ من الرحم، فالتحوّل والنموّ يبدأ من مرحلة التكوين الأولى داخل الرحم، ثمّ يزداد تحديدًا وتطوّرًا ليصبح مميّزًا في سن الرشد، «وهكذا فإنّه عبر الأجيال التي توالت منذ عهد رجل أستراليا القديم إلى عهد الإنسان الحالي، هذه الأجيال يمكن التعبير عنها بالأرقام، فتكون تقريبًا ١٠٠٠٠ جيلًا، نتصوّر بأنّه قد طرأت تغيرات قليلة على كلّ جيل، وبإضافتها إلى بعضها تكون قد جعلت الإنسان على الشكل الذي هو عليه الآن»[2].

ونفهم من ذلك أنّ بوكاي يرى أنّ التغيّرات الشكليّة التي يرى أنّ الإنسان مرّ بها لا تحدث إلّا بين الأجيال، وكأنّه يريد أن يقول إنّ كلّ جيل له مجموعة من الجينات التي تحمل صبغيّات لها القدرة على إحداث تغيّرات ولو ضئيلة، وبناء على هذا التصوّر فإنّ كلّ جيل يسلّم تغيّراته للجيل التالي الذي تعتريه تغيّرات جينيّة أيضًا تؤدّي إلى تغيرات شكليّة، وهكذا تسلّم الأجيال بعضها بعضًا ما طرأ عليها من تغيّرات، حتى وصل الإنسان عند بوكاي إلى الصورة التي عليها الآن. إلّا أنّ بوكاي يفرّق هنا بين التحوّلات الصغيرة المتطابقة التي حصلت في كلّ جيل في رحم الأمّ، وبين التحوّلات المسجّلة لصورة كاملة بعد العدد الكبير من الأجيال.

لكنّ بوكاي من جانب آخر يشير إلى أنّ هذا هو مقصد القرآن، حيث يقول: «كان هذا الشرح ضروريًّا لفهم كيف أنّ هذا المبدأ قد عُبّر عنه في القرآن الكريم بالعودة إلى تطوّر الجنين في رحم الأم وفقًا لمشيئة الله، كما ينصّ عليه القرآن الكريم بوضوح تامّ»[3].

---

[1]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص٢٠٢.

[2]- م.س، موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ص٢٠٢.

[3]- م.ن، ص٢٠٢.

لكنّك تشعر أنّ حديث بوكاي عن تلك التغيّرات الشكليّة في الإنسان عبر الأجيال تفتقر إلى الدليل، حتّى أنّ المثال التقريبيّ الذي ضربه والخاصّ بالمرض المنغوليّ لا يقدّم دليلًا على صحّة موقفه، حتى أنّنا نظنّ أنّ كلامه أقرب إلى الخاطرة من أيّ شيء آخر.

كما أنّ بوكاي لم يقدّم لنا شيئًا ذا بال عن طبيعة هذا التغيّر الشكليّ ومقداره، وإن كان على المستوى الجسديّ فقط على المستويين الجسديّ والعقليّ، وهذه قضيّة من الأهمّيّة بمكان، الأمر الذي يقودنا إلى أنّ نظرة بوكاي لم تكن متكاملة حول هذه القضيّة، ولم تكن متّسقة وواضحة، بحيث تزيل أيّ رأيٍ آخر مناقض لها، أو يطلب منه فيها الدليل.

الأمر الآخر ما دليل بوكاي على أنّ هذا التغيّر منصوص عليه في القرآن؟! هل يقدّم لنا القرآن معلومات عن هذه القضيّة بحيث تقود بوكاي إلى ما قادته إليه؟! من جانبنا نعتقد أنّ المادّة التي يقدّمها القرآن لا تفي بكلّ ما أتى به بوكاي من رأي حول القضيّة، حتّى أنّنا نعتقد أنّه حمل الآيات أكثر ممّا تحتمل. نعم، قد تكون هناك تغيّرات شكليّة، لكنّها في النهاية لا تقود إلى تغيير جذريّ في شكل الإنسان كما يوحي لنا بوكاي، وبحساب بسيط لو أنّ كلّ جيل من الأجيال العشرة آلاف التي تحدث عنها بوكاي كان يحمل تغيرًا واحدًا، فإنّنا سنكون أمام عشرة آلاف تغيّر تشكليّ في الإنسان، وهذا يعني أنّنا أمام إنسان آخر يختلف بالكلّيّة عن الإنسان الأوّل، وهذا ما أظنّه يتنافى مع مفهوم التقويم في قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾.

٤- التوافق بين الدين والعلم

هل تقدّم لنا قضيّة أصل الإنسان توافقًا ملحوظًا بين الدين والعلم؟! الحقيقة التي لا مراء فيها ولا جدال أنّه لا تناقض بين الدين وبين ما توصّل له العلم الصحيح؛ إذ إنّ كتاب ربّ العالمين لا ينطق عن الهوى، فمصدريّته الإلهيّة تمنع أيّ شكّ في صدق ما جاء فيه، ولعلّ العلم الحقيقيّ يثبت هذه المصدريّة يومًا بعد

يوم. لكنّ السؤال هنا هو: هل ما قدّمه بوكاي هنا يستحقّ أن يكون مادّة للتوافق بين العلم والدين؟! هل ما ساقه يؤكّد ما ذهب إليه في قضيّة أصل الإنسان؟

كان بوكاي يدرك جيّدًا أنّنا أمام قضيّتين كبريين: إحداهما تتعلّق بأصل الإنسان أو النوع البشريّ، والأخرى تتعلّق بالمصير المحتوم الذي ينتهي إليه، ولقد حاول بوكاي أن يعالج القضيّة الأولى بالدراسة -باعتبار أنّ الثانية لم تكن موضوع دراسته؛ حيث كان يبحث عن القضايا ذات الطابع الدنيويّ كي يسهل عليه إثباته من جهة العلم- عن طريق المعطيات المادّيّة الصرفة التي يقدّمها له العلم الحديث. إنّ بعض الباحثين «يعتبر بأنّ المقدّمة لهذه المعطيات الدنيويّة في درس المسألة كانت خيرًا لها، وعلى العكس فإنّ آخرين سيحكمون عليها بطريقة غير مواتية، وبوسعنا التساؤل أنّه إذا لم تكن في السابق ذا فأل سيّئ تبعًا لفكرة سليمة عن الموضوع، وفي نهاية المطاف فإنّ الردود هنا مختلفة كلّيًّا، ومهما يكن من أمر فنحن نحاول أن نفهم»[1].

لقد كان بوكاي يدرك جيّدًا أنّه أمام فريقين: فريق يقدّم ولاءً تامًّا للكتب المقدّسة، وفريق لا يدين بشيء إلّا للمعطيات العلميّة الدنيويّة. بيدَ أنّ منهجه كان قائمًا على البحث في المصدرين واستخراج المضامين والتعاليم منهما، ما دام لا يظهر أيّ تعارض من نوع ما.

لقد وضع بوكاي قضيّة الإلحاد أو إنكار وجود الله تعالى جانبًا رافضًا كلّ المعطيات التي تُقدّم في هذا الصدد، باعتبار أنّها لا تقدّم الإجابة الصحيحة عن سؤال أصل الإنسان، بل لقد كان من الثابت عنده أنّ الإجابة تتعلّق بممارسة الشعور القويّ بالإيمان الذي يكمن في كلّ واحد، وبدرجة المعرفة الدنيويّة التي يملكها الإنسان في المجالات ذات الصلة بالتساؤل، وهي المعرفة التي تسير في اتجاه القيم الروحيّة والإيمانيّة. «وبالواقع فإنّ ثقافة علميّة بوسعها أن تجلب في العصر الحاضر، ليست الأسباب التي تبعد عن فكرة الله، بل على العكس الأسباب التي تقرب إليها، ونحن

---

[١]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص٢٠٥.

نجعل الإنسان يفكّر ببعض التحقّقات التي بوسع العلم أن يوفّرها»[1].

لقد استند بوكاي إلى التنسيق الظاهر والانسجام الواضح في الكون، الأمر الذي يحكم بسهولة بوجود الله تعالى[2]، ليس ظنًّا أو احتمالاً، وإنّما صدقًا وحقيقةً كاملة. لكن كشف ما في الكون يحتاج إلى ثقافة علميّة؛ حيث إنّ فقدان الثقافة العلميّة في رأي بوكاي يؤدّي إلى شيوع أفكار سلبيّة عن وجود الإله، يظلّ لها تأثيرها السلبيّ على الرغم من أنّ كلّ ما حولنا من مظاهر الكون التي تنطق بخلافها.

وقد انتقد بوكاي النظرة الدينيّة التي لا تعير اهتمامًا للجوانب العلميّة في تناولها لموضوع أصل الإنسان، وفي هذا الإطار فسّر «الثقة الممنوحة لفرضّيات مادّيّة معيّنة من قبل أولئك الذين لديهم ميل إلى الأوهام والميتافيزيقا الصرفة أكثر من الميل إلى واقعيّة ظاهرات الطبيعة المبنيّة من قبل العلم، ويظهر حتّى أنّ كلّ محاولة لجعل بعض النفوس تهتمّ بوقائع مادّيّة تبقى عديمة الجدوى طالما أنّ الواقع العمليّ يظلّ غريبًا عنها، والذي عليه أن يزول بنظرهم أمام بنياتهم التجريديّة التي أعطاها، ولها وحدها الجواب دفعة واحدة، وهو نهائيّ بالنسبة لهم»[3].

ومن ثمّ أراد بوكاي أن يتّخذ اتجاهًا آخر وهو اتجاه الجمع بين المعطى العلميّ وبين النصّ الدينيّ، إذ إنّ هذا الاتجاه هو وحده الكفيل بالكشف عمّا غمض من بعض الحقائق التي لا يزال يبحث عنها الكون. ومن ثمّ كان اتكاؤه على العلوم الحديثة؛ لما تقدّمه في هذا الصدد، ومن العلوم التي استند إليها في قضيّة الكشف عن أصل الإنسان وفي الوقت ذاته في قضيّة الردّ على الإلحاد والملحدين علما: البيولوجيا الجزيئيّة وعلم الوراثة. إنّ التحليل الدقيق لظاهرات الحياة على مستوى الخليّة في هذين الجانبين العلميّين حمل العالم على أنّه ليس هناك ما يمنع من التقدّم في هذا الميدان، كما حمل على أنّه ليس هناك ما يمنع من الاتجاه

---

[1]- م.ن، ص٢٠٦.

[2]- وهذا ما قال به ابن رشد فيما أسماه دليل العناية الإلهيّة، انظر: ابن رشد، مناهج الأدلّة في عقائد الملّة، تحقيق د. محمود قاسم، ط الأنجلو المصريّة، ١٩٥٥م، ص١٥٠.

[3]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص٢٠٦.

الدؤوب إلى إجلاء الغموض الذي لم يطله الكشف بعد. ومن هنا يتساءل بوكاي: «كيف لا نكون اليوم متأثّرين لأن نراقب بأنّ النفوس -التي لم تتعرض لهذه المسائل من الزاوية المادّيّة البحتة لغاية الآن- لا تأخذ بالحسبان ما يجب من الآن وصاعدًا التطرق إليها من زاوية؛ حيث إنّ اعتبارات مادّيّة، وهذا أقلّ ما يمكن أن نقول، عليها أن تكون داخلة»[1].

إذن فإنّ الربط بين المعرفة الدنيويّة والنصوص الدينيّة هي المنهجيّة الناجعة في الوصول إلى حقيقة الكثير من القضايا العالقة، ومنها قضيّة أصل الإنسان، وقد استشهد بوكاي في هذا الصدد بجان روستان، الذي سُئِل عن الله تعالى في إحدى مقابلاته التليفزيونيّة التي أجراها معه التليفزيون الفرنسيّ، وكانت إجابته بأنّه كان لا يعتقد حتى ذلك الحين بوجوده، ولكن لكونه عالمًا بيولوجيًّا، فقد اعترف بارتباكه عندما كان يفكّر بما كان يحدث على مستوى الجرم الصغير[2]. هذا يعني أنّ المعرفة الدنيويّة أوحت إلى هذا العالم بفكرة مغايرة عن الفكرة التي كان يعتقدها في الله تعالى، ما يعني أنّ العلم يؤدّي إلى تصحيح المواقف وتغيير الآراء الخاطئة، والتمسّك بما يقدّمه المعطى العلميّ.

ونحن نفهم أهمّيّة الدور الذي يقدّمه العلم عند بوكاي، فالعلم عنده ينشر الحماسة في سبيل رؤى واكتشافات مستقبليّة لا حدود لها، كما أنّه يحمل على الشكّ والتساؤل، خاصّة فيما يتعلّق بمواقف الغرب مّما أثاره العلم حول التعليمات الدينيّة في قضيّة أصل الإنسان وغيرها. لقد كان الإنسان عنده موضوع تأمّل بين التعاليم التي يقدّمها الدين وبين التعاليم التي يقدّمها العلم، علمًا بأنّه فرّق بين الأديان في مدى حظّها من العلميّة أو التوافق العلميّ؛ حيث كان يضع أمام مخيّلته تساؤلًا واضحًا: «كيف ليهوديّ ومسيحيّ ومسلم أن لا يتلقّوا معًا التعاليم الخاصّة بكلّ من الأديان الثلاثة ومعطيات المعرفة الدنيويّة عن أصول الإنسان؟ هل يجد

[١]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص٢٠٧.

[٢]- م.ن، ص٢٠٧.

مؤمن بالله ما اكتشفه عن أصول الإنسان متوافقًا مع آرائه الدينيّة؟»[1]. وليس عند بوكاي إلّا طريق واحد للوصول إلى الإجابة على هذين السؤالين وهو إقامة توازن واضح وصحيح بين المعرفة الدنيويّة العلميّة ومقارنته بكل حياديّة وتجرّد بالمعطى الذي يقدّمه كلّ دين على حدة، وهذا ما كان بوكاي دائم القيام به، وقد اختبر بصورة عامّة ما نتج عن هذه المقابلة.

٥- تحوّلات الشكل الإنسانيّ عند بوكاي.. ما مداها؟

لا شكّ في أنّ بوكاي كان يؤمن بتطوّرٍ أصاب الحيوان على مرّ العصور، كما أنّه كان يؤمن بأنّه توجد تحوّلات أصابت الشكل الإنسانيّ، أمّا مسألة العلاقة بين عالم الحيوان والسلالة البشريّة، فقد رفضها، وإن لم يكن حاسمًا فيها بسبب التفريعات والجدليّات التي سبق أن انتقدناه لأجلها، لكنه في البدء والمنتهى -بعيدًا عما أوقعه في المثالب- درس بشكل منفصل في الغالب الوضع الإنسانيّ والوضع الحيوانيّ.

وإذا كان بوكاي يذهب إلى أنّ التطوّر في عالم الحيوان لم يشر إليه القرآن، فإنّه على العكس من ذلك تمامًا يذهب إلى أنّ تحوّلات الشكل الإنسانيّ على مر العصور قد ذكرت في القرآن الكريم، ولا أدري من أين جاء بوكاي بهذا الحكم ونصوص القرآن الكريم بين أيدينا؟! لقد عرضنا في فصول سابقة كيف استخدم بوكاي بعض الآيات في سبيل إسباغ القبول على رأيه في قضيّة التحوّلات الحاصلة. يقول بوكاي: «تحوّلات الشكل الإنسانيّ عبر العصور كانت بالمقابل قد ذكرت في القرآن الكريم، وهذه الإشارة في الآيات التي سبق لنا وذكرناها لها علاقة بالتحوّلات الحاصلة، بعد ظهور الإنسان على الأرض بمجموعة العنصر البشريّ، ولم تقتصر على التطوّر الذي يحدث في رحم المرأة للبويضة المخصَّبة؛ كي تصبح طفلًا بالوقت المناسب؛ إذ إنّ هذه التحوّلات هي أيضًا موضوع آيات في القرآن الكريم كما سبق وكنّا قد أشرنا إليه في فصل التوالد الإنسانيّ»[2]. لكنّنا بعد فهم طبيعة التحوّلات التي يشير إليها بوكاي نستطيع أن نقول

[١]- م.ن، ص٢٠٧.

[٢]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص٢١٥.

مطمئنين إنّ بوكاي يحمّل الآيات القرآنيّة فوق ما تحتمل، ويكاد يلوي عنق النصّ كي يلبّي عنده حاجة لم يستطع أن يقول العلم فيها رأيه القاطع إلى الآن؛ لينطلق إلى القول بالتوافق بين العلم والقرآن، مع أنّ القرآن سكت عمّا حاول بوكاي أن ينسبه إليه، كما أنّ العلم لم يصل إلى ما يحاول هو أن يلصقه به.

فمن أيّ موضع في القرآن فهم بوكاي أنّ هناك تحوّلات بشريّة جرت على البشر على مرّ العصور؟! فليخبرنا بوكاي من أين جاء بهذه التحوّلات؟! قد يقول قائل إنّه ساق بعض الآيات القرآنيّة، لكن ذلك مردود عليه بأنّ بوكاي يوجّه هذه الآيات توجيهًا معيّنًا لكي توافق رأيه، ويحمل هذه الآيات معاني ودلائل بعيدة كلّ البعد عن سياقها.

إنّ الإشكاليّة الكبرى هي أنّ بوكاي لا يقف عند حدود التشكّل الجسديّ، فقد يكون ذلك مقبولًا باعتبار أنّ البشريّة قد مرّت بمراحل من التكوين البدنيّ الذي كان ينتقل من القوّة البدنيّة والطول المفرط إلى أن وصل إلى حالة من التكوين البدنيّ الأقلّ طولًا والأضعف قوّةً، بل إنّه يتجاوز ذلك إلى التكوين العقليّ، فكثيرًا ما وصف الإنسان في مراحله النهائيّة بالإنسان العاقل أو الإنسان الكامل، وهذا يعني أنّ بوكاي يتجاوز كلّ الخطوط الحمراء فيما يتعلّق بالتقويم الإلهيّ الذي أنشأ الله تعالى عليه الإنسان.

لقد استعرض بوكاي بعض التغيّرات التشكّليّة للإنسان عبر التاريخ مستندًا إلى ما يقدّمه لنا علم الوراثة؛ إذ كان مؤمنًا بأنّ الإنسان أصابته التحوّلات على مر العصور بناءً على تبدّلات أُضيفت له عبر الأجيال، ومصدر هذه التحوّلات إلهيّ، وهي متأثّرة بالمعلومات الجديدة الممنوحة من الإرث للموروث، ولعلّه يقصد بها المعلومات التي يحملها شريط حامض DNA[1]. إلاّ أنّ بوكاي يتّخذ من هذا الإعجاز العلميّ في هذا الشريط اتجاهًا آخر، ويبدأ عمل هذا عند بوكاي من المرحلة الجنينيّة، ممتدًا إلى ما بعد فترة الولادة في كلّ فترة من فترات النموّ، خاصّة في ما يتعلّق بالبنية[2].

---

[١]- وهذه يمثل إعجازًا علميًا في القرآن الكريم، انظر: محمّد عبد الله إبراهيم نجا، حديث القرآن والسنة عن الحامض النوويّ في الأمشاج، على الرابط التالي: https://quran-m.com

[٢]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص٢١٥-٢١٦.

وقد استدلّ بوكاي في هذا الصدد بخاصّيّة تغيّرت عبر الزمان، وهي سعة الجمجمة لارتباطها بتطوّر الدماغ، وهي واحدة من تغيّرات كثيرة تحدث في أيّ تحوّل عنده، فكلّ تحوّل عند بوكاي يستلزم تغيّرات متتالية بدون انقطاع عبر عدد كبير من الأجيال، وكلٌّ منها على قدر من الأهمّيّة في كلّ مرّة، وكلّ ذلك يحدث بتنسيق تامّ تقوده علميّة الإرث والموروث، «والتغيّر قد انطلق منذ الحياة الجنينيّة، وإنّ تحوّلات حقيقيّة لم تكن لتحدث بدون تغيير في رحم الأمّ منذ البداية على مستوى الخلايا والأنسجة غير المتميّزة؛ لأنّ الخلايا والأنسجة المتميّزة هي بعد مرحلة معيّنة من التطوّر، وتكون ملتزمة بطريق يحدّد مستقبلها نوعًا ما، وليس بوسع البنية بعد الولادة مثلًا أن تخلق جهازًا عصبيًّا جديدًا؛ حيث إنّ نموّه يكون دعامة لزيادة التعقيد العمليّ للدماغ، بل إنّ هذا النموّ يكون قد ارتسم وتطوّر قبل الولادة»[1].

لكن يبقى سؤال هل يقدّم لنا بوكاي نموذج سعة الجمجمة للاستدلال على تغيّرات شكليّة في بنية الإنسان؟![2] أم يقدّمه لنا للاستدلال على مرحلة من البدائيّة العقليّة؟ بمعنى آخر هل يحمل اتساع الجمجمة تغيّرًا جسديًا أم تغيّرًا عقليًّا؟! وثمّة سؤال آخر، هل يربط بوكاي بين سعة الجمجمة في الإنسان ليطرح علاقة ما بين الإنسان والحيوان؟! وهي أسئلة ستجيب عنها السطور القادمة. لكن بخلاف ذلك فإنّ حديث بوكاي عن تأثير المرحلة الجنينيّة على الإنسان مؤثّر ممتدّ عبر سنيّ حياته. ومن ثمّ فإنّ بوكاي يذهب إلى أنّ أيّ تحوّلات معتبرة في مجملها عبر الأزمان ليست إلّا نتيجة عمليّة للتحوّلات الأولى في مرحلة الحنين؛ حيث رحم الأمّ. وقد استند بوكاي إلى علم الوراثة في هذا الأمر[3].

---

[١]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص٢١٦.

[٢]- وتبدو خطورة هذا الطرح في أن أصحاب نظريّة التطوّر ومن والاهم يتّخذون من هذه القضيّة معبرًا للقول بتطوّر الإنسان من السلالة القرديّة الكبرى، وهذا يتعارض كليًّا مع قضيّة خلق الإنسان في أحسن تقويم في القرآن الكريم، انظر في ذلك: برنارد وود، تطوّر الإنسان، ترجمة: زينب عاطف، القاهرة، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٦م، الفصل، ٥، ٦؛ انظر في خطورة ذلك: مايكل دنتون، التطوّر نظريّة في أزمة، ترجمة: آلاء حسكي بالاشتراك، ص١٦؛ مايكل بيهي، صندوق داروين الأسود، ترجمة: مؤمن الحسن بالاشتراك، ص٣.

[٣]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص٢١٦.

لكن من المؤسف حقًّا أن يقحم بوكاي القرآن الكريم في حديثه بدون وجه حقّ، وأن يحمل على القرآن ما ليس فيه من افتراضات لم يقل العلم فيها كلمته إلى الآن[1]، بل إنّ التسليم بها في مناقضة لبعض المبادئ التي أتى بها القرآن كمبدأ التقويم. نعم، كان بوكاي على حقّ عندما قال: «واعتقادي الراسخ هو أنّه من المستحيل كلّيًّا فهم معاني الآيات القرآنيّة المتعلّقة بالإنسان إذا لم نكن ندرك هذه المبادئ التي كُشف النقاب عنها منذ بضع عشرات من السنين. غير أنّنا إذا قابلنا هذه المقاطع من القرآن الكريم مع معطيات علم الوراثة، فإنّنا ندرك تمامًا حقيقة معنى هذه الآيات»[2]. هذا إن كان الأمر يتعلّق بالمرحلة الجنينيّة فقط في رأينا، أما إذا كان يقصد التحوّلات الإنسانيّة عبر العصور، فإنّ في ذلك تحميلًا للآيات بما ليس فيها من الأساس. لكن من الأكيد أنّ بوكاي يتجاوز في مقصده الأمر الأوّل إلى الأمر الثاني، وهو ما صرّح به في أكثر من موضع، ومن هذه المواضع قوله: «وفي هذه الظروف كيف يمكن أن نجد تناقضات بين الأقوال القرآنيّة عن التحوّلات البشريّة عبر العصور، وبين المعطيات العلميّة الثابتة لعلم الإحاثة[3] بصدد الأشكال البشريّة القديمة التي كانت تختلف عن أشكالنا الحاليّة في بعض الخصائص»[4]. وثمّة سؤال يطرح نفسه بقوّة في المقام: هل في القرآن الكريم حديث عن الأشكال البشريّة القديمة التي تعاقبت على البشر حسب اعتقاد بوكاي؟! إذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يأتنا بالآيات التي تشير إلى هذا؟! القرآن الكريم ليس كتابًا في علم الإحاثة أو علم الحفريّات لكي يأتي لنا بما ينسبه بوكاي إليه، وإنّما هو كتاب إنْ أتى بإشارة ما فإنّما يأتي بها للدلالة على القدرة الإلهيّة المطلقة، ومن ثمّ فليس لبوكاي أو لغيره أن يحمّله ما ليس فيه رجاء كسب مشروعيّة لفكرته أو لجذب تعاطف وتهليل الجمهور لها.

---

[١]- ونحن نجد طرحًا قريبًا من طرح بوكاي حول تطوّر الإنسان ومحاولة ربطه بالقرآن الكريم عند الدكتور عبد الصبور شاهين الذي ميّز بين ما أسماه مرحلتي: البشر والإنسان، زاعمًا أنّ آدم أبو الإنسان وليس البشر؛ لأنّ البشر في ظنّه كانوا خلقًا حيوانيًّا أو أقرب إلى الخلق الحيوانيّ، انظر: عبد الصبور شاهين، أبي آدم، القاهرة، مكتبة النافذة، ص٧، ١٦، ٥٦.

[٢]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص٢١٦.

[٣]- علم الإحاثة هو علم المتحجّرات أو الحفريّات أو الأحياء القديمة، يدرس حياة ما قبل التاريخ، انظر: كيث طومسون، الحفريّات، ترجمة: أسامة فاروق حسن، القاهرة، مؤسّسة هنداوي، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م، ص٩-١١.

[٤]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص٢١٦.

وإذا تأمّلنا في الأشكال البشريّة القديمة التي عرض لها بوكاي، والتي يظنّ أنّها تمثّل التحوّلات الإنسانيّة أو التغيّرات التشكّليّة التي مرّ بها البشر عبر التاريخ لتأكّد لنا أنّ بوكاي ينسب للقرآن ما ليس فيه. وهذه الأشكال عنده أشكال متحجّرة التي يعود تاريخها لفترات زمانيّة متباعدة، وهي على النحو التالي:

ـ رجال أستراليا القدامى الذي عاشوا في اعتقاده من ملايين السنين.

ـ رجال نياندرتال الذين عاشوا في اعتقاده من مئة ألف سنة.

ـ إنسان كرو- ماجنون الذي عاش في اعتقاده منذ أربعين ألف سنة، وهذا النوع الذي يزعم بوكاي أنّه يحقّق عمليًّا نوع الإنسان العاقل، الذي يُرجع بوكاي نسبنا إليه[1].

لكن يهمّنا هنا أن نقف على عدّة أمور: الأوّل: هل تعرّض القرآن إلى هذه الأشكال التي ذكرها بوكاي حقًّا؟! والثاني: هل هذه الأشكال عاشت قبل آدم عليه السلام أم بعده؟! ألم يستند أصحاب نظريّة التطوّر على هذه الأشكال في التأكيد على رأيهم المزعوم بتطوّر الإنسان من سلالة القرود؟! فعلى الأمر الأوّل نستطيع أن نقول باطمئنان إنّ هذه الأشكال ليس في القرآن ما يشير إليها كما يحاول بوكاي أن يوهمنا، وعلى الثاني لم يفصح لنا بوكاي عن زمن وجود هذه الأشكال، هل هي قبل آدم أم بعد، لكنّها إن كانت بعد آدم، فهي ستكون من نسله حتمًا، خاصّة أنّ العلماء أشاروا إلى أنّ هذه الأشكال من سلالة الإنسان المنتصب، أمّا إذا كانت قبل آدم، فهي ليست من البشر، بدليل القرآن الذي جعل آدم أبو البشر، وما أرى القائلين بهذا الرأي الآخير إلّا المتمسّكين بنظريّة التطوّر الداروينيّة؛ لأنّه يخدم اتجاههم المزعوم.

لكن من المهمّ أن نكون على دراية بأنّ ما توصّل إليه علماء الحفريّات مجرّد فرضيّات مبنيّة على بعض الحفريّات، ومن ثمّ فلا يتمّ الوثوق بها، فكلّ يوم يكتشف

[1]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص٢١٧.

الجديد الذي ينسف بعض المعلومات والأفكار التي كان يظنّ أنّها ثابتة، ومن ثمّ فإنّ إقحام بوكاي للقرآن في هذا الجوّ الافتراضيّ أمر غير مقبول. وهذا ما انتبه إليه بوكاي عندما قال: «غير أنّني أشدّد أيضًا على الواقع بأنّ ثمّة نواقص معزوة لفقدان البقايا البشريّة خلال حقب تبلغ الأولى منها ملايين السنين، وأنّ أحد أسباب هذه النواقص يمكن أن يكون الواقع بأنّ النوع البشريّ كان بأعداد قليلة في تلك العصور الغابرة»[1].

لكنّ بوكاي يلخّص لنا موقفه النهائيّ من السؤال عن أصل الإنسان في عبارة يقول فيها: «إنّ العلم لم يجلب لنا الدليل بأيّ حال عن مصدر الإنسان انطلاقًا من الأشكال المتطوّرة الحاليّة للقرود، بل على العكس فإنّ كلّ شيء يجابه هذه الفرضيّة القديمة، غير أنّه بالمقابل دلّ العلم في وقت من الأوقات على أنّ نوعًا بشريًّا قد ولد وأنّه تحوّل تدريجيًّا لكي يشكّل الإنسان الحاليّ. ومن وجهة نظر علميّة، فإنّ المسألة تكمن في معرفة نقطة البداية: هل هي سلالة مستقلّة أم أنّها سلالة ننسبها إلى سلالة حيوانيّة أخرى؟ ومهما يكن من أمر فإنّ التطوّر -وهو ما يتيح لنا علم الوراثة أن نقوله اليوم- لم يكن ليحصل إلّا بإضافة معلومات جديدة تتحكّم بظهور تكوينات ووظائف خاصّة بالإنسان، ويمكن أن نتصوّر الظاهرات تمامًا ضمن إطار إنماء قانون الوراثة كما تشير إليه نظريّة التطوّر الخلّاق»[2].

وهذا النصّ أوردناه على طوله؛ وذلك لأهمّيّته، كونه يشكّل ملخّص رأي بوكاي النهائيّ في المسألة، وهو ما يتيح لنا أن نحكم على موقفه من قضيّة أصل الإنسان بإنصاف تامّ. وبناءً عليه يمكننا القول إنّ بوكاي وإن كان يشكّك في انتساب أصل الإنسان إلى القرود، إلّا أنّه لا يمانع من أن تكون نقطة البداية للإنسان حيوانيّة، فلا مانع من أن ينسب الإنسان عنده إلى سلالة حيوانيّة أو إلى سلالة مستقلّة.

موقف بوكاي هنا موقف متمايع في رأيي، فضلًا عن خطئه وخطورته وتناقضه

[١]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص٢١٧.

[٢]- م.ن، ص٢٢٤-٢٢٥.

الصريح مع الأديان، إضافة إلى تناقضه مع القرآن الكريم ذاته الذي يزخر بالآيات التي تتحدّث عن خلق آدم أبي البشر من سلالة من طين على أحسن صورة، وأن نسله من البشر ينسب إليه، وليس في القرآن ما يفسّر التردّد الذي عليه بوكاي من المسألة على الرغم من أنه كثيراً ما يلحّ على أذاننا بأنّه يبيّن التوافق بين العلم والقرآن.

ألم يقرأ بوكاي قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾؟ سورة البقرة، الآيات ٣٠-٣٧.

أم لم يقرأ قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ أنظرني إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا

هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾؟ سورة الأعراف، الآيات ١١-١٩.

أم أنّه لم يقرأ قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾؟ سورة الإسراء، الآيات ٦١-٦٥.

ليته قرأ قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ سورة الإسراء، الآية ٧٠، وليته وقف على معاني التكريم التي يمكن استخلاصها من هذه الآية الكريمة.

والقارئ لهذه الآيات القرآنيّة -وهي قليل من كثير- يدرك كيف كان خلق الإنسان -آدم- خلقًا مستقلًّا عن أيّ خلق آخر من مخلوقات الله تعالى، وأنّ الإنسان من سلالة مستقلّة ذاتيًّا، ولم يكن سلسلة في خلق الحيوان، فلا ينسب إليه، ومن ثمّ فإنّ هذه الآيات تحمل معنى التكريم للإنسان؛ لأنّ الإنسان عندما يدرك أنّه نسل قائم بذاته خلقه الله تعالى على أفضل صورة، فإنّه حينها يشعر بالتكريم الذي كرّمه الله تعالى به، بخلاف ما إذا كان من نسل حيوانيّ متطوّر أو غير متطوّر، فإنّه من المؤكّد أنّه ليس في ذلك ما يدلّ ولو دلالة ضئيلة عن التكريم - تمثّل ردًّا مفحمًا على نظريّة التطوّر وأتباعها في الشرق والغرب، وردًّا مفحمًا أيضًا على ذلك الموقف المتردّد الذي ظهر عليه موقف بوكاي في مواطن كثيرة من دراسته حول أصل الإنسان.

الفَصْلُ الثَّالِثُ

نقد مباني نظريّة التطوّر الداروينيّة

الفصل الثالث

نقد مباني نظريّة التطوّر الداروينيّة

لا شك في أن المحاور الأربعة السابقة تمثل القواعد التي قامت عليها نظريّة التطوّر الخلاق عند بوكاي، وهي النظريّة التي حاول أن يعارض بها نظريّة التطوّر التى أتى بها دارون، إلّا أنه كان على بوكاي أن يبيّن العوار الذي يعتري النظريّة الداروينيّة لكي تظهر نظريّته شديدة الوضوح، وقد أشار بالفعل إلى بعض هذا العوار في معرض حديثه، وقد تطرّقنا في حديثنا إلى شيء منه إلّا أنّنا يمكن أن نخصّص هذه السطور لبيان هذا العوار من وجهة النظر البوكابيّة.

يعدّ بوكاي من أوّل من انتقد الأدلّة التي ساقها أنصار نظرية التطوّر الداروينيّة، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر إثر نشر مبادئ داروين الخاصّة بأصل الإنسان، وما قامت عليه من المماثلة الفجّة بين الإنسان والحيوان[1]. وعلى الرغم من النقاشات التي دارت حولها، إلّا أنّ بوكاي كان يحصرها في دائرة المنازعات، أكثر من كونها مناقشات علميّة معزّزة بالبراهين أو جديرة بأن تحمل على الإقناع[2].

ويعدّ مبدأ الاصطفاء الطبيعيّ[3] الذي قامت عليه نظريّة داروين محطًّا رئيسًا لنقد بوكاي لها ولصاحبها، باعتبار أنّ مبدأ الاصطفاء من هذه الناحية مبدأ يفتقد إلى الدليل العلميّ الحقيقيّ، فهو ليس أكثر من مجرّد خواطر في أذهان معتنقيه لا تفارق مجالها، وليس لها أن تقف على شاطئ العلم. ولهذا نجد أنّ بوكاي-وفي سبيل نقد هذه النظريّة وتفنيدها- اتجه اتجاهين متوازيين: إذ أخذ أوّلًا في اعتباره الوقائع التي يمكن أن يقيمها من خلال المعطيات العلميّة المادّيّة، ثمّ اتجه ثانيًا

---

[١]- أنظر: مايكل دنتون، التطوّر نظريّة في أزمة، ترجمة: آلاء حسكي بالاشتراك، ص١٨، ٢١.
مايكل بيهي، صندوق داروين الأسود، ترجمة: مؤمن الحسن بالاشتراك، ص٧، ١٥.

[٢]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص٢٠٨.

[٣]- وقد انتقد هذا المبدأ العديد من الدارسين الغربيّين أنفسهم، انظر: مايكل دنتون، التطور نظريّة في أزمة، ترجمة: آلاء حسكي بالاشتراك، ص٢١؛ انظر كذلك: مايكل بيهي، صندوق داروين الأسود، ترجمة: مؤمن الحسن بالاشتراك، ص١٧.

إلى البحث عن التفسيرات، ولقد كان مدركًا تمامًا أنّ التفسيرات لا بدّ أن تختصّ بالوقائع ذاتها، وليس بالرأي الذي كُوّن حولها، حتى تكون صالحة وسليمة.

ومن ثمّ فقد انتقد ابتعاد بعض الباحثين عن الوقائع المثبتة بالفعل، وخاصّة ما يتعلّق منها بعلم الإحاثة، وهذا يفسّر لنا اهتمام بوكاي بهذا العلم، فالمعطيات التي يقدّمها هذا العلم كانت معينًا خصبًا لبوكاي لنقد مباني هذه النظريّة. استخرج بوكاي معطيات علم الإحاثة التي اعتمدها من المتحجّرات، وليس من تكوين البنيات الوهميّة كما يقول: «إذ إنّ هذه الأخيرة قادت إلى إبراز إمعات بشريّة تعود لما قبل التاريخ، والتي لا نملك منها سوى أجزاء من جمجمة أو من هيكل عظميّ قليلة جدًا، وأدخلوا خطأ في ذهن المطّلع على الموضوع، بحمله على الاعتقاد بأنّهم يعرفون شيئًا قليلًا أكثر ممّا أظهرته المستندات، وهي بالحقيقة محدودة جدًّا»[1]. وهذا يعني أنّ بوكاي انتقد في نظرية التطوّر من ضمن ما انتقد قضيّة تضخيم الأمور، والانتقال بأشباه الأدلّة إلى مرحلة الدليل الكامل عنوة، ودون مراعاة لقواعد البحث العلميّ، والافتقار إلى الدليل المادّيّ على الملموس على صدق ما يذهبون إليه.

لكن بوكاي لجأ إلى مماثلة تحتاج إلى كثير من التدقيق والنقاش؛ حيث لجأ إلى مماثلة ما كان يمكن أن يحصل في عالم الحيوان في عصور متأخّرة جدًّا، متصوّرًا أنّه لو جعلنا تاريخ الكائن الحي أربعًا وعشرين ساعة، فإنّ الإنسان الحاليّ -من وجهة نظره- لم يكن ليظهر إلّا في جزء من الدقيقة الأخيرة. ويذهب بوكاي إلى أنّ الأحداث الكبرى لتطوّر العالم الحيوانيّ اكتملت منذ عشرات الملايين من السنين، وأنّ تاريخ آخر التحوّلات البشريّة تعود إلى عشرات الآلاف من السنين، ولهذه الأرقام معنى عنده وهو دليل نظام[2]. لكنّنا لا نفهم تحديدًا ماذا يقصد بوكاي بذلك؛ إذ يثير الانتباه في كلامه أمران: الأوّل علاقة تطوّر الإنسان بتطوّر الكائن الحيّ، فما طبيعة هذا العلاقة التي يرتئيها؟! هل تطوّر الإنسان حلقة في تطوّر الكائنات الحيّة؟! أم

[1]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص٢٠٩.

[2]- م.ن، ص٢٠٩.

حلقة في تطوّر الكون ككلّ؟ والثاني طبيعة التحوّلات البشريّة التي تعود في رأيه إلى عشرات الآلاف من السنين، وهل تتّفق هذه التحوّلات مع مبدأ التقويم الإنسانيّ الذي وضعه الله تعالى أم تخالفه؟! فهذان الأمران -إضافة إلى طبيعة مفهوم بوكاي عن الأصل الإنسانيّ بالكلّيّة- شديدا الغموض شديدا الاضطراب في مشروع بوكاي عن القراءة العلميّة للقرآن الكريم.

وعلى الأمر الأوّل فإنّ موقف بوكاي من قضيّة أصل الإنسان لا يختلف في شيء عن مفهوم داورين وإن كان من اتجاه آخر، لكن هذا الرأي من الناحية النظريّة بحسب تأكيدات بوكاي ذاته مرفوض، وإن كان يقود تسلسل آرائه تطبيقيًّا إلى عكس ما كان يرفضه نظريًّا؛ لأنّ دراوين تمسّك بفرضيّة أنّ تطوّر الإنسان كان من داخل منظومة التطوّر الحيوانيّ، في حين يشير بوكاي إلى أنّ الإنسان حلقة من حلقات تاريخ تطوّر الكائن الحيّ، بل هو الجزء الأخير في هذا التطوّر، فهل هناك اختلاف بين الرأيين؟ لا أظنّ، بل ما أظنّه أنّ موقف بوكاي يقود في النهاية إلى النتيجة نفسها التي انتهى إليها داروين، وإن اختلفت الأطر التي وُضعت فيها.

فهناك إذن تسلسل في الأحداث من وجهة نظر بوكاي تقود إلى هذا التطوّر، وقد عدّ هذا التسلسل مبدأ تقود إليه علوم الإحاثة والحيوان والنبات والأجنّة، يقول بوكاي: «إنّ تسلسل الأحداث والسير نحو التعقيد وتوقّف الظاهرات، كلّ هذه المبادئ التي حملت عليها علوم الإحاثة والحيوان والنبات والأجنّة معطيات هي أساسيّة، وتستدعي معرفتها التفصيليّة تنقيبًا على جانب كبير من الأهمّيّة، وقليل هم أولئك الذين يحصلون عليه، وكثير هم أصحاب النظريّات الباهرة الذين يجهلونها»[1].

ولكن هل تقود هذه العلوم حقيقةً إلى شيء من هذا؟ أم هل تقود هذه العلوم بالاشتراك مع البيولوجيا الجزئيّة وعلم الوراثة كما يعتقد بوكاي إلى تقديم قرائن وأدلّة لا يرقى إليها الشكّ في هذا الموضوع؟! إنه يذهب إلى أنّ العلمين الأخيرين

[١]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص٢٠٩.

يقدّمان معلومات حول تنظيم الحياة الخلويّة، والتي بدورها تلقي أضواء جديدة تنير الطريق نحو تطوّرٍ أوصل إلى الإنسان الكامل من وجهة نظره[1]. فهل كان الإنسان ناقصًا ثمّ انتهى إلى مرحلة الكمال؟! ألا يتعارض ذلك مع خلق الإنسان في أحسن تقويم؟!

ويمكننا القول إنّ بوكاي كان يتصوّر تطوّرًا خلّاقًا، مستندًا إلى هذه العلوم، ما أتاح له تخيل قضيّة أصل الإنسان، وهذا ما لا ينكره بوكاي، بل يؤكّد عليه قائلًا: «ورأينا بأنّ التصوّر للتطوّر الخلّاق كان يتيح تخيّل سياق التقدّم الذي تأخذه بالحسبان، في الوقت الذي تبدو فيه تصوّرات أخرى لا تأخذ إلّا شيئًا قليلًا بالوقائع التي نحاول تفسيرها غير معقولة من أجل هذا السبب؛ إذ إنّ هذا هو حال الصدفة والضرورة»[2].

فهل يحقّ لنا اتخاذ موقف من قضيّة دينيّة وعلميّة بناءً على تخيّل؟! قد يُقال إنّ بوكاي استند إلى وقائع، بيد أنّ هذه الوقائع إن كانت مؤكَّدة لما احتاجت إلى تخيّل أو توقّع، فالتخيّل أو التوقّع شيء، والعلم والتنبّؤ بالعلم شيء آخر. فقد بنى بوكاي أحكامه على تصوّرات وافتراضات أكثر من الحقائق المشاهدة، ونحن نستطيع أن نستخلص اعترافًا مهمًّا لبوكاي في هذا الأمر عندما يقول: «وقد بنينا من هذا المنظور نظريّات ترتبط بالنظام الميتافيزيقيّ لبعض الكتّاب أكثر مما تنبثق من حقائق مشاهدة، والحال لقد وصلنا إلى صياغة تصوّرات تحاذي تمامًا ما هو عليه الإنسان»[3]. فضلاً عن أنّنا لا نلتمس عند بوكاي أدلّة علميّة على افتراضاته، باستثناء ما يتعلّق منها بالأمور الجينّية والجنينيّة داخل الرحم وتأثيره في التشكّلات الإنسانيّة مستقبلًا، لكن الفرضيّات الأخرى التي ساقها بوكاي حول نظريّته في أصل الإنسان كردّ على نظريّة داروين ليست إلّا فرضيّات لا ترقى من وجهة نظرنا إلى مستوى الدليل، وليت بوكاي قد وقف عند المادّة التي يقدّمها له القرآن الكريم، فقد كان فيها ما يشفي غليله.

---

[1]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص٢٠٩.

[2]- م.ن، ص٢٠٩.

[3]- م.ن، ص٢٠٩.

نعم، قد يُقال إنّ هناك تطوّرًا في عالم الحيوان، فثبوت هذه الفرضيّة من عدمها لن يضيرنا بشيء، لكن القول بتطوّر الإنسان يحمل في طيّاته أبعادًا أخرى، خاصّة فيما يتعلّق منها بمعارضة القرآن الكريم. وأظنّ أنّ بوكاي استند في هذا الأمر إلى حقيقة أريد بها باطل، أو اتخذ من مبدأ قرآنيّ نتيجة معاكسة لما يريدها هذا المبدأ ذاته. نعم، لو أنّ الله قد عزم بقدرته العالية أن يوجد على الأرض زوجًا من كائنات جديدة، وأنّ هذا الزوج من الكائنات ستكون له خصائص تشريحيّة وقدرات عمليّة قريبة من تلك التي تتمتّع بها كائنات غيرها، وتعيش في بيئة مماثلة أو تكاد، لكن بوكاي يبني على ذلك نتيجة مؤداها: «وبعد خلق هذين الكائنين سيكون أصل سلالة بشريّة تتعرّض في غضون أزمان طويلة تمتدّ على ملايين السنين لتحوّلات جسديّة كالتي أظهرتها معطيات علم الإحاثة بدون أدنى شكّ، والإنسان الذي خلقه الله سيكون إذن، وكما أشار إلى ذلك القرآن الكريم، قد تطوّر وأصبح على صورته الحاليّة، وبالإضافة إلى ذلك فإنّ النصّ القرآنيّ يشير إلى زوال مجموعات بشريّة، وإلى إعادة الإعمار عن طريق عناصر مولودة من مجموعات أخرى مع خصائص تشكّليّة مشابهة لتلك المتأتّية منها، وسيصبح النموذج البشريّ حاصلَ هذه الظاهرات والأحداث»[1].

والخطورة المترتّبة على النتيجة التي انتهى إليها بوكاي هنا تتلخّص في أنّها تعدّ ضربًا لحقيقة قرآنيّة تتعلّق بخلق الإنسان في أحسن تقويم، وليس معنى أنّ بوكاي يشير إلى تحوّلات جسديّة أن الأمر هنا هيّن؛ لأنّ بوكاي أوّلًا لم يشر من قريب أو من بعيد إلى مدى هذه التحوّلات -على الرغم من حديثه سابقًا عن رجال أستراليا القدامى ورجال نياندرتال- فقد تكون في طبيعة الجسم من حيث الطول والقصر أو من حيث القوّة والضعف، وقد تتعلق بقضيّة التقويم، فيتصوّر انحناءً -لا استقامة- كما في الحيوان، وهنا تكمن الخطورة؛ لأنّها تمس مبدأً قرآنيًّا وتخالفه بالكلّيّة.

أمّا زعم بوكاي بأنّ أصل فكرته هنا هو القرآن فهو قول مخالف وتحميل على النصّ ما ليس فيه، وإلّا فليأت بوكاي من القرآن ما يدلّ على زوال مجموعات

[١]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص٢١١.

بشريّة كثيرة كما يقول -علمًا بأنّ القرآن أشار إلى زوال صنف واحد عند غرق قوم سيّدنا نوح، الذي نجّاه الله تعالى وأهله والمؤمنين، في دلالة على أنّه حتّى أن الصنف الذي أزيل لم يزُل كليّة وإنّما بقي جزء منه حيًّا؛ حتى تنشأ ذرّيّة منهم تعبد الله تعالى- وإلّا فليأت لنا بوكاي من القرآن بما يشير إلى إعادة الإعمار عن طريق عناصر مولودة من مجموعات أخرى متشكلة ومتدرجة حتى وصل الإنسان إلى ما أسماه النموذج البشريّ النهائيّ الذي هو في ظنّه حاصل هذه الظواهر والأحداث.

يعمد بوكاي إلى تفسير قول الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ (سورة الأنعام، الآية ١٣٣) تفسيرًا مغايرًا؛ حيث إنّه يحمّل النصّ القرآنيّ معانيَ ودلائلَ غير موجودة فيه. فسياق الآية كما هو واضح لا يتحدّث من قريب أو من بعيد عن مجموعات أخرى ذات تشكّلات معيّنة كالتي حاول بوكاي أن يوحي بها، وليس فيها ما يشير إلى تطوّر تشكّليّ للإنسان خارج الرحم حتّى وصل إلى ما يسمّيه بوكاي النموذج البشريّ النهائيّ أو الكامل. إنّنا إذا تأمّلنا سياق الآية، لوجدنا أنّ الله يتحدّث عن غناه عن العالمين وعدم افتقاره إلى الخلق. ولو أنّ بوكاي وضع النصوص القرآنيّة أمامه لعلم خطأ ما توصّل إليه، بل إنّه لو رجع إلى التفسيرات القديمة للقرآن الكريم، لوجد أنّ الأمر مخالف لما ذكر من أحكام تفتقر إلى الدليل. فالمتأمّل في أقوال المفسّرين في هذه القضيّة يجدها تتوافق مع النصوص القرآنيّة الأخرى. يقول الطبريّ: «إن يشأ ربُّك، يا محمّد، الذي خلق خلقه لغير حاجة منه إليهم وإلى طاعتهم إيّاه... يهلك خلقه هؤلاء الذين خلقهم من ولد آدم ويستخلف من بعدكم ما يشاء، يقول: ويأت بخلق غيركم وأمم سواكم، يخلفونكم في الأرض من بعدكم، يعني: من بعد فنائكم وهلاككم كما أنشأكم من ذرّيّةِ قوم آخرين، كما أحدثكم وابتدعكم من بعد خلق آخرين كانوا قبلَكم»[1].

ويقول الطباطبائيّ في تفسير الآية: «فهو الغنيّ الذي لا تمسّه حاجة ولا يعرضه فقر، وذو الرحمة المطلقة التي ينعم بها على كلّ شيء بما يليق بحاله، فلا يظلم

[١]- الطبري، تفسير الطبري، الأنعام/ ١٣٣.

سبحانه أحدًا.. ومعنى الآية: وربّك هو الذي يوصف بالغنى المطلق الذي لا فقر معه ولا حاجة، وبالرحمة المطلقة التي وسعت كلّ شيء، ومقتضى ذلك أنّه قادر على أن يذهبكم بغناه ويستخلف من بعدكم ما يشاء من الخلق برحمته، والشاهد عليه أنّه أنشأكم برحمته من ذرّيّة قوم آخرين أذهبهم بغناه عنهم»[1].

ومن الواضح أنّ القضيّة هنا تتعلّق بالتهديد، وبتحذير المؤمنين من المعصية وتذكيرهم بأنّهم من ذرّيّة أمّة مؤمنة نجت من الطوفان، وأنّ الله تعالى قادر على أن يستبدل بهم غيرهم يكونون على الطاعة والإيمان، وما ذلك على الله تعالى بعزيز، فأين إذن ما حاول بوكاي أن يحمّله الآية الكريمة؟! وأين السلالات البشريّة المتعاقبة التي تطوّرت بفعل ملايين السنين حتى وصلت إلى الإنسان الكامل؟!

ويقول الطاهر بن عاشور: «والتشبيه في قوله: كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين تشبيه في إنشاء موجودات بعد موجودات أخرى، لا في كون المنشئات مخرجة من بقايا المعدومات كما أنشأ البشر نشأة ثانية من ذرّيّة من أنجاهم الله في السفينة مع نوح عليه السلام، فيكون الكلام تعريضًا بإهلاك المشركين ونجاة المؤمنين من العذاب» [2].

ويضيف قائلًا: «ووصف قوم بـ آخرين للدلالة على المغايرة؛ أي: قوم ليسوا من قبائل العرب، وذلك تنبيه على عظيم قدرة الله تعالى أن ينشئ أقوامًا من أقوام يخالفونهم في اللغة والعوائد والمواطن، وهذا كناية عن تباعد العصور، وتسلسل المنشآت؛ لأنّ الاختلاف بين الأصول والفروع لا يحدث إلّا في أزمنة بعيدة، فشتّان بين أحوال قوم نوح وبين أحوال العرب المخاطبين، وبين ذلك قرون مختلفة متباعدة» [3].

وقال الإمام فخر الدين الرازي في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ﴾ يعني من بعد إذهابكم لأنّ الاستخلاف لا يكون إلّا على طريق البدل من فائت. وأمّا

[١]- السيّد الطباطبائيّ، تفسير الميزان، ج ٧، ص٣٥٦.

[٢]- محمّد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج٨، ص٨٧.

[٣]- محمّد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج٨، ص٨٧.

قوله: ﴿مَا يَشَاءُ﴾ فالمراد منه خلق ثالث أو رابع واختلفوا فيه، فقال بعضهم: خلقًا آخر من أمثال الجنّ والإنس. قال القاضي: وهو الوجه الأقرب لأنّ القوم يعلمون بالعادة أنّه تعالى قادر على إنشاء أمثال هذا الخلق، فمتى كمل خلق ثالث ورابع أقوى في دلالة القدرة، فكأنّه تعالى نبّه على أنّ قدرته ليست مقصورة على جنس دون جنس من الخلق الذين يصلحون لرحمته العظيمة التي هي الثواب فبيّن بهذا الطريق أنّه تعالى لرحمته بهؤلاء الأقوام الحاضرين أبقاهم وأمهلهم، ولو شاء لأمَاتَهم وأفناهم وأبدل منهم سواهم، ثمّ بيَّن الله تعالى قوّة قدرته على ذلك فقال: ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ لأنّ المرء إذا تفكّر علم أنّه تعالى خلق الإنسان من نطفة ليس فيها من صورته قليل ولا كثير، فوجب أن يكون ذلك بمحض القدرة والحكمة، وإذا كان كذلك فكما قدر على تصوير هذه الأجسام بهذه الخاصّة، فكذلك يقدر على تصويرهم خلقًا آخر مخالفًا لها، هذا آخر كلامه[1].

ويمكن القول إنّ بوكاي يحاول أن يُصبغ من خواطره على القرآن الكريم، فالآراء الافتراضيّة غير المبنيّة على جزء من الحقيقة لا الحقيقة كلّها لا يمكن أن نطلق عليها إلّا أنّها خواطر، بدليل أنّ بوكاي ليس في مقدوره ولا في مقدور غيره أن يأتينا بالأدلّة التي تؤكّد صحّة هذه الآراء، الأمر الذي يجعلنا نصدر حكمنا بسهولة بأنّها أقرب إلى الخواطر لا العلميّة.

بل إنّ الرأي الذي جاء به بوكاي تفسيرًا للمسألة -فضلًا عن كونه يتّسم بالغموض- يحوطه الاضطراب والتناقض؛ لأنّه في الوقت الذي يرفض فيه بوكاي فكرة تطوّر الإنسان من سلالة القرود كما زعمت بذلك نظريّة التطوّر الداروينيّة، يعود فيأتي برأي قريب مما قالت به هذه النظريّة. ويمكن أن نعرض هنا لنصّ يؤكّد ذلك يقول فيه بوكاي: «إنّ نظرة كهذه إلى أصولنا ستتوافق مع المبدأ العام لخلق الإنسان من قبل الله، ووفقًا للشكل الذي اختاره له مع جميع إتقانات البنية، والذي رأيناه يظهر خلال الأزمان عند جميع الكائنات الحيّة، ومنها سلالة المقدّمات البشريّة والقرديّة، وعلى رأسها القرود الكبيرة، وسيكون الإنسان قد خُلق في هذه

---

[١]- أنظر: عبد الرحمن بن محمّد القماش، الحاوي في تفسير القرآن الكريم جنّة المشتاق في تفسير كلام الملك الخلاق، طبعة ٢٠١٩، ص٦٦٨٨.

الحالة بتشكّليّة قريبة من تلك العائدة لمجموعة هذه الكائنات الحيّة، وهكذا فإنّ التقارب المتحقّق منها عن طريق مراقبات علماء الطبيعة بين الإنسان والحيوانات القريبة منه من حيث التكوين ستفسّر بطريقة منطقيّة جدًّا هذه المماثلات»[1].

ويحمل هذا النصّ أمرين في غاية الخطورة:

الأوّل: أنّ الإنسان قريب من حيث التشكّل من القرود، وهذا الأمر من الخطورة بمكان؛ بحيث يقترب كثيرًا من الرأي الذي قال به داروين، فما الفرق بين أن يقول داروين إنّ الإنسان تطوّر من سلالة القرود[2]، وبين ما يقوله بوكاي من أنّ هناك تقاربًا متحقّقًا بين الإنسان وسلالة القرود، وأنّ الإنسان خُلق في البداية بتشكّل قريب من تشكل سلالة القرود الكبيرة، بمعنى أنّه يرى ضمنيًّا أنّ خلق الإنسان يعدّ تطوّرا في التشكّل للقرود السابقة عليه، وهذا يقود لا محالة -فضلًا عما يصيب القارئ فيه من التشكّك- بأنّه ينتهي بتطوّر الإنسان، وإن لم يصرّح بأنه تطوّر من سلالة القرود، فإنّ رأيه لا يقود في النهاية إلى غير ذلك.

الثاني: وإذا افترضنا أنّه يرى أنّ خلق الإنسان تطوّر بدءًا من سلالة قريبة من سلالة القرود، وإذا ربطنا بين رأيه هنا وبين ما انتهى إليه سابقًا من أنّ الإنسان وصل إلى صورته النهائيّة عبر ملايين السنين، فإنّ هذا في النهاية يعني أنّ بوكاي ينفي مبدأ التقويم الإنسانيّ الذي خلق الله تعالى عليه الإنسان[3]، خاصّة وأنّ بوكاي لا يقف في مفهومه للتطوّر الإنسانيّ عند حدود الوظائف كالتنفّس والهضم وغيرها، وإنّما يتعدّاه إلى تطوّر في الشكل والتشكّل. وهذا من أقوى الأدلّة على خطأ ما ذهب إليه بوكاي.

ويكفي أن نعرف أنّ بوكاي كان يرى هذا التقارب أو التشابه في الشكل والوظائف، هذا يعني أنّه كان يرى أنّ الإنسان -من حيث الشكل- أقرب إلى القرود من أيّ شيء آخر، ولا أدري ما الذي جعل بوكاي يصدر مثل هذا الحكم؟! هل لأنّ

[1]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص٢١٢.

[2]- انظر: تشارلز داروين، أصل الأنواع، ترجمة: مجدي محمود المليجي، ص٤٩، ٥٤.

[3]- وهذا المبدأ فضل عناية بهذا المخلوق المكرم، وإشارة إلى أنّ له شأنًا عند الله تعالى، وأنّ له وزنًا في نظام الكون. انظر: يوسف الحاج أحمد، موسوعة الإعجاز العلميّ في القرآن الكريم والسنة المطهّرة، دمشق، مكتبة ابن حجر، الثانية، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ص١٤٢.

له القدرة على السير على قدميه - بخلاف قدرته على السير على أربع؟! أم لأنّه وجد في وجهه ما يشبه وجه الإنسان؟ وهل في ذلك مطيّة للقول بوجود تقارب؟! ألم يدرِ بوكاي أنّ رأيه هنا سوف يقود في النهاية إلى نظريّة قريبة من تلك التي قال بها داروين قبله، فيكون بفعله هذا كمن يؤكّد الشيء من حيث أراد أن ينفيه؟! يقول بوكاي: «هذه المماثلات فيما يتعلّق بعلم التشكّل وبعض الوظائف بين الإنسان والقرود الكبيرة -والتي لا ينكرها أيّ شخص- ستكون إذن ضروريّة بالنسبة للإنسان الذي يعيش حكمًا في ظروف البيئة.. البيئة الأرضيّة مع الظروف الجغرافيّة، وكان يلزم للإنسان جهاز تنفسيّ مماثل لجميع الحيوانات الأخرى التي تستخدم أكسجين الهواء، وجهاز هضميّ يؤمّن التغذية بدءًا بما تعطيه الأرض، أو بما يحصل عليه من لحوم حيوانات أخرى التي يتعلّق بها الإنسان بالطريقة نفسها لهذه الحيوانات»[1].

الغريب أنّ بوكاي الذي لم يصرّح لنا تفصيلًا ببعض المظاهر التشكّليّة بين الإنسان والحيوان، وخاصّة القرود الكبيرة في سبيل تأكيده على وجود علاقة غير منطقيّة من وجهة نظرنا بينهما، يصرّح ببعض المظاهر الوظائفّية بينهما كوظائف التنفّس والهضم وغيرهما، وعلى الرغم من ذلك فإنّ حديثه عن التشابه أو التقارب يعدّ عامًّا، وليس منصبًّا على طرفي المقابلة التي حدّدها قبلًا، وهما الإنسان والقرد؛ حيث إنّه عند حديثه عن هذه الوظائف تحدّث عن وظائف يشترك فيها جنس الحيوان بدون استثناء، ولم يتطرّق إلى خصّيصة واحدة تؤيّد التقارب الوظائفيّ بين الإنسان والقرد حتّى يبيّن لنا الأبعاد الوظائفيّة التي استند إليها في القول بالتطوّر الذي يعنيه.

يتحدّث بوكاي هنا عن وظائف عامّة يشترك فيها الإنسان مع الحيوان، لكي تكون لهما القدرة والاستطاعة على العيش على الأرض. لكنّ الغريب أنّ بوكاي الذي خطّأ أولئك النفر الذين اتخذوا من هذا التقارب -في رأيه- مدعاة للقول بانحدار الإنسان من سلالة القرود الكبيرة[2]، على الرغم من أنّه سار في نفس تيارهم وإن اتخذ اتجاهًا آخر، لكنّه يقود في النهاية إلى النتيجة ذاتها، أو إلى نتيجة قريبة منها، لكن الاختلاف الوحيد بينهما هو أنّ نظريّة التطوّر لا تؤمن بوجود الله

---

[١]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص٢١٢.

[٢]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص٢١٢.

تعالى، في حين أنّ التطوّر عند بوكاي مصدره إلهيّ، بمعنى أنّ التحوّلات والتشكّلات التي يؤمن بها يجعل مردّها إلى الخالق[1].

لكنّ السؤال الذي يطرح نفسه بقوّة هنا: هل يملك بوكاي دليلًا على ما ذهب إليه؟! لا يملك بوكاي أيّ دليل على صدق كلامه، وإنّما كلّ ما اعتمد عليه مجرّد افتراضات أو خواطر لا ترقى بحال إلى مستوى الدليل، حيث إنّ كلّ كلام يفتقر إلى الدليل هو والعدم سواء.

ومن تلك الخواطر أو الافتراضات التي يقدّمها لنا بوكاي وتفتقر إلى الدليل زعمه بأنّ الإنسان نتيجة سلالات عدّة للبشريّات الأولى المتقاربة -فضلًا عن أنّه لا ينفي في الوقت ذاته أن يكون ناتجًا عن سلالة واحدة- لكنّها مستقلّة الواحدة عن الأخرى، وعن طريق هذه السلالات في رأيه انبثقت فئات بشريّة مكتملة تحت تأثير تحوّلات وراثيّة معيّنة مردّها إلى الخالق. لكن على الرغم من إدخال بوكاي الذات العليّة في موضوعه، لكن يبقى الاعتراض على قضيّة التشكل والتطوّر ذاتها، حتّى لو تشبّث بوكاي بعلم الإحاثة والعلوم الطبيعيّة؛ لأنّها في التحليل الأخير لا تقيم لنا دليلًا منطقيًّا أو علميًّا أو عقليًّا عن النظريّة التي يؤمن بها ويطرح فرضيّاتها.

وكان بوكاي ذاته يؤمن إيمانًا أكيدًا بأنّ كلّ أفكاره التي طرحها في هذه القضيّة محض افتراض؛ وليس له أيّ دليل أو سند علميّ، حتّى أنّه ليشكّك في صدق فرضيّته حول السلالة الواحدة للبشريّة التي قال بها والتي أشار فيها إلى التحوّلات التي أصابتها من وجهة نظره، وهذا ما أكّده بقوله: «إنّ القدرة الخلّاقة لله لم تكن لتتجلّى في هذه الظروف على مستوى سلالة مستقلّة مفترضة؛ حيث إنّ أيّ بقيّة متحجّرة لم تُكتشَف بعد، ويستتبع ذلك بأنّ أيّ برهان علميّ لا يؤيّدها بشكل قاطع؛ إذ إنّ معارفنا الحاليّة تجعلنا نعتبر فقط بأنّه لا توجد استحالة لأن تجعل هذا الظهور للإنسان يحدث بهذا الشكل»[2]. هذا يعني أنّ بوكاي يعترف اعترافًا صريحًا أنّ رأيه في تطوّر السلالة البشريّة مجرّد فرضيّة تفتقر إلى الدليل العلميّ

[1]- وهي الفكرة ذاتها التي انطلق منها عبد الصبور شاهين، أنظر: عبد الصبور شاهين، آبي آدم، ص٢٣.

[2]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص٢١٣.

حتى الآن[1].

لكنّ الأكثر خطورة والذي يدلّ على موقفنا من أنّ قضيّة التطوّر الإنسانيّ التي قال بها بوكاي تشعرنا بأنّها تقترب من قضيّة التطوّر الداروينيّة أنّ بوكاي يقرّ بأنّ فرضّية داروين فرضيّة مقبولة بالنسبة له إذا ارتبطت بالدليل، وهذا يتنافى مع قضيّة أصل الإنسان التي ضمّنها مشروعه العام في التوافق بين القرآن والعلم الحديث. يقول بوكاي: «وسأذهب حتى إلى القول بأنّه إذا كانت أصول السلالة بفضل دليل ثابت مرتبط يومًا ما -وهذا ما يبدو غير متوقّع على الإطلاق- بانحدار من أصل حيوانيّ، فإنّ القدرة الإلهيّة التي تمنحه بطريقة خلق جديدة للمعلومات لطباع بشريّة مع إمكانيّاتِ ذاتِها للتطوّر نحو الإنسان الكامل، فإنّ ذلك سيبدو لي متوافقًا كلّيًّا مع جميع المعطيات المجموعة هنا»[2].

فبوكاي من حيث أراد إثبات القدرة الإلهيّة نفى الحكمة الإلهيّة في خلق الإنسان، وأقرّ فرضيّة داروين مع وجود الدليل، مع علمه المسبق بأنّه لا دليل عليها، وتلك في ظنّي سقطة كبيرة من بوكاي؛ لأنّها تكشف عن تهاون بوكاي في موقفه مقابل إظهار القبول لفرضيّة لا أساس لها من الصحّة. وحتّى لا يظهر موقفه بموقف المتناقض ويبتعد عن التوجّه الإلحاديّ في نظريّة التطوّر أقرّ بما هو غير منطقيّ، فذهب إلى أنّ الإنسان لوكان من سلالة القرود لمنحه الله تعالى طباعًا بشريّة قابلة للتطوّر نحو الإنسان الكامل، وكأنّه ظنّ بذلك أنّه تغلّب على قضيّة الصدفة والفوضى التي اصطبغت بها نظرية التطوّر عند داروين، وهذا في التحليل الأخير يتضمّن تناقضًا شديدًا مع قضيّة التقويم الإنسانيّ التي خلق الله تعالى عليه الإنسان. ومن ثمّ ندرك أنّ بوكاي جرّ نفسه إلى مورد خطير بجدليّاته ومماحكاته، وكان بغنًى عن ذلك كلّه!

وعلى الرغم من ذلك فإنّ بوكاي تدارك الأمر، فقال في نهاية حديثه: «وبالعكس،

[١]- وهذا ما مقال به عدد من المفكّرين العرب والغربيّين، انظر على سبيل المثال:

شمس الدين آل بلوت، داروين ونظرية التطوّر، ترجمة: أورخان محمّد علي، القاهرة، دار الصحوة، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ص١٠١.

محمّد فريد وجدي، الإسلام في عصر العلم، ٨٠٥.

وليان ديمبسكي وجوناثان ويلز، تصميم الحياة، ترجمة: مؤمن الحسن، ص٢٢٦.

[٢]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص٢١٣.

إذا كنّا نعتبر بأنّ خلق النوع البشريّ قد حدث بمعزل عن كلّ سلالة موجودة سابقًا؛ ليتعرّض بالتالي للتحوّلات التي تحدّثنا عنها سابقًا، فلن يسعنا إقامة ضدّ هذا الافتراض أقلّ اعتراض متأتيًّا من الوحي القرآنيّ»[1]. ثمّ يعود فيؤكّد قائلاً: «ومهما كانت الفرضيّة التي نبديها، فإنّ المفهوم الشامل للخلق المنصوص عليه في الكتب السماويّة للأديان التوحيديّة لا يبدو أنّه سيشكل عدم توافق مع معطيات العلم»[2]. إذن فما الذي منعه من التصريح بذلك والعمل عليه في سبيل إثبات قضيّته بديلًا عن التفريعات والجدليّات التي قامت عليها فرضيّاته الكثيرة؟!

نقد قانون الصدفة الداروينيّ

ولئن كنّا قد أخذنا على بوكاي بعض المآخذ، إلّا أنّها في الغالب مآخذ تتعلّق بولوجه إلى بعض التفصيلات الجدليّة التي أوقعته فيما انتقد غيره من أجله، إلّا أنّ ذلك لا يعني أنّ بوكاي كان كداروين الذي انتهى إلى مبدأ الصدفة وأنكر وجود الله تعالى في سفور إلحاديّ واضح[3]. فقد أنكر بوكاي مبدأ الصدفة الداروينيّ واعتبره مبدأً خاطئًا، فضلًا عن أنّ التسليم به هو إقرار واضح بالإلحاد؛ لأنّه يلزم منه إنكار وجود الله تعالى.

من هنا انتقد بوكاي مبدأ الصدفة، ويبتني نقده على ما يشاهده في الكون من دقّة وتنظيم وانسجام بين أجزاء الكون قاطبة، وبين ما أسماه تطوّر الكائن الحيّ باعتباره حالة خاصّة للتطوّر الشامل للكون. وقد استند بوكاي على مجموعة من البحوث المعمّقة التي أجريت بدون قصد ميتافيزيقيّ غامض، والتي تدلّ بدون أدنى شكّ على وجود نظام يمثّل قانون يحكم ظواهر الطبيعة، «وتكشف دراسة عالم الأحياء عند أصغر الأجسام التي تشكّل وحدات تشريحيّة وعمليّة، أي الخلايا بقدر ما في الأجسام ذات المستوى التنظيميّ البسيط جدًّا عن نظام مدهش في التكوينات على مستوى الجزيئة، غير أنّ الجزيئة نفسها الجامعة للذرّات هي ذات تعقيد كبير أيضًا، والذرّات نفسها لها تكوين؛ بحيث إنّ تحليل الفيزيائيّين لها لا يفتأ

---

[1]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص٢١٣.

[2]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص٢١٣.

[3]- انظر: تشارلز داروين، أصل الأنواع، ترجمة: مجدي محمود المليجي، ص٥٦.

منذ عشرات السنين يدلّ كذلك على التعقيد اللامتناهي في أصغر شيء»[1]. وهذا إن دلّ فإنّما يدلّ على دقّة صنع الله تعالى في كونه، وعلى التنظيم والانسجام والدقّة الواضحة، ويظهر هذا الإبداع بصورة خاصّة في عالم الأحياء، بدءًا من الخلايا بما تنطوي عليه من تعقيد وإبداع في الوقت ذاته. وهذا دليل قويّ على انتفاء الصدفة التي أقام عليها داورين نظريّته. «ولن يكون وجود للمنطق لو أنّنا تمسّكنا أمام واقع الأشياء بأنّ الصدفة هي التي لحسن الحظ نظّمت التكوينات، أو أنّها بالنسبة للكائن الحيّ الذي تطوّر هي الإضافة الثابتة للمعلومات الخلّاقة من جديد التي تكشف عن الضرورة أو عن الاصطفاء الطبيعيّ على طريقة داروين المقرّب اليوم إلى الأفهام بواسطة الاعتبارات العالمة من قبل الداروينيّين الجدد، وأمام ما هو كبير للغاية والكائن الحيّ، وما هو صغير جدًّا للغاية، وإزاء عجز العلم عن مصدر هذا التنظيم المذهل، كيف لا يسعنا الإدراك أنّه علينا أن نلجأ إلى اعتبارات من طبيعة مختلفة؛ إذ إنّها هي المعطيات المادّيّة ذاتها التي توحي بها»[2].

كما أنّ بوكاي يوجّه نقده لنظريّة التطوّر الداروينيّة بناء على استقراءات علميّة وتساؤلات علميّة وعقليّة في آن واحد، فالنظريّة الداروينيّة لا تستطيع تحديد الزمن أو الوقت الذي حصل في التطوّر أو التحوّل المزعوم، أو عن الماهيّة التي اكتمل بها منطلقًا منها؛ لأنّ طرق تحقيق هذا التحوّل يغيب عن الأذهان. ومن ثمّ فإنّ البديل عنده هو المفهوم الشامل لخلق الله؛ لأنّه يكشف في اعتقاده التطوّرَ الذي سيصل في النهاية إلى كائن حيّ جديد[3]. لكنّنا وقفنا على العوار الذي ينطوي عليه فهم بوكاي لهذا المفهوم؛ إذ فهمه بوكاي خطأً، كما وقفنا على العوار الذي ينطوي عليه فهمه لقضيّة التطوّر في بعض أجزائها وتفصيلاتها.

لكن بوكاي كان يلوم أولئك النفر الذين وقفوا عند حدود نظريّة التطوّر والتزموا بها، على الرغم من أنّ الكثير من الشواهد والأدلّة العلميّة والدينيّة التي تؤكّد على خطأ أصحابها وتابعيهم، ومن ثمّ كان منهج بوكاي قائمًا في الغالب على

[1]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص٢٢٤.

[2]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص٢٢٤.

[3]- م.ن، ص٢٢٥.

عمل مواجهة بين الوقائع العلميّة والتعاليم الدينيّة؛ كونها تحمل الفلاسفة، ممن لديهم القدرة والكفاءة في رأيه، على مجابهة هذه المعطيات بالحقائق العلميّة المتزايدة[1]، والتي حتماً سوف تأخذهم إلى أفكار وآراء علميّة تناقض ما قامت عليه نظريّة التطوّر عند داروين.

فضلًا عن أنّ بوكاي انتقد قانون الصدفة الداروينيّ وما قامت عليه نظرية التطوّر ككلّ لجهله بأمرين: الأوّل مضامين الأديان التوحيديّة، والثاني المعلومات الحديثة عن الجينات؛ ولذا يقول متسائلًا في استنكار: «وهل كان داروين قد دافع في كتابه أصل الأنواع عن ذات الأفكار بفعل المعلومات الحديثة عن الجينات؟! بالنسبة لي فأنا أدافع عن ذلك: كم هي فقيرة المعطيات العلميّة التي استندوا إليها في استنتاجاتهم النهائيّة إذا ما قورنت بالغنى الكبير للمعرفة الحديثة عن الموضوعات ذاتها»[2].

لقد وجد بوكاي في العلم ما يقوي به وجهة نظره في مشروعه في القراءة العلميّة، وقد ظهر ذلك جليًّا في محاور هذه القراءة، ومنها المحور الخاصّ بأصل الإنسان؛ إذ إنّ العلم أو المعرفة العلميّة قادته إلى التأكّد من وجود الله تعالى، بما رآه من تنظيم مدهش يشرف على ولادة الحياة وضمان استمراريّتها، كالتطوّر المقيّد بالمكتسب الجديد للمعلومات المحقّق بواسطة الجينات، ووضع الجميع في نصّ كامل لتطوّر الكون، «فكلّ شيء سيناضل من أجل متابعة منهجيّة لظاهرات تحصل بطريقة منسّقة تمامًا»[3]. ويكفي أن نقف على تصريح لأحد الباحثين الغربيّين عندما يقول: «أصرّح بأنّ العلم لم يقتل الإيمان بالله، بل على العكس تمامًا، فنتائج العلم تشير إلى وجوده، إنّ المشروع العلميّ نفسه لا يقوم إلّا على وجوده»[4].

[١]- م.س، موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ص٢٢٥.

[٢]- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، ص٢٢٩.

[٣]- م.ن، ص٢٣٠.

[٤]- جون لينوكس، العلم ووجود الله.. هل قتل العلم الإيمان بوجود الله؟ ترجمة: ماريانا كتكوت، تقديم ماهر صموئيل، ٢٠١٥م، ص٣٦٤.

الباب الخامس

القراءة العلميّة للقرآن

الإيجابيّات والسلبيّات

الفصل الأول

قراءة بوكاي من القرآن إلى الحديث

الفصل الأوّل

قراءة بوكاي من القرآن إلى الحديث

لا شكّ في أنّ المستشرق الفرنسيّ موريس بوكاي كانت له قراءاته حول القرآن الكريم والسنّة النبويّة، ويُحسب له موقفه المدافع عن القرآن، وبيان توافقه مع معطيات العلم الحديث، إلّا أنّ بوكاي ظهر بصورة مخالفة -في رأيي- تجاه الحديث النبويّ؛ إذ ليس هناك من شكّ في أنّه أثبت بالدليل القاطع أنّ القرآن يتّفق تمامًا مع المعطيات العلميّة الحديثة، وبناءً عليه كان ذلك دليلًا عنده على المصدريّة الإلهيّة للقرآن، وقد ظهر التوافق القرآنيّ العلميّ في العديد من القضايا، وهي القضايا التي عرض لها بوكاي بالتحليل والدراسة والمقارنة، مثل قضايا: خلق الكون، وعالم الأرض والحيوان، وغيرها من القضايا التي أجاد بوكاي في عرض العديد منها وإظهار الوجه المشرق للقرآن الذي حاول الغرب تشويهه والنيل منه، منتهيًا من ذلك كلّه إلى التأكيد على مصدريّة القرآن الإلهيّة، ومن ثمّ فهو بعيد عن الظنّ والشكّ فيما جاء به. لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا:

ما موقف بوكاي من السنّة النبويّة حال مقارنتها بمعطيات العلم الحديث؟ وبعبارة أخرى: هل نجد عند بوكاي توافقًا بين الحديث النبويّ والعلم، مثلما ظهر في العلاقة بين القرآن والعلم؟ هذا ما نحاول الإجابة عنه في هذا الفصل.

ويمكن القول إنّه في سبيل الإجابة عن هذا السؤال سوف نحاول العروج على عدد من القضايا التي يعني بيان موقف بوكاي منها إجابة شافية عليه، وعلى موقف بوكاي الحقيقيّ والصريح من الحديث النبويّ. وتمثّل هذه القضايا محاور البحث الرئيسة، وهي:

ـ الحديث النبويّ والمعطى العلميّ.

ـ سجود الشمس والعلم الحديث.

ـ خلق الإنسان والعلم الحديث.

ـ موقف بوكاي من أحاديث العين والسحر.

ـ قضيّة أبوال الإبل والعلم الحديث.

ـ موقف بوكاي من حديث الحمّى.

ـ قضيّة الداء والدواء بين الحديث والعلم.

ـ نقد موقف بوكاي من الحديث النبويّ.

أوّلًا: الحديث النبويّ والمعطى العلميّ

بادئ ذي بدء يجب التأكيد على أمرين وهما:

الأوّل: أنّ الأحاديث النبويّة في مجال العقيدة لا مساس بها من جهة بوكاي، بل كان يمنح هذه الأحاديث مكانتها من التبجيل والتعظيم والتقدير.

الثاني: أنّ الأحاديث النبويّة التي تتناول أمورًا دنيويّة كانت محلّ نقاش من قِبَل بوكاي، باعتبارها تتعلّق بعمل دنيويّ فيه مجال للأخذ والردّ بنظره. وهذا يعني أنّ محور قراءة بوكاي هنا كانت تنصبّ على النوع الثاني من الأحاديث لا النوع الأوّل.

ونحن نعلم يقينًا أنّ القرآن والسنّة النبويّة هما مصدرا التشريع في الإسلام، فالقرآن هو المصدر الأوّل، والسنّة هي المصدر الثاني، بما تشمله من أقوال أو أفعال أو تقرير، وقد نُقلت السنة النبويّة شفاهةً، فالأحاديث اعتمدت بالأساس على النقل الشفهيّ. ومن ثمّ فإنّ بوكاي يرى أنّ الذين بادروا لجمع هذه الأفعال والأقوال في نصوص كانت تحقيقاتهم تتّسم بالصعوبة دائمًا، كما هو الحال في أمر جمع الأحداث بعد انقضائها بفترة طويلة؛ «ولهذا كان همّهم الأوّل في عملهم العسير في مدوّناتهم منصبًّا أوّلًا على دقّة الضبط لهذه المعلومات الخاصّة بكلّ

حادثة في حياة محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وبكلّ قول من أقواله؛ ولذلك فقد نصّوا على أسماء الذين نقلوا أقوال النبيّ ﷺ وأفعاله، وذلك بالصعود في الإسناد إلى الأوّل من أسرة النبيّ ﷺ، ومن صحابته ممن تلقّوا هذه المعلومات مباشرة منه»[1].

لكن كلام بوكاي كان يحمل دائمًا نقدًا غير مباشر للسنّة، وذلك من جهة أنّها لا تتوافق في رأيه مع العلم الحديث، فهو دائم الاتكاء على قضيّة المسافة الزمنيّة التاريخيّة بين تسجيل الأحاديث النبويّة وبين عصر النبيّ محمّد ﷺ. فإذا أضفنا إلى ذلك اعتراضه -كما سنفهم- على محتوى نصّ الأحاديث التي تتحدّث عن الطبّ وغيره أدركنا أنّ بوكاي كان يتّخذ موقفًا مخالفًا لما اتخذه تجاه القرآن الكريم. ولنا هنا أن نتساءل هل كان موقف بوكاي الرافض من الربط بين الحديث النبويّ والعلم الحديث ناتجًا عن تجارب علميّة دقيقة تمّ إجراؤها من قبله أو من قبل الباحثين الثقات؟! استنادًا إلى أنّه من المنطقيّ «أنّه لا ينبغي لأيّ عالم أن يرفض شيئًا إلّا بعد أن يجري عليه تجارب علميّة دقيقة، ويتّخذ من تلك الآراء فرضًا علميًّا، أمّا أن يرفضها دون أيّ دراسة أو تجارب علميّة، فإنّ ذلك لا يقرّه أيّ منهج علميّ للدراسة والبحث»[2].

وقد وقف على بعض ترجمات الحديث النبويّ إلى اللغات الأخرى، مثل الترجمة الفرنسيّة التي قام بها هوداس ومارسيه تحت عنوان الأحاديث الإسلاميّة. إلّا أنّ بوكاي يحذّر من خطورة بعض الترجمات التي قد تتعمّد تشويه النصّ، «غير أنّ الحيطة لازمة إزاء قيمة بعض الترجمات التي أنجزها الغربيّون، بما في ذلك الترجمة الفرنسيّة؛ إذ يستطيع القارئ أن يكتشف فيها أحيانًا ما هو غير صحيح ومناقض للحقائق، مما يعتبر تأويلًا لا ترجمة حقيقيّة، بل هناك أحيانًا تحريفات كبيرة

[1]- موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ترجمة: الشيخ حسن خالد، لبنان - بيروت، المكتب الإسلاميّ، الطبعة الخامسة، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م، ص٢٨٣.

[2]- أحمد شوقي إبراهيم، موسوعة الإعجاز العلميّ في الحديث النبويّ، القاهرة، دار نهضة مصر، الأولى، ٢٠٠٧م، ج ٧، ص٢٢.

للمعنى الحقيقيّ للحديث لدرجة أنّها تجعله يقول ما لا يعني»[1].

ولكن ومن جانب آخر، فعلى الرغم من أنّ موقف بوكاي، إلّا أنّه كان يحاول بكلّ السبل أن يستدلّ على موقفه الرافض لأحاديث الطبّ، حيث كان يراها لا تتوافق مع معطيات العلم الحديث إمّا لخطأ نسبتها إلى الرسول الكريم، أو بداعي أنّها تعالج أمورًا دنيويّة لا دينيّة. وهذا خطأ كبير من بوكاي؛ لأنّ معالجة الحديث لقضايا دنيويّة لا تقلّل من قيمته ولا تقدح فيه؛ خاصّة أنّ العلم يثبت صحّتها يومًا بعد يوم، فهذا -بناءً على رأي أحد الباحثين- ليس نهاية المطاف أو الاكتشاف، بل ستتلوه اكتشافات واكتشافات أثبتت وتثبت للناس قاطبة أنّ الحديث النبويّ وحي من الله تعالى[2].

ولكي يرسّخ بوكاي رأيه في الأحاديث النبويّة عقد مقارنة بينها وبين الأناجيل من حيث أصول النصوص فيها، فهو يؤكّد على وجود سمة مشتركة بينهما، وهي أنّها كُتبت بأقلام كتّاب لم يكونوا من الشهود العيان لما قد نقلوه من الوقائع، وأنّها لم تظهر للوجود إلّا بعد مرور فترة كبيرة من الزمن تربو على المئتي عام، وأنّها لا تعد كلّها صحيحة ثابتة[3].

ولعلّه يعوّل هنا على وجود أحاديث موضوعة وأحاديث ضعيفة من تلك التي لا يُوثَق بنسبتها إلى الرسول الكريم، وقد وقف علماء الحديث على العديد والعديد من الأحاديث الضعيفة والأحاديث الموضوعة واستخرجوها ونبّهوا عليها، صيانة للدين، باعتبار أنّ السنّة المصدر الثاني للتشريع. وهذا ما أكّد عليه بوكاي قائلًا: «ولهذا فإنّ أصحاب الاختصاص في علم الحديث لم يقبلوا من هذه الأحاديث بصورة شبه إجماعيّة إلّا عددًا قليلًا منها، وأصبح من الممكن أن يوجد في المجموعة الواحدة أحاديث

---

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٨٤.

[٢]- أنظر: يوسف الحاج أحمد، موسوعة الإعجاز العلميّ في القرآن الكريم والسنّة المطهّرة، دمشق، مكتبة ابن حجر، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ص٥.

[٣]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٨٤.

مظنون فيها أو مرفوضة قطعًا، إلى جانب الأحاديث التي اعتبرت صحيحة»[1].

لكن بوكاي يحيّي تلك الجهود التي عملت على تحليل هذه الأحاديث وبيان ما يصحّ نسبته إلى النبيّ الكريم، وما لا يصحّ نسبته، وهذه من الأمور المحمودة بالنسبة له؛ إذ إنّه لم يرَ مثل هذا الموقف في الأناجيل القانونيّة التي لم يتمّ تناولها بالنقد والتحليل والاعتراض على ما جاء فيها مما يخالف العقل والعلم، على الرغم من أنّ كتّابها لم يكونوا شهود عيان لما نقلوه وكتبوه. في حين أنّ مجموعات الأحاديث، بما فيها تلك الأحاديث التي تعدّ صحيحة كانت أسعد حظًّا عنده؛ باعتبار أنّها قد خضعت كلّها لدراسة نقديّة عميقة قام بها أساتذة الفكر الإسلاميّ لتحديد درجتي القبول والعمل بها[2].

لقد قام بوكاي بمقارنة من نوع جديد، فقد عقد مقارنة بين الملاحظات التي أفضت إليها الأحاديث النبويّة وبين الملاحظات التي أفضت إليها دراسة النصّ القرآنيّ من حيث التوافق مع معطيات العلم الحديث. ولقد كانت نتيجة هذه المقارنة بالنسبة له مهمّة جدًّا، فقد رأى أنّ «الفرق قد ظهر واضحًا ومدهشًا بين دقّة المعلومات القرآنيّة وصحّتها في حال مقارنتها مع معطيات العلم الحديث، وبين قابلية النقد الواضحة لبعض معلومات الحديث المتعلّقة بموضوعات تدخل في صميم الميدان العلميّ، مع العلم بأنّ هذه الأحاديث هي وحدها التي نعالجها هنا»[3].

ومن ثمّ نفهم أنّ بوكاي كان ينظر للحديث من حيث المعطى العلميّ كما كان يفعل مع النصّ القرآنيّ، فالمنهج هنا واحد والقاعدة كذلك واحدة وهي مدى توافق النصّ -سواء أكان حديثًا أم قرآنًا- مع المعطيات العلميّة الحديثة. وإذا كان بوكاي قد انتهج هذا النهج مع القرآن، فإنّه في المقام ذاته انتهجه مع نصّ الحديث، إلّا أنّنا نعتقد أنّ النتائج هنا كانت مخالفة لما كانت عليه هناك. ومن هنا نفهم أنّ منهجه قائم على عرض الحديث على المعطى العلميّ، فإنْ وافقه عدّه صحيحًا، وإن خالفه

---

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٨٤.

[٢]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٨٤.

[٣]- م.ن، ص٢٨٥.

عدّه مخالفًا، ومن ثمّ فهو دخيل أو غريب على الإسلام والعلم معًا. لكنّ السؤال الذي يطرح نفسه بقوّة هنا: ماذا لو أنّ العلم لم يتوصّل إلى نتائج حقيقيّة علميّة بصدد موضوع الحديث -وهو غالبًا ما يكون في الجانب الطبّيّ- هل نستطيع أن نحكم على صدق الحديث من عدمه؟! هل نستطيع أن نقرّ بوجود أو عدم وجود توافق علميّ؟! ومن ثّم فنحن مع أحد الباحثين عندما يرفض أن يكون الواقع العلميّ حاكمًا على صحّة الحديث أو ضعفه قائلًا: «لا يعتبر حكمًا أو تشريعًا آخر يحكم على نصوص الحديث النبويّ، ولا يردّ أو يصحّح الحديث كنتيجة مباشرة لمخالفته، أو موافقته للواقع؛ لأنّ الواقع يتغيّر والحقيقة العلميّة الثابتة، لا تخالف النصّ الحديثيّ الصحيح الثابت. والتسرّع في الحكم على الـديث بكونه مقبولًا صحيحًا أو الحكم بكونه ضعيفًا أو موضوعًا دون تمحيص، وقرائن يـؤدّي إلى الوقـوع في الزلل»[1].

ثانيًا: سجود الشمس والعلم الحديث

وأمام هذا المنهج الذي شقّه بوكاي لنفسه كان عليه أن يستدلّ على كلامه من خلال بعض الأحاديث التي يراها ضعيفة، وهذه الأحاديث أدلى فيها بدلوه من الناحية العلميّة، خاصّة تلك الأحاديث التي كان شرحها لا يتواءم عنده مع المعطيات العلميّة من وجهة نظره. ومن الأحاديث التي وقف عندها: «عندما تغرب الشمس فإنّها تسجد تحت عرش الله، وتطلب إليه الإذن بأن تعيد طريقها وتسجد من جديد، وفي نهاية الأمر تعود من حيث أتت لتشرق من جديد»رواه البخاري. فهو يرى أنّ هذا النصّ يتعارض مع قول الله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ سورة يس، الآية ٣٨. خاصّة أنّه -كما علمنا في فصول سابقة- كان يرى في هذه الآية صورة من صور الإعجاز العلميّ، ودليلًا على التوافق بين النصّ القرآنيّ والمعطى العلميّ الحديث، بل إنّها كانت عنده من عجائب القرآن الكونيّة التي لم تُكتشف إلّا في العصر الحديث[2].

---

[١]- نضال حسن فلاح المومني، سبق الحديث النبويّ بالإشارة للمكتشفات الطبّيّة الحديثة، مجلّة كلّيّة الشريعة والقانون بطنطا، ٢٠١٩م، الجزء الثالث، العدد الرابع والثلاثون، ص٢٥٣.

[٢]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٨٥.

ويمكن القول من خلال فهم منهجيّة بوكاي العامّة، وكذلك الخاصّة، المتعلّقة بهذا الموضوع أنّه يبني رفضه لهذا الموضوع على عدّة معطيات، وهي:

أنّه يحتوي على صورة مجازيّة تتضمّن معلومات خاصّة بمدار الشمس حول الأرض، بما لا يتّفق في نظره مع المعطيات العلميّة الحديثة التي يرى أنّها أثبتت العكس.

أنّ هذا الحديث في ظاهر معناه أكثر من ظنّي، وهو من أخبار الآحاد كما هو معروف في علم الحديث.

أنّ أخبار الآحاد غير قطعيّة، ومن ثمّ فالحديث لا يفيد العلم القطعيّ[1].

لكنّ ما يجب التأكيد عليه قبل كلّ شيء -ردًّا على موقف بوكاي من الحديث هنا- أنّ «الحقيقة العلميّة الثابتة لا تصطدم بنصّ شرعيّ ثابت»[2]. ولعلّ المتأمّل في النصّ -أقصد نصّ الحديث- قد لا يُفهم منه مناقضةً للمعنى العلميّ الذي توصّل إليه العلم الحديث حسبما نرى، فالغروب لا يعني مطلقًا أنّ الشمس تخرج خارج مدارها التي تدور فيه، فهو لا يعني الذهاب إلى خارج فلكها، فكلّ ما دون العرش فهو تحته، فلا يفهم من الحديث أنّ الشمس تصعد حتّى عرش الرحمن فوق السماوات السبع، وإنّما يُفهم أنّها دونه، ولا مانع من أن يكون سجودها له كيفيّة خاصّة، وهي في مكانها أي مدارها، ونحن كبشر نسجد لله تعالى تحت ظلّ عرشه ونحن على الأرض.

ونحن نعلم من خلال نصوص القرآن ذاته أنّه ما من شيء إلّا يسبّح بحمده، وأنّه يسجد له ما في السماوات والأرض والشجر والدواب والشمس والقمر وكلّ الخلائق، لكنّ كيفيّة السجود لا يعلمها إلّا الله تعالى، وكذلك سجود الشمس غير معلوم الكيفيّة؛ ومن ثمّ فليس أمامنا من سبيل إلّا التصديق إيمانًا بالله تعالى، ولكن الكيفيّة مجهولة. فما المانع وفق هذا التصوّر من أن يكون غروبها هو سجودها؟!

[١]- موريس بوكاي، ص٢٨٥.

[٢]- محمود ناظم النسيمي، الطبّ النبويّ والعلم الحديث، طبعة الشركة المتّحدة للتوزيع، الأولى، ١٩٨٤م، ج٢، ص٣٨٧.

فالغرب هو الذهاب والتنحّي عن الناس، وهو كذلك النوى والبعد، والغروب يعني غياب الشمس في المغرب[1]. وهذا لا يتعارض ولا يتناقض في شيء مع آية وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا في شيء.

ونحن نعلم أنّ الشمس في حركة دائمة، وكذلك الأرض في حركة دائمة بما تمارسه من حركة حول نفسها وحركة حول الشمس، فالأولى تجري في مدارها والثانية تدور في مدراها، بيد أنّ الليل والنهار والغروب والشروق يترتّب على دوران الأرض حول نفسها تجاه الشمس. ومن ثمّ نفهم أنّه لا تعارض مطلقًا بين سجود الشمس وبين الغروب في مغربها ودورانها في فلكها الذي تدور فيه؛ لأنّنا لا نحيط بحقيقة هذا السجود.

ثالثًا: خلق الإنسان والعلم الحديث

ولمّا كانت قضيّة خلق الإنسان من القضايا التي كانت تستحوذ على تفكير المستشرق موريس بوكاي. وقد وقف بدوره على المعطيات التي يقدّمها الحديث النبويّ، لكن وقوفه عنده كان وقوف نقد، خاصّة في مسألة الأربعين يومًا التي يتكوّن فيها الجنين في مراحله الأولى. ومن ثمّ يقول بوكاي منتقدًا: «فهناك مرحلة محدّدة بأربعين يومًا تجتمع فيها العناصر المكوّنة للمخلوق البشريّ، ثمّ مرحلة أخرى مساوية للأولى، حيث يصبح فيها الجنين علقة، ثمّ مرحلة ثالثة مساوية أيضًا في المدّة لأربعين يومًا يصبح الجنين كاللحم الممضوغ مضغة، ثمّ يأتي بعد ذلك تدخّل الملائكة لتحديد ما سيكون عليه مستقبل هذا الكائن، ثمّ تنفخ فيه الروح. وإنّ وصف تصوّر الجنين في هذا الحديث الظنّيّ لا يتّفق مع المعلومات العلميّة الحديثة، أمّا نصّ القرآن القطعيّ حول ذلك، فقد سكت عن هذا التحديد الزمنيّ الذي لا اعتراض عليه»[2].

ومن المعروف أنّ هناك مجموعة من الأحاديث التي وردت في مراحل تطوّر

---

[١]- أنظر: ابن منظور، لسان العرب، القاهرة، طبعة دار المعارف، بدون، مادة غرب.

[٢]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٨٥-٢٨٦.

الجنين، والمدّة التي يستغرقها تكوّن الجنين في الرحم بعد تلقيح البويضة واستقرارها في الرحم. وفي ضوء هذه الأحاديث تناول بعض المفكّرين قضيّة علم الأجنّة في ضوء القرآن والسنّة، وهو بصدد بيان ما في الإسلام قرآنًا وسنّة من إعجاز علميّ، خاصّة في موضوع تكوّن مراحل الجنين والمدّة التي يستغرقها الجنين في مراحله الأولى، يقول أحد هؤلاء: «بعد استعراض ما تقدّم نرى أنّ النطفة والعلقة والمضغة تكتمل خلال الأربعين يومًا الأولى، وترى الجنين في نهاية هذه المراحل في شكل مضغة لا يدلّ على مخلوق إنسانيّ، وفي اليوم الخامس والأربعين يتمّ تكوّن الأعضاء، وانتشار الهيكل العظميّ بصورة ظاهرة، ويستمرّ الانقسام الخلويّ، والتمايز الدقيق بعد ذلك، ولكن الخطوات الأساسيّة للتفريق بين شكل المضغة والشكل الإنسانيّ تكتمل بين اليوم الأربعين والخامس والأربعين»[1].

هذا يعني شيئًا مهمًّا وهو أنّ الأمر يتعلّق بالأربعين يومًا الأولى التي يمرّ فيها الجنين بثلاث مراحل، وأظنّ أنّه ليس في العلم ما يخالف ذلك، ولو كان في العلم ما يخالف ذلك لقدّمه لنا بوكاي في تدليله على أنّ الأيّام الأربعين لا تتوافق مع العلم الحديث، فمراحل النطفة والعلقة والمضغة تتكوّن في الأربعينيّة الأولى، أما قضيّة نفخ الخروج، فإنّ علمها عند ربّي، لكنّ حياة الإنسان تبدأ فعليًّا مع نفخ الروح فيه، والتي يرى فيها علماء الإسلام أنّها خلال ١٢٠ يومًا. كما أنّ هناك قضيّة من الأهمّيّة بمكان، وهي أنّ الأربعينات الثلاثة ليست أمرًا مقدّسًا على رأي أحد الباحثين، بل الراجح عنده أنّها أربعون واحدة كما في حديث حذيفة بن أسيد[2].

ومن ناحية أخرى فإنّ بوكاي يعلم يقينًا أنّ العلم لا يختلف مع القرآن والسنّة في المراحل الثلاث: النطفة والمضغة والعلقة، وهذه من الأمور المهمّة التي توحي بمصداقيّة الحديث وتوافقه مع العلم الحديث في هذه القضيّة، خاصّة في قصة تطوّر الجنين، «أمّا نفخ الروح، فهذا أمر لا يعلمه إلّا الله تعالى، ولا يمكن لنا أن

[١]- عبد المجيد الزنداني، بحث علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة، بحث منشور بالمؤتمر العالميّ الأوّل للإعجاز العلميّ في القرآن والسنّة، باكستان – إسلام آباد، أكتوبر ١٩٨٧م، ص٦٩.

[٢]- محمّد علي حسن حسن الشوكي، نفخ الروح في الجنين بين إعجاز القرآن والسنّة والدراسات الطبّيّة الحديثة، حوليّة كلّيّة أصول الدين والدعوة، جامعة المنوفية العدد ٣٩، ديسمبر ٢٠٢٠م، ص٢٠٢٤.

نقطع به، ولكنّ الذي نقول به إنّه يأتي لاحقًا للمراحل الثلاثة، يعني بعد اثنين وأربعين يومًا، فهناك احتمال لنفخ الروح في الجنين، ويمكن أن نستأنس بأقوال علماء الطبّ الذين بحثوا عن بثّ الحياة في الجنين ووضعوا شروطًا لكي يُوصف الجنين بأنّه كائن حيّ إنسانيّ»[1].

لكن من المهمّ التأكيد على أنّنا لا نظنّ أنّ علم الأجنّة فيه ما يناقض قضيّة المراحل الثلاث: النطقة والعلقة والمضغة، كما أنّني لا أظنّ في ما يناقض قضيّة نفخ الروح؛ ذلك أمر لا يعلمه إلّا الله تعالى. فمن المعروف أنّ علماء الأجنّة قسموا مراحل تطوّر الجنين، وخاصّة من الأسبوع الأوّل وحتّى الأسبوع العشرين، أي ١٤٠ يومًا.[2] وقد أكّد العلماء أنّه ما بين الأسبوع التاسع والأسبوع الثاني عشر -ويهمّنا هنا الأسبوع الأخير- يحدث اكتمال تكوّن المخّ، وبداية وظائفه وظهور ما يسمّى بالحياة الإنسانيّة لا النباتيّة، وهي الفترة التي تتدوّر فيها حركة الجنين وظهور الحركات التنفّسيّة، وغيرها من مظاهر الحياة[3]. لكن نستطيع أن نؤكّد على الرغم من ذلك أنّ توقيت نفخ الروح غير معلوم تمامًا.

وعليه فليس في نصّ الحديث خاصّة حديث حذيفة بن أسيد ما يخالف العلم في شيء؛ لأنّ نصّ الحديث لم يناقض المعطى العلميّ فيما نصّ عليه في تطوّر الجنين. ولكنّ الإشكاليّة أنّ بوكاي ينظر إلى السنّة نظرة مختلفة عن تلك النظرة التي ينظرها للنصّ القرآنيّ؛ إذ لوكان قد نظر لها النظرة ذاتها التي كان ينظرها للقرآن، لربما توصّل إلى العديد من نقاط التوافق بين نصّ الحديث والعلم في كثير من القضايا التي أثبتتها معطيات العلم الحديث ذاته. فما الذي يمنع بوكاي من

[١]- محمّد علّي حسن حسن الشوكي، نفخ الروح في الجنين بين إعجاز القرآن والسنة والدراسات الطبّيّة الحديثة، حوليّة كلية أصول الدين والدعوة، جامعة المنوفية العدد ٣٩، ديسمبر ٢٠٢٠م، ص٢٠٢٨.

[2]- Moore K.L. and Personal T.V. The developing human: Cinically oriented embryology by Keith L M ed 7 th. d Philadelphia, 2003, WB Saunders, p16..

[3]- Sadler T.W. Ovulation to Implanation the embryonic Period In Langman's medical emproyology, by Betly S. Rebeca K eds, 9 th. ed. Williams and Wilkins, 2004, p35.

ذلك على الرغم من أنّ الحديث يؤخذ كمفسّر أو موضّح أو مبيّن -فضلًا عن قضيّة الإطلاق والتقييد- للنصّ القرآنيّ؟!

ومن ثمّ فنحن نعتقد أنّ الإشكاليّة الكبرى عند بوكاي هي أنّه لم يدرك أهمّيّة الحديث بالنسبة للقرآن الكريم، وأنّه رافد أساسيّ من روافد إيضاح وتفسير ما قد يبدو غامضًا منه، أو مطلقًا لما في النصّ القرآنيّ من تقييد، بدليل أنّه رفض الأحاديث النبويّة التي تتحدّث عن الطبّ، بداعي أنّ القرآن لا يعطينا أيّ إشارات فنّيّة عن مهنة التطبيب باستثناء إمكانيّة عامل علاجيّ في العسل ورد في سورة النحل التي سبقت الإشارة إليها في موضع سابق[1].

ومن ثمّ فإنّنا نجد أنّ هناك موقفًا واضحًا يصل إلى حدّ الرفض للأحاديث التي أفرد لها البخاري كتابًا في صحيحه عن الطبّ، فضلًا عن الأحاديث الأخرى ذات الطابع العلاجيّ التي تتوزّع في أبواب أخرى فيه. بداعي أنّ هذه الأحاديث ظنّيّة، وأنّها تتعلّق بأمور دنيويّة لا دينيّة[2]. لكن هذه الأحاديث ليست ظنّيّة كما يقول بوكاي. نعم، قد يكون منها ما هو ظنّيّ، أمّا وصفها ككلّ بأنّها ظنّيّة، فهذا أمر فيه من الظلم الكثير. كما أنّ كون الحديث يتعلّق بأمر دنيويّ ليس مبرّرًا لرفضه أو النظر إليه على أنّه لا يتوافق مع العلم، فكم من أحاديث دنيويّة قالها الرسول صلى الله تعالى عليه وسلّم، وليس هناك ما يمنع من الأخذ بها، قد يكون ثمّة بعض المأثور عن النبيّ مما قاله بذاته البشريّة، وثبت أنّه قال بصفته البشريّة لا النبويّة، إلّا أنّ ذلك لا يعني الأخذ بها؛ لأنّ منها بالطبع ما يكون صادرًا عن صفته النبويّة. كما أنّ الكثير من الوصفات العلاجيّة التي قال بها النبيّ الكريم والتي ذكرت في الأحاديث النبويّة تثبت توافقها مع العلم ولا تناقضه.

رابعًا: موقف بوكاي من أحاديث العين والسحر

ولماذا رفض بوكاي أحاديث العين والأذى والسحر وغيرها، فهو يقول: «نكتشف

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٨٦.

[٢]- م.ن، ص٢٨٦.

في هذه الأحاديث أفكارًا عن الأذى والعين والسحر، وإمكانيّة التخلّص من آثار السحر، مع العلم بأنّ هناك منعًا عن التكسّب باستخدام القرآن لهذا الغرض، كما ورد حديث يشير إلى بعض الثمر، بقي من نتائج السحر، وأنّه يمكن أيضًا استخدامه ضد اللدغات السامّة»[1].

فما المانع من أن يكون الحديث متضمِّنًا موضوعات السحر والحسد والأذى وغيرها من الموضوعات؟ فالقرآن ذاته الذي كان يقف منه بوكاي موقفًا منصفًا تطرّق إلى هذه الموضوعات، ألم يكن بوكاي يشيد بالقرآن وبنصوصه وتوافقها مع المعطيات العلميّة الحديثة؟! فالقرآن الكريم كثيرًا ما تحدّث عن مثل هذه الموضوعات، فلماذا رفض بوكاي تطرّقها إلى الحديث؟! قد لا تكون هذه الموضوعات تجريبيّة ولا تخضع للتجربة نتيجة سمتها البعيد عن المادّة، لكن هذا لا يعني عدم وجودها أو رفضها؟!

ويمكن أن نلقي نظرة على آيات السحر في القرآن على النحو التالي:

﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ﴾ سورة البقرة، الآية ١٠٢.

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ سورة يونس، الآية ٨١.

﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ سورة طه، الآية ٧١.

﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ سورة طه، الآية ٧٣.

﴿هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ سورة الأنبياء، الآية ٣.

﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ سورة الشعراء، الآية ٤٩.

﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ سورة آل عمران، الآية ١٧.

﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ سورة المائدة، الآية ١١٠.

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٨٦.

﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ سورة الأنعام، الآية ٧.

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ سورة الأعراف، الآية ١٠٩.

﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ سورة الأعراف، الآية ١١٢.

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ سورة الأعراف، الآية ١١٣.

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ سورة الأعراف، الآية ١١٦.

﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ سورة الأعراف، الآية ١١٦.

﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ سورة الأعراف، الآية ١٢٠.

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ سورة الأعراف، الآية ١٣٢.

﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ سورة يونس، الآية ٢.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ سورة يونس، الآية ٧٦.

﴿أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ سورة يونس، الآية ٧٧.

﴿أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ سورة يونس، الآية ٧٧.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ سورة يونس، الآية ٧٩.

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ سورة يونس، الآية ٨٠.

﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ سورة هود، الآية ٧.

﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ سورة الحجر، الآية ١٥.

﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ سورة الإسراء، الآية ٤٧.

كما أنّنا لنا أن نلقي نظرة على آيات الحسد في القرآن الكريم على النحو التالي:

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ الفلق﴾ سورة الفلق، الآية ٥.

﴿لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ سورة البقرة، الآية ١٠٩.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ سورة النساء، الآية ٥٤.

﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ سورة الفتح، الآية ١٥.

نعلم أنّ ما ورد في هذه الأحاديث من أمور علاجيّة أو قضايا الحسد والسحر وغيرها كانت تعبيرًا عن العصر الذي كانت فيه، لكن هذا لا يعني أنّها فقدت نجاعتها على مرّ العصور، بل هي تدخل في إطار ما يسمّى بالطبّ البديل، وهو مجال يطبّق إلى الآن في كافّة أنحاء العالم، وليس معنى هذا التخلّي عن معطيات العلم الحديث في المجال الطبّيّ، وإنّما معناه أنّ هذا الطبّ النبويّ يعدّ طبًّا بديلًا يمكن الأخذ به، دون الاستغناء عن الطب الكميائيّ.

ومن ثمّ فإنّ القرآن يتحدّث عن قضايا مثل: السحر والحسد والأذى وغيرها من الموضوعات، فما الغريب في أن تتضمّن بعض الأحاديث النبويّة شيئًا من هذه الموضوعات؟! وهل معنى أنّها قضايا دنيويّة يجعلها تنال نقد بوكاي؟! وهل كونها قضايا غير مادّيّة يجعلها غير مؤهّلة لأن تدخل في القرآن والسنّة؟! كان أحرى ببوكاي أن يقول إنّ هذه الموضوعات لا تُقاس بالعلم، إذ ليس كلّ ما في الكون يُقاس علميًّا، فهي موضوعات مجالها الدين في المقام الأوّل. ومن ثمّ فليس في الأحاديث التي تتناول كيفيّة أو إمكانيّة التخلّص من آثار السحر ما يشينها أو يعيبها، بل هي أحاديث تتوافق مع الآيات القرآنيّة باستثناء ما ردّه العلماء منها.

خامسًا: قضيّة الداء والدواء بين الحديث والعلم

وقف بوكاي موقفًا نقديًّا من تلك الأحاديث التي تتحدّث عن علاج الأمراض، ووجود علاج لكلّ مرض، ومن ثمّ فقد رفضها، ومن الأحاديث التي وقف عندها

بوكاي حديث «لم ينزل الله من داء إلّا وأنزل له الدواء»رواه البخاري. ثمّ ينتقل إلى حديث الذبابة الذي يراه موضحًا لمفهوم الحديث السابق؛ حيث ورد فيه: «إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه كلّه ثمّ ليطرحه، فإنّ في إحدى جناحيه داء وفي الأخرى شفاء» رواه البخاري. لكن ما الإشكاليّة في صحّة الحديث الأوّل هنا؟! أليس الله تعالى هو الذي أنزل الداء وهو الذي بيده الشفاء؟! فما الإشكاليّة في أن يشير الحديث إلى أنّ الله تعالى ينزل لكلّ داء دواءً؟! فنحن نؤمن أنّ لكلّ داء دواء، وأنّ الله تعالى أنزل الداء والدواء، وما على البشر إلّا أن يجتهدوا في اكتشاف الدواء.

ومن جهة أخرى فإنّ موقف بوكاي من الحديث يمكن الردّ عليه من جهة سند الحديث، ومن جهة الإعجاز العلميّ. إنّ سند الحديث النبويّ يكشف عن صحّته، فالحديث رواه أبو هريرة وأبو سعيد الخدري وأنس بن مالك رضي الله تعالى عنهم أجمعين، كما أنّ الحديث ورد في كتاب الصحاح وكتب السنّة. وهذا ما أكّده الإمام الألباني -رحمه الله تعالى- عندما أكّد على أنّ الحديث قد ثبتت صحّته بهذه الأسانيد الصحيحة عن طريق هؤلاء الصحابة الثلاثة الكرام: أبي هريرة وأبي سعيد وأنس، ومن ثمّ فهو حديث صحيح، ولا مجال للردّ ولا التشكيك فيه[1].

ومن ناحية المتن فالحديث صحيح، فالله تعالى خلق مخلوقات غير الذباب تجمع بين النقيضين: الداء والدواء، فمن الملاحظ في بعض الحشرات أنّ فيها شفاءً وضررًا في آن واحد، فالنحل مثلًا في عسله شفاء من عدد من الأمراض، كما أنّه يقضي على العشرات من الفيروسات والميكروبات، في الوقت الذي يكون في لسعه ألم شديد، كونه يفرز سمومه في أجسامنا، ألا ترى أنّ الله تعالى قد جعل في النحل الشيء ونقيضه؟![2]. فتكذيب الحديث على الرغم من قوّة سنده ومتنه هو تكذيب لما جاء به النبيّ الكريم، خاصّة أنّ سنده كما بيّن العلماء لا غبار عليه وأنّ متنه كذلك لا يتنافى مع المعطى العقليّ أو حتى المعطى العلميّ كما سيتبيّن، فلماذا إذن

[١]- أنظر: محمّد ناصر الدين الألبانّي، سلسلة الأحاديث الصحيحة، لبنان – بيروت، طبعة المكتب الإسلاميّ، الأولى، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ج ١، ص٦٠.

[٢]- أنظر: موسوعة بيان الإسلام، إنكار حديث الذبابة، على الرابط التالي:

http://www.bayanelislam.net/Suspicion.aspx?id=03 -03- 0090.

الإنكار في الوقت الذي ليس فيه مبرر لهذا الإنكار؟!

ومن الناحية العلميّة الطبّيّة فإنّ الحديث يشي بنوع من الإعجاز العلميّ؛ لأنّ الدراسات الطبّيّة والعلميّة الحديثة أثبتت متنه، فقد اتضح من النتائج العلميّة لأبحاث العلماء والأطبّاء على أنواع كثيرة من الذباب -حسب موسوعة البيان- وجود أنواع كثيرة من البكتيريا على جناحي الذباب، كما اتّضح أنّ أكثر أنواع البكتيريا شراسة هو الذي يفرز مادّة مضادة للحيويّة لكثير من أنواع البكتيريا الأخرى سواء سالبة أو موجبة، وقد وُجدت هذه البكتيريا بكثافة عالية على الجناح الأيمن للذباب، كما وجدت أنواع من الفطريّات التي تفرز مواد مضادّة للحيويّة لكثير من أنواع البكتيريا. كذلك اتّضحت قدرة نوع من البكتيريا على قتل الأنواع الأخرى من البكتيريا في زمن قصير جدًّا، وهي البكتيريا التي تنقل العديد من الأمراض، مثل: التهاب العين، الداء الجلديّ المسمّى الحصف، التهاب المثانة، التهاب المعدة والقولون، التهاب العظام، وإصابة الجهاز البوليّ التناسليّ، الجهاز العصبيّ المركزيّ، وفساد الأطعمة وغيرها[1].

سادسًا: نقد موقف بوكاي من الحديث النبويّ

ونستنتج من ذلك كلّه أنّ بوكاي قد وقف موقفًا متشدّدًا من الحديث النبويّ في مجال الطبّ أو العلوم، بداعي أنّه لا يتوافق مع المعطيات العلميّة الحديثة، ومن ثمّ فهي عنده غير مقبولة من الناحية العلميّة، وأنّ الشكّ يخيّم على صحّتها من وجهة نظره وأنّها من الأمور الدنيا، وليست من أمور الدين[2]. وهي كلّها ادعاءات للأسف لا تصمد أمام المعطيات العلميّة الحديثة التي يُستند إليها. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا: لماذا تطرّق بوكاي إذن إلى الحديث النبويّ في معرض مشروعه بين القرآن والعلم، ما دام الحديث من وجهة نظره لا يلبّي له طموحه إذن؟!! الجواب نجده حاضرًا عند بوكاي ذاته، وإن كان غير مقنع البتّة، حيث

---

[١]- أنظر: موسوعة بيان الإسلام، إنكار حديث الذبابة، على الرابط التالي:
http://www.bayanelislam.net/Suspicion.aspx?id=03- 03- 0090.

[٢]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٨٨.

يشير إلى أنّ المقارنة بين الحديث والمعطى العلميّ: «هو فقط لمقارنتها مع نصوص القرآن العلميّة التي أثبتت دراستها.. أنّها لا تحتوي قطّ على شيء من ذلك غير صحيح، وأنها لملاحظة مهمّة؛ لأنها تشهد كما رأينا للقرآن بأنّه وحي لا شكّ فيه، وأنّه لا يد فيه للبشر»[1].

لكن بالنظر إلى بيان التوافق العلميّ بين الحديث النبويّ ومعطيات العلم الحديث مما تبيّن لنا في السطور السابقة نجد أنّ ادعاءات بوكاي بخصوص الحديث -ويؤسفني وصف نقده بالادعاءات- هنا باطلة، فكم من حديث أثبت العلم الصحيح صحّته، من خلال الاكتشافات التي يقدّمها لنا العلم يومًا بعد يوم، فبما أنّ بوكاي كان يتحاكم بالعلم ويستند إليه، فقد كان من اللازم أنّ يكون التحاكم إليه أيضًا؛ كي تستبين الصورة جيّدًا، ومن خلال هذا الاحتكام ظهر التهافت الذي كان عليه رأي بوكاي في موقفه من الحديث.

لكن هناك نقطة أخرى تسترعي الانتباه، وهي أنّه على الرغم من انتقاد بوكاي لعدد كبير من الأحاديث النبويّة في مجال الطبّ والمعالجة، إلّا أنّه لم يستند في نقده هذا إلى معطى علميّ واحد يبيّن خطأ ما في الحديث كما زعم وحاول أن يشي، فلم نجد عند بوكاي دليلًا علميًّا على صحّة ما ذهب إليه من نقد وسيلة طبّيّة أو علاجيّة وردت في الأحاديث، وإنّما قاس بوكاي الموضوع على عقله، فوجده يخالف طريقة علاجيّة قدمها العلم، وهذا ليس دليلًا على خطأ الحديث، ومن ثمّ كان على بوكاي أن يطرح الموضوع على العلم والتجارب العلميّة، فإن أثبتت صحّة ما جاء بالأحاديث تأكّد من صحّة الحديث، وإن أثبتت خطأه فعندها يكون له الحقّ فيما قال، لكنّه لم يفعل، ولم يناد غيره من العلماء بتقصّي الأمر، وأصدر حكمه جزافًا.

ثمّ السؤال المهمّ الذي يطرح نفسه هنا: هل يجب النيل من الحديث النبويّ لتأكيد صحّة النصّ القرآنيّ؟! ساق بوكاي المقارنة لغاية واحدة اعترف بها في النصّ السابق وهي بيان صحّة الوحي القرآنيّ، وأنّه لم تتطرّق إليه تدخّلات البشريّة، فهل

---

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٨٨.

لكي يثبت هذا كان عليه أن ينتقد الحديث النبويّ؟! فضلًا عن أنّ هذا التوجّه يحمل في طيّاته ادّعاء بشريّة الحديث النبويّ، وهذا فيه انتقاص كبير، وتشويه ظالم للمصدر الثاني من مصادر التشريع؛ كونه وحيًا من لدن ربّ العالمين، وإن لم يكن لفظًا ومعنى، فإنّه بالمعنى، ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ**﴾.

ونحن نعلم -وهذا ما أكّد عليه بوكاي بالفعل- أنّ النبيّ الكريم أتى بمصدري التشريع: القرآن والسنّة. أمّا المصدر الأوّل فقد كان عدد كبير من المسلمين يحفظونه عن ظهر قلب، وكان الصحابة يتلونه على النبيّ الكريمص، وقد مر بالعديد من مراحل المراجعة في أيّامه ص؛ حتى يصل إلى المسلمين بعده من نبعه الصافي ومصدره الإلهيّ كما هو، دون أيّ تدخّل بشريّ. في حين كانت السنّة المصدر الثاني مجالًا للحفظ من قبل المسلمين الذين عاصروا النبيّ وشاهدوا أفعاله وسمعوا أقواله وفهموا تقريره، ومن ثمّ كانت مصدرًا لفهم العقيدة والشريعة. لكن إشكاليّة بوكاي هنا إشكاليّة زمنيّة -إن صحّ التعبير- فكثيرًا ما نفهم من بين السطور إشادة بوكاي بالنصّ القرآنيّ لقرب الفترة التي كُتب فيها من عهد النبيّ الكريم... «وكان ذلك كلّه فيما بين العام الثاني عشر والعام الرابع والعشرين من بعد وفاة النبيّ محمّد ص، وبمعرفة جميع الشهود العيان لما قد سمعوا وحفظوا أو سجّلوا. أمّا فيما يتعلّق بالحديث، فإنّ أوّل مجموعة فيه ظهرت بعد حوالي أربعين عامًّا بعد الهجرة»[1]. والملاحظ هنا أنّ بوكاي يرمي من طرف خفيّ إلى الفترة الزمنيّة التي تفصل بين تدوين أو تسجيل كلّ من القرآن والسنة وبين العهد النبويّ، فتدوين الأوّل كان قريبًا من العهد النبويّ، في حين كان تدوين الثاني بعيدًا، لكي يرمي من طرف خفيّ أيضًا إلى أنّ قرب الفترة الزمنيّة لتدوين القرآن حافظت على نقائه -وهذا حقّ- في حين أنّ بُعدَ الفترة الزمنيّة لتدوين السنة كان كفيلًا بحمل أمور دخيلة، ولكن هل كان بُعد هذه الفترة الزمنيّة مدعاة لموقفه هذا الذي يصل إلى حدّ العداء تجاه بعض الأحاديث خاصّة الطبية منها؟! بالطبع لا؛ لأن هذه الأحاديث خضعت لعمليّة دقيقة من الفحص والتمحيص، حتّى أنّ هناك علمًا

[1]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٨٩.

كبيرًا في باب الحديث يسمّى بباب الجرح والتعديل، مستفيدًا قواعده وشروطه من جهود أولئك النفر الذي جمعوا أحاديث النبيّ في الصحاح كالإمام البخاريّ والإمام مسلم وغيرهما من رجال الحديث ومشايخه. فضلًا عن أنّ كثيرًا من الأحاديث التي تناولها بوكاي بالنقد صحّحها الإمام الألبانيّ، وأكّد على صحّتها، وأنّها تنسب إلى النبيّ الكريم ﷺ.

ولقد بذل العلماء المسلمون جهودًا علميّة مضنية، ضحّوا خلالها بالغالي والنفيس، وقضوا أعمارهم في الحفاظ على السنة النبويّة؛ حيث ميّزوا بين الصحيح وغير الصحيح مما هو منسوب للنبيّ الكريمﷺ، فقد وضعوا علمًا لا مثيل له في اللغات أو الأديان الأخرى، وهو ما يعرف بعلم الرجال أو علم الإسناد، بحثوا من خلاله عن الرواة وسيرتهم الشخصيّة والأخلاقيّة، وما هو مشهور عنهم، في صورة تعبّر عن التقصّي والبحث في أدقّ معانيه.

وكأنّ بوكاي هنا يتّجه إلى الحكم على الحديث بالوضع، ظنًّا منه أنّه متعارض مع القرآن، وهذه الدعوى لا تصدق على السنّة الصحيحة؛ لأنّه لا تعارض بين القرآن. وما صحّة نسبته إلى النبيّ ص؛ لأنّ كلا الأمرين وحي من لدن رب العالمين. ومن ثمّ فقد أخطأ بوكاي في التفريق بين ما هو قرآنيّ وبين ما هو نبويّ، وعليه فقد أخطأ أيضًا في الادّعاء بوجود خلاف بينهما في القضايا الدنيويّة، وهو الأمر الذي قاده إلى الكثير من الاستنتاجات الخاطئة التي مردّها النظر إلى القرآن والسنة على أنّهما مختلفان في المصدر، في حين أنّ وحدة المصدر الإلهيّ هي القاسم الرئيس بينهما.

وهذا لا يعني أنّ هناك تشابهًا بين النصّ القرآنيّ والنصّ النبويّ من حيث الأسلوب أو من وجهة النظر الأدبيّة، لكن ليس معنى هذا أنّ المحتوى في السنّة النبويّة مخالفًا للمحتوى القرآنيّ -علمًا بأنّ القضيّة ليست في المخالفة، ولكنّها في ثبوت أنّ النصّ نبويّ- لأنّ السنّة النبويّة وحي أيضًا، بيد أنّ بوكاي كان يفصل بين محتويين من محتواها: الأوّل: المحتوى العقديّ والتشريعيّ. والثاني: المحتوى العلميّ، ولم يكن المحتوى الأوّل عنده محلّ نقد لمصدريّته الإلهيّة وتوافقه مع

المعطيات العلميّة الحديثة. في حين كان المحتوى الثاني محلّ نقده بداعي أنّه يتحدّث عن أمور دنيويّة، وفي مجال الطبّ والمعالجة التي كان يصرّ على أنّها لا تتوافق مع معطيات العلم الحديث. وقد أكّد بوكاي على موقفه هذا بقوله: «ولئن قارنا بين محتويات نصوص القرآن ومحتويات نصوص الحديث، فيما له صلة بالعلوم، لا بالعقيدة والتشريع، وقابلناها مع معطيات العلم الحديث فسوف تذهلنا حقًّا الفروق»[1]. والفروق التي يشير إليها من وجهة نظره هي التي تتعلّق بمدى موافقة النصّ لمعطيات العلم الحديث من عدمه.

لكنّني أظنّ أنّه لو لم يتعامل بوكاي مع الحديث بفكره المسبق، لربما توصّل إلى نتائج إيجابيّة فيما يتعلّق بتوافق الكثير من الأحاديث النبويّة مع المعطى العلميّ في مجال الطب والمعالجة وغيرها، لكنّه ارتضى لنفسه خطأً أن يدخل هذا الميدان وهو محمّل بتصوّرات سابقة عن الحديث النبويّ، ولو أنّ بوكاي تعامل مع الحديث بحياديّة كما تعامل مع النصّ القرآنيّ لكان من المؤكّد أن يصل إلى نتائج مغايرة. خاصّة ونحن نعلم أنّ الإشارات العلميّة القرآنيّة لم تكن مقبولة له في بادئ الأمر، ولكن عندما أخضعها وغيره للمعارف العلميّة الحديثة ثبت أنّ هذه الإشارات عبارة عن حقائق علميّة لم يتوصّل إليها العلم إلّا في وقت قريب. في حين أنّ الإشارات العلميّة في الحديث لم تكن مقبولة عنده لا في البدء ولا في النهاية، على الرغم من أنّه لم يخضع أيًّا منها لدراسة علميّة تبيّن خطأ ما تنطوي عليه، وإنّما اكتفى بالقول بأنّ العلم يرفضها، أو أنّها غير مقبولة علميًّا. ويلخّص بوكاي رأيه من الحديث بقوله: «فيما يتعلّق بخصوص الأحاديث ذات الصلة بقضايا علميّة لا صلة لها بقضايا الدين، فقد احتوت على آراء اعتبرت اليوم مرفوضة علميّة، ولكنّها -وهي كلّها من أمور الدنيا- يبدو أنّها تعبّر عن مفاهيم ذلك العصر من تلك القضايا، حتى ولو كانت صحيحة في نسبتها إلى محمّد نفسه، وقد أقحمت هذه الآراء الدنيويّة في مجموعة من النصوص المتعلّقة بالعقيدة والشريعة الإسلاميّتين

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٨٩.

مما هو متّفق على الاعتراف بصحّتها وعلى عدم المجادلة فيها»[1].

وهنا تطرأ على الذهن مجموعة من التساؤلات: ما المحتوى العلميّ المرفوض علميًّا في الأحاديث النبويّة؟! وما الذي استند إليه بوكاي لبيان تهافت هذا المحتوى على زعمه؟! لا شيء، بل على العكس فقد تبيّن من خلال ما سبق أنّ هناك العديد من الأبحاث العلميّة حول بعض هذا المحتوى، والتي أثبتت صدق محتواها وتوافقها مع المعطى العلميّ الحديث. ثمّ ما الذي يمنع بعض محتويات الحديث من أن تتعامل مع موضوعات دنيويّة لا دينيّة؟! هل في ذلك ما يشينها أو ينتقص منها؟! وهل في ذلك مدعاة لنقدها، لا لشيء إلّا لتناولها قضايا علميّة بسيطة من البيئة في عصر طالت فيه التكنولوجيا كلّ شيء؟!

ومن ثمّ نفهم أنّ موقف بوكاي من الحديث كان مغايرًا تمامًا لموقفه من الحديث النبويّ، والغريب في الأمر أنه يتّخذ من موقف النبيّ نفسه من القرآن والسنة -إذ المعروف أنّ النبيّ اتّجه إلى تدوين آيات كتاب الله تعالى، ولم يفعل بالمثل مع أحاديثه- منطلقًا لتأكيد سعيه، وهو منطلق أُتّخذ في غير محلّه. فالنبيّ الكريم أمر بتدوين القرآن واهتمّ بترتيب آياته وسوره كما أمره ربّ العالمين، وقد أولى ذلك كلّ عناية واهتمام، فحفظه المسلمون، وصاروا يتلونه في الصلوات، فكان جزءًا من حياتهم. في حين اختلف الأمر مع الحديث، فكان موضع العناية بعد وفاته من قبل المسلمين، الذين صاروا ينشرون أقواله وأفعاله في العالمين.

لكن أليس من الغريب أن يتّخذ بوكاي من ذلك منطلقًا للتفريق بينهما؟! فالقرآن وحي الله الذي لا شّك فيه والذي لا يحوي أيّ خطأ علميّ -وهذا حقّ-، ولكن هل كلام سيّدنا محمّدﷺ في الأمور الدنيويّة التي لا وحي فيها وإن صحّت نسبتها إليه كلام بشر قد يخطئ وقد يصيب كما يحاول أن يجرّنا إليه بوكاي؟! إنّ هذا الكلام عارٍ من الصحّة؛ لأنّ الرسول نبيّ كريم معصوم. لكن الغريب أنّ بوكاي اتّخذ من دعواه هذه منطلقًا للقول بأنّ محتوى الأحاديث حول الطبّ والمعالجة

---

[1]- م.ن، ص٢٨٩.

من قبيل الدنيويّ الذي يخطئ فيه الرسول ويصيب، وهذا تشويه وخطأ كبير.

ولقد تبيّن من خلال أوجه النقد المختلفة التي وُجّهت إلى موقف بوكاي من الحديث النبويّ تهافت المنطلقات التي انطلق منها، وتوافق المحتوى مع المعطيات العلميّة الحديثة في الأحاديث التي توقّف عندها بوكاي وعرضنا لها بالدراسة. ولو أنّ بوكاي كان متّسع الصدر تجاه الحديث النبويّ الشريف -مثلما كان متّسع الصدر مع القرآن- لتوصّل إلى نتائج عظيمة لا تقلّ أهمّيّة عن تلك التي انتهى إليها في القرآن الكريم، من حيث توافقه مع المعطيات العلميّة الحديثة.

كما تبيّن أنّ الذي أوقع بوكاي في هذا الخطأ الكبير أمران: الأوّل: موقفه الرافض المسبق من الحديث النبويّ الذي يعالج قضيّة دنيويّة، الثاني: عدم إخضاعه لأيّ محتوى من محتويات الحديث النبويّ للتجربة، أو الاستئناس بتجارب الآخرين، والتي كان منها بالطبع ما ظهر في حياته في نهاية النصف الأوّل من القرن العشرين. وإنّما اكتفى في كلّ مرة بالقول إنّ هذا الحديث لا يتلاءم أو لا يتوافق مع العلم الحديث فقط، دون أن يستدلّ على هذه المخالفة بأيّ نوع من أنواع الاستدلال.

الفَصْلُ الثّاني

القراءة العلميّة للقرآن
الإيجابيّات والسلبيّات

الفصل الثاني

القراءة العلميّة للقرآن الإيجابيّات والسلبيّات

لا شكّ في أنّ القراءة العلميّة للقرآن التي انطلق منها بوكاي انتهت إلى مجموعة من النتائج التي كان لها أثرها في دائرة البحث الدينيّ، والتي ذاع صيت نتائجها في العالمين الغربيّ والشرقيّ، بحيث أعطت صورة ناصعة عن الإسلام، لكن هذا لا يعني أنّه ليس هناك بعض المآخذ التي يمكن أن تؤخذ على هذه القراءة، إلّا أنّها مآخذ لا تقارن بحجم الإيجابيّات التي تحتوي عليها.

أوّلًا: إيجابيات قراءة بوكاي العلميّة

إعادة النظر في الموقف الغربيّ من القرآن: كانت التأثيرات الإيجابيّة الناتجة عن هذه القراءة العلميّة كبيرة وعميقة، بحيث تقود -من ضمن ما تقود إليه- إلى إعادة الموقف الغربيّ من القرآن برمّته، وهذا ما أراه قد حدث بالفعل، وهذا ما نجده في مسألة القرآن الكريم، حيث كان ينظر الغرب إليه على أنّه كتاب بشريّ من صنع محمّد الذي يعدّ في نظرهم مدّعيًا، وإمعانًا في ترسيخ نظرتهم إلى القرآن على أنّه بشريّ المصدر وسموا المسلمين بأنّهم أتباع النبيّ محمّد أو أنّهم المحمديّون؛ وذلك لترسيخ تلك الصورة المشوّهة عن النبيّ محمّد في الذهنيّة الغربيّة. يقول بوكاي في نصّ يطرح أبعاد هذه القضيّة ويدلّ على التعصّب الغربيّ ضد الإسلام: «هذه الملاحظة هي من الأهمّيّة الأولى؛ لأنّ اليهود والمسيحيّين والملاحدة في البلدان الغربيّة يلتقون على رأي واحد، وبدون أيّ دليل، ليعلنوا أنّ محمّدًا صلى الله عليه وآله كتب أو استكتب القرآن مقلّدًا التوراة، وهذا الموقف هو بنفس خفة الموقف الذي يوصل إلى القول بأنّ عيسى عليه السلام خدع أيضًا معاصريه بسبب تأثّره بالعهد القديم»[1]. ثم

[1]- أنظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٥٢-١٥٣.

يقول مكملًا نقاشه العقليّ وردّه المفحم «وإنجيل متّى بكامله -وقد رأينا ذلك- مبني على مبدأ إتمام السير في خط العهد القديم، فلم يتجرّأ مفسّر ما لهذا السبب على أن ينتزع عن عيسى عليه السلام الوصف بأنّه رسول الله؟! ومع ذلك فإنّ الغربيّين يحكمون في الغالب على محمّد صلى الله عليه وآله بأنّه لم يكن منه إلّا أنّه نسخ التوراة، وهو حكم مطلق مجرّد من أيّ سند، خصوصًا وأنّنا نرى للقرآن والتوراة في الحادث الواحد آيات مختلفة»[1].

مدّ الجسور بين الشرق والغرب: إنّ قراءة بوكاي تعدّ نوعًا من أنواع مدّ الجسور بين الشرق والغرب، لقد «أدرك بوكاي مبكرًا أنّ بناء الجسور بين الغرب والمسلمين والعرب يستلزم العمل الجادّ الدؤوب على إزالة الحواجز المانعة من تحقيق غايته النبيلة، كما أدرك أنّ أخطر تلكم العوائق الصادّة لبناء الجسور والمشتركات العامّة هو ذلكم الفهم الغربيّ المغلوط -بقصد وعمد أحيانًا وبسوء فهم أحيانًا أخرى- للإسلام والعرب والمسلمين»[2].

جاء المستشرق بوكاي لينسف هذه الصورة برمّتها ويستبدلها صورة مغايرة، لكنّها الصورة الحقيقيّة، وهي الصورة التي قوامها أنّ النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله لم يؤلّف النصّ القرآنيّ، وإنّما هو وحي من لدن ربّ العالمين. فقد دهش بوكاي عند اطلاعه على النصّ القرآنيّ لأوّل مرّة بسبب ما يحتويه من غزارة الموضوعات المطروحة ذات الإشارات العلميّة في مجالات الخلق والفلك وجنس الإنسان وتكاثره والنبات والحيوان. في حين أنّه لم يتوان عن الاعتراف بأنّ هناك أخطاء علميّة كبيرة في التوراة في هذه المجالات، وهذا ما أكّده بقوله: «تلك الأمور التي نجد عنها في التوراة -دون نصّ القرآن- أخطاء علميّة كبيرة»[3].

وهذا ما أجبره على طرح التساؤل الآتي:

---

[١]- أنظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٥٣.

[٢]- محمّد الشرقاوي، مرجع سابق، ص١٦.

[٣]- أنظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٤٩.

إذا كان كاتب القرآن بشرًا، فكيف أمكنه في القرن السابع الميلاديّ كتابة ما يثبت أنّه اليوم متّفق مع المعارف العلميّة الحديثة؟! وليس ثمّة أيّ شكّ في أن النصّ الذي بين أيدينا للقرآن هو نصّ ذلك العصر[1].

ولعلّ هذا التساؤل يحاول أن يخاطب فيه بوكاي العقول والأفهام، وهذا -في الحقيقة- هو دأب بوكاي في مشروعه حول القرآن، فهو يعمد دائمًا إلى مجموعة من الأدلّة والقرائن العقليّة التي لا يملك أصحاب العقول أمامها إلّا أن يستسلموا لها دون نقاش أو جدال.

ومن ثمّ كانت قضيّة مدّ الجسور بين الغرب والشرق واحدة من إيجابيّات هذه القراءة البوكابيّة، إذ إنّه «خاض ببسالة معركة ذات مستويين: أولاهما الإقرار بأنّه قد تمّ رسم صورة زائفة مشوّهة للإسلام وتوطينها في الوعي العام في الغرب، مع الإشارة إلى قسمات بعض هذه الصورة الزائفة، التي تبعث على الخوف من الإسلام وكراهية المسلمين والعرب، والأخرى التعرّف إلى الوجه الحقيقيّ للإسلام واستكشاف ملامحه الأصيلة المبهرة وإحلالها محلّ تلك الصورة الكالحة البائسة»[2].

إثبات المصدريّة الإلهيّة للقرآن: لم يستطع بوكاي أن يجد لقضيّة اتفاق القرآن مع العلم تفسيرًا إنسانيًّا من أيّ نوع؛ «إذ ليس من سبب خاصّ للتفكير بأنّ ساكنًا لشبه الجزيرة العربيّة أمكن أن تكون له في الوقت الذي كان يحكم في فرنسا الملك داجوبير ثقافة علميّة سابقة على قرننا الحاضر في بعض الموضوعات بعشرات القرون»[3].

فكيف للنبيّ الكريم صلى الله عليه وآله أن يأتي بنصّ فيه من الإشارات العلميّة ما فيه؟! ولا شكّ في أنّنا أمام إحدى فرضيّتين لا ثالث لهما في سبيل تفسير ذلك، وهما:

الأولى: أنّ العصر الذي نشأ فيه القرآن كان عصرًا علميًّا، وكانت الحياة الثقافيّة

---

[١]- موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٤٩.

[٢]- محمّد الشرقاوي، مرجع سابق، ص١٧.

[٣]- موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٤٩.

والعقليّة متطوّرة فيه بحيث تسمح بتداول أفكار ومعلومات عن الفلك والكون وتكاثر الإنسان وتناسله علميًّا، والإلمام بعلمي النبات والحيوان، وهذا مستحيل بكلّ المقاييس، إذ لم تكشف لنا هذه الفترة التاريخيّة -سواء من خلال الكتب أو الوثائق أو الآثار أو غيرها- عن شيء من هذا، ولو كان العرب في الجاهليّة قبل نزول الإسلام أو وقت نزوله لديهم شيء من هذا، لكان مذاعًا ومعروفًا لنا بكلّ السبل الممكنة في نقل الأخبار، لكنّ شيئًا من هذا لم يحدث، فدلّ حتمًا على انتفائه.

الثانية: أنّ هذا كتاب سماويّ أنزله الله تعالى على نبيّه الكريم عن طريق أمين الوحي جبريل عليه السلام، حيث إنّ الإشارات العلميّة الموجودة به والتي لا تنمّ عن معرفة سابقة لدى عرب الجاهليّة بها، أو بجزء يسير منها، والتي لم يكن للعالم قبل الإسلام عهد ولا علم بها لتكشف للوهلة الأولى أنّ هذا كتاب ذو مصدريّة إلهيّة، فليس باستطاعة إنسان، كائنًا من كان، أن يأتي بمثل هذه الإشارات في مجالات شتّى في عصر تملؤه البداوة والسذاجة العلميّة كالعصر الجاهليّ. وهذا هو ما يؤيّده موريس بوكاي في أكثر من موضع في كتابه القيم، ومن هذه المواضع ما يشير فيه مخاطبًا العقول السليمة لا العقول المغلقة: إلى أنّ ملاحظة الاقتران بين القرآن والعلم تجعل افتراض من يرون محمّدًا صلّى الله عليه وآله سلّم كاتبًا للقرآن مرفوضًا، ومن ثم يُبدي تساؤلًا منطقيًّا: كيف يتيسّر لرجل حُرم العلم في نشأته أن يصبح -على الأقلّ من وجهة نظر القيمة الأدبيّة- الكاتب الأوّل في الأدب العربيّ كلّه، مخبرًا عن حقائق في النظام العلميّ تتجاوز وسع أيّ كائن إنسانيّ في هذا الزمن، ودون أن يكون منه أيّ خطأ مع ذلك؟![1]. ومن ثمّ انتهى بوكاي إلى «الحكم بأنّ من المستحيل تصوّر رجل عاش في القرن السابع الميلاديّ، واستطاع أن يورد في القرآن أفكارًا في موضوعات متنوّعة جدًّا، ليست أفكار عصره تلتقي مع ما سيكتشفه الناس منها بعد قرون متأخّرة عنه؟! أما بالنسبة إليّ فليس للقرآن أيّ تفسير بشريّ»[2].

---

[١]- موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٥٤.

[٢]- م.ن، ص١٥٤.

كان بوكاي يدرك أنّه من الثابت أنّ معارف العصر العلميّة زمن الوحي القرآنيّ – والذي يمتدّ عنده من مرحلة قريبة من عشرين سنة قبل الهجرة وبعدها ٦٢٢م كانت في حالة ركود منذ قرون، مؤكدًا على أنّ الفترة النشطة للمدنيّة الإسلاميّة مع النهضة العلميّة التي واكبتها كانت لاحقة على نهاية الوحي القرآنيّ. ومن ثمّ فقد رفض رفضًا قاطعًا تلك الفرية التي تقول: إنّ الفضل في وجود يقينيّات في القرآن ذات سمة علميّة مدهشة يعود إلى تقدّم المعارف العربيّة آنذاك واستفادة النبيّ محمد منها. «والذي يعرف شيئًا عن تاريخ الإسلام، ويعلم أنّ مرحلة النهضة الثقافيّة والعلميّة في العالم العربيّ في القرون الوسطى متأخّرة عن محمّد، لا يسمح لنفسه بمثل هذه الترّهات. إنّ عدم صحّة مثل هذه الأفكار بعيد عن هذا الحديث؛ إذ إنّ أكثر الأعمال العلميّة المشار إليها أو المصرّح بها بشكل بارز في القرآن لم تثبت صحّتها إلّا في هذا العصر الحديث»[1].

وقد ألقى بوكاي اللوم على مفسّري القرآن في القرون السابقة على عصر العلم بسبب عدم قدرتهم على اكتشاف الجوانب العلميّة في القرآن؛ فذهب إلى أنّهم ارتكبوا أخطاءً في تفسير بعض الآيات التي لم يكونوا يدركون معانيها الدقيقة، وقد ظلّوا كذلك حى فترة قريبة، إلى أن استطاع بعضهم الوصول إلى التفسير العلميّ السليم لها، ومرجع الخطأ في نظره أنّهم انكبّوا على الجانب اللغويّ للنص القرآنيّ، دون أن يمتلكوا المعارف العلميّة التي تمكّنهم من ذلك، لكن بوكاي فيما أظن كان قاسيًا على المفسّرين في هذه الجزئيّة؛ إذ إنّهم مجرّد مفسّرين وليسوا علماء فلك أو غيره، خاصّة أنّ عصرهم لم يكن عصر اكتشاف علميّ بحيث يمكنهم من استخراج الإشارات العلميّة من القرآن، فهذا كله اكتُشف قريبًا. ورغم ذلك فإنّ بوكاي في موضع آخر ذهب إلى ما يشبه تبرأتهم عندما قال: «وقصارى القول هنا إنّ إنسان القرون الماضية لم يكن قادرًا على أن يكشف من ذلك إلّا وفق ظاهر المعنى الذي قد يحمله في بعض الأحوال على الوصول إلى نتائج غير صحيحة؛ نظرًا لعدم اكتمال معرفته إذ ذاك»[2].

---

[١]- أنظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٤٩-١٥٠.

[٢]- م.ن، ص١٥٠.

بدأ من حيث انتهى الآخرون: ومما يحسب لبوكاي من وجهة نظري في قراءته العلميّة أنّه بدأ من حيث انتهى الآخرون، فقد كان هناك مفكّرون سابقون عليه ولجوا قضيّة القرآن والعلم، واستشهدوا بعدد من الآيات القرآنيّة التي تدلّ على أنّ القرآن أخبر بالموضوع قبل أن يصل إليه العلم الحديث، وأسّسوا لمسألة الإعجاز العلميّ في القرآن. ولا شكّ في أنّ المستشرق بوكاي قد استفاد من هذه الجهود أيّما استفادة، وقد اعترف بذلك مبيّنًا أثر تلك الدراسات فيه وفي مشروعه الفكريّ حول القرآن الكريم. وفي ذلك يقول: «وربما يبدو تصنيف الآيات القرآنيّة لدراسة صورها العلميّة شديدة الاقتضاب بالنسبة إلى بعض الكتّاب المسلمين الذين لفتوا النظر قبلي إلى هذه الوقائع، وبالجملة فإنّه يخيّل إليّ أنّي استحصلت على عدد أقلّ من الآيات مما فعلوا»[1].

واستناد بوكاي إلى عدد أقلّ من الآيات القرآنيّة يعني -في التحليل الأخير- أنّه يهتمّ بالكيف لا بالكمّ؛ إذ كان له أن يذكر الآيات جميعها، لكنّه لجأ فقط إلى ما يثبت القضيّة محلّ النقاش والتي ساقها للإشارة إلى الجانب العلميّ فيها، لأنّ قراءته العلميّة لم تكن قراءة إحصائيّة ولا استقصائيّة، ولكنها كانت دراسة استدلاليّة استقرائيّة، تنطق من بعض المقدمات لإصدار حكم يتّفق معها، وهذا ما فعله بوكاي، فقد استند إلى عدد من الآيات دون كلّيّتها بهدف الاستدلال على التوافق المدهش بين القرآن والعلم.

وضع الأمور في نصابها الصحيح: لا شكّ في أنّ من إيجابيّات هذه القراءة العلميّة للقرآن الكريم أنّها وضعت الأمور في نصابها الصحيح دون تهويل أو توهين، فقد كان يعتمد على المعطيات العلميّة التي كان يعتقد أنّها ثابتة من الناحية العلميّة بنسبة مئة في المئة، فالمعطيات العلميّة التي اعتمد عليها في تأكيد التوافق بين القرآن تأكّدت بالنسبة له من جهة العلم الحديث، أمّا التي لم تكن مؤكّدة من هذه الجهة، فإنّ بوكاي كان يرفضها، ونفهم من هذا أنه أرسى مبدأً في محاولة إثبات التوافق بين القرآن والعلم -الذي يجب كذلك أن يطبّق في مجال الإعجاز العلميّ

[١]- أنظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٥٠.

في القرآن- هذا المبدأ قائم على ضرورة التثبّت من الرأي العلميّ المراد إثبات توافق القرآن معه، حتى لا يتّهم القرآن ذاته إذا تبيّن مستقبلًا خطأ هذا الرأي.

قضيّة إثبات التوافق: إنّنا ندرك جيّدًا أنّ قضيّة إثبات التوافق هذا أو قضيّة الإعجاز العلميّ قضيّة شائكة ومن الخطورة بمكان ولا يلجها إلّا من ملك ناصيتها، لا يُستند فيها على مجرّد رأي لم يثبت يقينًا من الناحية العلميّة. ولعلّ هذا الأمر من الإيجابيّات التي تقدّمها لنا قراءة بوكاي العلميّة للقرآن الكريم.

إلّا أنّه لم يعتمد على الثابت فقط، بل كان يعتمد على المقبول علميًّا في بعض الأحيان، والمقبول علميًّا هو الذي لم تُكتشف أبعاده كلّها بعد، لكنّه مقبول حدوثه عند عدد من العلماء المشهود لهم بالرأي، وهذا الأمر فعله بوكاي تحديدًا في قضيّتين: الأوّل قضيّة وجود كواكب شبيهة بالأرض، والثانية قضيّة غزو الفضاء والانطلاق عبر الكون.

لقد بحث بوكاي فيما إذا كان في القرآن ظواهر قريبة من الفهم الإنسانيّ، ولم تتأكّد من جهة العلم الحديث، فبدا له أنّه رأى في القرآن إشارات إلى وجود كواكب شبيهة بكوكب الأرض، مؤكّدًا على أنّ عددًا من العلماء يعدّون هذا مقبولًا تمامًا، «ولو لم تكن المعطيات الحديثة قد توصّلت حتى الآن إلى أقلّ تأكيد لها، فرأيت أنّ عليّ أن أعرضه مع كامل التحفّظات»[1].

ولعل قضيّة وجود كواكب شبيهة بكوكب الأرض من القضايا التي لو يفصل العلم فيها إلى الآن، لكن الكون يومًا بعد يوم يفصح عن أسراره، والآراء حول هذه القضيّة ليست محلّ اتفاق من الجميع، فإنّ من يؤكّد على أنّ وجود حياة على كواكب أخرى جائز من الناحية الشرعيّة، وهناك من وقف عن الحديث في القضيّة؛ كونها أمرًا من الغيبيّات التي علمها عند الله تعالى.

لكن من الأكيد أنّه ليس هناك نصّ يمنع من ذلك؛ فكونُ الله تعالى فسيح وفي

---

[١]- أنظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٥١.

اتساع متواصل بقدرة من يقول للشيء كن فيكون، فالحياة تدبّ في الكون؛ خاصّة إذا علمنا أنّ في الكون -حسب البحوث الفلكيّة- مئة ألف مليون مجرّة، في كلّ مجرة مئة ألف مليون شمس كشمسنا، ومن ثمّ فليس من المستبعد أن تكون هناك حياة في أركان أخرى من الكون العامر بمعجزات الله تعالى، فهذه احتماليّة ممكنة، لكنّ طبيعة هذه الحياة غير معلومة، فعلمها عند الله.

هذا يعني أنّ الأرض التي نعيش عليها ليست أكثر من قطرة في بحر الكون الفسيح، أو مجرّد ذرّة في الكون، ومن ثمّ فاحتماليّة وجود الحياة كبيرة، فإذا كان الكون يشمل كلّ هذه المجرّات؟ أفليس تحقيقًا لعبوديّة الله تعالى أن تكون هناك حياة في كواكب أخرى بمجرّتنا أو بمجرّات أخرى، وتحقيقًا لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ سورة هود، الآية ٧، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ سورة ق، الآية ٦.

ومن الآيات التي قد تشير إلى شيء من هذا قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (سورة يس، الآية ٨١) وقوله سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ سورة الشورى، الآية ٢٩. ومن ثمّ فقد تكون هناك عوالم أخرى، لكن لا يجوز القطع بهذا؛ لأنّ النصوص هنا ليست صريحة في هذا الأمر، وإنّما تحتمل أكثر من توجيه أو تأويل. وبناءً عليه فإنّه من الأفضل السكوت عما سكت عنه الشرع، ومن ثم فلا نثبت وجود عوالم أخرى أو ننفي، ونترك الأمر لله تعالى، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ سورة الإسراء، الآية ٣٦.

لكن يحسب لبوكاي هنا على كلّ حال في هذه القضيّة أنّه ولج قضيّة شائكة ولم يخش من ولوجها، على الرغم من أنّ اللغة العربيّة لغة ثانية بالنسبة له، ولها أسرارها التي لا يعلمها إلّا الملمّ بها، ومن ثمّ فإنّنا نرى أنّ من إيجابيّات هذه القراءة العلميّة أنّها تلج مناطق ربما تكون جديدة، وتحاول أن تدلي فيها بدلوها،

وتوجّه أنظار المسلمين والمفكّرين منهم خاصّة إلى نصوص ثريّة في القرآن يمكن أن تكشف عن إعجاز علميّ واضح عند التمعّن فيها، وإعادة فهمها في ظلّ التقدّم العلميّ الحديث.

كذلك من الظواهر القريبة من الفهم الإنساني، والتي لم تتأكّد من جهة العلم الحديث عند بوكاي قضيّة غزو الفضاء، يقول: «لقد رأينا في ذلك الوقت تبعًا للتجارب الأولى لإطلاق الصواريخ بأنّه سيكون لدى الإنسان يومًا ما قدرة النفوذ ماديًّا من المحيط الأرضيّ وأن يغزو الفضاء، وقد عرفنا أنّ في القرآن آية تتنبئ بذلك، وقد تحقّق بالفعل»[1]. وهو يقصد هنا تلك الآية التي يقول فيها ربّنا: ﴿... إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ سورة الرحمن، الآية ٣٣.

ويحسب لبوكاي في مشروعه عن القراءة العلميّة للقرآن الكريم أنّه لم يكن يهدف منه إلى تأمين عمليّة التوافق بين القرآن والعلم الحديث كيفما اتفق دون البحث عما يقوّي من عمليّة التوافق؛ إذ لم يكن من أولئك النفر الذين يتّجهون لإثبات فرضيّة ما تبدو متفقة مع رواية ما من الروايات دون أن يكون قد اهتمّ بإثبات ما يقابلها من المعطيات التي يقدّمها القرآن الكريم في نصوصه؛ بحيث يكون التوافق مع المعطى العلميّ أو المعطى التاريخيّ الأثريّ بارزًا.

إنصاف القرآن الكريم: يعد هذا الأمر من أكثر الأمور إيجابيّة في القراءة العلميّة للقرآن الكريم عند بوكاي، فقراءة الرجل في موارد ومواضع كثيرة تعبّر عن شفافية وإنصاف للبحوث والقضايا القرآنية التي بحثها، لا تعصّبًا ولا مجاملة، وإنّما انصياعًا للمنهج البحثيّ والأمانة العلميّة، وإذا كان بوكاي انتهى في كلّ قضيّة من القضايا القرآنيّة التي عالجها على طول مشروعه العلميّ إلى أنّ القرآن يتوافق في إشاراته العلميّة مع معطيات العلم الحديث، فإنّ هذا في التحليل الأخير إنصاف للقرآن الكريم وإنصاف لمن حمل رسالة الإسلام من قِبل الله تعالى إلى المسلمين.

[١]- أنظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٥١.

ونحن نلمس هذا الإنصاف بكل وضوح في تناوله لكلّ محور من محاور مشروعه، ففي قضيّة تدوين القرآن لم ينتهج ذلك النهج التعصّبيّ الذي انتهجه نولدكه أو تيسدال أو غيرهما من المستشرقين، ممن شكّكوا في جمع القرآن، وشكّكوا في مصدريّة الكثير من آياته، وإنّما اعترف الرجل بمنهجيّة التدوين والحرص على النقل بأمانة بدءًا من الكتبة، وحتى مرحلة النسخ أيّام عثمان وما بعدها. وفي قضيّة الموقف الغربيّ من القرآن الكريم والإسلام عامّة وقف بوكاي موقفًا منصفًا أيضًا؛ خاصّة بعدما رآه من التشويه المتعمّد وغير المتعمّد من قبل الغربيّين تجاه الإسلام والمسلمين، ولم يكن إنصافه يقف عند مجرّد التلفّظ بالقول من دون دليل، ولكنّه كان يحمل معه عددًا من الأدلّة التي تنسف الموقف الغربيّ من الأساس، وأهمّها على الإطلاق التوافق الذي أثبته بين القرآن والعلم الحديث.

ولا شكّ في أنّ هذا الإنصاف قاد ولا زال يقود إلى إزالة تلك الصورة القاتمة التي صنعها الغرب تجاه الإسلام والمسلمين، كما أنّه قاد في الوقت ذاته إلى حملة مضادة من الناقمين على بوكاي نتيجة تلك الصراحة وذاك الإنصاف.

فتح الباب أمام مدارسة القرآن في الغرب: من ضمن إيجابيّات هذه القراءة أنّ بوكاي فتح حوارًا عميقًا ومدارسة مفتوحة بما صنعه في قراءته العلميّة، وكأنّه يقول للغرب هلمّوا إلى قراءة القرآن الكريم؛ لنبحث فيه عما يناقض العلم، أو ما يتفق معه، فإن كانت الأولى كنتم على حقّ، وإن كانت الثانية فليس أمامكم إلّا أن تعترفوا له بالمصدريّة الإلهيّة، وتكفّوا عما تشيعونه من افتراءات حوله. لكنّ هذه المدارسة هي مدارسة علماء على دراية واسعة بمعطيات العلم الحديث، وعلى دراية كذلك باللغة العربيّة والتفسير والقرآن الكريم، حتى يكون الجميع على قدر واحد من العلم فيكون ذلك ملزمًا بما تؤول إليه المدارسة من نتائج.

ومن ثمّ فإنّ هذه المدارسة وذاك الحوار ليس فيه مكان للمتعصّبين، فمن أراد حوارًا ومدارسة فليأتِ خالعًا عنه رداء التعصّب، هذه القراءة العلميّة للقرآن الكريم تقود إلى هذه القضيّة الجوهريّة، وقد أكّد على إمكانيّة تلك المدارسة وهذا

الحوار بالاستناد إلى وثيقة الفاتيكان التي وجدها تحمل قدرًا كبيرًا من التسامح يصحّ أن يكون أرضيّة لعلاقة المسيحيّين المستقبليّة بالإسلام.

الإعلاء من شأن القرآن على ما عداه من الكتب: هذه إيجابيّة أخرى غير إيجابيّة الإنصاف التي سبق أن تحدّثنا عنها. فقراءة بوكاي تعلي من قيمة القرآن على غيره من الكتب من جهة التوافق بين نصوصه في إشاراتها العلميّة والقرآن الكريم. وهذا التوافق المثبت بالنصوص والأدلّة قاد إلى الإعلاء من القرآن على هذه الكتب أيضًا في قضيّة المصدريّة، فالتوافق الحاصل هنا بين القرآن والعلم يقود إلى الإقرار والإذعان بالمصدريّة الإلهيّة للقرآن الكريم، والمصدريّة البشريّة لما عداه، فالمصدر الإلهيّ لا ينبني مطلقًا على خطأ، في حين ينبني ما عداه عليه.

وقد انتهى بوكاي إلى هذه النتيجة بعدما ظهر له كمُّ هذا التوافق بين القرآن والعلم، وبعدما ظهر له أيضًا كمُّ المخالفة بين غيره من الكتب والعلم. ومن ثمّ كانت قضيّة الإعلاء من قيمة القرآن مبنيّة على الدليل والبرهان لا الهوى والتعصّب، الأمر الذي يؤكّد على أنّ هذه إيجابيّة كبيرة قادت إليها القراءة العلميّة للقرآن الكريم في المدرسة البوكابيّة.

ثانيًا: ما يؤخذ على بوكاي في قراءته العلميّة للقرآن

تسرّع بوكاي في بعض الأحكام غير المدروسة والتي أوقعته في بعض الأخطاء، من هذه الأخطاء ما يلي:

١- ظنّه أنّ علماء المسلمين كعلماء اليهوديّة-المسيحيّة في القول بأنّ العلم والدين مفترقان، وهذا ما أشار إليه في قوله: «في حين تستوي البلاد المتأثرة باليهوديّة-المسيحيّة مع البلاد الإسلاميّة في القول -وبخاصة في الأوساط العلميّة- بأنّ الدين والعلم لا يلتقيان». وهذا الكلام لا يستقيم مطلقًا، وذلك لسببين جوهريّين؛ الأوّل: أنّ علماء المسلمين ليسوا كعلماء اليهوديّة-المسيحيّة؛ لأنّهم يدركون جيّدًا العلاقة بين الإسلام والعلم ويؤكّدون عليها ويفاخرون بها، «فهذا الكلام إنّ صحّ قبوله

لدى لعلماء الدين اليهوديّ أو علماء النصرانيّة، فإنّه مرفوض لدى علماء الإسلام الذين يعتزّون ويفتخرون ويؤكّدون أنّ العلم والدين توأمان لا غنى لأحدهما عن الآخر»[1]. والثاني، أنّ القرآن الكريم -والسنة النبويّة المطهّرة- يزخر بالآيات التي تدعو إلى العلم والحثّ عليه، من ذلك:

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سورة الزمر، الآية ٩.

وقوله سبحانه: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ سورة المجادلة، الآية ١١.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ سورة طه، الآية ١١٤.

وقوله أيضًا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ سورة فاطر، الآية ٢٨.

فضلًا عن كمّ الأحاديث التي تدعو إليه وتدفع المسلمين إليه دفعًا، من ذلك:

«طلب العلم فريضة على كلّ مسلم «[2].

«من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهّل الله له طريقًا إلى الجنّة»[3].

٢- من هذه الأخطاء التي وقع فيها المستشرق موريس بوكاي الظنّ بأنّ الإسلام يرى توافقًا بين معطيات الكتب المقدّسة وبين الحقائق العلميّة، حيث يقول تحديدًا: «بيد أنّ الإسلام يرى كالقديس أغسطين بالنسبة للتوراة بأنّ ثمّة توافقًا بين معطيات الكتب المقدّسة وبين الحقائق العلميّة، ولم تقم دراسة نصّ الوحي الإسلاميّ في العصر الحديث بتعديل هذا الموقف»[4]. فمن قال إنّ هناك توافقًا مثل هذا من المسلمين؟ إذ لم يذكر لنا بوكاي أحدًا ما قال هذا، وإذا كان يتحدّث

[١]- حسن خالد هامش ترجمة كتاب موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٦.

[٢]- رواه أبو سعيد الخدري، انظر: السيوطي، الجامع الصغير، ٥٢٤٦.

[٣]- رواه مسلم، انظر: عبد العزيز الراجحي، كتاب شرح سنن ابن ماجه، ج١٥، ص٤.

[٤]- انظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٩.

عن أنّ الإسلام يقر بهذا التوافق، فمن أين أتي بوكاي بحكمه هذا؟ فليشر لنا إلى أيٍّ من الآيات أو الأحاديث التي تذكر ذلك؟ فبناءً على علمنا ليس هناك أحد من المسلمين قال بذلك التوافق، كما أنّه ليس في القرآن ما يشير إلى شيء من هذا.

٣- في معرض حديث بوكاي عن وثيقة الفاتيكان التي رأي -فيما أظنّ- أنّها تمثّل صورة عليا من صور التلاقي والتواصل أيّد ما ذهبت إليه الوثيقة من أنّ كلمة الله في القرآن هي اللفظة العربيّة الوحيدة التي يمكن أن تفيد معنى لفظ الإله ديو عند المسيحيّين، فالمسلمون والمسيحيّون يعبدون إلهًا واحدًا[1]. لكن هذا لا يعبرّ عن التعبير الصحيح عن طبيعة مفهوم الاعتقاد عندهما، والاعتقاد في الله يختلف اختلافًا جذريًّا بينهما، وإلّا فلماذا قال الله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ سورة الأعراف، الآية ١٩٠؟! ولماذا قال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ سورة الصافات، الآية ١٥٩؟! هذا يعني أنّ هذا الأمر لم يكن واضحًا عند بوكاي، ولا ندري ما الذي منعه؟!

٤- من المآخذ التي يمكن أن تؤخذ على القراءة العلميّة عند بوكاي أنّها لم تستأنس بالأحاديث النبويّة، على الرغم من أنّ كثيرًا منها يعالج بعض القضايا التي كشف عنها العلم الحديث، ولا ندري لماذا لم يعطِ لنفسه الفرصة لذلك، خاصّة أنّ هذا الأمر كان سيؤكّد على المصدريّة الإلهيّة للوحي القرآنيّ، خاصّة إذا علمنا أنّ السنّة النبويّة مفسّرة للقرآن ومقيّدة لما أطلقه أي أنّها لا غنى عنها باعتبارها وحي من الله تعالى لرسوله مصداقًا لقوله تعالى ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ سورة النجم، الآيتان ٣.

إنّنا نعتقد أنّ الذي دعاه لذلك أمران:

الأوّل: اتّساع مادّة الحديث النبويّة عن القرآن الكريم، الأمر الذي كان سيقوده إلى بذل الكثير من الجهد، وربما هو لم يكن في استطاعته ذلك؛ خاصّة أنّ من الأحاديث ما حكم العلماء بضعفه.

---

[١]- أنظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٤١-١٤٢.

الثاني: أنّه لم يكن يعير موضوع الحديث النبويّة أهمّيّة من الأساس، أو أنّه لم يكن في نظره يقوم على أرضيّة علميّة كما في القرآن. وأظنّ للأسف أنّ هذا هو الأمر الرئيس الذي أهمل بسببه بوكاي الحديثَ النبويّ دون دراية.

والذي كان يقوّي هذا الزعم لدينا نظرة بوكاي ذاته إلى الأحاديث النبويّة بالنسبة لسيّدنا محمّد على أنّها كالأناجيل بالنسبة لسيّدنا عيسى، بحجّة أنّها روايات عن أفعال النبيّ وأقواله، وأنّ كتّابها ليسوا شهود عيان، حتّى أنّه ينظر إلى الأحاديث المشهورة والأكثر أصالة على أنّها لا تغيّر من نظرته شيئًا، باعتبارها متأخّرة عن عصر النبيّ. ويسير بوكاي في تخبّطاته تجاه الأحاديث قائلًا: «إنّها لا تؤلف في أيّ نوع منها كتبًا حاوية الوحي المكتوب، إنّها ليست كلمات الله، بل تنقل أقوال الرسول. إنّنا نرى في هذه الكتب المنتشرة يقينيات تحوي أخطاءً من وجهة النظر العلميّة، وخاصّة في الوصفات الطبية، لكن من يستطيع الجزم بأصالة هذه الأخبار المنسوبة إلى الرسول؟!»[1].

وهذه النظرة نظرة فيها تقليل من قيمة الحديث النبويّ ومكانته، لكن المشكلة الرئيسة في هذه النظرة أنّ نظرة بوكاي للأحاديث تماثل نظرته للأناجيل، فعاملها بالمثل، وكأنّه ينظر إليها على أنّ مصدرها بشريّ، وهذا لا يتّفق مطلقًا من الناحية الشرعيّة؛ لأنّ الأحاديث وحي من قبل الله تعالى، إذا ثبت لدى الثقات أنّها صحيحة وثابتة.

ومن قال إنّها ليست وحيًا من الله؟ لقد أخطأ بوكاي هنا خطأً كبيرًا لا يغتفر؛ إذ كان عليه أن يتعمّق في دراسة الإسلام أكثر، إذ لو فعل ذلك لعلم مقدار ما ينتاب كلامه من تهافت في هذه الجزئيّة؛ لأنّ الأحاديث الثابتة الصحيحة وحي من الله تعالى، ويكفي تزكية ربّه له بأنّه لا ينطق عن الهوى و»إن الذي عليه إجماع الصحابة وأهل العلم أنّ النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لا ينطق عن الهوى، وهو ما أثبته القرآن في سورة النجم في قوله: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى**﴾، وأنّ الحديث الثابت عن رسول

---

[١]- أنظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٥٣.

اللهﷺ سواء أكان قولًا أو تقريرًا أو فعلًا متعلّقًا بأمر من أمور الدين هو وحي من الله تبارك وتعالى قدّمه الرسولﷺ بعبارته»[1].

وعلى الرغم من أنّ بوكاي بيّن السمة العلميّة في عدد من الأحاديث، موضحًا توافقها مع معطيات العلم الحديث، إلّا أنّ الأساس الذي يميّزها عنده عن القرآن الكريم هو أنّه ليس هناك آية غير مقبولة من الناحية العلميّة، في حين يذهب إلى أنّ الفرق كبير في الأحاديث، ليس هذا فحسب، بل إنّه شكّك في أصالتها وطعن فيها[2].

لكن مشكلة بوكاي هنا أنّه نظر إلى مجمل المنسوب إلى النبيّ الكريم، ثمّ أصدر حكمًا عليه، ولو أنّه حصر نظره في الثابت والصحيح منها لما أصدر مثل هذا الحكم العام، ولانتهى في دراسته للأحاديث الثابتة مثلما انتهى في دراسته عن القرآن الكريم، لكنّه لم يفعل ذلك، فأصاب حكمه كثير من التعميم، وما كان لمفكّر كبير مثل بوكاي أن يقع فيما وقع فيه هنا.

٥- لا شكّ في أنّ حديث بوكاي عن التوافق بين القرآن وعلم الفلك كان رائعًا، وأفصح عن العديد من مواطن الإعجاز في القرآن الكريم، إلّا أنّه وقع في خطأ كبير؛ إذ عندما رفض القول بأنّ القرآن قد حدّد عدد الكواكب بأحد عشر كما جاء في سورة يوسف، فإنّه رفض هذا بناءً على ظنّه بأنّ ما رآه سيّدنا يوسف في منامه قصّة خياليّة، وهذا مما لا يجوز في حقّ الأنبياء؛ لأنّ رؤاهم وحي من الله تعالى. نحن لا نتحدّث هنا عن أن الآية تحدّد عدد الكواكب أم لا؛ لأنّ ذلك في علم الله تعالى، ولكن ما نتحدّث عنه هنا هو وصف بوكاي للقصّة؛ ذلك الوصف الذي لا يجوز لا في حقّ البشر ولا في حقّ نبيّ كسيّدنا يوسف.

٦- وقع بوكاي في خطأ جسيم يصل إلى حدّ التطاول على القرآن، ولم يراعِ أدبًا في تعامله مع بعض معطيات النصّ القرآنيّ، بدليل أنّه وصف نظام حساب الزمن

---

[١]- أنظر: مقدمة ترجمة كتاب موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، هامش ص١٥٢.

[٢]- أنظر: موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص١٥٣.

في قول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة يونس، الآية ٥) بأنّه نظام متخلّف وغير عمليّ في أسلوب لا يليق في حقّ القرآن؛ حيث يقول تحديدًا: «وقد رأينا من قبل أنّ القرآن يبرز الأهمّيّة لحساب الزمن من ملاحظة حركات القمر -يقصد في الآية السابقة-... ولقد انتقدنا كثيرًا هذا النظام في الحساب كنظام متخلّف وغير عمليّ ولا علميّ بالنسبة لنظامنا المؤسّس على دوران الأرض حول الشمس الذي يعبّر عنه في عصرنا بتقويم جوليان»[1].

وعندما يعلّل المستشرق بوكاي سبب نقده لهذا الحساب القرآنيّ يستند إلى أمرين يظهران مدى ما انتابه من تناقض كبير في هذه القضيّة:

الأوّل: أنّ القرآن يخاطب منذ أربعة عشر قرنًا سكّان الجزيرة العربيّة الذين كانوا يستخدمون الحساب القمريّ للزمن، وكان من المناسب عنده أن يستخدم هذا الحساب باعتباره اللغة الوحيدة التي كانوا يعرفونها، في حين من غير المناسب عنده أن يستخدم حساب الشمس من خلال تتبّع حركات الفضاء والزمن التي كانت بالنسبة إليهم كاملة الفاعليّة مستدلًّا على ذلك بأنّ سكّان الصحراء كانوا معتادين على ملاحظة السماء والاهتداء بالنجوم وضبط أوقاتهم تبعًا لحركات القمر وهي الوسائط الأيسر والأضبط بالنسبة لهم[2].

نعم، إنّ القرآن الكريم في حسابه القمريّ للزمن كان يراعي أولئك النفر الذين كانوا يسكنون الجزيرة العربيّة تقريبًا لأفهامهم وما انطبعت عليه عاداتهم من التعامل بهذا الحساب، لكنّ القرآن الكريم كان الكتاب الذي نزل على النبيّ الكريم يخاطب الله تعالى به العالمين، وليس أهل الجزيرة العربيّة فحسب؛ لأنّ الدعوة كانت للناس كافّة، ومن الاستحالة أن يخاطب الله تعالى البشر في القرآن بما يوصف بالتخلّف والرجعيّة والتنافي مع العلم والعمل كما اتّهم بوكاي. ولكنّه

---

[1]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص١٩٥.

[2]- م.ن، ص١٩٥-١٩٦.

خاطب الناس؛ لأنّ هذا النظام الحسابيّ صالح لكلّ زمان ومكان، وليس وقفًا على أهل الجزيرة العربيّة فحسب.

لكنّ هذا الموقف الذي اتّخذه بوكاي يتنافى مع قول الله تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ**﴾ سورة البقرة، الآية ١٨٩، خاصّة وأنّ الفرائض من صلاة وصوم وغيرهما تقوم بالأساس على الحساب القمريّ، فمعرفة شهر الله تعالى المحرّم تقوم عليه لبدء السنة الهجريّة الجديدة، ومعرفة بداية شهر رمضان تقوم عليه حتى يتسنّى للناس بدء الصوم، كما أنّ معرفة بداية شهر شوال تقوم عليه لمعرفة عيد الفطر، ومعرفة بداية شهر ذي الحجة تقوم عليه لمعرفة يوم الوقوف بعرفات، وكذلك عيد الأضحى المبارك.

فالتقويم الهجريّ يعتمد على قياس دورة القمر حول الأرض، فباكتمال دورة القمر حولها يكتمل الشهر الهجريّ، وهذا بخلاف الشهر الميلاديّ الذي يعتمد على التقويم الشمسيّ الذي يقوم على قياس دورة الأرض حول الشمس. ومن ثمّ فإنّ بداية الشهر الهجريّ تُقاس بناءً على رؤية الهلال، وهذا يجعل بداية الأشهر الهجريّة غير معروفة أو غير محدّدة سلفًا كما في التقويم الشمسيّ الميلاديّ، وهذا ما يجعل أيّام الشهر الهجريّ تتراوح بين تسعة وعشرين يومًا وثلاثين يومًا. وهذا ما يجعل السنة الهجريّة تقلّ عن السنة الميلاديّة بأحد عشر يومًا كلّ عام، وهذا يفسّر لنا لماذا تكون الشعائر والمناسبات الإسلاميّة متواردة على فصول السنة الأربعة.

الثاني: وهو ما يدلّ على التناقض الذي يعتري بوكاي في حكمه على الحساب القمريّ بالتخلّف والبعد عن العلميّ والعمليّ، حيث يقول نصًّا: «إنّ عامّة الناس باستثناء الاختصاصيّين في هذا الأمر يجهلون المطابقة الدقيقة بين تقويم جوليان والتقويم القمريّ: ٣٣٥ شهرًا قمريًّا تطابق تمامًا تسع عشرة سنة شمسيّة بـ٣٦٥ يومًا وربع اليوم. إنّ تحديد سنواتنا بـ٣٦٥ يومًا ليس كاملًا؛ إذ ينبغي تصحيح كلّ أربع سنوات كبيسة، ونفس الوقائع تتكرّر مع التقويم القمريّ كلّ تسع عشرة سنة جوليانيّة أو شمسيّة، إنّه نظام ميتون الفلكيّ اليونانيّ الذي قام في القرن الخامس

قبل الميلاد باكتشاف هذا التوافق الدقيق بين أزمان الشمس والقمر»[1]. ومن ثمّ فإذا كان بوكاي يحكم بالتطابق بين التقويمين القمريّ والميلاديّ، فلماذا إذن يتّهم التقويم القمريّ بالتخلّف والرجعيّة وعدم العلميّة والبعد عن الجانب العمليّ؟! أليس في ذلك تناقض صريح؟! وهل من الصحيح أن تثبت تطابق أمرين ما ثمّ تدّعي بعد ذلك أنّ أحدهما رجعيّ متخلِّف والآخر علميّ متقدّم؟! فأين إذن المطابقة التي أثبتَّها واستشهدت عليها بالدليل؟!

٧- من القضايا التي تناولها بوكاي بالدراسة قضيّة غزو الفضاء، وقد تطرّق فيها إلى آيتين من كتاب الله تعالى هما قول الله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ سورة الرحمن، الآية ٣٣. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاء فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ سورة الحجر، الآيتان ١٤-١٥. وأشار في الآيتين إلى أنّهما من الإعجاز العلميّ في القرآن؛ لأنّ القرآن أشار إلى إمكانيّة الصعود إلى السماء. لكنّ الخطأ الذي وقع فيه بوكاي يظهر في تعليقه على الآية الأولى، حيث يقول «واللغة العربيّة جديرة بأن تعطي الشرط معنى أكثر رحابة ووضوحًا؛ إذ هناك كلمة للتعبير عن الشكّ هي: إذا، وأخرى للتعبير عن الافتراض القابل للتحقيق وهي إن، وثالثة لإدخال الافتراض غير القابل للتحقيق وهي لو. والآية المتناولة هنا تدلّ على أنّ المراد منها افتراض قابل للتحقيق معبّر عنه بحرف الشرط إن، والقرآن ذكر هنا إذن الإمكانيّة المادّيّة للتحقيق المحسوس»[2].

وقد اختلط الأمر على بوكاي هنا، فأعطى ما لـ(إذا) لـ(إن)، وأعطى ما لـ(إن) لـ(إذا)، فألبس الشكّ لـ(إذا) مع أنّه صفة لازمة لـ(إن)، وألبس الرجحان والتحقّق لـ(إن)، مع أنّ هذا المعنى لـ(إذا)، وهذه مخالفة صريحة للغة العربيّة. وبناءً عليه فقد فسّر الآية على معنى أنّه فرض قابل للتحقيق، وهذا حقّ، لكنّه غفل عن شيء من الأهمّيّة بمكان وهو أنّ إن تأتي لأمر يصعب ويُشقّ حدوثه أو يندر حدوثه،

[١]- موريس بوكاي، مرجع سابق، ص١٩٦.

[٢]- م.ن، ص٢٠٣.

ويمكن القول إنّ الأداة إن تحمل معنيين في رأيي، وكلا المعنيين يبيّن الخطأ الذي وقع فيه بوكاي، وهما:

الأوّل: معنى الشكّ في إن، لكن هذا لا يعني استحالة الحدوث، وإنّما يعني حصول مشقّة في تحصيله أو أنّه نادر الحدوث، في ضوء ذلك نفهم معنًى زائدًا على ما فهمه بوكاي، وهو أنّ الصعود إلى السماء وإن كان فيه إمكانيّة، فإنّه يظلّ محفوفًا بالمشقّة في حدوثه أو ندرة حدوثه، وهذا ما نجده واقعًا في تجارب الوصول إلى السماء التي تنطوي على مشقّة كبيرة من الناحية المادّيّة والبدنيّة والنفسيّة على روّاد الفضاء، ثمّ إنّ قضيّة الصعود نفسها على صاروخ يظلّ عدّة ساعات في الارتفاع حتى ينفصل عن المركبة الفضائيّة أمر بالغة المشقّة والصعوبة، فضلًا عن صعوبة الصعود إلى الفضاء الفسيح والمكوث فيه زمنًا بما يحتويه من مجهول في معظمه بالنسبة للإنسان. فضلًا عن أنّ هذا أمر نادر الحدوث، حتى مع الرحلات المتتابعة التي ترسلها الوكالات الفضائيّة العالميّة، فإنّ الأمر ليس متاحًا لكلّ إنسان، إضافة إلى أنّه لا يحدث يوميًّا مما يدلّ على ندرته.

هذا يعنى أنّ خطأ بوكاي في إدراك المعنى الحقيقيّ لأداة الشرط إن منعه من الوصول إلى معان في الآية تتوافق تمامًا مع معطيات العلم الحديث، ذلك التوافق الذي كان يبحث عنه دومًا بين القرآن والعلم الحديث.

الثاني: على معنى الشكّ بمعنى استحالة الحدوث، وهذا المعنى يقود في الآية إلى معطيات العصر الحديث في مجال الفلك؛ لأنّ القرآن يتحدّث عن اختراق السماوات والأرض من جهة أقطارها إلى الجهة الأخرى، وهذا مستحيل. فالقطر هو الخط البادئ من أحد أطرافه إلى الطرف الآخر مرورًا بالمركز.

هناك دلالة علميّة في قول الحقّ تبارك وتعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُواْ لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ﴾ (سورة الرحمن، الآيات ٣٣-٣٥). فالمتخصّصون في مجال الإعجاز العلميّ يعلّقون

على هذه الآية قائلين: "هذه الآيات الثلاث التي تحدّى القرآن الكريم فيها كلًّا من الجنّ والإنس تحدّيًا صريحًا بعجزهم عن النفاذ من أقطار السماوات والأرض، وهو تحدّ يظهر ضآلة قدراتهما مجتمعين أمام طلاقة القدرة الإلهيّة في إبداع الكون، لضخامة أبعاده، ولقصر عمر المخلوقات، وحتميّة فنائها، والآيات بالإضافة إلى ذلك تحوي عددًا من الحقائق الكونيّة المبهرة التي لم يستطع الإنسان إدراكها إلّا في العقود القليلة المتأخّرة من القرن العشرين"[1].

ولا شكّ في أنّ أبعاد السماء الدنيا أبعاد لا يمكن أن يتصوّرها بشر، الأمر الذي يؤشّر إلى أنّ قدرة الإنسان لا تستطيع النفاذ منها بموجب الآية، وهذا تحدّي من الله تعالى للإنسان كي يشعره بضآلة حجمه أمام حجم الكون وقدرة الله تعالى فيه؛ علّه يرجع خاضعًا إلى جناب ربّه يسمع ويطيع، «فمجرّتنا -سكّة التبانة- يقدّر قطرها الأكبر بمئة ألف سنة ضوئيّة ١٠٠,٠٠٠×٩,٥ مليون مليون كيلومتر تقريبًا، ويقدّر قطرها الأصغر بعشرة آلاف سنة ضوئيّة ١٠,٠٠٠×٩,٥ مليون مليون كيلومتر تقريبًا، ومعنى ذلك أنّ الإنسان لكي يتمكّن من الخروج من مجرّتنا عبر قطرها الأصغر يحتاج إلى وسيلة تحرّكه بسرعة الضوء -وهذا مستحيل- ليستخدمها في حركة مستمرّة لمدّة تصل إلى عشرة آلاف سنة من سنيننا، وبطاقة انفلات خياليّة لتخرجه من نطاق جاذبيّة الأجرام التي يمرّ بها من مكوّنات تلك المجرّة[2]!

وهذا يعني أنّه من المستحيل النفاذ من أقطار السماوات والأرض، وهذا لا يعني أنّ الصعود إلى جزء من السماء واكتشاف أسرار بعض كواكبها وغيرها ممتنع، بل هذا متاح للإنسان، أمّا الممتنع وغير المتاح فهو النفاذ من أقطار السماوات التي تبلغ مسافاتها حدًّا لا يستطيع معه الإنسان ضئيل العمر أن يبلغها أو يحصلها.

وهذه كلّها من المستحيلات بالنسبة للإنسان الذي لا يتجاوز عمره في المتوسط خمسين سنة، ولم تتجاوز حركته في السماء ثانية ضوئيّة واحدة وربع الثانية فقط،

[١]- زغلول النجار، أقطار السماوات والأرض، موقع طريق الإسلام على الرابط التالي:
https://ar.islamway.net/article/9369/

[٢]- زغلول النجار، مرجع سابق.

وهي المسافة بين الأرض والقمر، على الرغم من التقدّم التقنيّ المذهل الذي حقّقه في ريادة السماء، ومجموعتنا الشمسيّة تقع من مجرّتنا على بعد ثلاثين ألفًا من السنين الضوئيّة من مركزها، وعشرين ألفًا من السنين الضوئيّة من أقرب أطرافها[1].

فإذا حاول الإنسان الخروج من أقرب الأقطار إلى الأرض، فإنّه يحتاج إلى عشرين ألف سنة، وهو يتحرّك بسرعة الضوء لكي يخرج من أقطار مجرّتنا، وهل يطيق الإنسان ذلك؟ أو هل يمكن أن يحيا إنسان لمثل تلك المدد المتطاولة؟ وهل يستطيع الإنسان أن يتحرّك بسرعة الضوء؟ كلّ هذه حواجز تحول دون إمكان ذلك بالنسبة للإنسان، وما ينطبق عليه ينطبق على عالم الجانّ..[2]!

٨- كان بوكاي يركّز في مشروعه على الكشف عن جوانب التوافق بين الدين والعلم، وذلك من خلال عرض الإشارات العلميّة في القرآن على معطيات العلم الحديث، وهو ما كان يصبّ في النهاية في صالح القرآن. لكن بوكاي -في بعض الأحيان- كان يتجاهل بعض الإشارات العلميّة، أو يشير إلى بعضها دون بعضها الآخر، ولا أدري ما الذي ألجأه إلى ذلك؟! مع أنّه لو تعرّض لها، فسوف تقوّي مشروعه وتكشف عن الأركان التي يقوم عليها. ويمكن أن نتّخذ على ذلك مثالًا -لا حصرًا- الآيات التي تتحدّث عن النحل والعنكبوت، فقد كان من الممكن أن يقف في النحل على الإشارات العلميّة القرآنيّة حول أماكن تواجدها في الجبال والشجر وما يعرشون، واختلاف ألوانه، لكنّه اكتفى بالحديث عن السبل التي تتّخذها بفضل ربّها والتنظيم العصبيّ الذي تمتّع به، كذلك كان من الممكن أن يقف في العنكبوت على الإشارات العلميّة القرآنيّة حول أنّ الأنثى هي التي تصنع الخيوط الواهية التي تحدّث عنها القرآن، كما يتضح في كلمة اتّخذت، لكنّه اكتفى بالحديث عن جهازها العصبيّ وقدرتها على صناعة الخيوط في نسق هندسيّ ليس للإنسان استطاعة له.

---

[١]- زغلول النجار، مرجع سابق.

[٢]- م.ن.

وربما كان لهذا تفسير عندي قوامه أنّ بوكاي كان مهتمًّا بهاتين القضيّتين -إضافة إلى قضيّة الطيور- بإبراز قدرة الله المطلقة في خلقه، فهذا الأمر كان يثير اهتمامه أكثر من قضيّة التوافق بين القرآن والعلم فيهما، أو لعلّ المادة العلميّة التي تشهد بإعجاز القرآن لم تكن تحت يديه، أو لعلّها لم تكن قد اكتُشفت بعد.

وما يقال في مسألة النحل والعنكبوت يقال أيضًا في مسألة الطيور، فالرجل اهتمّ بالحديث عن قدرة الله تعالى في الطيور -خاصّة في قطعها آلاف الأميال في هجرتها، ثمّ العودة إلى وطنها، فمن علّمها ذلك إلّا الله تعالى العليّ القدير- أكثر من اهتمامه بالحديث عن الإشارات العلميّة في موضوع الطيور في القرآن.

٩- هناك بعض الأمور المهمّة التي وقع فيها بوكاي أثناء الاستدلال على مشروعه في إثبات التوافق بين القرآن والعلم، ومن أهمّ هذه الأمور أنّه وهو بصدد هذا المشروع كان عليه الاستدلال على موقف القرآن بالعلم، والاستدلال على وجود مؤشّرات علميّة في القرآن متوافقة مع المعطيات العلميّة الحديثة بالقرآن، بمعنى أن تكون مادّة المقارنة حاضرة هنا وهناك مع تقديم التفصيلات أو التوضيحات إذا لزم الأمر، إلّا أنّ بوكاي في بعض الأحيان -ولك أن تقول في أحايين كثيرة- كان يغفل عن ذلك، فيظهر حديثه في القضيّة وكأنّه يفتقر إلى الدليل، خاصّة في إطار شرح القضايا العلميّة أو موقف العلم من إشارة قرآنية علميّة، قد يقال إنّ الكتاب موجّه للغرب والمتخصّصين الغربيّين؛ لأنّهم على دراية بالجانب العلميّ وتفصيلاته، ومن ثمّ كان كلّ ما على بوكاي هو أن يقول لهم إنّ القضيّة العلميّة المثبتة لديكم في مجال كذا موجودة في القرآن وهذا نصّها، لكن هذا الرأي يتغافل عن أنّ الكتاب يُوجّه للقارئ العاديّ الغربيّ والعربيّ بعد ترجمته إلى العربيّة، لذا فإنّ من حقّ هذا القارئ أن يعرف التفاصيل العلميّة الحديثة التي تتوافق مع الآية، كما أنّ من حقه الوقوف على دلالات النصوص القرآنيّة ومعانيها الصحيحة للحكم بعلميّتها.

ويمكن الاستدلال على ذلك ببعض قضايا التربية الجنسيّة في القرآن التي عرض لها وكان الطريق مفتوحًا أمامه ليطرح على القارئ موقف العلم منها، إلّا أنّه كان

يكتفي بالقول إنّ التربية الجنسيّة في القرآن تتوافق مع معطيات العلم الحديث، دون أن يشرح لنا ذلك. فقد عرض لنا موقف القرآن من الجماع وقت الحيض، محرّمًا ذلك الفعل؛ لما يترتّب عليه من أضرار؛ وكان باستطاعة بوكاي أن يبيّن لنا هذه الأضرار من الناحية العلميّة؛ لكي يقرّ في ضمير القارئ وعقله وقلبه -الغربيّ خاصّة- بوجود توافق بين القرآن والعلم هنا، لكنّه لم يفعل، واكتفى بعرض الموضوع في القرآن مذيّلًا كلامه بأنّ معطيات العلم الحديث تتوافق مع ما جاء في القرآن من تربية جنسيّة.

١٠- المنهجيّة التي اتّبعها بوكاي في نقده التاريخيّ لقضايا الكتاب المقدّس قد لا تتناسب مع المنهجيّة العامّة في مشروعه ككلّ، فالرجل كان يلزم نفسه في إثبات التوافق بين القضايا العلميّة والنصوص القرآنيّة -أو حتى النصوص التوراتيّة- بمنهجيّة واضحة وثابتة، وهي أنّ النصّ لا تثبت حقيقته العلميّة عنده إلّا إذا أكّدت على ذلك المعطيات العلميّة الحديثة -والمسلمون يعتبرون النصّ صادقًا؛ لأن مصدره رب العالمين سواء أكدت على ذلك الحقيقة العلميّة أو لم تستطع تأكيده- ومن ثمّ فنحن ندرك أنّ الروح العلميّة التي كانت عليها شخصيّة بوكاي، فضلًا عن شيوع الجانب العلميّ في الغرب، هي التي أملت عليه ذلك، ومن ثمّ فقد جعل العلم حكمًا على النصّ، ولا نرى في ذلك شكًّا، لكن هذا لا يعني أنّ النصّ القرآنيّ كان موضع شكّ عنده، فهذا أمر لم يكن في حسبانه، وإنّما كان يستدلّ على صدق الإشارات العلميّة في النصّ القرآنيّ بمعطيات العلم الحديث في سبيل إثبات التوافق بين القرآن والعلم؛ لأنّ إثبات صدق الآيات القرآنيّة علميًّا يؤكّد على المصدريّة الإلهيّة للقرآن.

غير أنّ هذه المنهجيّة تغيّرت في معالجته للقضايا ذات الجانب التاريخيّ في النصوص المقدّسة ومدى توافقها مع المعارف الحديثة، حيث إن بوكاي في بعض القضايا كقضيّة الخروج مثلًا جعل من النصّ التوراتيّ حكمًا على المعارف الحديثة، أو موجّهًا لها في تكوين فكرة عن قضيّة الخروج، فكان يستقي معلوماته في الغالب من النصّ؛ لعدم توافر المعلومات التاريخيّة في القضيّة، على الرغم مما ظهر في

النصّ التوراتيّ من تدخّلات بشريّة يجعل من قضيّة اعتماده سندًا في القضيّة أمرًا غير مأمون المخاطر. فقد استند إلى أنّ رمسيس الثاني فرعون الاضطهاد، وأنّ منفتاح هو فرعون الخروج من التوراة، واعتمد سن رمسيس الثاني من التوراة أيضًا، وهو ما لا دليل يقينيّ عليه من المعارف الحديثة، في حين أنّ كلّ ما توصّل إليه بوكاي كان متأرجحًا.

وهناك جزئيّة أخرى يمكن أن تضاف إلى ذلك، وهي أنّ بوكاي الذي كان لا يعتمد إلّا على ما هو يقينيّ من المعطى العلميّ، أو تقريبيّ إلى درجة كبيرة؛ كونه مما لا يخالف العلم، ونلمس ذلك في قضايا مثل: خلق السماوات والأرض، عالم النبات والحيوان، وغيرهما من القضايا. في حين كان الأمر مختلفًا في القضايا التاريخيّة، مثل قضيّة الخروج، التي اعتمد فيها على فرضيّات لا هي يقينيّة ولا تقريبيّة، وإنّما اعتمد على فرضيّات محل خلاف ونقاش كبير، ومن ثمّ فإنّ اتخاذها دليلًا على التوافق بن النصّ والعلم فيه خطأ كبير.

١١- وقوف بوكاي موقفًا قاسيًا من الحديث النبويّ بصورة لا تستقيم مع ما أبداه تجاه القرآن الكريم وآياته التي تحمل إشارات علميّة، على الرغم من أنّ الحديث المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلاميّ، وبوكاي ذاته كان على علم بهذا الأمر، إلّا أنّه على الرغم من ذلك، فقد وقف ذلك الموقف من الحديث بدعوى أنّه يعالج قضيّة دنيويّة. وهذا ما لاحظناه جيّدًا في موقفه من الأحاديث التي تناولت بعض العلاجات المتعلّقة بالمجال الطبّيّ، على الرغم من أنّ هذه الأحاديث هي وحي من الله تعالى، وقد قال: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى**﴾.

والأمثلة على ذلك كثيرة في ثنايا مشروع بوكاي الفكريّ، إلّا أنّ هذا لا يقلّل من قيمة الجهد الكبير الذي بذله الرجل، والذي قاد إلى حركة فكريّة تجاه الأديان سُمّيت بالاتجاه البوكايّ نسبة إلى صاحبه.

الخاتمة

لا شكّ في أن القراءة العلميّة للقرآن الكريم عند بوكاي كانت قراءة رائدة؛ كونها قادت إلى إحداث نوع من التوافق بين الدين والعلم، وهو الأمر الذي كان مفقودًا ومؤثّرًا في جانبه السلبيّ، حيث أدّت إلى ما يشبه القطيعة بينهما منذ انتصار الفكر الغربيّ الجديد على الكنيسة التي فقدت سلطتها في أوروبا نتيجة تمّسكها بأفكار بالية عادت من خلالها كلّ جديد.

ومن ثمّ فإنّ من أهم أهداف هذه القراءة -ولك أن تقول أيضًا من أهمّ نتائجها- إزالة الفصل بين الدين والعلم، ذلك الذي صنعه العديد من العلماء والفلاسفة في العصور السابقة. ومن ثمّ فإنّ بوكاي كشف عن الوجه الحقيقيّ للدين عن طريق تطبيقه الاعتبارات العلميّة على الدين، والذي غفل عنه هؤلاء، ومن ثمّ فقد نظر إلى القرآن والدين عامّة على أنّه كتاب مليء بالإشارات العلميّة، ولم يقف عند مجرّد النظر إليه من زاوية العقيدة المحضة.

وتعدّ قضيّة بيان التوافق بين القرآن والعلم من القضايا التي كانت تراود المستشرق موريس بوكاي، على الرغم من تلك الإشكاليّات التي تواجهها؛ إذ إنّه اتّخذ مجال المقارنة بين النصوص الدينيّة والعلم الحديث سبيلًا إلى توضيحها وتفسيرها، إلّا أنّ هذه المقارنة كانت سببًا مباشرًا في إزالة الغموض حول عدد من النقاط، هادفًا إلى نبذ العداء بين الشرق والغرب، وبين الدين والعلم، ولسان حاله يقول إنّ على عداءات الأمس أن تزول اليوم.

لقد أثبت بوكاي التوافق التامّ بين الآيات القرآنيّة وبين المعطيات العلميّة الحديثة، وكان دائم الإلحاح على فكرة أنّ القرآن الذي انتشر في القرن السابع الميلاديّ -ذلك القرن الذي يعبّر عن مرحلة تاريخيّة لم يبلغ العلم فيها مبلغًا، ولم يكن على دراية بالعلوم الحديثة المتعدّدة- ليس فيه ما يدلّ على أيّ مخالفة مع العلم الحديث. في الوقت الذي ليس بوسع أيّ عمل بشريّ في ذلك العصر إلّا أن يكون قائمًا على تصوّرات وأفكار خاطئة؛ نتيجة القصور العلميّ الذي صَاحَبَه.

ويمكن القول إن بوكاي قدّم مفهومًا علميًا للقراءة العلميّة، ويمكن استنتاجه من خلال ما قدّم لنا من مشروع متميّز في ربط القرآن الكريم بالمعطيات العلميّة الحديثة. ومن ثمّ فإنّ لنا أن نقول إنّ القراءة العلميّة عند بوكاي تقوم على رافدين: مفهوم ومنهج؛ أمّا المفهوم فإنّه يتّكئ على الموضوعيّة في المقام الأوّل، فلا ميل للعلم على حساب القرآن، ولا ميل للقرآن دون العلم. وهذا هو الميزان الذي جعل هذه القراءة قراءة متميّزة وإن اختلفنا مع صاحبها في بعض جزئيّاتها، مما جعلها تحتلّ مكانتها التي تستحقّها. أمّا منهجيّة موريس بوكاي في دراسة القرآن الكريم، فإنّها منهجيّة جمعت بين الموضوعيّة والتحليليّة والمقارنة والنقد في بوتقة واضحة في انسجام وتوافق يشي بالرؤية الشاملة التي ينطلق منها بوكاي. وإذا كان بوكاي ينطلق في قراءته من هذه المناهج جميعها، فإنّه لم يقف عند هذا الحدّ، بل وضع لقراءته قواعد منهجيّة يسير عليها بجوار هذه المناهج الكبرى.

أمّا من ناحية القراءة العلميّة والنقد العلميّ فقد كانت منطلقًا للبحث والإجابة عن مجموعة من التساؤلات حول مرتكزات القراءة العلميّة للقرآن عند بوكاي، وعلميّة القرآن الكريم. وقد تبيّن من خلال النقد العلميّ أنّ القراءة العلميّة انطلقت من مجموعة من المرتكزات، وهي: أصالة القرآن ومصدريّته، وتصحيح نظرة الغرب للإسلام، وربط القرآن بالعلم. وهي وإن كانت مرتكزات انطلقت منها هذه القراءة العلميّة في نقدها العلميّ، فإنّها في الوقت ذاته تعدّ نتيجة من نتائجها، وثمرة من ثمراتها، فهي تحمل الوجهين معًا.

وقد قصدنا بعلميّة القرآن الكريم الإشارات العلميّة التي نستطيع أن نلمحها بكلّ سهولة في العديد من الآيات القرآنيّة التي تمثّل إعجازًا علميًّا يُنبئ عن أمرين: قدرة الله تعالى الخارقة في الكون، وتأكيد المصدريّة الإلهيّة للقرآن الكريم، التي عمد جمهور المستشرقين إلى محاولة النيل منها؛ لدواع أيديولوجيّة أو دينيّة لا تمتّ إلى البحث العلميّ بِصِلَة.

وقد كانت الإشارات العلميّة التي نقصدها والتي قصدها بوكاي تعود إلى أربعة محاور:

أ - خلق السماوات والأرض.

ب - القرآن وعلم الفلك.

ج - القرآن وعلوم الأرض.

د - القرآن وعالم النبات والحيوان والإنسان.

وهي المحاور التي تكشف عن الإعجاز العلميّ بوضوح شديد، وهذه المهمّة التي كلف بها بوكاي نفسه ناقدًا بها الموقف الغربيّ تجاه القرآن الكريم، ومثبتًا للمصدريّة الإلهيّة للقرآن الكريم، ومنصفًا في الوقت ذاته للرسول الكريم الذي ناله التشويه من الدراسات الاستشراقيّة المغرضة، والتي تحاول اتّهام الإسلام بأنّه دين من صناعة النبيّ محمّد الكريم.

وقد وقف بوكاي في هذا الشأن على الآيات القرآنيّة التي تندرج تحت كلّ محور من المحاور السابقة مستخلِصًا منها الدلالات العلميّة التي تشير إليه ووضعها في مقارنة مع المعطيات العلميّة الحديثة، وهي المقارنة التي كشفت عن التوافق التامّ بين هذه الدلالات والمعطى العلميّ. الأمر الذي كشف عن صور متعدّدة من صور الإعجاز القرآنيّ. ومن ثمّ يمكننا القول إنّ مشروع بوكاي في التوفيق بين القرآن والعلم، أو مشروع القراءة العلميّة للقرآن من بواكير الدراسات التي اهتمّت بالإعجاز العلميّ في القرآن، الأمر الذي جعلها تفتح الباب لمثل هذه الدراسات على مصراعيه بالصورة التي نراها في وقتنا الراهن.

ويعدّ النقد التاريخيّ وعلاقته بالقراءة العلميّة من الجوانب الإيجابيّة التي قام عليها مشروع بوكاي في إثبات التوافق بين القرآن والمعارف التاريخيّة، وبناءً على هذا النقد التاريخيّ الذي اتّبعه بوكاي في مشروعه، فقد أدلى بدلوه في قضيّتين

مهمّتين: الطوفان أيّام سيّدنا نوح، وفرعون الخروج الذي خرج في عهده سيّدنا موسى من مصر إلى أرض كنعان.

لقد أثبت بوكاي من خلال النقد التاريخيّ للمعارف التاريخيّة وبالتأمّل في الآيات القرآنيّة أنّ الطوفان كان محليًّا إقليميًّا، وليس عالميًّا، منتقدًا التوراة التي قالت بعموميّة الطوفان وعالميّته، مستنكرًا كيف يكون ذلك؟! علمًا بأنّ هناك حضارات في الزمن نفسه الذي حدّدته التوراة للطوفان لم تشر أيّ من الوثائق التاريخيّة فيها إلى ما يدلّ على شمول الطوفان لها، بل على العكس كانت حضارات عامرة وزاهرة، وقد استدلّ بوكاي على ذلك بالحضارة الفرعونيّة القديمة في أرض مصر.

في حين أبدى بوكاي فهمه للقرآن الذي لم يشر إلى أي من زمن الطوفان أو مكانه، فلم يقل بعالميته كما قالت التوراة، فأوقعها ذلك -كما بيّن بوكاي- في مناقضة مع المعارف التاريخيّة الحديثة. في حين نأي القرآن عن هذه المناقضة؛ إذ لم يصرح من قريب أو بعيد بعالمية الطوفان. وفي هذا الصدد قارن بوكاي بين الآيات القرآنيّة وعبارات أسفار التوراة، مبينًا كيف كان التوافق ظاهرًا بين القرآن والمعطى العلميّ للمعارف الحديثة؟ وكيف كان التنافر بين ما تقدمه أسفار التوراة في قضيّة الطوفان والمعطى العلميّ التاريخيّ ذاته؟

وكانت قضيّة الخروج محورًا من محاور النقد التاريخيّ الذي اتبعه بوكاي في قراءته للقرآن في ضوؤ مقارنته بأسفار التوراة، وقد كان لبوكاي موقف رافض للرأي السائد بأنّ رمسيس الثاني هو فرعون الخروج، مرجّحًا أن يكون خلفه مرنبتاح هو فرعون الخروج، وأنّ رمسيس الثاني هو فرعون الاصطهاد. لكنّنا نميل إلى أنّ ما قدّمه بوكاي -وغيره من أصحاب الآراء الأخرى في قضيّة فرعون الخروج- في هذا الصدد ليس إلّا مجموعة من الافتراضات التي لا ترقى إلى رتبة اليقين الكامل، وإن كانت فرضيّة من الفرضيّات المطروحة على كلّ حال.

فضلًا عن أنّ هذه الدراسة كشفت لنا فيما يتعلّق بأصل الإنسان أنّنا أمام أخطاء

علميّة في الكتاب المقدّس، وهي الأخطاء التي لا نجد لها وجودًا في القرآن الكريم، ولقد اتّكأ بوكاي على القضيّة المتعلّقة بأقدميّة الإنسان على الأرض المعبّر عنها بسلالات الأنساب في سفر التكوين، وهو الأمر الذي أكّد بوكاي أنّه ليس له وجود في القرآن الكريم. تلك الحالة التي كان عليها القرآن هنا لم تكن وليدة استدراك الأخطاء في الكتاب المقدّس، أو أنّ القرآن كان يتضمّنها -حاشا لله- ثمّ استدرك المسلمون فحذفوها، بدليل أنّ أقدم مخطوطات القرآن الكريم وأحدثها متطابقة تمام التطابق، على الرغم من أنّ الفواصل الزمنيّة تزيد عن ١٤٤٠عام هجريّ. وهذا يقودنا إلى قضيّة أخرى، وهي إثبات صحّة نسبة القرآن الإلهيّة، مقابل أصحاب الفرضيّات التي تشكّك في هذا الأمر، إذ لو كان القرآن من عند النبيّ محمّد ﷺ، لما كان في استطاعته التمييز بين الأخطاء العلميّة في الكتاب المقدّس أو حذفها جميعًا. كما أنّه يقودنا من جانب ثانٍ إلى ضرورة الإلمام بتاريخ النصّ، وأن نملك المعارف اللازمة لذلك؛ حتى نكون على بيّنة ونحن نتعامل مع النصّ الدينيّ.

إلّا أنّ بوكاي انتقد داروين ونظريّته في النشوء والارتقاء نقدًا شديدًا؛ إذ رأي فيها خروجًا عن المعتقدات الدينيّة التي يؤمن بها أتباع الأديان، فضلًا عن افتقارها إلى الدليل العلميّ؛ إذ كانت مجرّد فرض وهميّ لا دليل عليه، فلم يستطع صاحب النظريّة أو أتباعه الإتيان بدليل على انتساب الإنسان إلى سلالة القرود، بل لقد فطن بوكاي إلى أنّ العلم الحديث يرفضها، ويرفض الدعائم الهشّة التي قامت عليها.

وقد حاول بوكاي أن يعارض نظريّة داروين في التطوّر بنظريّة أخرى من عنديّاته أسماها التطوّر الخلّاق، وهي التي تقوم على أنّ الأجيال تتحدّد جينيًّا في الرحم، وأنّ البشريّة مرّت عليها أجيال فيها صفات وراثيّة أدّت إلى تشكّل مجموعات بشريّة جديدة، مستدلًّا ببعض الآيات على نظريّته التي تحتاج إلى كثير من الأخذ والردّ والنقاش. لكنّ بوكاي يؤكّد نظريًّا على أنّ الإنسان نشأ من سلالة بشريّة مستقلّة عن الحيوان، خلافًا لنظريّة التطوّر الداروينيّة التي كان الحيوان الركن الرئيس فيها. لكن نظريّة بوكاي لم تخلُ من النقد الذي بينّاه في الفصل المخصّص لها في هذا الكتاب.

ولم تكن القراءة العلميّة للقرآن بمنأى عن الحديث؛ وذلك للصلة العميقة بينهما، باعتبارهما مصدرا الإسلام، ولأنّ الحديث النبويّ يفسّر القرآن ويفصّل مجمله، لكن بوكاي الذي وجدناه تعامل مع الآيات القرآنيّة بدقّة وموضوعيّة ليس بوكاي الذي تعامل مع الحديث النبويّ، فإذا كان يرى التوافق الدائم بين الآيات القرآنيّة والعلم الحديث، فإنّ نظرته اختلفت تمامًا تجاه الأحاديث في علاقتها بمعطيات العلم الحديث. فقد رفض بوكاي الأحاديث النبويّة، خاصّة تلك التي لها علاقة بمجال الطبّ، فيما يُعرف بالطبّ النبويّ. ونحن نرى أنّ بوكاي قد تحامل كثيرًا على الحديث النبويّ خلافًا لما أظهره تجاه القرآن الكريم، واختلفت منهجيّته وأفكاره تجاهه كلّيّةً، ولم يحكّم فيها النزعة العلميّة فيما أظنّ، وقد تمّ الردّ العلميّ والمنطقيّ على بوكاي في الأحاديث النبويّة التي رفضها بحجّة عدم علميّتها، وقد أثبتنا علميّتها بآراء المختصّين والعلماء في مجال الطبّ.

وانتهت الدراسة إلى أنّ القراءة العلميّة التي امتلأت بالإيجابيّات التي تخدم القرآن والعلم معًا وتكشف عن الوجه الحقيقيّ للإسلام الذي حاول الغرب تشويهه، احتوت عددًا من السلبيّات، وقد حاولت الدراسة تحديد هذه الإيجابيّات والسلبيّات في هذه القراءة بكلّ موضوعيّة.

لائحة المصادر والمراجع

أوّلًا: المراجع العربيّة

١. إبراهيم مدكور، معجم العلوم الاجتماعيّة ـ القاهرة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ١٩٧٥م.

٢. ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، بيروت/ الكويت، مؤسّسة الرسالة/ مكتبة المنار الإسلاميّة، الطبعة الرابعة عشر ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م، ٤/ ٢٣.

٣. ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركيّ، القاهرة، دار هجر، الطبعة الأولى.

٤. ابن حجر العسقلانيّ، تحفة النبلاء، تحقيق: غنيم عباس غنيم، مصر، مكتبة الصحابة، الطبعة الأولى، ١٤١٩م.

٥. ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: محي الدين الخطيب بالاشتراك، القاهرة، دار الريّان للتراث، الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ج ١٠.

٦. ابن حزم الظاهري، الفصل في الملل والنحل والأهواء، القاهرة، مكتبة الخانجي، ج٢.

٧. ابن رشد، مناهج الأدلّة في عقائد الملّة، تحقيق د. محمود قاسم، ط الأنجلو المصريّة، ١٩٥٥م.

٨. ابن سينا، القانون في الطبّ، تحقيق: محمّد أمين، بيروت/ لبنان، دار الكتب العلميّة.

٩. ابن سينا، القانون في الطبّ، لبنان - بيروت، دار الكتب العلميّة، الأولى، ١٣٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١٠. ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث، تحقيق: سعيد محمد السناري، القاهرة،

دار الحديث، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

١١. ابن قيم الجوزيّة، الطبّ النبويّ، تحقيق: عبد الغني عبد الخالق، لبنان، بيروت، داتر الكتب العلميّة، بدون.

١٢. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمّد السلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١٣. ابن منظور، لسان العرب، القاهرة، طبعة دار المعارف، بدون.

١٤. أبو الأعلى المودوديّ، الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة، تعريب: خليل أحمد الحامدي، الكويت، دار القلم، الطبعة الرابعة، ١٩٨٠م.

١٥. أبو السعود بن محمد العمادي الحنفيّ، تفسير أبو السعود أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، الرياض، مكتبة الرياض الحديثة،، ج ٥.

١٦. أبو بكر بن أبي داود، المصاحف، تحقيق: محمد بن عبده، القاهرة، الناشر الفاروق الحديثة، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م.

١٧. أحمد البهنسي، كتاب مصادر يهوديّة في القرآن للمستشرق شالوم زاوي - عرض وتقديم، مجلّة القرآن والاستشراق المعاصر، المركز الإسلاميّ للدراسات الاستراتيجيّة، العدد ٣، ١٤٤١هـ - ٢٠١٩.

١٨. أحمد أتابك، لمحة تاريخيّة عن جمع القرآن وتدوينه عند المفسّرين والمستشرقين، القدس، المجلّة الدوليّة للدراسات الإسلاميّة، العدد الثاني، فبراير، ٢٠١٤م.

١٩. أحمد أمين، زكي نجيب محمود، قصة الفلسفة اليونانيّة، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصريّة، الثانية، ١٩٣٥م.

٢٠. أحمد بن محمّد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلانيّ القتيبيّ المصريّ، أبو العبّاس، شهاب الدين، المواهب اللدنية بالمنح المحمديّة، المكتبة التوفيقيّة،

القاهرة- مصر، ج٣.

٢١. أحمد شوقي إبراهيم، موسوعة الإعجاز العلميّ في الحديث النبويّ، القاهرة، مكتبة نهضة مصر الطبعة الثانية، ٢٠٠٥م، ج ٤.

٢٢. أحمد شوقي إبراهيم، موسوعة الإعجاز العلميّ في الحديث النبويّ، القاهرة، دار نهضة مصر، الأولى، ٢٠٠٧م، ج ٧.

٢٣. أحمد مصطفى متولي، الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبويّة، القاهرة، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٢٤. أحمد منصور، بالأدلة القرآنيّة سفينة نوح غوّاصة فضائية، طبعة ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

٢٥. إسماعيل أحمد ياغي، أثر الحضارة الإسلاميّة في الغرب، السعوديّة، مكتبة العبيكان، الأولى، ١٩٩٧م.

٢٦. إسماعيل مظهر، قصة الطوفان، القاهرة، مؤسّسة هنداوي، ٢٠٢٠م.

٢٧. أكرم مؤمن، مقدّمة ترجمة كتاب الأمير لمكيافللي، القاهرة، مكتبة ابن سينا للطبع والنشر والتوزيع، ٢٠٠٤م.

٢٨. آمنة عودة، دراسة مرجعية عن متلازمة داون، أطروحة حلقة بحث وتصميم تجارب، إشراف شادية حسن محمّد، كلّيّة العلوم، جامعة الطائف، ١٤٢٨- ١٤٢٩هـ.

٢٩. أيمن المصريّ، أصول المعرفة والمنهج العقليّ، القاهرة، بدون تاريخ.

٣٠. بولس الفغالي، المدخل إلى الكتاب المقدّس، لبنان - بيروت، المكتبة البولسيّة، ١٩٩٥م، ج٢.

٣١. تشارلز داروين، أصل الأنواع، ترجمة مجدي محمود المليجي، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القوميّ للترجمة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م، العدد ٦٢٨.

٣٢. التفسير الميسّر، السعوديّة، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الطبعة الثانية، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٣٣. توحيد الزهيري، الماء في القرآن والسنة والعلوم الحديثة مقالات للتفسير، القاهرة، مكتبة الدار العربيّة للكتاب، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٣٤. جابر بن حيان، مجموعة مصنّفات في الخيمياء والإكسير الأعظم، دراسة وتقديم بيير لوري، لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ٢٠٠٨م.

٣٥. جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطيّ، تفسير الجلالين، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.

٣٦. جلال السيوطيّ، الدرّ المنثور في التفسير المأثور، بيروت - لبنان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١١م، الجزء العاشر.

٣٧. -جمعية التجديد الثقافيّة الاجتماعيّة مؤلف، طوفان نوح بين الحقيقة والأوهام، البحرين، سلسلة عندما نطق السراة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.

٣٨. جوستاف جرونيباوم، حضارة الإسلام، القاهرة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ١٩٩٤م.

٣٩. جون لينوكس، العلم ووجود الله.. هل قتل العلم الإيمان بوجود الله؟ ترجمة ماريانا كتكوت، تقديم ماهر صموئيل، ٢٠١٥م.

٤٠. حافا لازاروس يافيه، كتاب الإسلام ونقد العهد القديم في العصر الوسيط، ترجمة: محمد طه عبد الحميد، جامعة القاهرة، سلسلة الدراسات الدينيّة والتاريخيّة – مركز الدراسات الشرقيّة، ٢٠٠٨م.

٤١. حامد عطية محمد، إشارات إعجازيّة في تكوين لبن الأنعام، دراسة منشورة ضمن كتاب المؤتمر العلميّ العاشر للإعجاز العلميّ في القرآن والسنة، السعوديّة، دار جياد، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م، ج١.

٤٢. حسن الباش، العقيدة النصرانيّة بين القرآن والأناجيل - دمشق/ بيروت، دار

قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأوّلى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٤٣. حسن أيوب، قصص الأنبياء، قصص الصفوة الممتازة أنبياء الله ورسله، القاهرة، دار التوزيع والنشر الإسلاميّة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٤٤. حسن خالد، مقدمة ترجمة كتاب موريس بوكاي: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، المكتب الإسلاميّ.

٤٥. حسن سليمان، قصص الأنبياء، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م.

٤٦. الحسين بن مسعود البغوي، تفسير البغوي معالم التنزيل، تحقيق: محمد عبد الله النمر بالاشتراك، دار طيبة، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٤٧. حسين خمري، سرديّات النقد في تحليل آليّات الخطاب النقديّ المعاصر، الرباط، دار الأمان، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ ٢٠١١م.

٤٨. حمد الرقعي، خلق الإنسان بين العلم والقرآن، بنغازي – ليبيا، الدار الجماهيريّة للنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

٤٩. حمود الرحيلي، العلمانيّة وموقف الإسلام منها، السعودية، الناشر الجامعة الإسلاميّة بالمدينة المنوّرة، العدد ١١٥، السنة ٣٤، ١٤٢٢هـ.

٥٠. خالد عثمان حمدانين، الإعجاز العلميّ الكونيّ في القرآن الكريم، تركيا، جامعة يوزنجو ييل، وان، ٢٠١٩م.

٥١. خليل البدروي، الموسوعة الفلكيّة، عمان – الأردن، دار عالم الثقافة، الأولى، ١٩٩٩م.

٥٢. الدستور العقائديّ – المجمع الفاتيكاني الثاني، الصادر في ٢١نوفمبر ١٩٦٤م، البند السادس عشر.

٥٣. رجب نصر موسى الأنس، سنة الابتلاء في القرآن الكريم، رسالة ماجستير منشورة بكلّيّة الدراسات العليا – جامعة النجاح الوطنيّة، نابلس – فلسطين، ٢٠٠٧م.

٥٤. رشدي البدراوي، موسى وهارون‎ﷺ.. من هو فرعون موسى؟ سلسلة قصص الأنبياء والتاريخ، القاهرة، انترناشيونال بريس، ١٩٩٨م، الجزء الرابع.

٥٥. رمضان مصري هلال، آيات الله في عالم النحل، مجلّة الإعجاز العلميّ، العدد الرابع والعشرون، جمادى الأولى، ١٤٢٧هـ.

٥٦. رواب بولفعة، خروج بني إسرائيل من مصر بين روايات التوراة والقرآن الكريم، مجلّة إضاءات علميّة، المجلّد الثاني، العدد السنة، ربيع الآخر، ١٤٤٣هـ - ديسمبر ٢٠٢١م.

٥٧. زغلول النجّار، المفهوم العلميّ للجبال في القرآن، القاهرة، مكتبة الشروق الدوليّة، الطبعة العاشرة، ٢٠٠٨م.

٥٨. زغلول النجّار، تفسير الآيات الكونيّة في القرآن الكريم، القاهرة، مكتبة الشروق الدوليّة، الطبعة الثانية، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م، ج٢.

٥٩. زغلول النجّار، من آيات الإعجاز العلميّ.. الحيوان في القرآن الكريم، بيروت - لبنان، دار المعرفة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

٦٠. زغلول النجّار، من آيات الإعجاز العلميّ.. السماء في القرآن الكريم، بيروت - لبنان، دار المعرفة، الرابعة، ٢٠٠٧م.

٦١. زغلول راغب محمد النجّار، من آيات الإعجاز العلميّ.. الأرض في القرآن الكريم، بيروت - لبنان، دار المعرفة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.

٦٢. الزمخشريّ، تفسير الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، رتّبه وضبطه وصحّحه محمّد عبد السلام شاهين، بيروت/ لبنان، ٢٠١٥م، دار الكتب العلميّة، ج٤.

٦٣. سامي عابدين، أصل الإنسان في التوراة والإنجيل والقرآن، دار الحرف العربيّ للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥م.

٦٤. سامي عامري، العلم وحقائقه بين سلامة القرآن الكريم وأخطاء التوراة

والإنجيل، رواسخ للنشر، ٢٠٢٠م.

٦٥. سان كلير تيسدال، المصادر الأصليّة للقرآن، ترجمة: عادل جاسم، بغداد بيروت، منشورات الجمل، الطبعة الأولى، ٢٠١٩م.

٦٦. ستيفن غاوكروغر، الموضوعيّة، ترجمة: أمين الأيّوبيّ، أبو ظبي، دائرة السياحة والثقافة – مشروع كلمة، ٢٠١٩م.

٦٧. سعيد عاشور، المدنيّة الإسلاميّة وأثرها في الحضارة الغربيّة، القاهرة، دار النهضة العربيّة، الأولى، ١٩٦٣م.

٦٨. سعيد عبد الفتاح عاشور، المدنية الإسلاميّة وأثرها في الحضارة الأوروبيّة، القاهرة، دار النهضة العربيّة، الأولى، ١٩٦٣م.

٦٩. سفر بن عبد الرحمن الحوالي، العلمانيّة نشأتها وتطوّرها وآثارها في الحياة الإسلاميّة المعاصرة، السعودية، دار الهجرة، بدون تاريخ.

٧٠. سليم حسن، مصر القديمة، القاهرة، مطبعة جامعة فؤاد الأول، ١٩٥٢م، ج٧.

٧١. سمير سرحان، النقد الموضوعي، القاهرة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ١٩٩٠م.

٧٢. سيّد عبد الماجد الغوري، أثر الحضارة الإسلاميّة في الغرب، مؤتمر المعاني الحضاريّة في الإسلام، رابطة العالم الإسلاميّ، ذو الحجة ١٤٤٠هـ أغسطس ٢٠١٩م.

٧٣. سيّد قطب، التصوير الفنّيّ في القرآن، القاهرة، دار الشروق، الطبعة الرابعة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

٧٤. سيّد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، الطبعة الثانية والثلاثون، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣.

٧٥. شمس الدين آل بلوت، داروين ونظرية التطوّر، ترجمة: أورخان محمّد

علي، القاهرة، دار الصحوة، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٧٦. الشنقيطي، أضواء البيان، القاهرة، مكتبة ابن تيمية، ١٩٩٢، ج٦.

٧٧. شوقي أبو خليل، الإسلام في قفص الاتهام، طبعة دار الفكر، ٢٠٠٦م.

٧٨. صامد حامدي، أسس بناء المنهج النقديّ عند أنور الجندي، كتاب: أخطاء المنهج الغربيّ الوافد أنموذجًا، جامعة قاصدي مرباح، كلّيّة الآداب واللغات، ٢٠١٥/ ٢٠١٦م.

٧٩. صلاح قنصوة، الموضوعيّة في العلوم الإنسانية، عرض نقديّ لمناهج البحث، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ٢٠٠٧م.

٨٠. الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، المجلّد السابع، الجزء الرابع عشر.

٨١. عاطف محمد، عبقريّ علم الرياضيّات الخوارزميّ، القاهرة، دار اللطائف للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣م.

٨٢. عبد الحميد دياب، أحمد قرقور، الطبّ في القرآن الكريم، دمشق، مؤسّسة علوم القرآن، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

٨٣. عبد الرازق نوفل، القرآن والعلم الحديث، بيروت/ لبنان، دار الكتاب العربيّ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٨٤. عبد الراضي عبد المحسن، الغارة التنصيريّة على القرآن، السعودية، الناشر مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

٨٥. عبد الرحمن بن محمد القماش، الحاوي في تفسير القرآن الكريم جنة المشتاق في تفسير كلام الملك الخلاق، طبعة ٢٠١٩م.

٨٦. عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تفسير السعدي تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا بيروت – لبنان، مؤسّسة الرسالة، الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٨٧. عبد الصبور شاهين، أبي آدم، القاهرة، مكتبة النافذة.

٨٨. عبد العزيز الصالح، الشرق الأدني القديم في مصر والعراق، القاهرة، مطبعة الأنجلو المصريّة، ٢٠١٢م، ج١.

٨٩. عبد المجيد الزنداني، بحث علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة، بحث منشور بالمؤتمر العالميّ الأوّل للإعجاز العلميّ في القرآن والسنة، باكستان - إسلام آباد، أكتوبر ١٩٨٧م.

٩٠. عبد الوهاب الراوي، معجزات القرآن العلميّة في الأرض مقابلة مع التوراة والإنجيل.

٩١. عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء، القاهرة، مكتبة دار التراث، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.

٩٢. عدنان الشريف، من علم الفلك القرآنيّ.. الثوابت العلميّة في القرآن، دار العلم للملايين، الأولى ١٩٩١م.

٩٣. عرفان يلماز، التطوّر نظرية علميّة أم أيديولوجيّة؟ القاهرة، شركة دار النيل للطباعة والنشر.

٩٤. عزّ الدين فراج، فضل علماء المسلمين على أوروبا، دار الفكر العربيّ، ١٤٣٢هـ.

٩٥. علي محمّد صالح السامرائي، الطير من منظور القرآن الكريم.. دراسة موضوعية، مجلة سُر من رأى، المجلد التاسع، العدد الثالث والثلاثون، السنة التاسعة، نيسان، ٢٠١٣م.

٩٦. عليّ بن عتيق الحربيّ، ما جاء عن التوراة والإنجيل في القرآن الكريم، مجلّة الدراسات الإسلاميّة والبحوث الاجتماعيّة، العدد ٦٨.

٩٧. عماد الراعوش، العقل في القرآن وأثره في التفسير، كلّيّة أصول الدين - جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة، بدون تاريخ.

٩٨. عمّار أمين محمد الددّو، دلالة كلمة الجبال في القرآن دراسة بيانيّة، مجلّة البحوث والدراسات الإسلاميّة، العدد ٦١.

٩٩. عمر شريف، الإلحاد مشكلة نفسيّة، القاهرة، نيو بوك للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠١٦م.

١٠٠. عمرو شريف، رحلة عقل، القاهرة، مكتبة الشروق الدوليّة، الطبعة الرابعة، ٢٠١١م.

١٠١. فاروق عطّية يوسف بخيت، التربية الجنسيّة في ضوء القرآن الكريم والسنة، رسالة ماجستير في أصول الدين بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنيّة، نابلس - فلسطين.

١٠٢. فاضل عبد الواحد علي، الطوفان في المراجع المسمارية، الناشر جامعة بغداد، بدون تاريخ.

١٠٣. فتحي عبد العزيز العبادسة، الماء في القرآن الكريم، رسالة ماجستير بكلّيّة أصول الدين – الجامعة الإسلاميّة، غزة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

١٠٤. فريدريك نيتشه، هكذا تكلّم زاردشت، ترجمة: فليكس فارس، القاهرة، مؤسّسة هنداوي، ٢٠١٤م.

١٠٥. فوزي شعبان، مقدّمة ترجمة: كتاب أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، لموريس بوكاي، المكتبة العلميّة، بدون تاريخ.

١٠٦. القرضاوي، هدي الإسلام، المكتب الإسلاميّ للطباعة والنشر، ١٩٩٣م،

١٠٧. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، بيروت - لبنان، دار إحياء التراث العربيّ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ج٩.

١٠٨. القرطبي، تفسير القرطبيّ الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسّسة الرسالة، الأولى، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

١٠٩. القرطبيّ، تفسير القرطبيّ، القاهرة، طبعة دار الشعب، بدون تاريخ، ج ٧.

١١٠.قليني نجيب، فرعون موسى، مركز المطبوعات المسيحيّة، بدون تاريخ.

١١١.كيث طومسون، الحفريّات، ترجمة: أسامة فاروق حسن، القاهرة، مؤسّسة هنداوي، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م.

١١٢.كيرشتر & تاوني، الأساس الحسّيّ للغة الرقص عند نحل العسل، مجلّة العلوم، الكويت، المجلّد الحادي عشر، العدد الثاني، ١٩٩٥م.

١١٣. ليون أنيس ليون، الطوفان بين الكتاب المقدّس والأساطير والعلم الحديث، بيروت – لبنان، دار الثقافة، ٢٠٠١م.

١١٤.ماهر أحمد الصوفيّ، الموسوعة الكونيّة الكبرى.. آيات الله في الرياح والمطر والأعاصير والبراكين والزلازل، بيروت، المكتبة العصريّة، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، ج١٣.

١١٥.ماهر أحمد الصوفيّ، الموسوعة الكونيّة الكبرى، آيات الله في الجبال والصحاري والغابات وفي النبات والثمار والأزهار والألوان صيدا - بيروت، المكتبة العصريّة، ٢٠٠٧م، ج٩.

١١٦.ماهر أحمد الصوفيّ، آيات الله في خلق الكون ونشأة الحياة الموسوعة الكونية الكبرى، صيدا - بيروت، المكتبة العصريّة، ٢٠٠٧م، ج ٣.

١١٧.مايكل بيهي، صندوق داروين الأسود، ترجمة: مؤمن الحسن بالاشتراك، مركز براهين للدراسات والأبحاث، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م.

١١٨.مايكل دنتون، التطوّر نظريّة في أزمة، ترجمة: آلاء حسكي بالاشتراك، مركز براهين للدراسات والأبحاث، الطبعة الأولى، ٢٠١٧م.

١١٩.مجلّة الإعجاز العلميّ، الصادرة عن المجمع العالمي للإعجاز العلميّ في القرآن والسنة، ١٤٢٧هـ العدد ٢٤، جمادى الأولى.

١٢٠. مجمع البحوث الإسلاميّة بالأزهر، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، الهيئة العّامة لشؤون المطابع الأميريّة، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

١٢١.محمّد أبو النور الحديديّ، البيان في دفع التعارض المتوهَّم بين آيات

القرآن، القاهرة، مكتبة الأمانة، ١٩٨١م – ١٤٠١هـ.

١٢٢. محمّد أبو زهرة، خاتم النبيّين صلّى الله عليه وآله وسلّم، القاهرة، دار الفكر العربيّ، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، الطبعة الأولى.

١٢٣. محمّد أحمد الغمري، الإسلام في عصر العلم، دار الإنسان للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٧٣م.

١٢٤. محمّد إسماعيل المقدّم، تفسير القرآن الكريم، طبعة المكتبة الشاملة الحديثة، بدون تاريخ، ج٣.

١٢٥. محمّد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن، بيروت، دار الفكر، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، ج٢.

١٢٦. محمّد الأمين الشنقيطيّ، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، إشراف بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، بدون تاريخ.

١٢٧. محمّد الشرقاوي، موريس بوكاي، الدار البيضاء/ المغرب، لبنان/ بيروت، المركز الثقافيّ للكتاب، الطبعة الأولى، ٢٠٢١م.

١٢٨. محمّد بيومي مهران، مصر والشرق الأدنى القديم، الإسكندريّة، دار المعرفة الجامعيّة، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، ج٣.

١٢٩. محمّد جلاء إدريس، الاستشراق الإسرائيليّ في المصادر العبريّة، القاهرة، العربيّ للنشر والتوزيع، ١٩٩٥م.

١٣٠. محمّد خليفة حسن، مقدّمة ترجمة كتاب الإسلام ونقد العهد القديم في العصر الوسيط، ترجمة: محمّد طه عبد الحميد، جامعة القاهرة، سلسلة الدراسات الدينيّة والتاريخيّة - مركز الدراسات الشرقيّة، ٢٠٠٨م.

١٣١. محمّد رضا، محمّد رسول الله صلى الله عليه وآله سلم، بيروت - لبنان، دار الكتب العلميّة، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

١٣٢. محمّد سعيد البوطي، لا يأتيه الباطل، دمشق، دار الفكر، الطبعة الأولى،

١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م.

١٣٣.محمّد سعيد حميد، الاستمطار، صنعاء، ٢٠٠٥م.

١٣٤.محمّد عبد الرحيم الزيني، الاستشراق اليهوديّ، رؤية موضوعيّة، مصر، دار يقين للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١ م. مونتجمري، محمّد في مكة، نقله إلى العربيّة عبد الرحمن عبد الله الشيخ، القاهرة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ١٩٩٤م.

١٣٥.محمّد عزّة دروزة، تدوين القرآن المجيد، القاهرة، دار الشعاع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.

١٣٦.محمّد علي حسن حسن الشوكي، نفخ الروح في الجنين بين إعجاز القرآن والسنة والدراسات الطبّيّة الحديثة، حوليّة كلّيّة أصول الدين والدعوة، جامعة المنّوفيّة العدد ٣٩، ديسمبر ٢٠٢٠م.

١٣٧.محمّد عمر حوية، نزول القرآن الكريم وتاريخه وما يتعلّق به، السعوديّة، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، بدون.

١٣٨.محمّد فريد وجدي، الإسلام في عصر العلم، بيروت - لبنان، دار الكتاب العربيّ، الطبعة الثالثة.

١٣٩.محمّد كامل عبد الصمد، الإعجاز العلميّ في الإسلام: القرآن الكريم.

١٤٠.محمّد متولّي الشعراويّ، قصص الأنبياء، القاهرة، دار القدس، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م.

١٤١.محمّد مسيح عافية، القرآن وعلوم الأرض، الزهراء للإعلام العربيّ الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

١٤٢.محمّد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، لبنان - بيروت، طبعة المكتب الإسلاميّ، الأولى، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ج ١.

١٤٣.محمود حمدي زقزوق، حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشكّكين،

القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٦م - ١٤٢٧هـ.

١٤٤.محمود ناظم النسيمي، الطبّ النبويّ والعلم الحديث، طبعة الشركة المتّحدة للتوزيع، الأولى، ١٩٨٤م، ج٢.

١٤٥. مشهور الوردات، الفيزياء الفلكيّة - الجزء الأوّل: النجوم، عالم الكتب الحديث، طبعة ٢٠١٩م.

١٤٦.مصطفى نظيف، الحسن بن الهيثم كشوفه وبحوثه البصريّة، القاهرة، مطبعة نوري، ١٩٤٢م.

١٤٧.المعجم الوجيز، القاهرة، طبعة وزارة التربية والتعليم، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

١٤٨.المعجم الوسيط، القاهرة، مكتبة الشروق الدوليّة، ٢٠٠٥م.

١٤٩.المنتخب في تفسير القرآن، تأليف لجنة من علماء الأزهر الشريف، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة.

١٥٠. منصور عبد الحكيم، طوفان نوح عليه السلام في القرآن الكريم والأساطير القديمة، دمشق - القاهرة، دار الكتاب العربيّ.

١٥١.منصور محمّد حسب النبيّ، المعارف الكونيّة بين العلم والقرآن، دار المعارف للطباعة النشر، ٢٠٠٣م.

١٥٢.منصور محمّد حسب النبيّ، المعارف الكونيّة بين العلم والقرآن.

١٥٣.موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدّسة، ترجمة: فوزي شعبان، المكتبة العلميّة، بدون تاريخ.

١٥٤.موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ترجمة: الشيخ حسن خالد، لبنان - بيروت، المكتب الإسلاميّ، الطبعة الخامسة، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

١٥٥.موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: علي السيّد علي المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.

١٥٦.الموسوعة العربيّة الميسّرة السعوديّة، مكتبة الملك فهد الوطنيّة، مؤسّسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، المجلّد الرابع والعشرين، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

١٥٧.موفق الجوجو، قوانين النبوة، دمشق، دار المكتبيّ، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

١٥٨.ميكيافلّلي، الأمير، القاهرة، مكتبة ابن سينا للطبع والنشر والتوزيع، ٢٠٠٤م.

١٥٩.نضال حسن فلاح المومني، سبق الحديث النبويّ بالإشارة للمكتشفات الطبّيّة الحديثة، مجّلة كلّيّة الشريعة والقانون بطنطا، ٢٠١٩م، الجزء الثالث، العدد الرابع والثلاثون.

١٦٠.نولدكه، تاريخ القرآن، نقله إلى العربيَّة جورج تامر، بيروت، مؤسّسة كونراد أدناور، ٢٠٠٤م، ج٣.

١٦١.هاينريش شباير، قصص أهل الكتاب في القرآن، ترجمة وتقديم وتعليق: نبيل فياض، بيروت، دار الرافدين، الطبعة الأولى، ٢٠١٨م.

١٦٢.هشام طالب، بناء الكون ومصير الإنسان، بيروت - لبنان، دار المعرفة، الأولى، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

١٦٣.هيثم طلعت، ٤٠ خطأ في نظريّة التطوّر.. أخطاء لا يريدونك أن تعرفها!! القاهرة، بدون تاريخ ورقم طبعة.

١٦٤.هيجل، العقل في التاريخ، المجلّد الأوّل من محاضرات في فلسفة التاريخ، ترجمة د. إمام عبد الفتاح، طبعة بيروت، دار التنوير، الثالثة، ٢٠٠٧م.

١٦٥.هيفاء محمّد عبد الزيدي، الاستمطار الصناعيّ للسحب وفق المنظور

الشرعيّ، مجلّة الأستاذ للعلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة، ٢٠١٠، العدد ١٢٥.

١٦٦.وثائق المجمع الفاتيكانيّ الثاني - الدستور الرعويّ رقم ٢٢.

١٦٧.وثائق المجمع الفاتيكانيّ الثاني - تصريح عن علاقات الكنيسة مع الديانات غير المسيحيّة.

١٦٨.وليان دمبسكي وجوناثان ويلز، تصميم الحياة، ترجمة مؤمن الحسن، بالاشتراك، القاهرة، دار الكاتب، بدون.

١٦٩.ياسين محمّد الغادي، الاستمطار في الإسلام، جامعة الكويت، مجلة الشريعة والدراسات الإسلاميّة، ١٤٢٣هـ.

١٧٠.يوسف الحاج أحمد، موسوعة الإعجاز العلميّ في القرآن الكريم والسنة المطهرة، دمشق، مكتبة ابن حجر، الثانية، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

ثانيًا: المراجع الأجنبيّة

1. A. H. Johns, Narrative, Intertext and Allusion in the Qur'anic Presentation of Job, journal of quranic studies, vol 1, 1999.
2. Bellamy, Some proposed emendations to the text of the Koran, Journal of American Oriental Society, Vol: 113, No: 4, Oct – Dec, 1993.
3. Moore K.L. and Personal T.V. The developing human: Cinically
4. oriented embryology by Keith L M ed 7 th. d Philadelphia, 2003, WB Saunders.

5. Nujoud Al-Yousef , Ameera Gaafar, Basem Al-Otaibi, Ibrahim Al-Jammaz, Khaled Al-Hussein, Abdelilah Aboussekhra, Camel urine components display anti-cancer properties in vitro, Journal of Ethnopharmacology, Volume 143, Issue 3, 11 October 2012.

6. Rubin, Between Bible and Qur'an: The Children of Israel and the Islamic Self-Image, The Darwin press. ING, PRINCETON, NEW GERSEY, 1999

7. Sadler T.W. Ovulation to Implanation the embryonic Period In

8. Langman's medical emproyology, by Betly S. Rebeca K eds, 9 th. ed. Williams and Wilkins, 2004.

الأبحاث والدراسات على الشبكة العنكبوتيّة

١. أحمد البهنسي، الاستشراق الإسرائيليّ... الإشكاليّة والسمات والأهداف، مقال منشور على الرابط التالي:

https://vb.tafsir.net/tafsir35662/#.Xj3GYtSF7wc

٢. أحمد شوقي إبراهيم، المنهج العلميّ في دراسة الإعجاز العلميّ في القرآن والسنة، على الموقع التالي:

https://islamonline.net/archive/

٣. أحمد عباس أحمد، وأوحى ربّك إلى النحل على الموقع التالي:

https://quran-m.com

٤. ب. ب غراسيه، الإنسان موضع اتهام، نقلًا عن محمّد الرمادي، نظرية داروين تتحطّم على صخرة العلم الحديث، على الرابط التالي:

https://www.turess.com/alhiwar/996

٥. زغلول النجار، أقطار السماوات والأرض، على الرابط التالي:

http://iswy.co/e4or3

٦. سليمان العسال، يسألونك عن الأهلّة، كيف تحدّد بداية الشهر الهجريّ؟ على الرابط التالي:

https://www.ida2at.com/how-to-know-the-beginning-of-the-hijri-month/

٧. عبد الجواد الصاوي، ضيق الصدر والتصعّد في السماء، الهيئة العامّة للإعجاز العلميّ في القرآن والسنة على الموقع التالي: www.nooran.org

٨. عبد الدايم الكحيل، الثقافة الجنسيّة بين العلم والقرآن، على الرابط التالي:

http://www.kaheel7.com/ar/index.php/2010-25-22-02-02-09-16-18-20-08-2016-1966/21

٩. عبد الدايم الكحيل، هل الشمس تدور أم تجري؟ على الرابط التالي:

http://www.kaheel7.com/ar/index.php

عبد الدائم الكحيل، كأنّما يصعّد في السماء، على الموقع التالي:

www.kaheelV.com.

١٠. عبد الرحيم خير الله الشريف، شبهات حول مراحل تكون الجنين، على الموقع التالي: https://quran-m.com

١١. عبد المجيد الزنداني، آية اللبن من بين فرث ودم، على الموقع التالي:

www.allsc.info

١٢. علي عفيفي علي غازي، موقف الغرب من القرآن الكريم، مجلّة فكر الثقافيّة، مقال منشور بتاريخ ١٥/ ٢/ ٢٠١٦م على الرابط التالي:

https://www.fikrmag.com/article_details.php?article_id=282

١٣. فيصل الكاملي، خروج بني إسرائيل من مصر بين تحريف التوراة وعصمة القرآن، على الرابط التالي: https://ar.islamway.net/article/82967/

١٤. محمّد إبراهيم دودح، نشأة الذرية معجزة علميّة، على الموقع التالي:

https://quran-m.com

١٥. محمّد عبد الله إبراهيم نجا، حديث القرآن والسنة عن الحامض النووي في الأمشاج، على الرابط التالي: https://quran-m.com

١٦. مصطفى أنشاصي، العبيرو ليسوا العبرانيّين، على الرابط التالي:

https://www.amad.ps/ar/post/324708

١٧. منصور العباديّ، ثمّ جعل نسله سلالة من ماء مهين، على الموقع التالي:

https://quran-m.com

١٨. منصور العبادي، قصّة موسى عليه السلام بين التوراة والقرآن، على الموقع التالي: https://quran-m.com

١٩. نظمي خليل أبو العطا، آيات الله في العنكبوت.. سبحان الله، على الموقع التالي: https://quran-m.com

٢٠. نظمي خليل أبو العطا، تسعة معانٍ للزوجيّة في القرآن الكريم وعالم النبات، بحث منشور بموقع موسوعة الإعجاز العلميّ في القرآن والسنّة على الموقع التالي: www.quran-m.com

٢١. ليث عبد الله ونشوان حازم، تكاثر النبات، العراق، جامعة الموصل، قسم التربية الأساسيّة. وأنظر الرابط التالي:

https://www.researchgate.net/publication/349105279_tkathr_alnbatat

٢٢. يحيى وزيري، إعجاز وصف الظل والظلال في القرآن الكريم، على الموقع التالي: https://quran-m.com

الروابط والمواقع الإلكترونيّة

1. https://www.youtube.com/watch?v=xQlqj3bt2Vc
2. https://www.alno5ba.com/blog.php?id=187&title
3. https://www.islamweb.net/ar/fatwa/188929/
4. https://www.addustour.com/articles/876744
5. http://kaheel7.com/pdetails.php?id=852&ft=39
6. https://www.islamweb.net/ar/fatwa/226582/
7. http://www.bayanelislam.net/Suspicion.aspx?id=01-010087-&value=&type=
8. www.nasainarabic.net
9. https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B8%D984%
10. https://sciencing.com/five-types-asexual-reproduction-8204895.html
11. https://www.wikiwand.com/en/Asexual_reproduction
12. http://www.bayanelislam.net/Suspicion.aspx?id=03 -03 -0090

هذا الكتاب

تكمن أهمّيّة هذا الكتاب الذي يُعالج جانبًا من أطروحة موريس بوكاي حول العديد من القضايا الخاصّة بالقرآن الكريم، في كونه يُعالج إحدى القراءات الاستشراقيّة الجادّة، التي تتعامل مع القرآن الكريم بمنهجيّة مغايرة لعدد كبير من المستشرقين في موقفهم من القرآن، تلك المنهجيّة التي انبنت على موضوع القرآن ومدى توافقه مع العلم الحديث، وقد قدّم بوكاي العديد من الشواهد حول هذا الموضوع.

المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجيّة

المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية
http://www.iicss.iq
islamic.css@gmail.com